



كتاب التحرير

رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن بطوطة

رحالة مشهور اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي . ولد في مدينة طنجة ببلاد مراكش في السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) .

وقد نشأ في بسطة من العيش ، وسعة من الرزق ، ثم خرج من مدينة طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر ، ثم قصد الى عيذاب على ساحل البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد ليعبر البحر الأحمر ، فلما لم يتهيأ له العبور عاد الى الفسطاط ، ثم رحل عنها الى فلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الأولى .

ومن مكة سافر الى بلاد العراق والعجم والأناضول ، ثم عاد الى مكة حيث حج الى بيت الله الحرام للمرة الثانية .

وظل بمكة سنتين ثم غادر البلاد الى اليمن ، وعبر البحر الى افريقية الشرقية ، ثم رجع منها مارا بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربي ، فزار عمان والبحرين والاحساء ، ثم عاد الى مكة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة .

ثم خرج من مكة الى بلاد الهند مارا بخوارزم، وخراسان ، وتركستان ، وأفغانستان وكابول ثم السند . وتولى هنالك القضاء في دهلي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه .

ولما أراد السلطان محمد ان يرسل وفدا الى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه . وفي طريق عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين ، ومن هناك عاد الى بلاد العرب من طريق سومطرة عام ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم والعراق وسورية وفلسطين ، ومنها عاد الى مكة للمرة الرابعة ، وادى فريضة الحج . وعندئذ تاق الى العودة الى مسقط رأسه ، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ، ووصل فاس عام ١٣٤٩ م .

ولم يمكث ابن بطوطة في وطنه طويلا ، بل استأنف رحلته الى بلاد الأندلس عابرا مضيق جبل طارق الى غرناطة ، ثم عاد مرة ثانية الى مدينة فاس ، والقى فيها عصا التسيار .

وعاوده الحنين مرة اخرى الى السفر ، فغادر وطنه الى السودان ، حتى اذا ما روى غليله من التنقل والسفر عاد الى فاس .

وقد قاسى ابن بطوطة في رحلاته كثيرا من الصعاب والمشقات ، وأصيب ببعض الأمراض ، وفي ذلك يقول في الصفحات الأولى من كتابه : « وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتني الحمى ، فكنت اشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف » .

وكان ابن بطوطة شديد الحساسية ، وكان شعوره بالوحدة يدعوه الى الانقباض والحزن ، اذ ترك أهله وعشيرته وهو في شرخ الشباب .

وأملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد ابن جزي الكلبي ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦ م ، واطلق عليها « تحفة النظار » في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . فأملى

ما شاهده في رحلته من الامصار ، وما علق بحافظته من نوادر الاخبار ، وما لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار ، واوليائها الأبرار . واملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة اطرف بانتحائها .

ويقول الاديب محمد بن جزى الكلبى فى معرض تسجيله لما أملاه ابن بطوطة : « ونقلت معانى كلام الشيخ ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها . وربما اوردت لفظه على وضعه ولم اخل باصله ولا فرعه . وأوردت جميع ما اورده من الحكايات والأخبار ، ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار . على انه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون انفع فى التصحيح والضبط . وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء الأعجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء فى فك معماها معهود القياس » .

وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثير من البلاد التى زارها ابن بطوطة ، اذ يعد أول من ذكر شيئا عن استعمال ورق النقد فى الصين ، وعن استخدام الفحم الحجرى . وكان صادقا فى أغلب أوصافه حتى ان المستشرق الكبير « دوزى » أطلق عليه « الرحالة الأمين » .

وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس ، والجغرافية البشرية ، والسكان ، والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك من أمور تهم الجغرافيين كما تهم علماء الاجتماع ، وغيرهم من الدارسين لأحوال الشعوب .

وقد وصف ابن بطوطة مصر فى رحلته وصفا جميلا . وكان مما قال فيها : « هى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم ... » .

وقال فى وصف طبائع المصريين : « واهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو . شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى ، وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما »

ومن اطرف ما وصف به الاسكندرية قوله : « وصلنا الى مدينة الاسكندرية — حرسها الله — وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشان ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين . كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا ... » .

وقال فى وصفه لنيل مصر : « ونيل مصر يفضل انهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره . قال الله تعالى : « فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم » ، فسماه يما وهو البحر ... » .

وتنقل ابن بطوطة بين مدن الصعيد ، ووصف الحياة فيها . وكان مما وصف به مدينة « منلوى » قوله : « وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عاداتهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها . فيأتى الفقير بالخبزة

الحلوة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها » .

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك مدينة اسيوط ، ومنها سافر الى مدينة اخميم ، فمدينة « هو » بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) ، فمدينة قنا ، فمدينة قوص ، فمدينة الاقصر ، فمدينة ارمنت ، فمدينة اسنا . وسافر من اسنا الى ادفو ، وبينها وبين اسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء . ثم وصل بعد ذلك الى عيذاب ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، واهلها البجاة ، وهم سود الألوان وكانوا يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا ، وكانوا لا يورثون البنات ، وطعامهم ألبان الابل ... » .

ثم دخل الشام فوصف مدنه والمسجد المقدس ، وقبة الصخرة ، وبعض ما شاهده بالقدس الشريف ، وفضلاء القدس ، ومدينة صور وطرابلس الشام ، وحلب .

ومما جاء ذكره في وصف حلب قوله : « وقلعة حلب تسمى الشهباء ، وبداخلها جبان ، ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء ، وسورها متداني الأبراج . وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد ، وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال أن الخليل عليه السلام كان يتعبد به » .

وزار ابن بطوطة مدينة بعلبك . وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام ، « تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق ارضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب اليها ، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب . ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد ، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منها الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء الملبن ، ويسمونها ايضا بجلد الفرس .

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد . وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها أخرى الى ان يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون فيهما عشرا واحدة في جوف واحدة .

وهكذا قدم لنا ابن بطوطة صورة واضحة عن نهضة الصناعة في مدن الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

ووصل ابن بطوطة دمشق في يوم الخميس السابع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين وسبعمائة (٧ أغسطس ١٣٢٦ م) ، ونزل منها بمدرسة المالكية المعروفة « بالشرابشية » .

ودمشق عنده تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وقد أورد في ذلك قول ابن جبير في رحلته : « أما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح (عليه السلام) وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين ... ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم : هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء » .

وانتقل ركب ابن بطوطة بعد ذلك الى الحجاز ، فعرج على المدينة ، ووصف مسجد رسول الله وروضته الشريفة ، ووصف المنبر الكريم ، والخطيب والامام بمسجد رسول الله ، وخدامه ومؤذنيه ، وبعض المشاهد بخارج المدينة الشريفة ، ووصف الطريق الى مكة ، فمكة نفسها ، والمسجد الحرام ، والحجر الأسود ، والحجر والمطاف وزمزم ، والصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، والجبال المحيطة بمكة ،

واهل مكة وفضائلهم ، ثم وصف العراق وايران ، فتركيا والقسطنطينية وغيرها من البلاد .

وله فى الهند وجزرها ، وجاوة وسومطرة وغيرها ، أوصاف شتى . ومن طريف ماذكره فى الهند قوله : « ولما عبرنا نهر السند المعروف « ببنج آب » ، دخلنا مزرعة قصب ، لأن الطريق يسير فى وسطها ، فخرج الكركدن — وهو حيوان أسود اللون ، ضخم ، ورأسه كبير متفاوت الضخامة ، فلذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن راس بلا بدن . وهو اصغر من الفيل ، وراسه اكبر من راس الفيل بأضعاف ، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ذراعين . ولما خرج علينا ، اعترضه بعض الفرسان فى طريقه ، فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه ، فنفذ فى فخذه وقتله » .

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند ، مثل احراق النساء ، فقال : « ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟.. فأخبرونى بأن احد الهنود مات ، واشعلت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء صحابى واخبرونى انها عانقت الميت حتى احترقت معه . ثم اتفق بعد ذلك أن كنت فى مدينة قتل منها سبعة من الهنود وكان لثلاثة منهم زوجات ، فاتفقن على احراق أنفسهن . واحراق المرأة بعد زوجها عندهم امر مرغوب فيه ولكنه غير واجب . ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا لذلك ، ونسبوا الى الوفاء . ومن لم تحرق نفسها لبست الثياب الخشنة ، وأقامت عند أهلها بائسة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على احراق نفسها » .

ووصف الأعراس بالهند وصفا جميلا رائعا فقال : « لما أمر السلطان بتزويج أخته بالأمير غدا ، عين بشأن الوليمة وتفنانها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعيننى لملازمة الأمير ، فأتى الملك فتح الله بالصيوانات تظلل بها أفنية القصر ، وضرب فى كل واحد منها قبة ضخمة جدا ، واتى بأمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات ، والراقصات ، وكلهن مماليك السلطان ، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين وصانعى الحلوى والشراب والأفاويه. وذبحت الأنعام والطيور ، واقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ، ويحضر الأمراء والكبار والأعزة ليلا ونهارا . فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى القصر فزينه بأحسن الفرش ، وجاء الأمير ، وأجلسه على المرتبة ، وجعل له الحناء فى يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على راسه ، يغنين ويرقصن ، وانصرفن الى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه ... » .

ووصف سطوة السباع فى الهند فقال : « ان بمدينة برون سباعا كثيرة . وذكر له بعض أهلها أن السبع كان يدخل اليها ليلا وابوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من اهلها كثيرا ، وكانوا يعجبون من شأن دخوله . كما أخبره جار له أن السبع دخل داره ليلا ، وافترس صبيا من فوق السرير . وأخبره غيره أنه كان مع جماعة فى دار عرس فخرج أحدهم لحاجة ، فافترسه أسد ، فخرج أصحابه فى طلبه فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه . ومن العجب أن بعض الناس اخبره ان الذى يفعل ذلك ليس بسبع انما هو آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور فى صورة سبع » .

ووصف ابن بطوطة جزر « المليبار » ، وغيرها من جزر المحيط الهندى ، وتنقل بين أنحاء سيلان ، وذكر أن جميع النساء بالجزيرة لهن قلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه فى أيديهن وارجلهن عوضا عن الأسورة والخلاخيل ، وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رءوسهن . ورأى ابن بطوطة على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر اعظم من بيضة الدجاجة .

وله فى جاوة والصين أوصاف شائقة ، منها ان دجاج الصين وديوكها ضخمة جدا ... أضخم من الاوز ، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا . أما الاوز عندهم فلا ضخامة له . وأراد ابن بطوطة أن يأكل دجاجا ، فاشترى واحدة وأراد طبخها فى اناء واحد ، فلم يسع

لحمها ، فجعلها في اناءين . والديك هناك على قدر النعامة ، وربما انتف ريشه فيبقى كتلة من اللحم حمراء .

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم ، وهم أهل رفاهية ، وسعة عيش . وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين يحتفلون فى أواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ، ويقولون : هو الرجل الثالثة . والحرير عندهم كثير جدا لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من المؤنة ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب من الحرير .

كما ذكر ابن بطوطة حقيقة تاريخية هامة فى رحلته ، وهى استخدام أهل الصين لورق النقد فقال : « وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه ، وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان » . وجميع أهل الصين انما « فحمهم تراب عندهم معقد كالطفل عندنا » ، ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . واذا صار رمادا عجنوه بالماء وجففوه ، وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك الى ان يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ، ويضيفون اليه حجارة سوداء .

وذكر ابن بطوطة أن أهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات ، واشدهم اتقانا فيها . أما التصوير فلا يجاريهم احد فى أحكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم . ومن عجيب ما شاهد انه ما دخل قط مدينة من مدنهم ، ثم عاد اليها ، الا ورأى صورته وصور أصحابه منقوشة على الحيطان والورق ، موضوعة فى الأسواق .

ووصف ابن بطوطة رحلته الى الأندلس بعد ذلك فقال عن خيراتها : « رايت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المارسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . واما التين واللوز فيجلبان منها الى المشرق والمغرب » .

وتنقل بين مالقة ، احدى قواعد الأندلس ، وغرناطة ، وغيرها ، وجاس فى أرض مراكش وتونس ، ثم عاد الى مدينة فاس .

وازمع السفر فى الرحلة الثالثة الى السودان ، وقال : « ان الملح كثير هناك ، وبالملح يتصارف السودان كما نتصارف بالذهب والفضة ، ويقطعونه قطعا ويتبايعون به . وقرية تغازى — على حقارتها — يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر » .

وضايقت ابن بطوطة فى رحلته كثرة الذباب ، والماء الزعاق ، وقال ان القمل يكثر فى بعض المدن حتى يجعل الناس فى اعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتله . الا أنه أشاد بغلات السودان من القمح واللوبياء والأرز والسلع العطرية والبخور وما الى ذلك . ومن العادات الحسنة التى ذكرها ابن بطوطة عن أهل السودان انهم من حفظة القرآن ، ويدفع الآباء ابناءهم الى حفظه دفعا . ومر ابن بطوطة مرة بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل ، فقال لمن كان معه : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنه الشاب وضحك وقيل له : انما قيد حتى يحفظ القرآن .

وهكذا اخذ ابن بطوطة يقص علينا رحلته ، وعلى هذه الوتيرة مضى يملى مشاهداته ، فى كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وقد وجه الأنظار الى رحلته فمضى الناس بين مصدق ومكذب ، وشك ابن خلدون فى مقدمته فى بعض ما ورد ذكره فى هذه الرحلات .

على ان رحلة ابن بطوطة ظلت موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين فترة طويلة ، وانتقدها الفرنجة وعلقوا عليها ونقلوا بعضها الى اللغة اللاتينية ونشروه ، ونقلها « لى » الى اللغة الانجليزية ، وطبعت فى لندن عام ١٨٢٩ ، ونقلها

« ويفريمرى » و « سنكونيتى » الى الفرنسية ». وطبعت فى باريس فى عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٩ فى لخمسة مجلدات فيها فهرس ابجدى ، وترجم « دى سلان » بعضـــها الى الفرنســـية عن السـودان ، وترجم آخر ما يختص بأواسـط آسيا ، وترجم ثالث ما يختص بآسيا الصغرى ».

وترجمها « مزيك » الى الألمانية وطبعت عام ١٩١١ ، ولها ترجمة تركية اسمها « تقـــديم وقائع » ، ولها مختصر ، كتبه محمد فتح الله ابن محمـــود البيلونى ، موجود فى جامعـــة كامبردج . وهناك مختصر لكاتب مجهول طبع على الحجر عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) . وطبعت فى مصر فى مطبعـــة وادى النيل عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) ، وفى المطبعـة الخيرية عام ١٣٢٢ (١٩٠٤ م) ».

وتوفى ابن بطوطة بمراكش عام ١٣٧٧ للميلاد فى نحو الرابعة والسبعين ».

عن دائرة معارف الشعب
بقلم
دكتور جمال الدين الرمادى

الجوابون من العرب

أسباب الرحلات

اقتضت أحوال البلاد الاسلامية أن تكثر الرحلات حين اتسعت رقعة الإسلام ، وانشعبت سلطة الخلافة بين الملوك والأمراء ، حتى استقل بعضهم بحكم ما ولى من البلاد ، اذ كانت عناية الخلفاء حينئذ منصرفة الى توثيق عرى المودة بين أولئك الأمراء ، ليقووا على صد غارات من يناوئهم من الأعداء ، وقمع ما يحدث من الفتن فى داخل البلاد .

فجابوا البلاد لدراسة أحوالها ، ومعرفة سهلها ووعرها ، وجبالها وأوديتها ، وطرقها البرية والبحرية ، وما تنتجه أرضها من أنواع الغلات ، حتى يجبى الخراج بنسبة ذلك . ونظموا البريد وقاسوا الأبعاد بين البلاد .

من الجوابين العرب

ومن أولئك الجوابين الذين ساحوا فى القرن العاشر الميلادى ابن خرداذبة سنة ٩١٢ ، واليعقوبى وقدامة سنة ٩٢٢ ، والبلخى سنة ٩٣٤ ، وابن حوقل سنة ٩٨١ . وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التى زاروها كتبا قيمة .

وقد كانت الرحلات فى أول أمرها رسمية لايجاد الصلة والتعاون بين أمراء البلاد وحكامها . لهذا لم يتجاوز الجوابون حدود البلاد الاسلامية الى غيرها ، فكانوا فى كل ما كتبوه لا يعدون وصف ما شاهدوه فى بلاد المسلمين ، وهذا ما جعل رحلاتهم ضيقة النطاق ، ذات فائدة محدودة .

ولكن التجار من المسلمين وغير المسلمين اجتازوا حدود البلاد الإسلامية الى ما تاخمها من الممالك الأجنبية ، يطلبون مافيها من عروض التجارة ، وابتغاء للرزق بالضرب فى الأرض ، فجابوا أقطار الأرض شمالا الى بلاد الفراء ، وطلبوا المعادن فى الجنوب حتى مقاطعات النوبة ، وفى الغرب وصلوا الى جبل طارق ، وفى الشرق الى بلاد الحرير والعاج والأفاويه المختلفة .

وبالرحلات الرسمية والتجارية درست أحوال البلاد الاسلامية وما يجاورها من الممالك . ولكن التجار لم يكونوا ليتحروا الصدق فيما ينقلون من الأخبار ، وما يشاهدون من احوال الأمم التى خالطوها ، فألبسوا جل حكاياتهم واخبارهم ثوبا من الخيال ، جعلها سائغة مقبولة ، وان بعدت من الحقيقة . وفيما ذكر فى سفرات السندباد البحرى ، على ما فيها من الخيال ، ما يدلنا على ما كان يقاسيه تجار ذلك العهد من مشاق السفر وويلاته .

وهناك عدا ما تقدم من الأسباب السياسية والتجارية سبب مهم يدعو الى الرحلة وهو اداء فريضة الحج ، فقد اتاحت هذه الأسفار لكثير من قصاد بيت الله الحرام أن يصفوا مايشاهدون فى طريقهم للحج . ومن هؤلاء ابن جبير الأندلسى ، وابن سعيد المغربى .

من آثارهم

معجم البلدان : وهو لياقوت الرومى ، كتبه بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات ، وطوف ما طوف . ثم اتبعها سفرات أخرى لم تنقطع الا قبيل وفاته بسنتين فقط ، من ١١٧٩ الى ١٢٢٩

من الميلاد . وقد كان لكتابه هذا أثر عظيم في علم الجغرافية . ويعد « معجم البلدان » من الكتب النادرة التى لا يستغنى عنها عالم أو متعلم .

عجائب البلدان : وهو لأبى دلف بن مهلهل الشاعر ، وهو من أقدم جوابى العرب وسياحهم . خرج من بلاده سائحا ، تشوقه غرائب الشعوب ، وتدفع به عجائب المخلوقات ، فسافر الى بلاد الهند مع احد امرائها ، فزار بلاد الهند وكشمير وافغانستان . ثم كتب كتابه هذا . وقد استعان به كثيرا ياقوت والقزوينى .

مروج الذهب : للمسعودى ، كتبه بعد أن سافر الى بلاد الفرس سنة ٩١٥ م والهند والخزر والتبت وجزيرة سرنديب ، ومنها عاد عن طريق عمان ، وقصد شاطىء بحر الخزر ، فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ولشدة ولوعه بجوب الآفاق ورغبته فى الوقوف على أحوال العالم ، خرج للسياحة ولم يسلخ العشرين من سنى حياته .

تاريخ الهند : لأبى الريحان محمد البيرونى ، الفيلسوف الرياضى الفلكى الجواب ، وقد كان مولعا بالأسفار ، محبا للانتجاع والغربة ، فسافر الى بلاد الهند وجاب آفاقها ودرس أخلاق أهلها دراسة علمية صحيحة ، اساسها النظر والاعتبار . فجاء كتابه من أوفى الكتب تعريفا بأحوال الهند .

المسالك والممالك : لأبى عبيد البكرى الأندلسى ، الفه بعد سياحة طويلة المدى فى بلاد الشرق والغرب .

رحلة ابن جبير : الفها بعد أن جاب بلاد الشرق مرتين ، وقد كتبها بعبارة مونقة ، الا انه يغلب فيها السجع المتكلف . وهى كتاب جزيل الفائدة جليل النفع . وتمتاز هذه الرحلة عن رحلة ابن بطوطة بصدق الوصف ودقة الرواية وحسن العبارة .

المغرب : وهو للكاتب الأديب ابن سعيد المغربى ، وقد أودعه كثيرا من اخبار اسفاره الى بلاد المشرق ، بعد ان رحل الى بغداد وحلب وبلاد الشام وبلاد ارمينية ، وما زال كلفا بالأسفار والتنقل بين الأقطار حتى مات فى دمشق وهو راجع الى بلاد المغرب سنة ١٢٧٤ م .

ابن بطوطة ورحلته

(١٣٠٤ – ١٣٧٧ م)

نشأته : نشأ ابن بطوطة فى طنجة وأقام بها حتى ١٣٢٥ م . واسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ، ويعرف بابن بطوطة . وكان مولده فى طنجة فى ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ . وقد أقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد نشأ بين أهله وذويه فى بسطة من العيش وطمأنينة بال ، فلم يكن يخطر له أن يزايل أهله ، ويهجر وطنه ويسافر الى غير بلاده ، حتى دعاه داعى الحج ، فخرج ملبيا داعى الله .

أخلاقه وصفاته : ان المطلع على رحلة ابن بطوطة يستشف من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، تقيا محبا لوالديه ، معظما للأتقياء والصالحين ، يزور قبورهم للتبرك بهم ، ويروى كثيرا من كراماتهم وما ينسب اليهم من أعمال البر ، كاقامة الزوايا والتكايا ، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها . ومما يدل على شدة ورعه وتقواه أنه كان لا يفتأ يذكر أن ما متع به فى حياته من نعمة وجاه انما كان لأنه حج أربع حجات .

أما حبه لوالديه فقد أفصح عنه ايما افصاح ، حيث يقول فى مقدمة رحلته : انه تركهما « فتحمل لبعدهما وصبا ، كما لقى من الفراق نصبا » . وانه لما عاد من رحلته الأولى وبلغه موت أمه حزن حزنا شديدا قطعه عن كل شىء ، حتى صلته بحاشية الملك أبى عنان فى فاس — وهى مصدر ما لقيه من تكريم ونعمة — وسافر لزيارة قبر والدته .

واما سرعة تأثره فانا نسوق اليك قوله وقد وصل الى تونس : « فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفراوى . فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم

معرفتي بهم . فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة . واشتد بكائي ، فشعر بحالي بعض الحجاج ، فاقبل على بالسلام والايناس . وما زال يؤانسني بحديثه ، حتى دخلت المدينة ونزلت فيها بمدرسة الكتبيين » .

وما ظنك برجل يعد من أفضل أصدقائه واوفاهم له من يقدم عليه فيلقاه بالبشر والايناس ، ويكرمه ولو مرة واحدة . ولعمري تلك سجية ان دلت على شيء فانما تدل على ما في الرجل من صفاء النفس وطهارة القلب ونقاء السريرة ، وان لم يكن فيها الاعتداد بالأخذ بالحذر والحيطة في اصطفاء الاخوان والأصدقاء ولا سيما من كان مثله غريبا نائيا عن أهله وبلاده .

رحلاته (١٣٢٥ ــ ١٣٥٤م) : قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق ، جاب فيها أكثر ما عرف في زمانه من البلاد .

الرحلة الأولى (١٣٢٥ ــ ١٣٤٩م) : قضى ابن بطوطة في رحلته الأولى ٢٤ سنة : فخرج من طنجة في سنة ١٣٢٥ م للحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر . ثم قصد الى عيذاب على البحر مارا ببلاد الصعيد ليجتاز البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له ذلك، للحرب التي كانت قائمة بين المماليك والبجاة ، فعاد الى الفسطاط . ثم رحل عنها الى فلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الأولى . ومن مكة سافر الى بلاد العراق والعجم وبلاد الاناضول . ثم عاد الى مكة ، فحج حجته الثانية ، واقام بها سنتين ، ثم غادرها الى اليمن واجتاز البحر الى افريقية الشرقية . ثم عاد منها مارا بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج الفارسي ، فزار عمان والبحرين والأحساء . ثم رجع الى مكة ، فحج حجته الثالثة .

ثم خرج من مكة الى بلاد الهند ، فمر بخوارزم وخراسان وتركستان وافغانستان وكابول والسند . وتولى القضاء في دهلي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه . ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا الى ملك الصين ، خرج ابن بطوطة فيه . وفي عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين . ومن ثم عاد الى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم والعراق وسورية وفلسطين . ومنها الى مكة ، فحج حجته الرابعة .

وبعد هذا راى أن يعود الى وطنه ، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ، فوصل فاس سنة ١٣٤٩ م .

الرحلة الثانية : لم يقم ابن بطوطة في فاس طويلا ، حتى وجد في نفسه نزوعا الى السفر الى بلاد الأندلس ، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغرناطة . ثم عاد الى فاس .

الرحلة الثالثة (١٣٥٢ ــ ١٣٥٤ م) : كانت رحلته الثالثة الى بلاد السودان مبتدئة بسجلماسة ، ثم تفازا ومالي وزاغري وكارسخو وتمبكتو وتكدا وهكار ، ومن هناك رجع الى فاس . ويعد ابن بطوطة اول سائح كتب عن مجاهل افريقية المتوسطة .

املاؤه الرحلة : اتصل ابن بطوطة بالسلطان ابي عنان من بني مرين ، واقام في حاشيته يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار ، وهم يعجبون من ذلك ، فلقي من لدن السلطان من جميل الرعاية ما حبب اليه البقاء في حاشيته ، حتى مات في بلاد فاس سنة ١٣٧٧ م . ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التي زارها أمر كاتبه الأديب محمد بن جزي الكلبي أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة ، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦ م ، وسماها « تحفة النظار ، في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

صدقه وأمانته في النقل : قد كان ابن بطوطة يحدث الناس بما رأى من عجيب صنع الله في خلق الحيوان والنبات ، وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم واحوالهم ، مما يعد غريبا عند من لم يره أو يقع مثله له . فانبرى له جماعة من معانديه وحساده ممن نفسوا عليه منزلته لدى السلطان ، يكذبونه ويسفهون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء . ولكنه كان يلقى من بعض المصنفين تأييدا وانصاتا لما يرويه ،

ما دام في حيز الممكن المعقول ، وما دام لم يقم على نفيه دليل من السماع أو الرؤية .

وقد نبه ابن بطوطة برحلته الأفكار ، وايقظها بعد طول سباتها ، ووجه الأنظار اليه ، فكان الناس فيما قال بين مصدق ومكذب . وقد اتى ابن خلدون فى مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة فى اهل زمانه حيث يقول :

« ورد بالمغرب لعهد السلطان ابى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه . وكان له منه مكان . واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله . ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان . وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتى من أحواله بما يتعجب منه السامعون : مثل أن ملك الهند اذا خرج الى السفر احصى اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يعطونه من عطائه ، وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ، ويطوفون به ، وينصب امامه فى ذلك الحفل منجنيقات ، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى أن يدخل ايوانه ، وأمثال هذه الحكايات ، فتناجى الناس بتكذيبه » .

وليس ابن خلدون أول من شك فيما قاله ابن بطوطة ، فقد أبدى كاتب الرحلة ابن جزى الشك فى بعض ما نقله الرحالة فقال :

« وأوردت جميع ما اورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » .

وقد عنى كثير من علماء المستشرقين بمقابلة اقوال ابن بطوطة بأقوال غيره من جوابيهم فى عصره ، أو فى عصر يقرب من عصره ، فبدا لهم صدق قوله ، وخلوه من الغلو . ولو ظهر لهم كذب روايته أو غلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وحرصوا على اذاعته ، وهم على ما نعلم من وفور العلم وصدق البحث وقوة الاستنباط ، والقدرة على تمحيص الحقائق ، والتمييز بين غث لقول وسمينه .

وانه لمن الصعب على الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة انه كذب متعمدا فيما رواه ، فان أقواله تنم على سذاجة فى الطبع . والمتصف بهذا يبعد عليه أن يتعمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول . فقد كان يسوق الحكاية ، فاذا نسى اسم صاحبها قال : قد انسيته . وقد كانت له مندوحة عن أن يصف نفسه بالنسيان باختراع اسم لصاحب الحكاية ، كما يفعل بعض الذين يسوقون الحكايات تسلية للسامعين . وكثيرا ما كان يصنع مثل هذا فى اسماء الأماكن والبلاد .

ومن هذا نعلم أن رحالتنا كان يجتهد فى تحرى الحقيقة ، ويشعر بأنه مأخوذ بما يقول . وحسبه أن العلامة دوزى سماه « الرحالة الأمين » .

ابن بطوطة بين الجوابين : ونحن اذ ننصف الرجل ونقول فيه ما قلنا ، لا نقصد بهذا أن ننزله منزلة الجوابين فى العصر الحاضر من العلماء والمفكرين ، الذين يخرجون زرافات ووحدانا ، لجوب البلاد ودراسة أحوالها دراسة علمية صحيحة ، قائمة على العلم وصدق الاستنباط ، ويتعرفون أخلاق الأمم وأحوالهم ، فى معاشهم وطرق كسب العيش عندهم ، ومبلغ رقيهم وتقدمهم فى الحضارة والعلم ، وحالتهم السياسية والاجتماعية . فان ابن بطوطة فى رحلته لم يكن الا وصافا لمشاهد رآها ، سره بعضها وأحزنه بعضها ، فذكرها على حالها بعبارة مقبولة ساذجة . وقد يعقب ذلك بملاحظة لا تخلو من دقة نظر . وهو بهذا قد أفاد علم الجغرافية ، وصرفه الى ما يتعلق بالحياة العملية ، فصار سهلا مقبولا ، بعد أن كان صعبا مرذولا .

أسلوب الرحلة : ان الذى يقرأ الكتاب من أوله الى آخره ، يرى أن مقدمته وخاتمته كتبتا بعبارة فيها شىء من التنميق والسجع المتكلف ،

وكذلك كل مقدمة لوصف مدينة عظيمة . ويغلب على الظن أن هذا كتب بقلم ابن جزى ، لأنه هو الذى تولى تلخيص الرحلة والنظر فى أبوابها وأقسامها . وفيما له من سعة الوقت وانفساح المجال ، للظهور بمظهر الكاتب الأديب فى حاشية السلطان ، ما يحمله على التأنق فى عبارة الكتاب وتحسينها جهد المستطاع . ولا سيما اذا أضفنا الى هذا أن ابن جزى كان يستعين فى كتابة بعض الموضوعات برحلة ابن جبير ، وهى كثيرة التنميق والسجع .

وفى غير ما تقدم نجد عبارة الكتاب سهلة لا تأنق فيها ولا تكلف ، حتى انها لتبدو فى بعض الموضوعات خالية من الترتيب والتأليف ، على نسق يقرب من انشاء العامة .

عناية الافرنج بالرحلة : جد كثير من المستشرقين فى البحث عن نسخ الرحلة الأصلية زمنا طويلا ، فعثر السائح « بوركهاردت » على مختصر لها ، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم .

ثم جاء بعده « كوسغارتن » فبحث حتى عثر على نسخة اخرى ، فترجم عنها الى اللاتينية أسفار ابن بطوطة الى بلاد افريقية وفارس وبلاد التتر والجزائر ونشرها سنة ١٨٨١ م .

وفى سنة ١٨٢٩ م ترجم القس « صموئيل لى » قسما كبيرا منها الى اللغة الانجليزية وطبعه فى لندن .

وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان « دى سلان » و « ادوارد ديلوريه » فترجم كل منهما قسما من الرحلة نشر فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٧ م .

وما زال أولئك العلماء ينقبون ويبحثون ، حتى عثروا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقوبل بعضها ببعض ، وطبعت مع ترجمتها الى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٥٣ ــ ١٨٥٩ م فى مجلدات أربعة ، بتحقيق العالمين المستشرقين « دفريمرى » و « سانجونتى » .

وبعد هذا طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبعة الباريسية فى مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ ــ ١٨٧٥ م والثانية سنة ١٩٠٤ م .

ثم طبعت فى هامبورج مترجمة الى اللغة الألمانية سنة ١٩١١ ــ ١٩١٢ م طبعها المستشرق « مزيك » .

وللرحلة ترجمة تركية اسمها « تقويم وقائع » .

قيمة الرحلة : تحوى الرحلة كثيرا من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات ، فى الحيوان والنبات ، فكان لذلك أثر ظاهر فى تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين .

وحسب الكتاب أن يشهد بفضله على العلم والأدب الرحالة الشهير والعالم الكبير « سيتزن » فيقول ما معناه :

« اى سائح أوربى يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة فى البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟

« بل أى أمة أوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية ، وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة ، والدقة فى الكتابة ، ما لهذا الرحالة العظيم ؟

« ان ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات افريقية المجهولة لا يقل فى فائدته عن معلومات « لاون » الافريقى .

« أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار ، فقد استفادت من الرحلة كثيرا . وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو انجليز الهند الى قراءته ، فان فيه ما يفيدهم فى سياستهم » .

من مقدمة
« مهذب رحلة ابن بطوطة »
للمرحومين الاستاذين
احمد العوامرى
ومحمد احمد جاد المولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ ابْنِ جُزَيّ كاتبِ السلطان

قال الشيخ الفقيه ، العالم الثقة النبيه ، الناسك الأبر ، وفد الله المعتمر ، شرف الدين ، المعتمد فى سياحته على رب العالمين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللَّواتى ثم الطنجى [1] ، المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا ، وجعل منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا .

دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد ، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد ، وأطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر ، وجعل القمر نورا والشمس سراجا .

ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات ، وأنبت فيها من كل الثمرات ، وفطر أقطارها بصنوف النبات ، وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا .

وأكملَ على خلقه الانعام ، بتذليلِ مطاياه الأنعام ، وتسخير المنشآت كالأعلام ، ليمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجا [2] .

(١) اللواتى : نسبة الى « لواتة » (على وزن سحابة) ، وهى قبيلة من قبائل البربر . والطنجى : نسبة الى «طنجة» بلاد المغرب .

(٢) الأثباج : جمع ثبج (بفتح الثاء والباء) ، وهو ما بين الكاهل والظهر . ومن المجاز قولهم : وركبوا ثبج البحر .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا ، وطلع نور هدايته وهاجا .

بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، واختاره خاتما للنبيين ، وأمكن صوارمه من رقاب المشركين ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا .

وأيده بالمعجزات الباهرات ، وأنطق بتصديقه الجمادات ، وأحيا بدعوته الرمم الباليات ، وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا .

ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء ، وظاهروه على اظهار الملة البيضاء ، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصر والايواء ، واقتحموا دونه نار البأس حامية ، وخاضوا بحر الموت عجاجا .

ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، المجاهد فى سبيل الله ، المؤيد بنصر الله ، أبى عنان فارس [1] ، ابن موالينا الأئمة المهتدين ، الخلفاء الراشدين ، نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا ، وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا ، كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا

(١) هو احد امراء بنى مرين الذين حكموا مراكش – بعد ان طردوا امراء الموحدين – من عام ١٢٦٩ الى عام ١٥٥١ للميلاد .

محتاجا ، وجعل بسيفه وسيبه [1] لكل ضيقة انفراجا .

***

وبعد فقد قضت العقول ، وحكم المعقول والمنقول ، بأن هذه الخلافة العلية ، المجاهدة المتوكلية الفارسية ، هي ظل الله الممدود على الأنام ، وحبله الذي به الاعتصام ، وفي سلك طاعته يجب الانتظام . فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله ، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله ، وأصلحت الأيام بعد فسادها ، ونفقت [2] سوق العلم بعد كسادها ، وأوضحت طرق البر عند انهاجها ، وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأماتت رسوم [3] المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقضت أحكام البغي عند استقلالها ، وشادت مباني الحق على عماد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء ، والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه ، والعدل الذي مد على أهل الايمان مديد أطنابه ، والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار ، والبأس الذي فيض غمامه الدم الموار ، والنصر الذي تفض كتائبه الأجل ، والتأييد الذي بعض غنائمه الدول ، والبطش الذي سبق سيفه العذل ، والأناة التي لا يسأم عندها الأمل ، والحزم الذي يسد على الأعداء وجوه المسارب ، والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب ، والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب ،

(١) السيب هو العطاء .
(٢) نفقت (بالفاء المشددة) أي روجت .
(٣) الرسوم هي المعالم .

والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب ، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات ، والعمل المقيد بالاخلاص والأعمال بالنيات .

***

ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحط رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ومنية السائل ، توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه ، وروائع طرفه ، فانثال [1] عليها العلماء انثيال جودها [2] على الصفاة [3] ، وتسابق اليها الأدباء تسابق عزماتها الى العداة ، وحج العارفون حرمها الشريف ، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون الى الامتناع بعز جنابها ، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها ، فهي القطب الذي عليه مدار العالم ، وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم ، وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم ، وباكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم .

وفود ابن بطوطة على الخليفة

وكان ممن وفد على بابها السامي ، وتعدى أوشال [4] البلاد الى بحرها الطامي ، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق ، جوال الأرض ، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذي طاف الأرض معتبرا ، وطوى الأمصار مختبرا ،

(١) انثال عليها العلماء : انصبوا واتوا متتابعين .
(٢) الجود : (بفتح الجيم وتسكين الواو) هو المطر الغزير .
(٣) الصفاة (بالصاد المفتوحة) هي الصخرة الصماء الملساء .
(٤) الاوشال جمع وشل (بفتح الواو والشين) . والوشل هو الماء القليل يتحلب من صخر او جبل .

وبحث فرق الأمم ، وسبر سير العرب والعجم ، ثم ألقى عصا التيسار بهذه الحضرة العليا ، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا [1] ، وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار ايثار التبر على الترب ، اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة فى اللحاق بالطائفة التى لا تزال على الحق ، فغمره من احسانه الجزيل ، وامتنانه الحفى [2] الحفيل [3] ، ما أنساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول الترحال ، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ، فنسى ما كان ألفه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ، ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها .

أمر ابن جزى بكتابة الرحلة

وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع الى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزى الكلبى — أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه [4] شكر نعمتهم — أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك ، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخيا تنقيح الكلام

(١) ثنيا : استثناء .
(٢) الحفى : المبالغ فيه .
(٣) الحفيل : الكثير .
(٤) أوزعه : الهمه .

وتهذيبه ، معتمدا ايضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادرا ، وشرع فى منهله [1] ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا .

ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها . وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط . وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء فى فك مُعَمَّاها معهود القياس .

وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى — أيده الله — بمحل القبول ، وأبلغ من الاغضاء عن تقصيرى المأمول ، فعوائدهم فى السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة .

والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

***

ابتداء الرحلة من بلاد المغرب

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى ، فى يوم الخميس الثانى

(١) المنهل هو المورد وموضع الشرب على الطريق .

من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة [1] ، معتمــدا حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق الى تلك المعــاهد الشريفــة كامن في الحيازم [2] . فجزمت أمري على هجر الأحباب من الاناث والذكور ، وفارقت وطني مفــارقة الطيور للوكور . وكان والداى بقيــد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا [3] ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا ، وسني يومئــذ ثنتان وعشرون سنة .

***

قال ابن جزى : أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجــة ، في يوم الاثنين الســابع عشر من رجب الفــرد ، سنة ثلاث وسبعمائة [4] .

***

وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الذى رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالاسناد ، وشُهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام في ظل رفقه وعدله : الامام المقدس أبو سعيد ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، الذى فل حد الشرك صدق عزائمه ، وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه : الامام المقدس أبو يوسف بن

(١) حوالى منتصف يونيه من عام ١٣٢٥ للميلاد .
(٢) الحيازم جمع حيزوم . والحيزوم هو الصدر .
(٣) الوصب (بفتح الواو والصاد) هو المرض .
(٤) وهو يوافق الرابع والعشرين من فبراير عام ١٣٠٤ للميلاد .

عبد الحق ، جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدســة من صــوب الحيا طلّه [1] وتهتانه [2] ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمســلمين ، وأبقى الملك في عقبهم الى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمســان ، وسلطانها يومئذ أبو تاشفين ، عبد الرحمن بن موسى بن عثمــان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بهــا رسولي ملك افريقية ، السلطان أبي يحيى رحمه الله ، وهما : قاضي الزواج بمدينة تونس ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي ، والشيخ الصــالح ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاى ، نسبة الى قرية بساحل المهدية) . وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين [3] .

وفي يوم وصولي الى تلمسان ، خرج عنها الرســولان المذكوران ، فأشــار علي بعض الاخوان بمرافقتهما ، فاستخرت الله عز وجل في ذلك ، وأقمت بتلمســان ثلاثا في قضــاء مآربي ، وخرجت أجد السير في آثارهمــا ، فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها ، وذلك في ابان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما ، فأقمنا ببعض المياه على مســافة أربعة أميال من مليــانة ثلاثا ، وقضى القاضي نحبه ضحا اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيــدي الى مليانة فقبروه بها ، وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس ، منهم الحــاج مســعود بن المنتصر ، والحاج العدولي ومحمد بن الحجر .

(١) الطل (بفتح الطاء وتشديد اللام) هو المطر الضعيف .
(٢) التهتان هو المطر الغزير المنصب .
(٣) يعني عام سبعمائة وأربعين .

وصوله مدينة الجزائر

فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما ، الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي ، فتوجهنا جميعا على منبجة الى جبل الزان ، ثم وصلنا الى مدينـة بجاية ، فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها : أبى عبد الله الزواوى ، ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر ، وكان أمير بجـاية اذ ذاك أبا عبد الله محمـد بن سيد النـاس الحاجب . وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة : محمد بن الحجر (الذى تقـدم ذكره) وترك ثلاثة آلاف دينـار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر ، يعرف بابن حديدة ، ليوصلها الى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيد الناس ، فانتزعهـا من يده ، وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين [1] وولاتهم . ولمـا وصلنا الى بجاية (كما ذكرته) أصـابتنى الحمى ، فأشـار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء منى ، فأبيت وقلت : ان قضى الله عز وجل بالموت ، تكن وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز . فقـال لى : أما ان عزمت ، فبع دابتك وثقل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخبـاء ، وتصحبنا خفيفا ، فاننا نجد السير خوف غارة العرب فى الطريق . ففعلت هـذا ، وأعارنى ما وعد به جزاه الله خيرا . وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الالهية ، فى تلك الوجهة الحجازية .

وسرنا الى أن وصـلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها ، وأصابنا مطر جـوْد ، اضطرنا الى الخروج عن الأخبية ليلا الى دور هنالك . فلما كان من الغد ، تلقانا حاكم المدينة (وهو من الشرفاء الفضـلاء يسمى بأبى الحسن) ، فنظر الى ثيابى وقد لوثها المطر فأمر بغسلها فى داره ، وكان الاحرام [1] منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا ، وصر فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به على فى وجهتى .

ورحلنا الى أن وصلنا مدينة بونة ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياما ، ثم تركنا بها من كان فى صـحبتنا من التجـار ، لأجل الخوف فى الطريق ، وتجردنا للسير ، وواصـلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج ، خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكننى النزول من الخوف ، الى أن وصلنا مدينة تونس ، فبرز أهلها للقـاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفزاوى ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم ، فوجدت من ذلك فى النفس ما لم أملك معـه سوابق العبرة ، واشتد بكائى ، فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل على بالسلام والايناس ، وما زال يؤنسنى بحديثه ، حتى دخلت المدينة ، ودخلت منها بمدرسة الكتبيين .

***

قال ابن جـُزى : أخبـرنى شـيخى قاضى الجماعة ، أخطب الخطباء ، أبو البركات محمد ابن محمد بن ابراهيم السلمى ، هو ابن الحاج البلفيقى ، أنه جرى له مثل هـذه الحكاية .. قال : قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس فى

(١) الموحدون : اسم دولة من امراء البربر حكمت كل افريقية الشمالية ونصف اسبانيا تقريبا (من ١١٣٠ الى ١٢٦٩ م) ، وكان بينهم وبين المرينيين اصـحاب مراكش مناوشات حتى فاز المرينيون وطردوهم عام ١٢٦٩ للميلاد .

(١) الاحرام هو نوع من لباس الراس كان يستعمله عرب الاندلس والمغرب .

ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكماد ، وحضرت المصلى مع الناس ، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا فى ناحية لا يسلم على أحد ، فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على بالسلام والايناس ، وقال : نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب ، فأحببت ايناسك ... جزاه الله خيرا .

***

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس — عند دخولى اليها — السلطان أبا يحيى ، ابن السلطان أبى زكريا يحيى ، ابن السلطان أبى اسحق ابراهيم ، ابن السلطان أبى زكريا يحيى ، بن عبد الواحد ، ابن أبى حفص [1] رحمه الله . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء ، منهم قاضى الجماعة بها أبو عبد الله محمد ، ابن قاضى الجماعة أبى العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصارى الخزرجى البلنسى الأصل ، ثم التونسى ، هو ابن الغماز . ومنهم الخطيب أبو اسحق ابراهيم بن حسين بن على بن عبد الرفيع الربعى ، وولى أيضا قضاء الجماعة فى خمس دول . ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على بن قداح الهوارى ، وولى أيضا قضاءها ، وكان من أعلام العلماء . ومن عاداته أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس فى المسائل ، فاذا أفتى فى أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك .

وأظلنى بتونس عيد الفطر ، فحضرت المصلى ، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم ، وبرزوا فى أجمل هيئة وأكمل شارة ، ووافى السلطان أبو يحيى راكبا ، وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب .

وصليت الصلاة ، وانقضت الخطبة ، وانصرف الناس الى منازلهم . وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخ يعرف بأبى يعقوب السوسى ، من أهل أقلى [1] من بلاد افريقية ، وأكثره المصامدة ، فقدمونى قاضيا بينهم .

وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذى القعدة ، سالكين طريق الساحل ، فوصلنا الى بلدة سوسة ، وهى صغيرة حسنة ، مبنية على شاطىء البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا .

ثم وصلنا الى مدينة صفاقس (وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبى الحسن اللخمى المالكى ، مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه) .

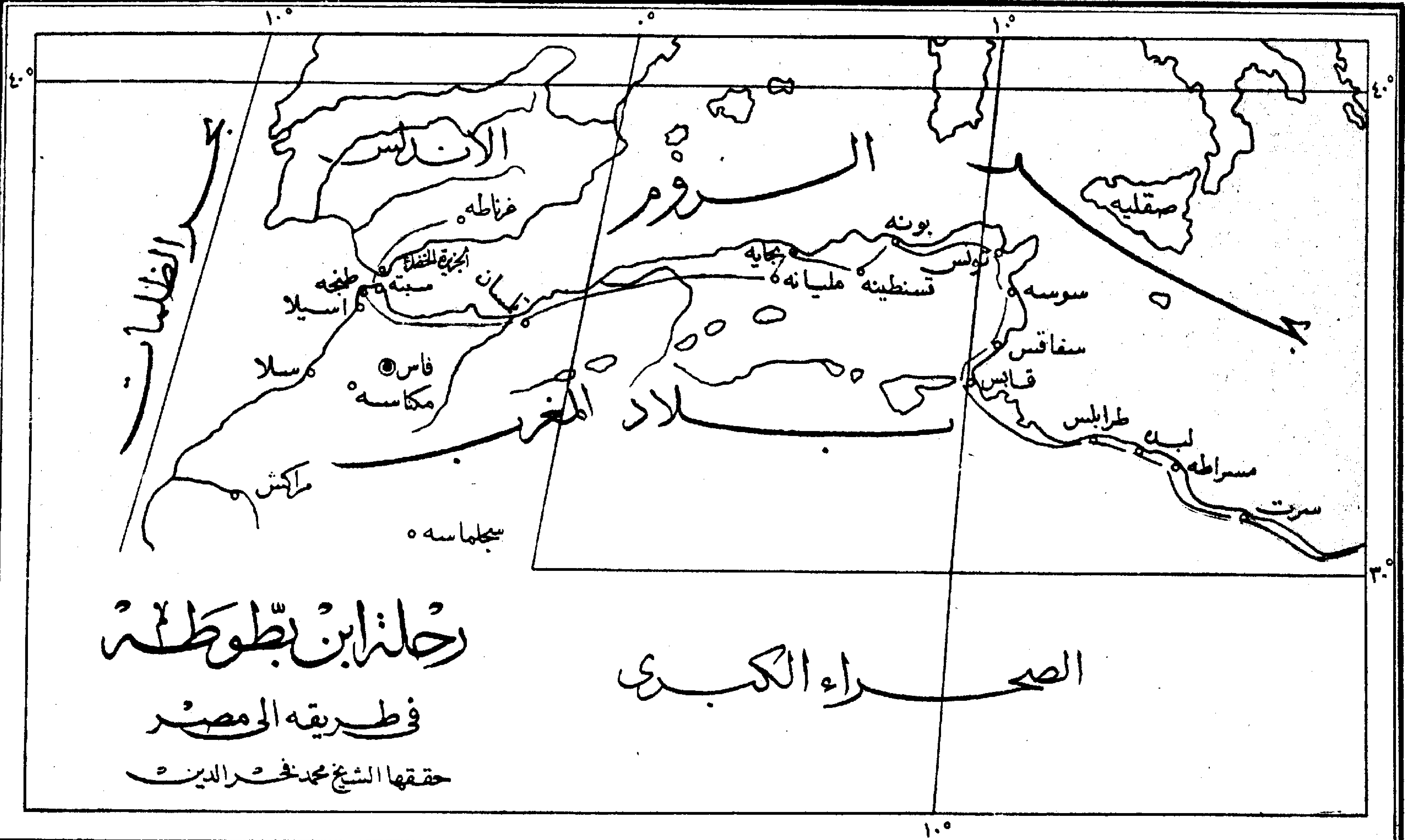
***

قال ابن جزى : فى بلدة صفاقس يقول على ابن حبيب التنوخى :

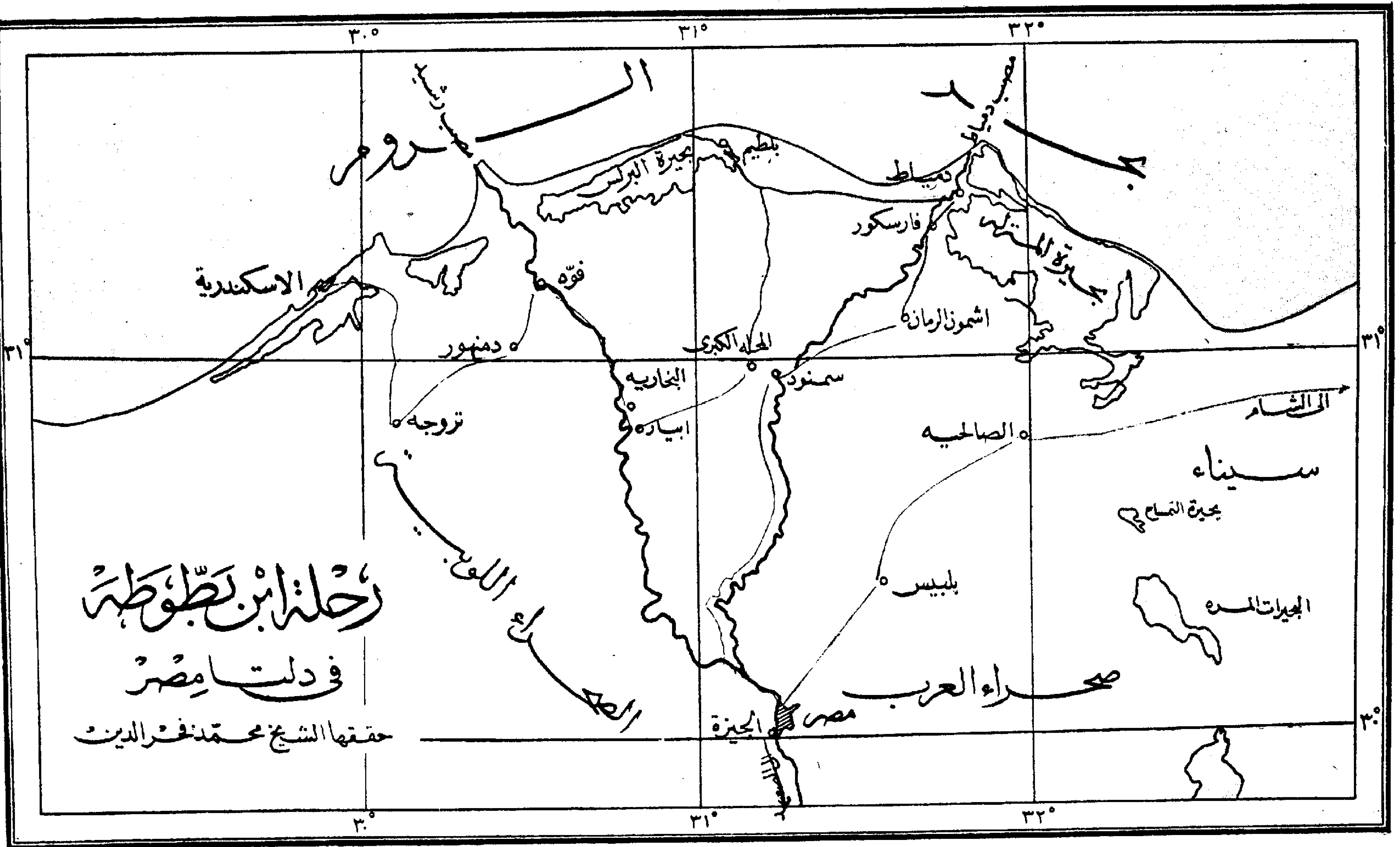
سقيا لأرض صفاقس
ذات المصانع والمصلى
بلد يكاد يقول حيـ
ـن تزوره أهلا وسهلا

(١) هو من أمراء بنى حفص ؛ وهى دولة أسسها أبو حفص قائد احد أمراء الموحدين عام ١٢٢٨ للميلاد . وكانوا فى أول امرهم عمال تونس للموحدين ثم صاروا سلاطينها بعد سقوطهم عام ١٢٦٩ . وأشهر امراء بنى حفص المستنصر ، وهو الذى قاوم لويس ملك فرنسا .

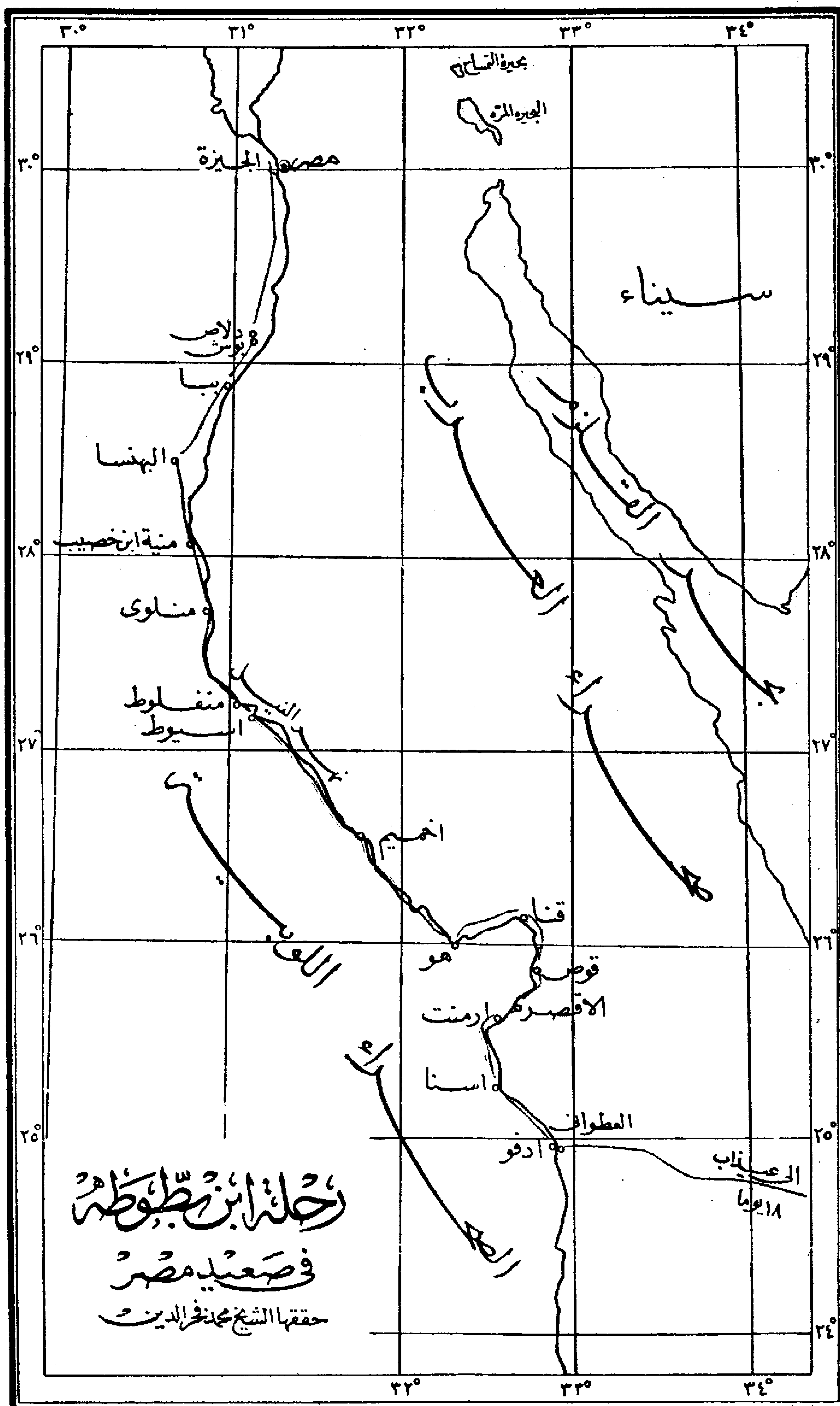
(١) أقلى : بفتح الهمزة وسكون القاف وكسر اللام .



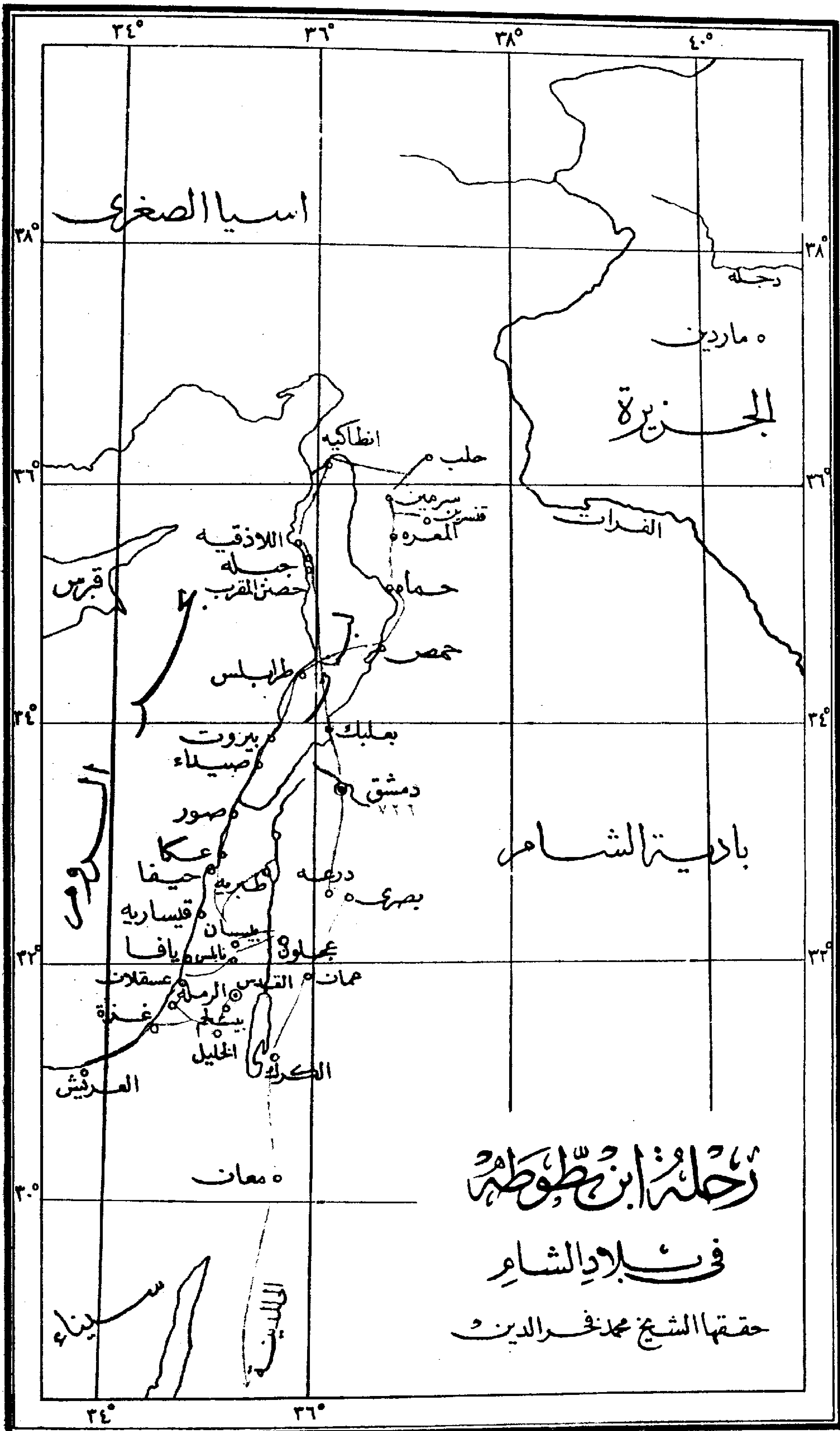
رحلة ابن بطوطة
في طريقه الى مصر
حققها الشيخ محمد فخر الدين
الأندلس
الروم
بلاد المغرب
الصحراء الكبرى
بحر الظلمات
غرناطه
الجزيرة الخضراء
سبته
طنجه
اسيلا
تلمسان
سلا
فاس
مكناسه
مراكش
سجلماسه
مليانه
بجايه
تسنطينه
بونه
تونس
سوسه
سفاقس
قابس
طرابلس
لبده
مسراطه
سرت
صقليه



رحلة ابن بطوطة
في دلتا مصر
حققها الشيخ محمد فخر الدين
البحر الروم
مصب رشيد
مصب دمياط
بحيرة البرلس
بلطيم
دمياط
فارسكور
بحيرة المنزلة
الاسكندرية
فوة
دمنهور
تروجه
اشموم الرمان
المحلة الكبرى
سمنود
النحارية
ابيار
الصالحية
الى الشام
سيناء
بحيرة التمساح
بلبيس
البحيرات المرة
صحراء العرب
صحراء اللوبية
مصر
الجيزة
٣٠°
٣١°
٣٢°



٣٠°
٣١°
٣٢°
٣٣°
٣٤°
بحيرة التمساح
البحيرة المرة
مصر
الجيزة
سيناء
دلاص
بوش
ببا
البهنسا
منية ابن خصيب
منلوى
منفلوط
اسيوط
اخميم
قنا
هو
قوص
الاقصر
ارمنت
اسنا
العطواني
ادفو
العيذاب
١٨ يوما
٣٠°
٢٩°
٢٨°
٢٧°
٢٦°
٢٥°
٢٤°
رحلة ابن بطوطة
في صعيد مصر
حققها الشيخ محمد فخر الدين



رحلة ابن بطوطة
في بلاد الشام
حققها الشيخ محمد فخر الدين
اسيا الصغرى
الجزيرة
بادية الشام
ماردين
دجلة
الفرات
حلب
انطاكيه
سرمين
قنسرين
المعره
اللاذقيه
جبله
حصن المرقب
حماه
حمص
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيداء
دمشق
صور
عكا
حيفا
طبريه
درعه
بصرى
قيساريه
بيسان
عجلون
نابلس
يافا
عسقلان
عمان
القدس
الرملة
غزة
بيت لحم
الخليل
الكرك
العريش
معان
سيناء

وكأنه — والبحر يحسر
تارة عنه ويملا —
صب يريد زيارة
فاذا رأى الرقباء ولى

وفي عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبى تميم (وكان من المجيدين المكثرين) :

صفاقس لا صفا عيش لساكنها
ولا سقى أرضها غيث اذا انسكبا !
ناهيك [1] من بلدة من حل ساحتها
عانى بها العاديين : الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته ،
وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها ،
فكلما هم أن يدنو لها هربا

***

وصف مدينة قابس

ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها عشرا ، لتوالى نزول الأمطار .

***

قال ابن جزى : فى ذكر قابس يقول بعضهم :

لهفى على طيب ليال خلت
بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبى عند تذكارها
جذوة نار بيد القابس [2]

***

ثم خرجنا من مدينة قابس ، قاصدين طرابلس ، وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم ، وعصمنا الله منهم . وأظلنا عيد الأضحى فى بعض تلك المراحل .

وفى الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس ، فأقمنا بها مدة ، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابلس. ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم ، من عام ستة وعشرين ، ومعى أهلى ، وفى صحبتى جماعة من المصامدة ، وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم . وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر .

وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت ، وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ، ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا .

ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها الى قصر برصيص العابد ، الى قبة سلام ، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس . ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس ، وبنيت بها بقصر الزعافية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم .

وصف مدينة الاسكندرية

ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله . وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشان ، الأصيلة البنيان . بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين . كرمت مغانيها ، ولطفت

(١) ناهيك : حسبك .
(٢) القابس : الآخذ من النار .

معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . فهي الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى في حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا في عجائبها فأغربوا . وحسب المشرف الى ذلك ، ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك [1] .

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة واليه يشرع [2] طريق المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر (وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور) . ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر في مراسى الدنيا مثله ، الا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك [3] ، ومرسى الزيتون [4] ببلاد الصين ، وسيقع ذكرها .

ذكر المنار

قصدت المنار من هذه الوجهة ، فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض ، وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه ، فاذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض

(1) هو كتاب « المسالك والممالك » لابى عبيد البكرى الاندلسى (١٠٤٠ – ١٠٩٤ م) .
(2) يشرع : يتصل .
(3) بلاد الاتراك : بلاد القرم .
(4) تعرف هذه المدينة الآن باسم لشبون .

الممر بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا . وهو على تل مرتفع ، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة . وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية . وقصدت المنار عند عودتي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة ، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه .

ذكر عمود السوارى

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى . وهو متوسط في غابة نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا . وهو قطعة واحدة محكمة النحت ، وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين [1] العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ، ولا يتحقق من وضعه .

***

قال ابن جزى : أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقر هنالك ، وشاع خبره ، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته ، وطال العجب منه ، وخفى على الناس وجه احتياله ، وأظنه كان خائفا أو طالب

(1) الدكاكين : جمع دكان ، وهو بناء يسطح اعلاه كالمصطبة ويجلس عليه ، أما الدكان بمعنى الحانوت فمعرب من الفارسية .

حاجة ، فأنتج له فعله الوصول الى قصده ، لغرابة ما أتى به . وكيفية احتياله فى صعوده ، أنه رمى بنشابة قد عقد بفوقها [1] خيطا طويلا ، وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة الموازية للرامى ، فصار الخيط معترضا على أعلى العمود ، فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط ، فأوثقه من احدى الجهتين فى الأرض ، وتعلق به صاعدا من الجهة الأخرى ، واستقر بأعلاه وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فلم يهتد الناس لحيلته ، وعجبوا من شأنه .

***

وكان أمير الاسكندرية فى عهد وصولى اليها ، يسمى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضا فى ذلك العهد سلطان [2] افريقية المخلوع ، وهو زكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى ، وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية ، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، واسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ، ووزيره أبو عبد الله ابن ياسين . وبالاسكندرية توفى اللحيانى المذكور وولده الاسكندرى ، وبقى المصرى بها الى اليوم .

***

قال ابن جزى : من الغريب ما اتفق من صدق الزجر [3] فى اسمى ولدى اللحيانى : الاسكندرى والمصرى ، فمات الاسكندرى بها ، وعاش المصرى دهرا طويلا بها ، وهى من بلاد مصر ،

***

وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وافريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة .

ذكر بعض علماء الاسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى امام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ! ومنهم فخر الدين بن الريغى ، وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية ، فاضل من أهل العلم .

حكاية

يذكر أن جد القاضى فخر الدين الريغى كان من أهل ريغة ، واشتغل بطلب العلم ، ثم رحل الى الحجاز ، فوصل الى الاسكندرية بالعشى ، وهو قليل ذات اليد ، فأحب ألا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا ، فقعد قريبا من بابها ، الى أن دخل جميع الناس ، وجاء وقت سد الباب ، ولم يبق هنالك سواه ، فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه ، وقال متهكما : ادخل ياقاضى !

فقال : قاض ان شاء الله .

ودخل الى بعض المدارس ، ولازم القراءة ، وسلك طريق الفضلاء ، فعظم صيته وشهر اسمه ، وعرف بالزهد والورع ، واتصلت أخباره بملك مصر .

واتفق أن توفى قاضى الاسكندرية ، وبها اذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء ، وكلهم

(١) الفوق (بضم الفاء) هو موضع الوتر من السهم .

(٢) هو من أمراء بنى حفص الذين حكموا تونس بعد سقوط دولة الموحدين .م

(٣) التكهن .م

متشوف [1] للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك ، فبعث اليه السلطان بالتقليد [2] ، وأتاه البريد بذلك ، فأمر خادمه أن ينادى فى الناس : من كانت له خصومة فليحضر لها .

وقعد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره ، ومخاطبته بأن الناس لايرتضونه . وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين ، فقال لهم : لا تفعلوا ذلك ، فانى عدلت طالع ولايته وحققته ، فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة . فأضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه ، وكان أمره على ما ظهر للمنجم ، وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة . ومنهم وجيه الدين الصنهاجى من قضاتها ، مشتهر بالعلم والفضل . ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسى ، فاضل شهير الذكر . ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى ، من كبار أولياء الله تعالى ، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته . ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع « خليفة » صاحب المكاشفات .

كرامة له

أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال : رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال : ياخليفة زرنا . فرحل الى المدينة الشريفة ، وأتى المسجد الكريم ، فدخل من باب السلام ، وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعد مستندا الى بعض سوارى المسجد ، ووضع رأسه على ركبتيه (وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق) . فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة ، وآنية فيها لبن ، وطبقا فيه تمر ، فأكل هو وأصحابه ، وانصرف عائدا الى الاسكندرية ، ولم يحج تلك السنة [1] .

ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع ، برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد ، وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالاسكندرية ، وأقمت فى ضيافته ثلاثا .

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوما ، فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فقلت له : نعم انى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : لا بد لك — ان شاء الله — من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين . فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام .

فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه الى تلك البلاد . ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه . ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد الى انفاقها ، الى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من أفراد الرجال ، وهو تلميذ أبى العباس المرسى ، وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ، ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

---

(1) متطلع .
(2) يقابل « المرسوم » فى أيامنا .

(1) هذه الحكاية وامثالها مما جاء فى هذا الكتاب مما دخله الغلو والمبالغة من النقلة والرواة .

كرامة لأبى الحسن الشاذلى

أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المرسى : أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير الى بلده . فلما كان فى بعض السنين — وهى آخر سنة خرج فيهـا — قال لخادمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطا [1] وما يجهز به الميت .

فقال له الخادم : ولماذا ياسيدى ؟

فقال له : فى حميثرا سوف ترى .

وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب ، وبها عين ماء زعاق [2] وهى كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا ، اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين ، وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره رضى الله عنه .

حزب البحر
المنسوب الى الشاذلى

كان يسافر فى كل سنة — كما ذكرنا — على صعيد مصر وبحر جدة ، فكان اذا ركب السفينة يقـرؤه فى كل يوم ، وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم . وهو هذا :

ياألله ياعلى ياعظيم ، ياحليم ياعليم ... أنت ربى ، وعلمك حسبى . فنعم الرب ربى ، ونعم الحسب حسبى . تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم .

نسألك العصمة فى الحركات والسكنات ، والكلمات والارادات ، والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب ، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، ليقول المنـافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ...

فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هـذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام ، وسخرت النار لابراهيم عليه السلام ، وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام ، وسـخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام ...

وسـخر لنـا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء ، والملك والملـكوت ، وبحر الدنيا وبحر الآخرة ، وسخر لنا ملـكوت كل شىء يامن بيده ملكوت كل شىء .

كهيعص ، حم عسـق ، انصرنا فانك خير الناصرين ، وافتح لنـا فانك خير الفاتحين ، واغفر لنا فانك خير الغافرين ، وارحمنا فانك خير الراحمين ، وارزقنا فانك خير الرازقين ، واهدنا ونجنا من القوم الظـالمين ، وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك ، وانشرها علينا من خزائن رحمتك ، واحملنا بها حمل الكرامة مع السـلامة ، والعافية فى الدين والدنيـا والآخرة ، انك على كل شىء قدير .

اللهم يسر لنـا أمورنا ، مع الراحة لقلوبنا وأبداننا ، والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا ، وكن لنا صاحبا فى سفرنا ، وخليفة فى أهلنا ، واطمس على وجوه أعدائنا ، وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجىء الينا . ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون . ولو نشـاء لمسـخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ...

---

(١) الحنوط : طيب يخلط للميت خاصة .
(٢) الزعاق : الماء المر الغليظ لا يطاق شربه .

يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثر فهم لا يؤمنون . انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

شاهت الوجوه .

وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ...

طس ، طسم ، حم عسق ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ...

حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ...

حم الأمر وجاء النصر ، فعلينا لاينصرون ...

حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير .

« بسم الله » بابنا ، « تبارك » حيطاننا ، « يس » سقفنا ، « كهيعص » كفايتنا ، « حم عسق » حمايتنا ...

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم .

ستر العرش مسبول علينا ، وعين الله ناظرة الينا ، بحول الله لا يقدر علينا . والله من ورائهم محيط ...

بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ...

فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ...

ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

فان تولوا فقل حسبى الله ، لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حكاية

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين ، وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله : أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى ، فذهب الى حماية الروم ، وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى [1] باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم ، فأنكر الناس ذلك وأعظموه ، وكسروا الباب ، وثاروا الى منزل الوالى ، فتحصن منهم ، وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر ، فبعث أميرا يعرف بالجمالى ، ثم أتبعه أميرا يعرف بطوغان ، جبار قاسى القلب متهم فى دينه ، يقال انه كان يعبد الشمس ، فدخلا اسكندرية ، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها ، كأولاد الكوبك وسواهم ، وأخذا منهم الأموال الطائلة ، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد .

ثم ان الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا ، وجعلوا كل رجل قطعتين ، وصلبوهم صفين ، وذلك فى يوم جمعة . وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور ، وشاهدوا مصارع القوم ، فعظمت حسرتهم ، وتضاعفت أحزانهم . وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر ، يعرف بابن

(1) الفصيل : حائط صغير دون سور البلد .

رواحة ، وكان له قاعد معدة للسلاح ، فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة ، وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها . فزل لسانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحدث فيها أطالب به ، وأكفى السلطان مرتبات العساكر والرجال . فأنكر الأميران قوله ، وقالا : انما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه . وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح ، والخدمة للسلطان ، فكان فيه حتفه .

وكنت سمعت أيام اقامتى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع ، أبى عبد الله المرشدى ، وهو من كبار الأولياء : أنه منقطع بمنية بنى مرشد ، له هنالك زاوية هو منفرد فيها ، لا خادم له ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء ، وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم ، فيطعمهم الطعام . وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى ، فيأتى لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك فى غير ابانه . ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولى ويعزل ، وذلك كله من أمره مستفيض متواتر ، وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه . فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به .

وصوله الى تَرَوْجَة

ووصلت قرية تروجة [1] ، وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية ، قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ، صحبت قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين ، وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين . ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر ، يسمى عبد الوهاب . وأضافنى ناظرها زين الدين بن الواعظ ، وسألنى عن بلدى وعن مجباه ، فأخبرته أن مجباه نحو اثنى عشر ألفا من دينار الذهب ، فعجب وقال لى : رأيت هذه القرية ؟ فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا . وانما عظمت مجابى ديار مصر ، لأن جميع أملاكها لبيت المال .

(1) وضبطها بفتح التاء والراء وسكون الواو ، وفتح الجيم .

وصف مدينة دمنهور

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور ، وهى مدينة كبيرة ، جبايتها كثيرة ، ومحاسنها أثيرة ، أم مدن البحيرة بأسرها ، وقطبها الذى عليه مدار أمرها . وكان قاضيها فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى ، بسبب الواقعة التى قصصناها . وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم — وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار — على ولاية القضاء بالاسكندرية .

وصوله الى مدينة فوة

ثم رحلنا الى مدينة فوا [1] . وهذه المدينة عجيبة المنظر ، حسنة المخبر ، بها البساتين الكثيرة ، والفوائد الخطيرة الأثيرة ، وبها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم ، خبير تلك البلاد . وزاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى ، الذى قصدته بمقربة من المدينة ، يفصل بينهما خليج هنالك . فلما وصلت المدينة ،

(1) ذكرت فى معجم البلدان والقاموس « فوة » ، بضم الفاء وتشديد الواو المفتوحة .

بمدينتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمت عليه ، ووجدت عنده الأمير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية ، ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية . ولما دخلت على الشيخ (رحمه الله) قام الى وعانقني ، وأحضر طعاما فواكلني [1] ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماما ، وكذلك لكل ما حضرني عنده — حين اقامتي معه — من الصلاة . ولما أردت النوم قال لي : اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك (وذلك أوان القيظ) فقلت للأمير : باسم الله . فقال لي : « وما منا الا له مقام معلوم » . فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب ، فنمت هنالك .

كرامة لهذا الشيخ

رأيت ليلتي تلك ، وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة ، يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب في ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق ، وينزل في أرض مظلمة خضراء ، ويتركني بها . فعجبت من هذه الرؤيا ، وقلت في نفسي : ان كاشفني الشيخ برؤياي ، فهو كما يحكى عنه .

فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ، ثم أتاه الأمير يلملك فودعه وانصرف ، وودعه من كان هناك من الزوار ، وانصرفوا أجمعين بعد أن زودهم كعيكات صغارا . ثم سبحت سبحة الضحا ، ودعاني وكاشفني برؤياي ، فقصصتها عليه ، فقال : سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم ، وتتجول في بلاد

(1) أى أكل معي .

اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى بها أخي دلشاد الهندي ، ويخلصك من شدة تقع فيها . ثم زودني كعيكات ودراهم ، وودعته وانصرفت . ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الا خيرا ، وظهرت على بركاته ، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمدا الموله ، بأرض الهند .

وصوله الى مدينة النحرارية

ثم رحلنا الى مدينة النحرارية ، وهي رحبة الفناء حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرواء . وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي ، وولده في خدمة ملك الهند (وسنذكره) . وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية ، سفر عن الملك الناصر الى العراق وولي قضاء البلاد الغربية ، وله هيئة جميلة وصورة حسنة . وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين .

وصوله الى مدينة ابيار

ورحلت منها الى مدينة أبيار ، وهي قديمة البناء ، أرجة الأرجاء [1] ، كثيرة المساجد ، ذات حسن زائد . وهي بمقربة من النحرارية ، ويفصل بينهما النيل . وتصنع بأبيار ثياب حسان ، تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها ، والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها .

ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليحي الشافعي ، وهو كريم الشمائل [2] كبير القدر . حضرت عنده مرة يوم الركبة (وهم يسمون

(1) الأرج هو توهج ريح الطيب ، والأرجاء جمع رجا وهو الناحية .

(2) الشمائل هي الخصال ، مفردها شمال (بكسر الشين) .

ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان) . وعادتهم فيه : أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ، ويقف على البـاب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ، ومشى بين يديه قائلا : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ! فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ، ويجلسه النقيب في موضع يليق به . فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعون ، وتبعهم جميع من بالمدينـة من الرجال والنسـاء والصبيان ، وينتهون الى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضي ومن معه ، فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب ، وبين أيديهم الشمع [1] والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي الى داره ، ثم ينصرفون . هكذا فعلهم في كل سنة .

وصف مدينة المحلة الكبيرة

ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة ، وهي جليـلة المقدار ، حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شـملها . ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالى الولاة . وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ، ببستان له على مسافة فرسخين [2] من البلد ، وهو عز الدين بن الأشمرين ، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي ، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف . وأقمنا عنده يوما ، وسـمعت منـه — وقد جرى ذكر الصالحين — أن على مسيرة يوم من المحلة الـكبيرة بلاد البرلس ونسترو ، وهي بلاد الصالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات ، فقصـدت تلك البلاد ، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور .

وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار ، والطير البحري ، والحوت المعروف بالبوري . ومدينتهم تسمى ملطين [1] ، وهي على سـاحل البحيـرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر ، المعروفة ببحيرة تنيس ، ونسترو بمقربة منهـا . نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين . وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا ، وهي الآن خراب .

***

قال ابن جزي : (تنيس بكسر التاء المثنـاة والنون المشـددة وياء وسين مهمل) ، واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع ، وهو القائل في خليجها :

قم فاسقني والخليج مضطرب
والريـح تثني ذوائب القصب
والجـو في حـلة ممسـكة
قد طرزتهـا البروق بالذهب

ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن .

والبرلس بيـاء موحدة وراء وآخره سين مهمـلة . وقيـده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام . وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين . وهو على البحر .

ومن غريب ما اتفق ما حكاه أبو عبد الله الرازي ، عن أبيه ، أن قاضي البرلس — وكان

(1) الشمع مفردها شمعة .
(2) الفرسخ الف باع . والباع ثلاث اذرع .

(1) لعلها المعروفة الآن ببلطيم .

رجلا صالحا — خرج ليلة الى النيل ، فبينما أسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلى اذ سمع قائلا يقول :

لولا رجال لهم سرد يصوموننا
وآخرون لهم ورد يقوموننا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا
لأنكم قوم سوء لا تبالوننا

قال : فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما وجدت أحدا ولا سمعت حسا ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى .

***

وصف مدينة دمياط

ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط ، وهى مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب .

ومدينة دمياط على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل . وشجر الموز بها كثير ، يحمل ثمره الى مصر فى المراكب ، وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ، ولهذا يقال فى دمياط : سورها حلوى وكلابها غنم .

واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى : فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد [1] يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به .

والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن . وبها الألبان الجاموسية التى لا مثيل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق . وبها الحوت البورى [1] يحمل منها الى الشام وبلاد الروم [2] ومصر . وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء [3] الفضلاء المتعبدين الأخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا .

(1) الكاغد لفظ فارسى بمعنى القرطاس ■

ودمياط هذه حديثة البناء ، والمدينة [4] القديمة هى التى خربها الافرنج على عهد الملك الصالح ، وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى ، قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم . ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكرورى .

حكاية

يذكر أن السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوى الى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة ، وكانت تراسله وتعارضه فى الطرق ، وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون . فلما أعياها أمره دسّت له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم . فلما مر بها قالت له : ياسيدى ، أتحسن القراءة ؟

قال : نعم .

(1) البورى منسوب الى بلدة بورة بمصر . وهذا النوع من السمك يكثر فى بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وفى المحيط الاطلنطى .

(2) بلاد الروم يعنى بها آسيا الصغرى .

(3) هم قوم متعبدون يعيشون من حسنات المسلمين ، ويطلق لفظ فقير فى الهند على المتعبد الناسك من جميع الاديان .

(4) لم يخرب الفرنجة دمياط وان كانوا دخلوها مرتين : مرة فى عام ١٢١٩ ، والاخرى فى عام ١٢٤٩ للميلاد . اما الذين خربوها فهم امراء مصر فى ذلك الوقت عام ١٢٥٠ للميلاد ، بعد خروج الفرنجة منها خوفا من عودتهم اليها .

قالت له : هـذا الكتاب وجه الى ولدى وأحب أن تقرأه على .

فقال لها : نعم .

فلما فتح الكتاب قالت له : ياسيدى ، ان لولدى زوجة ، وهى بأسطوان الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها ! فأجابها لذلك .

فلمـا توسط بين البـابين أغلقت العجوز البـاب وخرجت المرأة وجواريهـا فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه . فلما رأى أن لا خلاص له قال لها : انى حيث تريدين . فأرينى بيت الخـلاء ، فأرته اياه ، فأدخل معه الماء ، وكانت عنده موسى حديدة ، فحلق لحيته وحاجبيه ، وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه ، وعصـمه الله بذلك ، فبقى على هيئته فيما بعد ، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

كرامة لهذا الشيخ

يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها ، وكان بها قاض يعرف بابن العميد ، فخرج يوما الى جنـازة بعض الأعيـان ، فرأى الشيخ جمـال الدين بالمقبرة ، فقال له : أنت الشيخ المبتدع !

فقال له : وأنت القاضى الجاهل ! تمر بدابتك بين القبور ، وتعـلم أن حرمة الانسان ميتـا كحرمته حيا .

فقـال له القاضى : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك !

فقال له : اياى تعنى ؟

وزعق الشيخ ثم رفع رأسه ، فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة . فعجب القاضى ومن معه ، ونزل اليه عن بغلته . ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الأولى . فقبل القاضى يده ، وتتلمـذ له ، وبنى له زاوية حسـنة ، وصـحبه أيام حيـاته . ثم مات الشيخ فدفن بزاويته [1] .

ولمـا حضرت القاضى وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره .

وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام فى السنة معلومة لذلك .

وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنيـة ، فيه شيخ من الفضـلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده .

وكان بدمياط ، أيام اقامتى بها ، وال يعرف بالمحسنى ، من ذوى الاحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطىء النيل ، بها كان نزولى فى تلك الأيام ، وتأكدت بينى وبينه مودة .

فارسكور وأشمون وسمنود

ثم سافرت الى مدينة فارسـكور ، وهى مدينة على سـاحل النيل ، ونزلت بخارجها ، ولحقنى هناك فارس وجهه الى الأمير المحسنى ، فقال لى : ان الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك ، فبعث اليك بهـذه النفقـة . ودفع الى جملة دراهم ، جزاه الله خيرا .

(1) على القارىء من ابناء جيلنا أن يأخذ امثال هـذه القصص بحيطة وحذر .

ثم سافرت الى مدينة أشموني الرمان ، ونسبت الى الرمان لكثرته بها ، ومنها يحمل الى مصر . وهي مدينة عتيقة كبيرة ، على خليج من خلج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة .

ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود ، وهي على شاطئ النيل ، كثيرة المراكب ، حسنة الأسواق ، وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ، ما بين مدائن وقرى منتظمة ، متصل بعضها ببعض .

ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول للشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد .

وصف مصر

ثم وصلت الى مدينة مصر . وهي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد [1] ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة [2] ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم . ولها خصوصية النيل التي جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة .

***

قال ابن جزي : وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وانما
هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها
وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنة ما مثلها من بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلها المطرد
وللرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة [1] ما مسها داودها بمبرد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد

***

ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وان بها ثلاثين ألف مكار ، وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق .

وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة .

وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت

(1) قيل انه سمي بهذا الاسم لكثرة جنده وخيامهم وأوتادهم .
(2) أريضة أي زكية معجبة الخليقة للخير .

(1) مسرودة أي منسوجة او مخيطة .

بها مرة فرجة [1] بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما .

ذكر مسجد عمرو بن العاص
والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر ، شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق الى غرب . وبشرقه الزاوية ، حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي .

وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها .

وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لايحصر ، ويذكر أن مجباه [2] ألف دينار كل يوم .

وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق [3] واحدتها خانقه . والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب . ومن عاداتهم فى الطعام أنه يأتى خادم الزاوية الى الفقراء صباحا ، فيعين له كل واحد مايشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل ، جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان فى اليوم ، ولهم

(1) الفرجة (مثلثة الفاء ، اى يجوز فيها الفتح والضم والكسر) هى الخلوص من الشدة والهم .
(2) مجباه اى جبايته .
(3) الخوانق امكنة يتعبد بها الصوفيون .

كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة [1] من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم أعزاب [2] ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عاداتهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . واذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون . ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبيسراه الابريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج اليه ويسأله من أى البلاد أتى ؟ وبأى الزوايا نزل فى طريقه ؟ ومن شيخه ؟ فاذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدد الوضوء ، ويأتى الى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم .

ومن عاداتهم أنه اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها الى

(1) حلا الشىء صار حلوا . والمصدر حلاوة ، والحلوى (بضم الحاء) ضد المرى (بضم الميم) ، وكذلك الحلواء (بفتح الحاء) .
(2) أعزاب جمع عزب . والعزب هو غير المتزوج .

المسجد ، ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ، ويصلى كل واحد على سجادته . فاذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم .

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها ، وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره ، لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة . وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة الى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ، ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ، ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل .

ومن المزارات الشريفة ، المشهد المقدس العظيم الشأن ، حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام ، وعليه رباط ضخم عجيب البناء ، على أبوابه حلق الفضة وصفائحها ، وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم .

ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام . وكانت مجابة الدعوة ، مجتهدة فى العبادة . وهذه التربة أنيقة البناء ، مشرقة الضياء ، عليها رباط مقصود .

ومنها تربة الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه ، وعليها رباط كبير ، ولها جراية ضخمة . وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الاحكام ، المفرطة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر ، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضى الله تعالى عنهم ، مثل : عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأصبغ بن الفرج ، وابنى عبد الحكم ، وأبى القاسم بن شعبان ، وأبى محمد عبد الوهاب . لكن ليس لهم بها اشتهار ، ولا يعرفهم الا من له بهم عناية . والشافعى رضى الله عنه ساعده الجد فى نفسه وأتباعه وأصحابه فى حياته ومماته ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجد يدنى كل أمر شاسع
والجد يفتح كل باب مغلق

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة . والمدن والقرى بضفتيه [1] منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع [2] عليه ما يزدرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره .

قال الله تعالى : « فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم » . فسماه يما وهو البحر .

ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال ، خلافا لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار

---

(١) الضفة (بالفتح ، وتكسر الضاد) جانب النهر .
(٢) ثلاثيه زرع . وصيغة «افتعل» منه «ازدرع» .

ونقوصها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله في ذلك (وسيأتي ذكره) . وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه ، فاذا بلغت زيادته ست عشرة ذراعا تم خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب في العام ، والصلاح التام ، فان بلغ ثماني عشرة ذراعا أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ، وان نقص ذراعا عن ست عشرة نقص خراج السلطان ، وان نقص ذراعين استسقى النـاس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمســة الكبار ، وهي : النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون . وتماثلها أنهـار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى بنج آب [1] ، ونهر الهند ويسمى الكنـك ، واليه تحج الهنـود ، واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ، ويقولون : هو من الجنة . ونهر الجون بالهند أيضا ، ونهر اتل بصحراء قفجق ، وعلى سـاحله مدينـة السرا ، ونهر السرو [2] بأرض الخطا [3] ، وعلى ضفتـه مدينـة خان بالق [4] ، ومنها ينحدر الى مدينـة الخنسـا [5] ، ثـم الى مدينـة الزيتون [6] بأرض الصين . (وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله) . والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا ، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيـل ، فاذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

(١) « بنج » تعني خمسة ، و « آب » تعني النهر .
(٢) هو النهر الاصفر .
(٣) الصين الشمالية .
(٤) مدينة بكين .
(٥) مدينة هانغ .
(٦) مدينة الزيتون هي مدينة تشيو .

ذكر الأهرام والبرابي [1]

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير ، وخوض في شـأنها وأولية بنائها . ويزعمون [2] أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أخنوخ ، وهو ادريس عليه السلام ، وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية ، والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العـلم ودروس الصناعات ، فبنى الأهرام والبرابي ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم العلوم فيها ، لتبقى مخلدة .

ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منف ، وهي على بريد من الفسـطاط . فلمـا بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها ، وصارت دار العلم والملك ، الى أن أتى الاسلام ، فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط ، فهي قاعدة مصر الى هذا العهد .

وصف الأهرام

والأهرام بناء بالحجر الصـلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير ، متسع الأسـفل ، ضيق الأعلى كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . وممـا يذكر [3] في شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان ، رأى رؤيا هالته ، وأوجبت عنده أنه بنى تلك

(١) « بيرب » بالقبطية معناها هيكل أو معبد . وكثير من مؤرخي الغرب سموا بعض الآثار المصرية القديمـة « البرابي » .
(٢) دل الكشف الحديث على بطلان جميع هذه المزاعم .
(٣) أساطير كانت منتشرة في زمن ابن بطوطة .

الأهرام بالجانب الغربى من النيل ، لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى ، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ، ومبلغ الانفاق فى فتحه ، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق فى فتحه . واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة ، فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة ، فان الهدم أيسر من البناء .

فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها ، فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل ، فلج فى ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى ، فكانوا يوقدون عليها النار ، ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق ، حتى فتحت الثلمة التى بها الى اليوم . ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء ، فطال عجبه من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى . وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا ، وأصله من قفجق .

وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة ، والفضائل العظيمة . وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، من الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين : المصرى والشامى . وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة . لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله فى أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه ، أبو عنان (أيد الله أمره وأظهره ، وسنى له الفتح المبين ويسره) بخارج حضرته العلية ، المدينة البيضاء حرسها الله ، لا نظير لها فى المعمور ، فى اتقان الوضع ، وحسن البناء والنقش فى الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله . وسيأتى ذكر ماعمره —أيده الله— من المدارس والمارستانات والزوايا ببلاده ، حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقى الملك الناصر ، وهو الأمير بكتمور ، وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم (وسيذكر ذلك) .

ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار ، وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة .

ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء ، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام ، من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن . وله الاحسان العظيم للحرافيش ، وهم طائفة كبيرة ، أهل صلابة وجوه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ، ووقفوا بأسفل القلعة ، ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ! (يعنون الملك الناصر) أخرجه . فأخرجه من محبسه ، وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه .

ومنهم وزير الملك الناصر ، يعرف بالجمالى . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين

نائب الكرك . ومنهم قزدمور . ومنهم بهادر الحجازى . ومنهم قوصون . ومنهم بشتك . وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات ، وبناء المساجد والزوايا .

ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه ، القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا من القبط ، فأسلم وحسن اسلامه . وله المكارم العظيمة ، والفضائل التامة ، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل .

ومن عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له بأسطوان [1] داره على النيل ، ويليه المسجد ، فاذا حضر المغرب صلى فى المسجد ، وعاد الى مجلسه ، وأتى بالطعام ، ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين ، واسمه لؤلؤ ، بأن يصحبه الى خارج الدار ، وهنالك خازنه ومعه صرر الدراهم ، فيعطيه ما قدر له . ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ، ويقرأ بين يديه كتاب البخارى ، فاذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى اليها

فمنهم قاضى القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضى الامام العالم بدر الدين ابن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك .

ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الأخنائى .

ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى ، وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : انى لا أخاف أحدا الا شمس الدين الحريرى .

ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ، ولا أعرفه الآن ، الا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكاية

كان الملك الناصر ، رحمه الله ، يقعد للنظر فى المظالم ، ورفع قصص المتشكين ، كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ، ثم قاضى الحنفية ، ثم قاضى المالكية ، ثم قاضى الحنبلية . فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى ، أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه ، وذكروا أن العادة جرت بذلك قديما ، اذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد . فأمر الملك الناصر بذلك . فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك . فأنكر الملك الناصر مغيبه ، وعلم ما قصده ، فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه ، أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان ، مما يلى قاضى المالكية ، واستمر حاله على ذلك .

(1) يريد به البهو ، وليس هو ـ بهذا المعنى ـ عربيا .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهانى ، امام الدنيا فى المعقولات . ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى . ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلى ، نائب قاضى القضاة بجامع الصالح . ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسى ، من الأئمة فى المعقولات . ومنهم شمس الدين بن عدلان ، كبير الشافعية . ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير . ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد ابن يوسف بن حيان الغرناطى ، وهو أعلمهم بالنحو . ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى . ومنهم برهان الدين الصفاقسى . ومنهم قوام الدين الكرمانى ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ، ويدرس فنون العلم ، ويفتى فى المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزهات منفردا عن أصحابه . ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء . ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر ، مجد الدين الأقصرائى (نسبة الى أقصرا من بلاد الروم) ومسكنه سرياقص . ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى (والحويزة على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة) . ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر ، السيد الشريف المعظم ، بدر الدين الحسينى ، من كبار الصالحين . ومنهم وكيل بيت المال ، المدرس بقبة الامام الشافعى ، مجد الدين بن حرمى . ومنهم المحتسب بمصر ، نجم الدين السهرتى ، من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وقد ذكرنا جميعهم . ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتى القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم . ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد .

سفره الى الصعيد

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد : برسم الحجاز الشريف ، فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين . وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة ، وآثار كريمة أودعها اياه ، وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والميل الذى كان يكتحل به ، والاشفى الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه . ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية ، بمائة ألف درهم .

وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر ، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة (نفعه الله تعالى بقصده المبارك) .

ثم خرجت من الرباط المذكور ، ومررت بمنية القائد ، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها الى مدينة بوش . وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ، ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية .

ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص ، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا ، كمثل التى ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية .

ثم سافرت منها الى مدينة بيا .

ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا ، وهى مدينة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة . وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل . ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ، ونزلت عنده وأضافنى .

ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب ، وهى مدينة كبيرة الساحة ، متسعة المساحة ، مبنية على شاطىء النيل ، وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل . بها المدارس والمشاهد ، والزوايا والمساجد ، وكانت فى القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكاية خصيب [1]

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر ، فآلى [2] أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا ، قصيدا لاذلالهم والتنكيل بهم . وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام ، فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالأذية لما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز . فلما استقر خصيب بمصر ، سار فى أهلها أحسن سيرة ، وشهر بالكرم والايثار ، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ، ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم . وان الخليفة افتقد أحد العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه ، فسأله عن مغيبه ، فأخبره أنه قصد خصيبا ، وذكر له ما أعطاه خصيب (وكان عطاء جزيلا) فغضب الخليفة وأمر بسمل [1] عينى خصيب واخراجه من مصر الى بغداد ، وأن يطرح فى أسواقها . فلما ورد الأمر بالقبض عليه ، حيل بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن ، فخبأها عنده ، وخاطها فى ثوب له ليلا . وسملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد ، فمر به بعض الشعراء ، فقال له : ياخصيب ، انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة ، فوافقت انصرافك عنها ، وأحب أن تسمعها .

فقال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟

فقال : انما قصدى سماعك لها ، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت ، جزاك الله خيرا .

قال : فافعل .

فأنشده :

أنت الخصيب وهذه مصر
فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة !

ففعل ذلك ، فقال له : خذ الياقوتة !

(1) فى هذه الحكاية اغراب وتلفيق من القصاص .
(2) آلى وائتلى وتألى : اقسم .

(1) فقء عينيه .

فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : ان هذه لا تصلح الا للخليفة . فرفعوا أمرها الى الخليفة ، فأمر الخليفة باحضار الشاعر ، واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على ما فعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه ، وأجزل له العطاء ، وحكمه فيما يريد ، فرغب أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك ، وسكنها خصيب الى أن توفى وأورثها عقبه الى أن انقرضوا .

وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى اليها فخر الدين النويرى المالكى ، وواليها شمس الدين ، أمير خير كريم .

دخلت يوما الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس لا يستترون ، فعظم ذلك على ، وأتيته فأعلمته بذلك ، فأمرنى ألا أبرح ، وأمر باحضار المكترين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود : أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر ، فانهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد .

منلوى ومنفلوط

ثم انصرفت عنه وسافرت من منية بن خصيب الى مدينة منلوى ، وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ، وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى الشافعى . وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل ، بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله . وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ، ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها ، فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا ، فينصرف بها .

وسافرت من منلوى الى مدينة منفلوط ، وهى مدينة حسن رواؤها ، مونق بناؤها على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

حكاية [1]

أخبرنى أهل هذه المدينة : أن الملك الناصر ، رحمه الله ، أمر بعمل منبر عظيم ، محكم الصنعة ، بديع الانشاء ، برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما . فلما تم عمله ، أمر أن يصعد به فى النيل ، ليجاز الى بحر جدة ، ثم الى مكة شرفها الله . فلما وصل المركب الذى احتمله الى منفلوط ، وحاذى مسجدها الجامع ، وقف وامتنع من الجرى ، مع مساعدة الريح ، فعجب الناس من شأنه أشد العجب ، وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب ، فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله ، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعل ذلك ، وقد عاينته بها .

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل ، يستخرجونه من القمح ، ويسمونه النيدا ، يباع بأسواق مصر .

مدينة أسيوط

وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط ، وهى مدينة رفيعة ، أسواقها بديعة .

وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب « بحاصل ما ثم » (لقب شهر به) . وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ، فاذا أتى فقير لمدينة

(1) قارىء اليوم ... خذ هذه الحكايات بحذر .

من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قدر له ، فكان هـذا القاضي اذا أتاه الفقير يقول له : حاصل ما ثم ! (أي لم يبق من المـال الحاصل شيء) ، فلقب بذلك ولزمه .

وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شـهاب الدين بن الصباغ ، أضافني بزاويته .

مدينة اخميم

وسافرت منها الى مدينة اخميم ، وهي مدينة عظيمـة أصيلة البنيان ، عجيبة الشـان ، بها « البربي » المعـروف باسـمها . وهو مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للأوائل ، لا تفهم في هـذا العهـد ، وصـور الأفلاك والكواكب ، ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب . وبها صور الحيوانات وسواها ، وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها .

وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب ، أمر بهدم هذه البرابي ، وابتنى بحجارتها مدرسة ، وهو رجل موسر معروف باليسار ، ويزعم حساده أنه اسـتفاد ما بيده من المـال من ملازمته لهذه البرابي .

ونزلت من هـذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العبـاس بن عبد الظاهر ، وبهـا تربة جده عبد الظـاهر . وله من الاخوة ناصر الدين ، ومجد الدين ، وواحد الدين . ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعـا بعد صـلاة الجمعة ، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده ، وقاضي المدينة الفقيه مخلص ، وسائر وجوه أهلها ، فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله ، الى صلاة العصر ، فاذا صلوها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا .

وسافرت من اخميم الى مدينة « هو » مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) . نزلت منها بمدرسـة تقي الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرءون بهـا في كل يوم بعد صـلاة الصبح حزبا من القـرآن ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وحزب البحر .

وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمـد عبد الله الحسني ، من كبار الصالحين .

كرامة له

دخلت الى هـذا الشريف متبركا برؤيتـه والسلام عليه ، فسألني عن قصدي ، فأخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة ، فقال لي : لا يحصل لك هـذا في هذا الوقت فارجع ، وانمـا تحج أول حجـة على الدرب الشامي . فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ، ومضيت في طريقي حتى وصلت عيذاب ، فلم يمكن السفر ، فعدت راجعا الى مصر ، ثم الى الشـام ، وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشـامي ، على ما أخبـرني الشريف نفع الله به .

مدينة قنا

ثم سافرت الى مدينـة قنا ، وهي صغيرة حسنة الأسواق ، وبهـا قبر الشريف الصالح الولي ، صاحب البراهين العجيبة ، والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه . ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد .

وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص ، مدينة عظيمة ، لهـا خيرات عميمة ، بساتينها مورقة ، وأسواقها مونقـة ، ولها المسـاجد

الكثيرة ، والمدارس الأثيرة . وهي منزل ولاة الصعيد ، وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين ابن عبد الغفار ، وزاوية الأفرم ، وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة .

ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد ، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد ، أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك ، لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري ، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي (وسيقع ذكرهما) .

ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز ، المدرس بمدرسة المالكية .

ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الأندلسي ، له زاوية عالية .

ثم سافرت الى مدينة الأقصر . وهي صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري ، وعليه زاوية .

وسافرت منها الى مدينة أرمنت . وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافني قاضيها (وأنسيت اسمه) .

ثم سافرت منها الى مدينة أسنا . مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان . قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين ، أضافني وأكرمني وكتب الى نوابه باكرامي .

وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين علي ، والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي ، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص .

ثم سافرت منها الى مدينة أدفو ، وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في الصحراء .

ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني ، ومنها اكترينا الجمال ، وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم ، في صحراء لا عمارة بها ، الا أنها آمنة السبل .

وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي ، وقد ذكرنا كرامته في اخباره أنه يموت بها . وأرضها كثيرة الضباع . ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ، ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلا كان به ، واجترت منه جراب تمر ، وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ، مأكولا معظم ما كان فيه .

ثم لما سرنا خمسة عشر يوما ، وصلنا الى مدينة عيذاب [1] ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر . وأهلها البجاة ، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا . وهم لا يورثون البنات ، وطعامهم ألبان الابل ، ويركبون المهارى [2] ويسمونها الصهب .

وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحدربي .

وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني ، شهير البركة ، رأيته وتبركت به . وبها الشيخ الصالح موسى ، والشيخ المسن محمد المراكشي ،

(١) يقال : عيذاب (بفتح العين) وعيذاب (بكسرها) .
(٢) نسبة الى مهرة ، حي من العرب ، الواحدة مهرية .

زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش ، وأن سنه خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا الى عيذاب ، وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك [1] وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه ، فتعذر سفرنا فى البحر . فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر ، فوصلنا الى مدينة قوص التى تقدم ذكرها .

عودته الى شمال مصر

وانحدرنا منها فى النيل ، وكان أوان مده ، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر . فبت بمصر ليلة واحدة ، وقصدت بلاد الشام ، وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين ، فوصلت الى مدينة بلبيس [2] وهى مدينة كبيرة ، ذات بساتين كثيرة ، ولم ألق بها من يجب ذكره .

ثم وصلت الى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها — مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة — وبكل منزل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم . وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج اليه لنفسه ودابته .

ومن منازلها قطيا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث . وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث . وفيها الدواوين والعمال ، والكتاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ، ولا الى مصر الا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين .

وطريقها فى ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتى الأمير صباحا فينظر الى الرمل ، فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء .

وكان بها فى عهد وصولى اليها عز الدين أستاذ الداراقماري ، من خيار الأمراء ، أضافنى وأكرمنى ، وأباح الجواز لمن كان معى . وبين يديه عبد الجليل المغربى الوقاف . وهو يعرف المغاربة وبلادهم ، فيسأل من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم ، فان المغاربة لا يعترضون فى جوازهم على قطيا .

دخول الشام ووصف مدنه

ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر ، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها ، بناه الأمير المعظم الجاولى ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرخام الأبيض .

وقاضى غزة بدر الدين السلختى الحورانى ، ومدرسها علم الدين بن سالم . وبنو سالم كبراء هذه المدينة . ومنهم شمس الدين قاضى القدس .

(1) المماليك .
(2) بفتح أول البادين ، ويقال ايضا : بلبيس (بضم الباء) . أما الباء الثانية فمفتوحة فى الحالين .

ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم . وهى مدينة صغيرة الساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد . ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع ، مبنى بالصخر المنحوت ، فى أحد أركانه صخرة ، أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا . ويقال : ان سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه .

وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس ، فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم . ويقابلها قبور ثلاثة ، هى قبور أزواجهم .

وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل ، الى مسلك ضيق ، يفضى الى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صور القبور الثلاثة ، ويقال انها حاذية لها .

وكان هنالك مسالك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات . ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ، ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرازى ، الذى سماه « المسفر للقلوب ، عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب » ، أسند فيه الى أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بى الى بيت المقدس ، مر بى جبريل على قبر ابراهيم ، فقال : انزل فصل ركعتين ، فان هنا قبر أبيك ابراهيم . ثم مر بى على بيت لحم وقال : انزل فصل ركعتين ، فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ، ثم أتى بى الى الصخرة (وذكر بقية الحديث) .

ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبرى ، أحد الصلحاء المرضيين ، والأئمة المشهورين ، سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك ، فقال لى : كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام ، وقبور زوجاتهم . ولا يطعن فى ذلك الا أهل البدع ، وهو نقل الخلف عن السلف ، لا يشك فيه .

ويذكر أن بعض الأئمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة ، فدخل شيخ فقال له : أى هذه القبور هو قبر ابراهيم ؟ فأشار له الى قبره المعروف ، ثم دخل شاب فسأله كذلك ، فأشار له اليه ، ثم دخل صبى فسأله أيضا ، فأشار له اليه ، فقال الفقيه : أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ، ثم دخل الى المسجد فصلى به ، وارتحل من الغد .

وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام ، وبشرقى حرم الخليل تربة لوط عليه السلام ، وهى على تل مرتفع يشرف منه على غور الشام ، وعلى قبره أبنية حسنة ، وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه .

وهنالك بحيرة لوط ، وهى أجاج ، يقال انها موضع ديار قوم لوط .

وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين ، وهو على تل مرتفع ، له نور واشراق ليس لسواه ، ولا يجاوره الا دار واحدة ، يسكنها قيمه .

وفي المسجد بمقربة من بابه ، موضع منخفض ، في حجر صلد ، قد هيىء فيه صورة محراب ، لا يسع الا مصليا واحدا . ويقال ان ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الأرض قليلا .

وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على عليهما السلام ، وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام ، في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لله العزة والبقاء ، وله ما ذرأ وبرأ ، وعلى خلقه كتب الفناء ، وفي رسول الله أسوة .

« هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه » .

وفي اللوح الآخر منقوش :

« صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر » .

وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه
بالرغم منى بين الترب والحجر

ياقبر فاطمة ، بنت ابن فاطمة
بنت الأئمة ، بنت الأنجم الزهر

ياقبر ، ما فيك من دين ومن ورع
ومن عفاف ومن صون ومن خفر ؟

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس ، فزرت في طريقى اليه تربة يونس عليه السلام ، وعليها بنية كبيرة ومسجد .

وزرت أيضا بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى عليه السلام ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة ، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به .

ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء . والبلدة كبيرة منيفة ، مبنية بالصخر المنحوت . وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب — جزاه الله عن الاسلام خيرا — لما فتح هذه المدينة ، هدم بعض سورها ، ثم أتم الملك الظاهر هدمه ، خوفا أن يقصدها الروم فيمتنعوا بها . ولم يكن في هذه المدينة نهر فيما تقدم . وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق ،

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة ، الفائقة الحسن ، يقال : انه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وان طوله من الشرق الى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية [1] ، وعرضه من القبلة الى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا ، وهو الذى يدخل منه الامام . والمسجد كله فضاء غير مسقوف ، الا المسجد الأقصى فهو مسقوف ، في النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفي المسجد مواضع سواه مسقوفة .

ذكر قبة الصخرة

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها

(١) الذراع المالكية : طولها ٣٢ اصبعا .

شكلا ، قد توافر حظها من المحاسن ، وأخذت من كل بديعة بطرف . وهى قائمة على نشز [1] فى وسط المسجد يصعد اليها فى درج رخام ، ولها أربعة أبواب ، والدائر بها مفروش بالرخام أيضا ، محكم الصنعة ، وكذلك داخلها . وفى ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق ، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف ، وأكثر ذلك مغشى [2] بالذهب . فهى تتلألأ نورا ، وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها فى محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها .

وفى وسط القبة الصخرة الكريمة ، التى جاء ذكرها فى الآثار ، فان النبى صلى الله عليه وسلم عرج [3] منها الى السماء . وهى صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة ، وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ، ارتفاعها نحو قامة أيضا ، ينزل اليها على درج . وهنالك شكل محراب . وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل ، يغلقان عليها ، أحدهما — وهو الذى يلى الصخرة — من حديد بديع الصنعة ، والثانى من خشب ، وفى القبة درقة [4] كبيرة من حديد معلقة هنالك ، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة [5] الوادى المعروف بوادى جهنم ، فى شرقى البلد ، على تل مرتفع هنالك ، بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء . ومنها أيضا قبر رابعة البدوية (منسوبة الى البادية) ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة .

وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها . وهناك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها . وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين . وهناك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى ، وهو من أهل غزة وكبرائها .

ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى .

ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى .

ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة ، أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى ، نزيل القدس .

ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب ، من كبار الصالحين .

ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى .

ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى ، من أهل أرز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان . وهو خراب قد عاد رسوما طامسة ، وأطلالا دارسة . وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان : اتقانا وحسن

(١) مرتفع .
(٢) مغطى .
(٣) صعد .
(٤) ترس من جلد .
(٥) جانب الوادى وحافته .

وضع وأصالة مكان ، وجمعا بين مرافق البر والبحر . وبها المشهد الشهير ، حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل أن ينقل الى القاهرة . وهو مسجد عظيم سامى العلو ، فيه جب للماء ، أمر ببنائه بعض العبيديين (وكتب ذلك على بابه) .

وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر ، لم يبق منه الا حيطانه ، وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن ، وهى ما بين قائم وحصيد . ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة ، يزعم الناس أن النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها ، فوجدت فى موضعها بعسقلان . وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها فى درج متسعة ، ويدخل منها الى بيوت ، وفى كل جهة من جهاتها الأربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب وليس بالغزير ، ويذكر الناس من فضائلها كثيرا .

وبظاهر عسقلان وادى النمل ، ويقال : انه المذكور فى الكتاب العزيز .

وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته ، أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور . وله جراية يجريها له ملك مصر ، مع ما يصل اليه من صدقات الزوار .

مدينة الرملة

ثم سافرت منها الى مدينة الرملة (وهى فلسطين) . مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض ، ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين ، عليهم السلام .

وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى .

مدينة نابلس وعجلون

ثم خرجت منها الى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار ، مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق . وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها .

وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ، ثم يعصر ، ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء . ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام . وبها البطيخ المنسوب اليها ، وهو طيب عجيب .

والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب .

ثم سافرت منها الى مدينة عجلون ، وهى مدينة حسنة ، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب .

اللاذقية والقصير وعكة

ثم سافرت منها بقصد اللاذقية ، فمررت بالغور ، وهو واد بين تلال ، به قبر أبى عبيدة ابن الجراح ، أمين هذه الأمة ، رضى الله عنه ـ زرناه ، وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ـ وبتنا هنالك ليلة .

ثم وصلنا الى القصير ، وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه ، تبركت أيضا بزيارته .

ثم سافرت على الساحل ، فوصلت الى مدينة عكة وهى خراب . وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ، ومرسى سفنهم . وتشبه قسطنطينية العظمى . وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر ، يقال ان الله تعالى أخرج منها البقرة

لآدم عليه السلام [1] ، وينزل اليها فى درج ، وكان عليها مسجد بقى منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام .

وصف مدينة صور

ثم سافرت منها الى مدينة صور . وهى خراب ، وبخارجها قرية معمورة . وأكثر أهلها أرفاض [2] . ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل القرية ليتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ، ولا يستنشق ، ثم مسح رأسه . فأخذت عليه فى فعله ، فقال لى : ان البناء انما يكون ابتداؤه من الأساس !

ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة ، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها . ولها بابان : أحدهما للبر ، والثانى للبحر . ولبابها الذى يشرع للبر أربع فصلات ، كلها فى ستائر محيطة بالباب . وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين .

وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منه ، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ، وعلى الجهة الرابعة سور ، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك . وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة ، لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج ، الا بعد حطها . وكان عليها الحراس والأمناء ، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم . وكان لعكة أيضا ميناء مثله ، ولكنه لم يكن يحمل الا السفن الصغار .

(1) لا يعرف هذا فى الآثار الصحيحة .
(2) أرفاض : فرقة من الشيعة .

مدينة صيداء وطبرية

ثم سافرت منها الى مدينة صيداء ، وهى على ساحل البحر ، حسنة كثيرة الفواكه ، يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر . نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشمونى المصرى ، وهو حسن الأخلاق كريم النفس .

ثم سافرت منها الى مدينة طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ، ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها ، وبها الحمامات العجيبة : لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء ، وماؤها شديد الحرارة .

ولها البحيرة الشهيرة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ .

وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء ، فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام ، وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهوذا ، وقبر روبيل ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم ، وقصدنا منها زيارة الجب الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام ، وهو فى صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية . والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قيّمه أن الماء ينبع منه أيضا .

مدينة بيروت

ثم سرنا الى مدينة بيروت ، وهى صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد ، وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف ، الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب . وهو بموضع

يعرف بكرك نوح ، من بقاع العزيز . وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ، ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف ، وقيل السلطان نور الدين . وكان من الصالحين ، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها .

حكاية أبي يعقوب يوسف

يحكى أنه دخل مدينة دمشق ، فمرض بها مرضا شديدا ، وأقام مطروحا بالأسواق . فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له ، فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين . وأقام فى حراسته ستة أشهر . فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان . وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتى برمان يأكل منه السلطان ، فأتاه برمان فوجده حامضا [1] . فأمره أن يأتى بغيره ، ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا ...

فقال له الوكيل : أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض ؟

فقال : انما استأجرتنى على الحراسة لا على الأكل !

فأتى الوكيل الى الملك فأعلمه بذلك ، فبعث اليه الملك (وكان قد رأى فى المنام أنه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة) ، فتفرس أنه هو ، فقال له :

أنت أبو يعقوب ؟

قال : نعم .

(1) يريد أنه لم يكمل نضجه .

فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ، ثم احتمله الى مجلسه فأضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه .

وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارا بنفسه فى أوان البرد الشديد ، فأتى قرية من قراها ، وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل . وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها ، وبخبز شعير ، فأكل من ذلك ودعا للرجل . وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها . ومن عاداتهم فى تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس ، وبه يتفاخرون وبه يتبايعون .

فقال أبو يعقوب للرجل : هل عندك شىء من النحاس ؟

قال : نعم . قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت .

قال : ائتنى به .

فأتاه به فقال له : استعر من جيرانك ما أمكنك منه .

ففعل ، وأحضر ذلك بين يديه . فأوقد عليه النيران ، وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير ، فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا !

وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ، ويوقف عليه الأوقاف ، ويبنى الزوايا بالطرق ، ويرضى أصحاب النحاس ، ويعطى صاحب البيت كفايته .

وقال له فى آخر الكتاب :

« ... وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فأنا قد خرجت عن ملك المغرب ، وعن هذه الصنعة ، والسلام ... » . وفر من حينه .

وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين ، فوصل الملك الى تلك القرية ، واحتمل الذهب بعد أن أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت .

وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر . فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه ، الذى ليس فى المعمور مثله [1] ...

وصف مدينة طرابلس الشام

ثم وصلت الى مدينة طرابلس ، وهى احدى قواعد الشام ، وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتحف بها البساتين والأشجار ، ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة ، والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء .

وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر . وتملكها الروم زمنا ، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة .

وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه بالدار المعروفة بدار السعادة . ومن عاداته أن يركب فى كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج الى ظاهر المدينة ، فاذا عاد اليها وقارب الوصول

(١) لن تنبهك كثيرا ، فيما يلى ، الى الاخذ بأسباب الحيطة والحذر . فهما واجب على كل عاقل حصيف ... سواء فى قراءاته أو فى كل أمر من الامور .

الى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه ، حتى يدخل منزله ، وينصرفون ، وتضرب الطبلخانة [1] عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل .

وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء ، معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف ، وقد ذكرناه ، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق .

ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين ، من أكابر الرجال .

ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام .

وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضى القرمى ، وحمام سندمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة . ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات : منها أن امرأة شكت اليه أن أحد مماليكه الخواص ، تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة ، فأمر به فَوُسِّط [2] فخرج اللبن من مصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس ، أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب ، واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان .

ثم سافرت من طرابلس الى حصن الأكراد ، وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل ، وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمى ، نسبة الى بعض كبراء الأمراء ، ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه .

(١) الموسيقى العسكرية .
(٢) قطع نصفين .

مدينة حمص

ثم سافرت الى مدينة حمص ، وهى مدينة مليحة ، أرجاؤها مونقة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفى وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم .

وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كسوة سوداء .

وقاضى هذه المدينة جمال الدين الشريشى ، من أجمل الناس صورة ، وأحسنهم سيرة .

مدينة حماه

ثم سافرت منها الى مدينة حماه ، احدى أمهات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحف بها البساتين والجنات ، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصى . ولها ربض سمى بالمنصورية ، أعظم من المدينة ، فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان .

وبحماة الفواكه الكثيرة ، ومنها المشمش اللوزى ، اذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة .

***

قال ابن جزى : وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال ، نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى العمارى الغرناطى ، نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه :

حمى الله من شطى حماة مناظرا
وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل
وتزهى مبان تمنع الواصف الوصفا
يلوموننى أن أعصى الصون والنهى
وأنى أطيع الكأس واللهو والقصفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها
وأغلبها رقصا وأشبهها غرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها
تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية :

وناعورة رقت لعظم خطيئتى
وقد عاينت قصدى من المنزل القاصى
بكت رحمة لى ثم باحت بشجوها
وحسبك أن الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية :

ياسادة سكنوا حماة وحقكم
ما حلت عن تقوى وعن اخلاص
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا
يجرى المدامع طائعا كالعاصى

***

ثم سافرت الى مدينة المعرة التى ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء .

***

مدينة المعرة

قال ابن جزى : وانما سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الأنصارى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى له ولد

أيام امارته على حمص ، فدفنه بالمعرة ، فعرفت به ، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصـور . وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به .

***

والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل الى مصر والشام . وبخارجها على فرسـخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ولا خادم له . وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صنف من الرافضـة أرجـاس ، يبغضـون العشرة من الصـحابة رضى الله عنهم ، ولعن مبغضـهم . ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصا عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه ، لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه .

مدينة سرمين

ثم سرنا منها الى مدينة سرمين ، وهى حسنة كثيرة البساتين . وأكثر شجرها الزيتون . وبها يصنع الصـابون الآجرى ، ويجلب الى مصر والشام . ويصنع بها أيضا الصابون المطيب ، لغسل الأيدى ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصنع بها ثياب قطن حسان ، تنسب اليها .

وأهلها سـبابون يبغضون العشرة [1] . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة . وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع ، فاذا بلغـوا الى العشرة ، قالوا : تسعة وواحد . وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادى : تسعة وواحد ، فضربه بالدبوس [2] على رأسه وقال : عشرة بالدبوس !

(1) هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(2) الدبوس (على وزن تنـور) واحد الدبابيس ، للمقامع ، كأنه معرب ، والمقمعة (على وزن مكنسة) هى العمود من الحديد كان يستعمل فى الحرب .

وبها مسجد جامع فيه تسـع قباب ، ولم يجعلوها عشرا قياما بمذهبهم القبيح .

وصف مدينة حلب

ثم سرنا الى مدينة حلب ، المدينة الكبرى ، والقاعدة العظمى . قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها : قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلهـا من النفوس أثير ، فكم هاجت من كفاح ، وسل عليها من بيض الصفاح . لها قلعـة شـهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزهت حصانة من أن ترام أو تسـتطاع ، منحـوتة الأرجـاء ، موضـوعة على نسـبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشـيعت الخواص والعوام ، أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ فنى جميعهم ولم يبق الا بناؤها . فياعجبا لبلاد تبـقى ويذهب ملاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها ، وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها ، وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ... هـذه حلب كم أدخلت ملوكها فى خبر كان ، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ، أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان ، وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها !

وقلعة حلب تسمى الشهباء . وبداخلها جبان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظمأ . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متدانى الأبراج ، وقد انتظمت بهـا العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به .

وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التى على الفرات ، بين الشام والعراق .

ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أياما ، ونكص عنها خائبا .

***

قال ابن جزى : وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها
بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامه
ويلبسها عقدا بأنجمه الشهب
اذا ما سرى برق بدت من خلاله
كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة
وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم :

وقلعة عانق العنقاء سافلها
وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها
أرضا توطأ قطريه مواشيها
يعد من أنجم الأفلاك مرقبها
لو انه كان يجرى فى مجاريها

***

ويقال فى مدينة حلب : حلب ابراهيم ، لأن الخليل ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه ، كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم ، فسميت بذلك .

وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع ، واتقان الترتيب واتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض . وأسواقها مسقوفة بالخشب ، فأهلها دائما فى ظل ممدود . وقيساريتها لا تماثل حسنا وكبرا ، وهى تحيط بمسجدها . وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد . ومسجدها الجامع من أجمل المساجد ، فى صحنه بركة ماء ، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس .

وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع ، واتقان الصنعة ، تنسب لأمراء بنى حمدان [1] . وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مارستان . وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح [2] ، عريض ، به المزارع العظيمة ، وشجرات الأعناب منتظمة به ، والبساتين على شاطئ نهرها ، وهو النهر الذى يمر بحماة ، ويسمى العاصى [3] ، وقيل انه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل الى علو . والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها ، وهى من المدن التى تصلح للخلافة .

وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار ، أكبر أمراء الملك الناصر . وهو من الفقهاء ، موصوف بالعدل ، لكنه بخيل .

والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة : فمنهم القاضى كمال الدين بن الزملكانى ،

(1) هم امراء من أصل عربى حكموا مقاطعة حلب وما بين النهرين فى العصر العباسى الثالث من سنة ٩٢٩ الى سنة ١٠٠٣ م ، وأشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبى .

(2) أفيح : متسع .

(3) خطأ ظاهر ، لأن العاصى لا يمر فى حلب . والنهر الذى يمر فيها اسمه « القويق » .

شافعي المذهب ، عالى الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم . وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحاضرة ملكه ، فلم يقض له ذلك ، وتوفى ببلبيس وهو متوجه اليها . ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده شاعر الشام جمال الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله ، محمد بن نباتة القرشى الأموى الفاروقى ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة ، أولها :

أسفت لفقدك جلق [1] الفيحاء
وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق ، وقد رحلت ، كآبة
وعلا ربا حلب سنا [2] وسناء [3]
قد أشرقت دار سكنت فناءها
حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائلا سقى المكارم والعلا
ممن يبخّل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه
تنعم ، فثم الفضل والنعماء
قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى
شرفت به الآباء والأبناء
منّ الاله على بنى حلب به
لله وضعُ الفضل حيث يشاء
كشف المعمى فهمه وبيانه
فكأنما ذاك الذكاء ذكاء [4]
ياحاكم الحكام قدرك سابق
عن أن تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التى
فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة
كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها
والفضل ما شهدت به الأعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا ، وأجازه عليها بكسوة ودراهم . وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ « أسفت » .

***

قال ابن جزى : وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك ، وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد ، واليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد الشرق . وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة ، منشىء الخطب الصغيرة . ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله :

علقتها غيداء حالية العلا
تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم
فغدت مطوقة بما بخلت به

***

ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم ، حسن الصورة والسيرة ، أصيل مدينة حلب .

تراه — اذا ما جئته — متهللا
كأنك معطيه الذى أنت سائله

(1) جلق : دمشق .
(2) السنا : ضوء البرق ، ونبت يتداوى به .
(3) السناء : الرفعة والشرف .
(4) الذكاء (بفتح الذال) سرعة الفطنة . وذكاء (بضم الذال وغير مصروفة) هى الشمس .

ومنهم قاضي قضاة المالكية (لا أذكره[1]) . كان من الموثقين بمصر ، وأخذ الخطة عن غير استحقاق .

ومنهم قاضي قضـاة الحنـابلة (لا أذكر اسمه) . وهو من أهل صالحية دمشق .

ونقيب الأشراف بحلب بـدر الـدين بن الزهراء .

ومن فقائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم كبراء مدينة حلب .

تيزين وانطاكية

ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهي على طريق قنسرين ، وهي حديثة اتخذها التركمان . وأسواقها حسـان ومسـاجدها في نهاية من الاتقـان ، وقاضـيها بدر الدين العسقلاني . وكانت مدينة قنسرين قديما كبيرة ، ثم خربت ولم يبق الا رسومها .

ثم سافرت الى مدينة أنطاكية ، وهي مدينة عظيمة ، وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام . فلمـا فتحها الملك الظاهر هدم سورها .

وأنطاكية كثيرة العمارة ، ودورها حسـنة البناء كثيرة الأشجار والمياه . وبخارجها نهر العاصي . وبها قبر حبيب النجار رضي الله عنه ، وعليه زاوية فيها الطعـام للوارد والصـادر ، شيخها الصالح المعمر محمد بن علي ، سـنه تنيف على المائة ، وهو ممتـع بقوته . دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبا ورفعـه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة . ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين ، الا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا .

ثم سافرت الى حصن بغراس ، وهو حصن منيع لا يرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنـه يدخـل الى بلاد سـيس ، وهي بلاد كفـار الأرمن ، وهم رعية للملك النـاصر ، يؤدون اليه مالا ، ودراهمهم فضة خالصة . وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني ، وله ولد فاضل اسمه علاء الدين ، وابن أخ اسمه حسام الدين ، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص ، ويحفظ الطريق الى بلاد الأرمن .

حـكاية

شـكا الأرمن مرة الى الملك النـاصر من الأمير حسام الدين ، وزوروا عليـه أمورا لا تليـق ، فنفـذ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه . فلما توجه الأمير ، بلغ ذلك صـديقا له من كبار الأمراء فدخل على الملك النـاصر وقال : ياخوند[1] ، ان الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ، ينصـح للمسلمين ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقهرهم ، وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيـا بسراحـه ، والخلع عليه ورده لموضعه .

ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأقوش ، وكان لا يبعث الا في مهـم ، أمره بالاسراع والجد في السير ، فسار من مصر الى حلب في خمس ، وهي مسيرة شهر ، فوجد أمير حلب قد أحضر حسـام الدين وأخرجه الى الموضع الذي يخنق به النـاس ، فخلصـه الله تعالى ، وعاد الى موضعه .

ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف

---

(1) ياسيدي .

الدين الحموى بموقع يقال له العمق ، متوسط بين أنطاكية وتيزين . وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته .

حصون الفداوية

ثم سافرت الى حصن القصير ، تصغير قصر ، وهو حصن حسن ، أميره علاء الدين الكردى ، وقاضيه شهاب الدين الأرمنتى ، من أهل الديار المصرية .

ثم سافرت الى حصن الشغربكاس ، وهو منيع فى رأس شاهق ، أميره سيف الدين الطنطاش ، فاضل ، وقاضيه جمال الدين بن شجرة ، من أصحاب ابن تيمية .

ثم سافرت الى مدينة صهيون ، وهى مدينة حسنة ، بها الأنهار المطردة ، والأشجار المورقة ، ولها قلعة جيدة ، وأميرها يعرف بالابراهيمى ، وقاضيها محيى الدين الحمصى ، وبخارجها زاوية فى وسط بستان ، فيها الطعام للوارد والصادر ، وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله ، وقد زرت قبره .

ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس ، ثم بحصن المينقة ، ثم بحصن العليقة ، واسمه على لفظ واحدة العليق ، ثم بحصن مصياف ، ثم بحصن الكهف .

وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الأسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم . وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتبات . واذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فان سلم بعد تأتى ما يراد منه ، فهى له ، وان أصيب فهى لولده . ولهم سكاكين مسمومة ، يضربون بها من بعثوا الى قتله . وربما لم تصح حيلهم فقتلوا ، كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور ، فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم ، فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم .

حكاية

كان قراسنقور من كبار الأمراء ، وممن حضر قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر ، وشارك فيه . ولما تمهد الملك للملك الناصر ، وقر به القرار ، واشتدت أواخى [1] سلطانه ، جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للأخذ بثأر أخيه ، وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه .

وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب ، فكتب الملك الناصر الى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم ، وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها ، حتى يقبضوا عليه . فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه ، وكان له ثمانمائة مملوك ، فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا ، وكانوا فى عشرين ألفا .

وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى ، وهو على مسيرة يومين من حلب . وكان مهنا فى قنص له ، فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة فى عنق نفسه ، ونادى : الجوار ياأمير العرب !

وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه ، فقالت : قد أجرناك وأجرنا من معك .

---

(1) الأواخى : مفرده أخية ، عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الارض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة . والكلام على التشبيه .

فقال : انما أطلب أولادى ومالى .

فقالت له : لك ما تحب فانزل فى جوارنا .

ففعل ذلك .

وأتى مهنا فأحسن نزله وحكمه فى ماله فقال : انما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب .

فدعا مهنا باخوته وبنى عمه فشاورهم فى أمره ، فمنهم من أجابه الى ما أراد ، ومنهم من قال له : كيف نحارب الملك الناصر ، ونحن فى بلاده بالشام ؟

فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده ، وأذهب معه الى سلطان العراق .

وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر ، فقال مهنا لقراسنقور : أما أولادك فلا حيلة فيهم ، وأما مالك فنجتهد فى خلاصه .

فركب فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا ، وقصدوا حلب ، فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ، ولم يتعدوا الى سوى ذلك .

وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ، ووصلوا الى الملك محمد خدا بنده سلطان العراق ، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ ، وهو ما بين السلطانية وتبريز . فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب ، وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم ، وتسمى دمشق الصغيرة ، وأعطى الأفرم همدان .

وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم ، وعاد مهنا الى الملك الناصر ، بعد مواثيق وعهود أخذها منه ، وبقى قراسنقور على حاله .

وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة . فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه . ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه . وقتل بسببه من الفداوية جماعة . وكان لا يفارق الدرع أبدا .

فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد ، وقع ما سنذكره من أمر الجوبان ، كبير أمرائه ، وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر .

ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش . فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى أبى سعيد . فلما وصله ، أمر بحمل قراسنقور اليه ، فلما عرف قراسنقور ذلك أخذ خاتما كان له مجوفا فى داخله سم ناقع ، فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه ، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه .

مدينة جبلة

ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة ، وهى ذات أنهار مطردة وأشجار ، والبحر على نحو ميل منها ، وبها قبر الولى الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، وهو الذى نبذ الملك ، وانقطع الى الله تعالى كما شهر ذلك . ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس ، انما ورث الملك عن جده أبى أمه ، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء

الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين .

حكاية أدهم [1]

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها ، فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر لها ... فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها : ادعى لى صاحب المنزل .

فقالت : انه لامرأة .

فقال : استأذنى لى عليها .

ففعلت ، فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : ان هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان . والسلطان يومئذ ببلخ ، وهى مسيرة عشرة من بخارى ، وأحلته المرأة من نصفها .

وذهب الى بلخ فاعترض السلطان فى موكبه فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود اليه من الغد .

وكان للسلطان بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت اليها العبادة وحب الصالحين ، وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا .

فلما عاد السلطان الى منزله ، أخبر بنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أورع من هذا ، يأتى من بخارى الى بلخ لأجل نصف تفاحة !

فرغبت فى تزوجه ، فلما أتاه من الغد قال : لا أحلك الا أن تتزوج بينتى . فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها . فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها ، فعمد الى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح . ولم يزل كذلك سبع ليال ، وكان السلطان ما أحله قبل ، فبعث اليه أن يحله فقال : لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك . فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل ، وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوجد ميتا رحمه الله . فولدت ابراهيم . ولم يكن لجده ولد ، فأسند الملك اليه . وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر .

وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد ، وخادمها ابراهيم الجمحى من كبار الصالحين . والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثا . ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء . ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكل من يأتى من الزوار لهذه التربة يعطى خادمها شمعة ، فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة .

وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية ، الذين يعتقدون أن على بن أبى طالب اله . وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ، ولايدخلونه ، ولايعمرونه ، وربما أوت اليه مواشيهم ودوابهم ، وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له : لا تنهق ، علفك يأتيك . وعددهم كثير .

(1) تكاد تكون غير معقولة .

حكاية

ذكر لى أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهداية ، وتكاثروا عليه ، فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام . وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ، ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : استظهروا بها فانها كالأوامر لكم . فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها ، فيقول له : ان الأمام المهدى أعطانى هذا البلد .

فيقول له : أين الأمر ؟ فيخرج ورق الزيتون ، فيضرب ويحبس .

ثم انه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين ، وان يبدءوا بمدينة جبلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ، ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عند القتال . فغدروا مدينة جبلة وأهلها فى صلاة الجمعة ، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ، وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا .

واتصل الخبر باللاذقية ، فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره ، وطيرت الحمام الى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره ، وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا ، وتحصن الباقون بالجبال .

وراسلوا ملك الأمراء ، والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس ان حاول ابقاءهم . وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف ، فراجعه ملك الأمراء ، وألقى له أنهم عمال المسلمين فى حراثة الأرض ، وأنهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك ، فأمر بالابقاء عليهم .

مدينة اللاذقية

ثم سافرت الى مدينة اللاذقية . وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر ، يزعمون أنها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا .

وكنت أنما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الاسكندرى . فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيدا البجائى ويحيى السلاوى ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم . وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر .

وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى ، فاضل كريم ، تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها .

حكاية

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد ، هجاء لا يسلم أحد من لسانه ، متهم فى دينه ، مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد ، فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء فلم يقضها له ، فقصد مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية ، فكتب طيلان الى القاضى جلال الدين أن يتحيل فى قتله بوجه شرعى ، فدعاه القاضى الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده ، فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل ، وقد أعد القاضى الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضى وسجن ، وأعلم ملك الأمراء بقضيته ، ثم أخرج من السجن وخنق على بابه .

ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان أن عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الأمراء وممن تقدمت له فيها الولاية ، وبينه وبين طيلان عداوة ، فجعل يتتبع سقطاته ، وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضى جلال الدين ، فأمر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بخنقهم ، وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس ، وأجلس كل واحد منهم تحت مِخْنَقِه ونزعت عمائمهم .

ومن عادة أمراء تلك البلاد آنه متى آمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الأمير سبقا على فرسه الى حيث المأمور بقتله ، ثم يعود الى الأمير فيكرر استئذانه ... يفعل ذلك ثلاثا . فاذا كان بعد الثلاث ، أنفذ الأمر .

فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم وقالوا : أيها الأمير ، هذه سبة فى الاسلام ! يقتل القاضى والشهود ؟! فقبل الأمير شفاعتهم وخلى سبيلهم .

***

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر .

وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين ، لايدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة ، وهو من أحسن المراسى بالشام .

ثم سافرت الى حصن المرقب . وهو من الحصون العظيمة ، يماثل حصن الكرك ، ومبناه على جبل شامخ ، وخارجه ربض ينزله الغرباء ، ولا يدخلون قلعته .

وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون . وعليه ولد ابنه الملك الناصر . وكان قاضيه برهان الدين المصرى ، من أفاضل القضاة وكرمائهم .

ثم سافرت الى الجبل الأقرع ، وهو أعلى جبل بالشام ، وأول ما يظهر منها من البحر . وسكانه التركمان ، وفيه العيون والأنهار .

وسافرت منه الى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا ، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء ، والظلال الوارفة ، ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

حكاية

أخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به ، قال : كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد ، فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها ، فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذه النار ما يشوى فيها .

فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ به : انى كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن أدهم ، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك ، فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار .

قال : فقمنا اليه فى خمسة رجال ، فلقيناه كما وصف لنا ، فقبضناه وأتينا به أصحابنا ،

وذبحناه وشوينا لحمه فى تلك النار . وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ، ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه ...

وصف مدينة بعلبك

ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك ، وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب اليها . وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه ، فيجمد ، وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ، ويسمونها أيضا بجلد الفرس .

وهى كثيرة الألبان وتجلب منها الى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمجد .

وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبدانى ، كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق .

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره . ويصنع بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها أخرى الى أن يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة فى جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل فى حزامه . واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعا .

وكان دخولى لبعلبك عشية النهار ، وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقى الى دمشق .

وصف دمشق

ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم ، عام ستة وعشرين [1] الى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية .

ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها .

قال : وأما دمشق فهى جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم : هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ،

(1) يعنى بعام ستة وعشرين : عام ٧٢٦ للهجرة . ويوافق دخوله دمشق أوائل شهر أغسطس من عام ١٣٢٦ للميلاد .

والأكمام بالثمر [1] ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، ولله صدق القائلين عنها : ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها .

***

قال ابن جزى : وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال :

ان تكن جنة الخلود بأرض
فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها
قد أبدَّت هواءها وهواها [2]
بلد طيب ورب غفور
فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادى آشى ، نزيل تونس ، ونص كلام ابن جبير ... ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد .

قال ابن جزى : والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة ، وكان والدى ، رحمه الله ، كثيرا ما ينشد فى وصفها هذه الأبيات ، وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى :

دمشق بنا شوق اليها مبرح
وأن لجّ واش أو ألح عذولْ

(1) جمع كم (بكسر الكاف وتشديد الميم) وهو غلاف الثمر .

(2) يقال : أبد العطاء بين الناس أعطى كلا بدته (بالباء المضمومة والدال المشددة المفتوحة ، على وزن عدته) اى حاجته .

بلاد بها الحصباء در وتربها
عبير وأنفاس الشمال شمولْ
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر . وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى :

الشام شامة وجنة الدنيا كما
انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضى
ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضا فيها :

أما دمشق فجنات معجلة
للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر
الا يغنيه قمرى وشحرور [1]
ياحبذا ودروع الماء تنسجها
أنامل الريح الا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك .

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعد العنسى الغرناطى ، المدعو نور الدين :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا
مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القصب [2] راقصة والطير صادحة
والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها
لكنها بظلال الدوح تستتر
وكلّ واد به موسى يفجره
وكل روض على حافاته الخضر

(1) طائر أسود أكبر من العصفور ، حسن الصوت ، والجمع شحارير .

(2) جمع قصباء : وهى جماعة القصب ونبتها .

وقال فيها أيضا :

أما دمشـــق فجنـــة
ينسى بهـا الوطن الغريب
لله أيـام الســبو
ت بها ومنظـرها العجيب
انظـر بعينـك هل ترى
الا محبـا أو حبيب
فى موطن غنى الحمـا
م به على رقص القضـيب
وغدت أزاهر روضـه
تختـال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودوحات الأشـجار ، بين البساتين النضرة ، والمياه الجـارية ، فيـكونون بها يومهم الى الليل .

وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشـق ، فلنرجع الى كلام الشيخ أبى عبد الله .

***

ذكر جامع دمشق
المعروف بجامع بنى أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه .

وكان الذى تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث اليه الصناع ، فبعث اليه اثنى عشر ألف صانع .

وكان موضع المسجد كنيسة ، فلما افتتـح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه من أحدى جهاتها بالسيف ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجدا ، وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة .

فلما عزم الوليـد على زيادة الكنيسـة فى المسجد ، طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم .

وكانوا يزعمون أن الذى يهدمهـا يجن ، فذكروا ذلك للوليد ، فقال : أنا أول من يجن فى سبيل الله ، وأخذ الفأس وجعـل يهـدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم .

وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبـة الحسن .

وذرع المسجد فى الطـول من الشرق الى الغرب مائتـا خطوة ، وهى ثلاثمائة ذراع ، وعرضه من القبـلة الى الجـوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتـا ذراع [1] . وعدد « شمسات » الزجاج الملونة التى فيـه أربع وسبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب ، سعة كل بلاط منها ثمـانى عشرة خطوة ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جصـية تتخللها ، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون ، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها ، وهى تقـل قبـة الرصاص التى أمام المحراب المسـماة بقبـة

(١) الاصح : مائتا ذراع وذراعان ونصف ذراع .

النسر ، كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا ، والقبة رأسه .

وهي من أعجب مباني الدنيا ، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء ، منيفة على جميع مباني البلد .

وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية ، سعة كلٍّ بلاط منها عشر خطى .

وبها من السواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة ، وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا .

وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا [1] ، فمن قارىء ومحدث ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة . واذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه .

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب ، احداها في غربيه وهي أكبرها ، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ، وهي قائمة على ثماني سوار من الرخام ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقوفة بالرصاص ، يقال ان مال الجامع كان يختزن بها .

وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبا في كل سنة .

والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى الا أنها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سواري الرخام ، وتسمى قبة زين العابدين .

والقبة الثالثة في وسط الصحن ، وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع ، وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس ، يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين [1] ، وهم يسمونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب .

وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد بديع الوضع ، يسمى مشهد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية .

وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، الى الشام . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم . وهناك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا .

وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع في الاسلام ، وفيه يؤم امام المالكية ، وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم .

ولهذا المسجد ثلاث صوامع ، احداها بشرقيه وهي من بناء الروم ، وبابها داخل المسجد ، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء ، يغتسل فيها المعتكفون والملازمون للمسجد ويتوضئون .

---

(1) يجمع عشية : وهي آخر النهار .

(1) فضة .

والصومعة الثانية بغربيه ، وهى أيضا من بناء الروم .

والصومة الثالثة بشماله ، وهى من بناء المسلمين .

وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا .

وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهى لطائفة الزيالعة [1] السودان [2] .

وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام ، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين ، مكسو بثوب حرير أسود معلم ، فيه مكتوب بالأبيض « يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » .

وهذا المسجد شهير الفضل . وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى أن الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وفى الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة . ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام ، وأن قبره به .

وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن ، بموضع يقال له الأحقاف ، بنية فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم .

ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة ، الا قليلا من الزمان ، كما سنذكره . والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح ، فيقرأون سبعا من القرآن ، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون من سورة الكوثر الى آخر

(١) نسبة الى زيلع على بحر الحبشة .
(٢) جمع اسود .

القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم ، وهم نحو ستمائة انسان ، ويدور عليهم كاتب الغيبة ، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ، ويتوضئون من المطاهر التى بداخل الصومعة الشرقية التى ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك .

وفى هذا المسجد أربعة أبواب : باب قبلى يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين [1] ، ومنه يذهب الى دار الخيل . وعلى يسار الخارج منه سماط الصفارين [2] ، وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى ، من أحسن أسواق دمشق .

وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ودور قومه ، وكانت تسمى الخضراء ، فهدمها بنو العباس رضى الله عنهم ، وصار مكانها سوقا ، وباب شرقى وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جيرون ، وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل ، أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه ، وبازائه

(١) جمع سقاط ، وهو بائع السقط ، وهو ردىء المتاع .
(٢) الصفارون صناع النحاس ، وهو الصفر (بالصاد المضمومة والفاء الساكنة) .

مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبه ماء جار .

وقد انتظمت أمام البلاط درج يتحدر فيها الى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل بباب عظيم الارتفاع ، تحته أعمدة كالجذوع طوال .

وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين [1] وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أوانى الزجاج العجيبة .

وفى الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب ، يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول ، والعاقد للزواج من قبل القاضى . وسائر الشهود مفترقون فى المدينة . وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد .

وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام . وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الانسان ، يسمونه الفوارة ، منظره عجيب .

وعن يمين الخارج من باب جيرون — وهو باب الساعات — غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة ، لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة ، فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهرا والظاهر الأصفر باطنا . ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات .

والباب الغربى يعرف بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية ، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه . وبأعلاه باب يصعد اليه فى درج ، له أعمدة سامية فى الهواء . وتحت الدرج سقايتان [1] عن يمين وشمال مستديرتان . والباب الجوفى يعرف بباب النطفانيين ، وله دهليز عظيم . وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية ، فى وسطها صهريج ماء ، ولها مطاهر يجرى فيها الماء . ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة ، دار وضوء ، يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة .

ذكر الأئمة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر اماما .

أولهم امام الشافعية . وكان فى عهد دخولى اليها امامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد ابن عبد الرحمن القزوينى ، من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد ، وسكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة ، وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية رضى الله عنه . وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية ، بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت عليه دينا بدمشق .

وإذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام

(1) باعو الثياب »

(1) السقاية ما يستقى منه »

الصلاة امام مشهد علي ، ثم امام مشهد الحسين ، ثم امام الكلاسة ، ثم امام مشهد أبي بكر ، ثم امام مشهد عمر ، ثم امام مشهد عثمان ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثم امام المالكية . وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي ، القرطبي الأصل الغرناطي المولد ، نزيل دمشق . وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله .

ثم امام الحنفية . وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ، وهو من كبار الصوفية ، وله شياخة الخانقاه الخاتونية ، وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى .

ثم امام الحنابلة . وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف ، أحد شيوخ القراءة بدمشق .

ثم ، بعد هؤلاء ، خمسة أئمة لقضاء الفوائت ، فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل ، وكذلك قراءة القرآن ... وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك .

ذكر المدرسين والمعلمين به

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسي مرتفعة . وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية [1] من سواري المسجد ، يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى ، وانما يقرءون القرآن تلقينا .

ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره .

ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركح الشافعي .

ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر ابن الصائغ ، من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه الى أبي اليسر خلعة [2] والأمر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك .

ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهبل من كبار العلماء ، هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها ، خوفا من أن يقلد القضاء ، فاتصل ذلك بالملك الناصر ، فولي قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية ، قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القونوي ، وهو من كبار الفقهاء .

ومنهم الامام الفاضل بدر الدين علي السخاوي المالكي ، رحمة الله عليهم أجمعين .

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني .

وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم ، حسن الصورة والهيئة ، من كبار الرؤساء . وهو شيخ شيوخ الصوفية ، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي . ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية .

(١) أسطوانة .

(٢) الكسوة .

وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى . وكان شديد السطوة ، واليه يتحاكم النساء وأزواجهن ، وكان الرجل اذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول اليه .

وأما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم ، من خيار القضاة ، ينصرف على حمار له . ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف .

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية ، كبير الشام ، يتكلم فى الفنون الا أن فى عقله شيئا . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر .

وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه الى الملك الناصر ، فأمر باشخاصه [1] الى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال : ان هذا الرجل قال كذا وكذا ... وعدد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدى قاضى القضاة .

وقال قاضى القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟

قال : لا اله الا الله .

فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله ، فأمر الملك الناصر بسجنه ، فسجن أعواما . وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن ، سماه بالبحر المحيط ، فى نحو أربعين مجلدا . ثم ان أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه ، فأمر باطلاقه الى أن وقع منه مثل ذلك ثانية .

وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا . ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به . فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالأيدى والنعال ضربا كثيرا ، حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه « شاشية » حرير فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك . فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر الى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب الى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة : منها أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ، ومنها أن المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف — زاده الله طيبا — لا يقصر الصلاة ، وسوى ذلك مما يشبهه ، وبعث العقد الى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات فى السجن .

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس ، أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضى القضاة . وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضى . ومن نوابه فخر الدين القبطى ، كان والده من كتاب القبط وأسلم . ومنهم جمال الدين بن

(1) باحضاره .

جملة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمر أوجب عزله .

حكاية

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى ، وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه ، فحضر يوما بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة ، فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين : كذبت !

فأنف القاضى من ذلك وامتعض له ، فقال للأمير : كيف يكذبنى بحضرتك ؟

فقال له الأمير : احكم عليه .

وسلمه اليه ، وظنه أنه يرضى بذلك فلا يناله بسوء . فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط ، وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ، ومناد ينادى عليه ... فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة ... وهكذا العادة عندهم !

فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الانكار ، وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مذهبه ، فان التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد . وقال قاضى القضاة المالكية شرف الدين : قد حكمت بتفسيقه ...

فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله .

وللحنفية مدارس كثيرة . وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين ، وبها يحكم قاضى القضاة الحنفية .

وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس : احداها الصمصامية ، وبها سكن قاضى القضاة المالكية وقعوده للأحكام . والمدرسة النورية ، عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى . والمدرسة الشرابشية ، عمرها شهاب الدين الشرابشى التاجر .

وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب : منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابية ، ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم .

***

قال محمد بن جزى : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله :

دمشق فى أوصافها   جنة خلد راضية
أما ترى أبوابها   قد جعلت ثمانية

***

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التى بين البابين — باب الجابية والباب الصغير — قبر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين ، وقبر أويس القرنى ، وقبر كعب الأحبار ، رضى الله عنهما .

ووجدت فى كتاب « المعلم فى شرح صحيح مسلم » للقرطبى أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة الى الشام ، فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء ،

فتحيروا في أمره ، فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء ، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا .

فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر .

قال ابن جزى : ويقال : ان أويسا قتل بصفين مع على [1] عليه السلام ، وهو الأصح .

ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبى بن كعب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها قبر العابد الصالح أرسلان ، المعروف بالباز الأشهب .

حكاية
في سبب تسميته بذلك

يحكى أن الشيخ الولى أحمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط ، وكانت بين ولى الله تعالى أبى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر ...

وكان للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته . فلما كان فى احدى السنين جذها — على عادته — وترك عذقا منها وقال : هذا برسم أخى شعيب .

فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة ، واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ، ومع الشيخ أحمد خادمه رسلان فتفاوضا الكلام ، وحكى الشيخ حكاية العذق ، فقال له رسلان : عن أمرك ياسيدى آتيه به ؟

فأذن له ، فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما . فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء .

***

وبغربى دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبى الدرداء وزوجه أم الدرداء ، وقبر فضالة بن عبيد ، وقبر واثلة بن الأسقع ، وقبر سهل بن حنظلة ... من الذين بايعوا تحت الشجرة ، رضى الله عنهم أجمعين .

وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق ، وعلى أربعة أميال منها ، قبر سعد بن عبادة رضى الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجر مكتوب فيه : هذا قبر سعد بن عبادة ، رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وبقرية قبلى البلد ، وعلى فرسخ منها ، مشهد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة عليهم السلام . ويقال ان اسمها زينب ، وكناها النبى صلى الله عليه وسلم أم كلثوم ، لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه مسجد كريم ، وحوله مساكن وله أوقاف ، ويسميه أهل دمشق « قبر الست أم كلثوم » ، وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن على عليه السلام .

وبجامع النيرب — من قرى دمشق — فى بيت بشرقيه ، قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام .

وبقرية تعرف بداريا غربى البلد وعلى أربعة أميال منها ، قبر أبى مسلم الخولانى ، وقبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما .

(1) اى انه كان فى جيش على .

ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام ، وهو فى قبلى دمشق على ميلين منها ، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر ، وهو مسجد عظيم كثير البركة ، وله أوقاف كثيرة ، ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا . والأقدام التى ينسب اليها هى أقدام مصورة فى حجر هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام . وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم فيقول له : هاهنا قبر أخى موسى عليه السلام » .

وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الأحمر .

وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود .

حكاية

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق ، فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة تسع وأربعين ، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه ، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه ، أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا ، وأكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق . فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع ، حتى غص بهم ، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف ، والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام ، وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال ، وعادوا الى البلد ، فصلوا الجمعة . وخفف الله تعالى عنهم بعد ما انتهى عدد الموتى الي ألفين فى اليوم الواحد . وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد .

وبالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال انها التى ينزل عيسى عليه السلام عندها حسب ما ورد فى « صحيح مسلم » .

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها — ما عدا الشرقية — أرباض فسيحة الساحات ، دواخلها أملح من داخل دمشق ، لأجل الضيق الذى فى سككها .

وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية ، وهى مدينة عظيمة ، لها سوق لا نظير لحسنه ، وفيها مسجد جامع ومارستان ، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر ، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس . وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجى . وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل في شمال دمشق ، والصالحية في سفحه ، وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير ، وله صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس على ما ورد في الكتاب العزيز . وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه .

وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص[1] ما بين الحلة وبغداد ، يقال : ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها . وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام ، وبها قبره .

ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام ، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا محمرا ، وهو الموضع الذي قتله أخوه به ، واجتره الي المغارة[2] .

ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط ، صلى الله عليهم أجمعين . وعليها مسجد متقن البناء ، يصعد اليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسكنى ، ويفتح في كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسرج توقد في المغارة .

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام ، وعليه بناء ، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع ، يذكر أنه أوى اليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام . وكان عندهم

(١) برص ، بباء عليها ضمة وراء ساكنة .
(٢) هذا الى الخرافة اقرب .

رغيف ، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا ، صلى الله عليهم[1] .

وعلى هذه المغارة مسجد مبني ، والسرج توقد به ليلا ونهارا . ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة .

ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون ، مدفن سبعمائة نبي ، وبعضهم يقول سبعين ألفا ...

وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهي مدفن الأولياء والصالحين ، وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة ، غلب عليها الماء ، يقال انها مدافن سبعين نبيا ، وقد عادت قرارا للماء ونزهت من أن يدفن فيها أحد ...

ذكر الربوة والقرى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ، ذات القرار والمعين ، ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها . وبها القصور المشيدة ، والمباني الشريفة ، والبساتين البديعة . والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير ، وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام ، يبادر الناس الى الصلاة فيها .

وللمأوى باب حديد صغير ، والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة ، وسقاية حسنة ، ينزل لها الماء من علو ، وينصب في شاذروان[2] في الجدار ، يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه

(١) ذلك أشبه بالاساطير .
(٢) الشاذروان هنا مجرى . وتتضمن هذه الكلمة بالفارسية التغطية والستر . وهو هنا كذلك .

الماء ، ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء .

وهــذه الربوة المبــاركة هى رأس بساتين دمشق ، وبها منــابع مياهــا . وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ فى جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم .

وأكبر هذه الأنهار ، النهر المسمى بتورة ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نحت له مجرى فى الحجــر الصلد كالغار الــكبير . وربمــا انغمس ذو الجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة ، واندفع فى المــاء حتى يشــق مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهى مخاطرة عظيمة .

وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولهــا من الحسن واتســاع مسرح الأبصار ما ليس لسواها .

وتلك الأنهار السبعة تذهب فى طرق شتى ، فتحار الأعين فى حسن اجتماعهــا وافتراقهــا واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف ، ولهــا الأوقاف الــكثيرة مــن المزارع والبســاتين والرباع ، تقام منها وظائفهــا للامام والمؤذن والصادر والوارد .

وبأسفل الربوة قرية النيرب ، وقد تكاثرت بســاتينها ، وتــكاثفت ظلالهــا ، وتــدانت أشجارها ، فلا يظهر من بنائهــا الا ما ســما ارتفاعه . ولها حمــام مليح ، ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة فيــها بيوت عدة يجرى فيها الماء .

وفى القبلى من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب ، نسبة الى قبيــلة كلب ، وكانت اقطاعا لهم . واليها ينسب الامام حافظ الدنيا ، جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبى المزى ، وكثير سواه من العلماء . وهى من أعظم قرى دمشق ، بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة .

وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم .

وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الآلهة ، وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر [1] كان ينحت فيها الأصنام ، فيكسرها الخليل عليه السلام . وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخــام الملونة المنظمــة بأعجب نظام وأزين التئام .

ذكر الأوقاف بدمشق
وبعض فضائل أهلها وعاداتهم

والأوقــاف بدمشــق لا تحصر أنواعهــا ومصارفها لكثرتها : فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى من يحج عن الرجل منهــم كفايتــه . ومنهــا أوقاف تجهيز البنــات الى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن . ومنها أوقاف لفــكاك الأسارى . ومنها أوقاف لأبنــاء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم . ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبــان بين ذلك . ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

حــكاية

مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به

(1) آزر هو أبو سيدنا ابراهيم عليه السلام .

مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها [1] واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني . فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فان سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبرا للقلوب . جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير الى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد . وهم يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد . وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش : من امامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه ، محفوظا عما يزرى بالمروءة ، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة ، أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك .

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده ألبتة : فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فانهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ، ويأتى كل واحد بما عنده ، فيفطرون جميعا .

ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة . فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان ، فحضرت عنده أربع ليال ، ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه ، فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا ، فرجعت اليه وبت عنده . فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك ، وقال لى : احسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك . وأمر باحضار طبيب ، وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء . وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى .

وقد كان ما عندى من النفقة نفد ، فعلم بذلك ، فاكترى لى جمالا وأعطانى الزاد وسواه ، وزادنى دراهم ، وقال لى : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم ، جزاه الله خيرا .

وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى ، من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه ، فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة .

وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره .

وكان بها فاضل من كبرائها ، وهو الصاحب عز الدين القلانسى ، له مآثر ومكارم وفضائل

(١) الشقف : الخزف او مكسره .

وايثار ، وهو ذو مال عريض . وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام ، فسماه اذ ذاك بالصاحب .

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت ، أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره ، وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرءون سبعا من القرآن الكريم فى كل يوم اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة — رضى الله عنهم — حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا ، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد ، كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها ، ويقف بهم أئمتهم كاشفى رءوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة . ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ، ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال ، وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى أن تغيب الشمس ، فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين الى الله تعالى أن يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه .

ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة ، والقراء يقرءون القرآن بالأصوات الحسنة ، والتلاحين المبكية ، التى تكاد النفوس تطير لها رقة [1] .

(1) لا يزال فى مصر شىء من ذلك ، وهو بدعة غير مستحسنة شرعا .

وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع ، قبالة المقصورة . فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه ، وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ، وأدخلوا الجنازة . وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربى من الصحن بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرءون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون باسم الله ، فلان الدين ، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك . فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ، ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز أيضا ، زائدة على ذلك : وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين [1] والياسمين ، وذلك النوار لا ينقطع عندهم . ويأتون بأشجار الليمون والأترج ، ويجعلون فيها حبوبا ان لم تكن فيها ، ويجعل سرادق يظلل الناس نحوه ، ويأتى القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ، ويؤتى بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءا . فاذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضى ويقوم قائما ، ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر أقاربه

(1) ورد أبيض عطرى قوى الرائحة .

ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعيا له . وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رءوسهم الي سمت الجهة التي بها السلطان . ثم يقعد القاضى ، ويأتون بمـاء الورد ، فيصب علي الناس صبا ، يبدأ بالقاضى ثم من يليه كذلك الى أن يعم الناس أجمعين . ثم يؤتى بأواني السكر — وهـو الجـلاب محلولا بالماء — فيسقون الناس منه ، ويبـدءون بالقاضي ومن يليـه ، ثم يؤتي بالتانبـول ، وهو اليقطين الهندى ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به . فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع [1] . واذا مات الميت لم يأكل أهله التانبول الا فى ذلك اليوم ، فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه ، فيعطيها ولى الميت فيأكلهـا ، وينـصرفون حينئـذ . وسيأتى ذكر التانبول ان شاء الله تعالى .

ذكر سماعي بدمشق
ومن أجازني من أهلهـا

سمعت بجـامع بنى أميـة — عمـره الله بذكره — جميع صحيـح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخارى رضى الله عنه ، على الشيخ المعمر ، رحلة الآفاق ، ملحق الأصاغر بالأكابر ، شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرىء الصالحى ، المعروف بابن الشحنة الحجازى ، فى أربعة عشر مجلسا ، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه ، بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن يوسف البرزالي ، الاشبيلي الأصل ، الدمشقي ، فى جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل ابن عبد الله بن الغزال الصيرفى ، بسماع الشيخ أبى العباس الحجازى لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن يحيي بن عـلى بن المسيح بن عمران الربيعى البغدادى الزبيـدى الحنبلى ، فى أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة ، بالجامع المظفـرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ، وباجازته فى جميع الكتاب من الشيخين أبى الحسن محمد ابن أحمد بن عمـر بن الحسـين بن الخلف القطيعى المؤرخ ، وعلى بن أبى بكر بن عبد الله بن روبة القلانسى العطار البغدادى . ومن « باب غيرة النسـاء ووجـدهن » الى آخر الكتاب من أبي النجا عبد الله بن عمر بن على ابن زيد بن اللتى الخزاعى البغدادى ، بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين بن أبى الوقت عبد الأول بن عيسى بن شـعيب بن ابراهيم السجزى الهروى الصـوفى ، فى سـنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغـداد ، قال : أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمـد بن المظفر بن محمـد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودى ، قراءة عليه وأنا أسمع ، ببوشنج سـنة خمس وستين وأربعمائة ، قال : أخبرنا أبو محمـد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أيمن السرخسى ، قراءة عليه وأنا أسمع ، فى صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمـائة ، قال : أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيـم الفربرى ، قراءة عليـه وأنا أسمع ، سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر ، قال :

(1) جمع خلعة بالكسر ، ما يخلع على الانسان ، وخيار المال .

أخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى رضى الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ، ومرة ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين .

وممن أجازنى من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازى المذكور ، سبق الى ذلك وتلفظ لى به .

ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسى ، ومولده فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي .

ومنهم امام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبى ، حافظ الحفاظ .

ومنهم الشيخ الامام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى ، والشيخ الامام الشريف محيى الدين يحيى بن محمد بن على العلوى .

ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبى عبد الله بن المعلى الدمشقى ، ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة .

ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندرى .

ومنهم الشيخ الامام ولى الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام ، والشيخان الأخوان : شمس الدين محمد ، وكمال الدين عبد الله ، ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبى عمر المقدسى ، والشيخ العابد شمس الدين محمد ابن أبى الزهراء بن سالم الهكارى ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم ابن سلامة الحرانى ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى ...

كل هؤلاء أجازنى اجازة عامة فى سنة ست وعشرين بدمشق .

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى الى خارج دمشق ، ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة ، فأخذت فى الحركة معهم . وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء ، وقاضيه شرف الدين الأذرعى الحورانى .

وحج فى تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغمارى . وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العجارمة ، أميرهم محمد بن رافع ، كبير القدر فى الأمراء .

وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة . ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة ، وهى صغيرة من بلاد حوران . نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى ، وهى صغيرة . ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه .

والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث فى تجارة خديجة ، وبها مبرك ناقته ، قد بنى عليه مسجد عظيم . ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزى ، ويقيمون عليها يوما ، ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجارى . ثم يرحلون الى حصن الكرك ، وهو

من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ، ويسمى بحصن الغراب ، والوادي يطيف به من جميع جهاته . وله باب واحد قد نحت المدخل اليه فى الحجر الصلد [1] ومدخل دهليزه كذلك .

وبهذا الحصن يتحصن الملوك ، واليه يلجئون فى النوائب . وله لجأ الملك الناصر ، لأنه ولى الملك وهو صغير السن ، فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه ، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك . فتوجه الى الحج ، فلما وصل عقبة أيلة لجأ الى الحصن وأقام به أعواما الى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك . وكان قد ولى الملك فى تلك المدة بيبرس الششنكير ، وهو أمير الطعام ، وتسمى بالملك المظفر . وهو الذى بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء ، التى بناها صلاح الدين بن أيوب . فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء . فتبعته العساكر وقبض عليه ، وأتى به الى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل . وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا . ويقال انه أكل جيفة من الجوع ، نعوذ بالله من ذلك .

وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام ، بموضع يقال له الثنية ، وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التى يقال فيها : داخلها مفقود وخارجها مولود . وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج ، وهى حسيان [1] لا عمارة بها ، ثم الى وادي بلدح ، ولا ماء به .

وصف تبوك

ثم الى تبوك — وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم — وفيها عين ماء كانت تبض [2] بشيء من الماء ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها ، جادت بالماء المعين ، ولم يزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن عادة حجاج الشام أنهم اذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ، ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال ، واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العلا وتبوك .

ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ، يسقون منها الجمال ويملئون الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم .

ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية ، وفى وسطها

(1) الصلب الاملس .

(1) لم نر هذا الجمع . وفى القاموس : الحسى (بفتح الحاء وكسرها مع سكون السين) ، والحسى (على وزن الى) ، سهل من الارض يستنقع فيه الماء . جمعه أحساء وحساء .

(2) تسيل .

الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم ، أعاذنا الله منها . وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب ، فانتشفت المياه ، وانتهت شربة الماء الى ألف دينار . ومات مشتريها وبائعها ، وكتب ذلك في بعض صخر الوادي .

ومن هنالك ينزلون بركة المعظم ، وهي ضخمة ، نسبتها الى الملك المعظم من أولاد أيوب . ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها .

وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر : حجر ثمود . وهي كثيرة الماء ، ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر ألا يسقى منها أحد .

وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة ، لها عتب منقوشة ، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة . وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ، ان في ذلك لعبرة .

ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك ، وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه .

وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه . والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة ، يقيم بها الحجاج أربعا ، يتزودون ويغسلون ثيابهم ، ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبون قدر الكفاية .

وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه .

ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس ، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة ، هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير ، وتعرف تلك السنة بسنة الأمير الجالقي .

ومنه ينزلون هدية ، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق .

وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

طيبة مدينة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

وفي عشي ذلك اليوم ، دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم ، فوقفنا بباب السلام مسلمين ، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم ، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة . وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين ، وشفيع العصاة والمذنبين ، الرسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، وشرف وكرم ، وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق ، رضي الله عنهما .

وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى ، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى ، حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ، ومشاهده العظيمة المنيفة ، داعين ألا يجعل ذلك آخر عهدنا بها ، وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته .

ذكر مسجد رسول الله
وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل ، تحف به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل . ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم .

وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله ، وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت ، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان .

وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة ، هو قبالة الوجه الكريم . وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم ، مستدبرين القبلة ، فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق . ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ، ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما .

وفي الجوف من الروضة المقدسة زادها الله طيبا ، حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب ، يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ويقال أيضا : هو قبرها ، والله أعلم .

وفي وسط المسجد الكريم دفة [1] مطبقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج يفضي الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الى داره . ولا شك أنه هو الخوخة التي ورد ذكرها في

(١) شيء كاللوح .

الحديث ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ما سواها . وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما .

وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه .

وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج . ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول ، فنزل على بني عمرو ابن عوف ، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليال . ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده .

وكان موضع المسجد مربدا [1] لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار ، وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة ، رضي الله عنهم أجمعين . وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه . فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد ، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه ، وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطا ، ولم يجعل له سقفا ولا أساطين ، وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك ، وقيل ان عرضه كان

(١) المربد (على وزن معطف) موضع الابل أو موضع التمر .

دون ذلك ، وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة . فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى سقفه ، فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدها . فلما أمطرت السماء وكف [1] المسجد ، فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمله بالطين ، فقال : « كلا ، عريش كعريش موسى ؟ (أو : ظلة كظلة موسى ؟) والأمر أقرب من ذلك ! » .

قيل : وما ظلة موسى ؟

قال صلى الله عليه وسلم : كان اذا قام أصاب السقف رأسه .

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ، ثم سد الجنوبى منها حين حولت القبلة . وبقى المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبى بكر رضى الله عنه .

فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وقال : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول : ينبغى أن نزيد فى المسجد ... ما زدت فيه .

فأنزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن ، وجعل الأساس حجارة الى القامة ، وجعل الأبواب ستة ، منها فى كل جهة — عدا القبلة — بابان . وقال فى باب منها : ينبغى أن نترك هذا للنساء ، فمارى فيه حتى لقى الله عز وجل . وقال : لو زدنا فى هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأراد عمر أن يدخل فى المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى عنهما ، فمنعه منه ، وكان فيه ميزاب يصب فى المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس ، فنازعه العباس ، وحكما بينهما أبى بن كعب رضى الله عنهما ، فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ، ثم دخلا اليه فقال : كانت جاريتى تغسل رأسى . فذهب عمر ليتكلم فقال له أبى : دع أبا الفضل يتكلم ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

فقال العباس : خطة خطها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وبنيتها معه ، وما وضعت الميزاب الا ورجلاى على عاتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها فى المسجد .

فقال أبى : ان عندى من هذا علما ... سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول : أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت الله المقدس ، وكان فيه بيت ليتيمين ، فراودهما على البيع فأبيا ، ثم راودهما فباعاه ، ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ، ثم رداه كذلك ، فاستعظم داود الثمن ، فأوحى الله اليه : ان كنت تعطى من شىء هو لك فأنت أعلم ، وان كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا . وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لى ، وقد حرمت عليك بناءه .

قال : يارب فأعطه سليمان .

فأعطاه سليمان عليه السلام .

فقال عمر : من لى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله ؟

فخرج أبى الى قوم من الأنصار فأثبتوا له ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه : أما انى لو لم

(1) وكف : سال .

أجد غيرك أخذت قولك ، ولكنني أحببت أن أثبت .

ثم قال للعباس رضى الله عنه : والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ...

ففعل العباس ذلك ثم قال : أما اذا أثبتت لي فهي صدقة لله ... فهدمها عمر وأدخلها فى المسجد .

ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه ، وبناه بقوة وباشره بنفسه ، فكان يظل فيه نهاره ، وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته ، الا جهة الشرق منها ، وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج [1] وصنع له محرابا .

وقيل ان مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد . ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ فى اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب .

وكان الوليد بعث الى ملك الروم : انى أريد أن أبنى مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعنى فيه . فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب .

وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فيه ، فاشترى عمر من الدور ما زاده فى ثلاث جهات من المسجد . فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله ابن عمر عن بيع دار حفصة ، وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها ، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد ، وهى الخوخة التى فى المسجد .

وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى أربعة أركانه ، وكانت احداها مطلة على دار مروان . فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها ، فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها .

وجعل عمر للمسجد محرابا ، ويقال : هو أول من أحدث المحراب .

ثم زاد فيه المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وكان أبوه همّ بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيادة فيه من جهة الشرق ، ويقول : انه ان زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم . فاتهمه أبو جعفر بأنه انما أراد هدم دار عثمان رضى الله عنه ، فكتب اليه : انى قد عرفت الذى أردت ، فاكفف عن دار عثمان . وأمر أبو جعفر أن يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن ، لتكن المصلين من الحر .

وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع ، فبلغه المهدى الى ثلثمائة ذراع ، وسوى المقصورة بالأرض ، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين ، وكتب اسمه على مواضع من المسجد .

ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام ، فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر ، وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت ، وأجرى اليها الماء . وأراد أن يبنى بمكة — شرفها الله تعالى — مثل ذلك فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة ، وسيذكر ان شاء الله .

وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) نوع من الشجر .

تسليما قبلة قطع [1] لأنه صلى الله عليه وسلم تسليما أقامها ، وقيل : أقامها جبريل عليه السلام ، وقيل : كأن يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها . وروى أن جبريل عليه السلام أشار الى الجبال فتواضعت وتنحت حتى بدت الكعبة ، فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبنى وهو ينظر اليها عيانا . وبكل اعتبار فهى قبلة قطع . وكانت القبلة أول ورود النبى صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ، ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا ، وقيل بعد سبعة عشر شهرا .

ذكر المنبر الكريم

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن . وقال : لو لم ألتزمه لحن الى يوم القيامة [2] .

واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم . فروى أن تميما الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه ، وقيل : ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه ، وقيل : غلام لامرأة من الأنصار ، وورد ذلك فى الحديث الصحيح .

وصنع من طرفاء الغابة ، وقيل من الأثل [3] . وكان له ثلاث درجات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ، ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن . فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ، ثم ترقى الى الثالثة .

ولما أن صار الأمر الى معاوية رضى الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام ، فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الأرض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلكه .

فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات .

ذكر الخطيب والامام
بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى الى المدينة ، بهاء الدين بن سلامة ، من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد ، بقية المشايخ ، عز الدين الواسطى نفع الله به . وكان يخطب قبله ، ويقضى بالمدينة الشريفة ، سراج الدين عمر المصرى .

حكاية

يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة . ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات ، فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك ، وخرج فمات بموضع يقال له سويس ، على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل اليها . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

(١) أى قبلة مقطوع بصحتها .
(٢) لم يثبت حنين الجذع ثبوت قطع .
(٣) الطرفاء والأثل (بفتح الهمزة وسكون الثاء) نوعان من الشجر .

وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد ابن فرحون رحمه الله . وابناه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد . وأصلهم من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة .

وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي من أهل مصر ، وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم . وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف . وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام . وهو في هيئة الأمراء الكبار . ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى اليهم بها في كل سنة .

ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى ، من مطرية ، قرية بمصر ، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله ، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس ، قديم المجاورة . وهو الذى جب نفسه خوفا من الفتنة .

حكاية

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطي كان خادما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى ، وكان الشيخ حسن الظن به ، يطمئن اليه بأهله وماله ، ويتركه متى سافر بداره ، فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله ، فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه ، فقال : انى أخاف الله ولا أخون من ائتمننى على أهله وماله . فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة ، فجب نفسه ، وغشى عليه ، ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برىء وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ، ورأس الطائفتين ، وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد .

ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق ، كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، صابرا محتسبا .

وكان ربما جاور بمكة المعظمة ، رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا ، وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف ، والمطاف مفروش بالحجارة السود ، وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة . ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه . وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس مرزوق يطوف حافي القدمين . ورأيته يوما يطوف ، فأحببت أن أطوف معه ، فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الأسود فلحقنى لهب تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم أطف ، وكنت أجعل بجادى على الأرض وأمشى عليه حتى بلغت الرواق .

وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدى ، وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا . ولم يكن

يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر . وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادة عليه ...

ومن المجاورين بالمدينـة — كرمها الله — الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشى الكفيف .

ومنهم الشيخ أبو مهدى عيسى بن حزرون المكناسى .

حكاية

جاور الشيخ أبو مهدى بمكة سنة ثمـان وعشرين ، وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين ، فلما صعدوا الجبـل ووصلوا لمتعبد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدى عن الجماعة ، ورأى طريقا فى الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ، ووصـل أصحابه الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت ، فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا أنه سبقهم ، فمضوا الى مكة شرفها الله تعالى .

ومر عيسى على طريقه فأفضى به الى جبـل آخر ، وتاه عن الطـريق ، وأجهـده العطش والحر ، وتمزقت نعله فكان يقطـع من ثيابه ويلف على رجليه الى أن ضـعف عن المشى ، واستظل بشجرة أم غيلان ، فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فأعلمه بحاله فأركبه وأوصله الى مكة ، وكان على وسطه هميـان فيه ذهب فسلمـه اليـه ، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه ، وذهبت جلدتهمـا ونبتت لهما جلدة أخرى ... وقد جرى مثـل ذلك لصاحب لى أذكره أن شاء الله .

ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمـد الشروى من القراء المحسنين . وجاور بمكة فى السنة المذكورة ، وكان يقرأ بها كتاب الشـفاء للقاضى عياض بعد صـلاة الظهـر ، وأم فى التراويح بها .

ومن المجاورين الفقيه أبو العبـاس مدرس المالكية بها ، وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندى .

حكاية

يذكر أن أبا العباس الفاسى تكلم يوما مع بعض الناس ، فانتهى به الكلام الى أن يتـكلم بعظيمـة ارتكب فيهـا — بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه — مركبا صعبا ، عفا الله عنه ، فقال : ان الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام لم يعقب ، فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسنى فأنكر كلامه (ويحق انكاره) وأراد قتله فكلم فيه فنفـاه عن المدينـة ، ويذكر أنه بعث من اغتاله ، والى الآن لم يظهر له أثر ... نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله .

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أمير المدينـة كبيش بن منصـور بن جماز ، وكان قد قتل عمه مقبلا . ويقال : انه توضأ بدمه . ثم ان كبيشا خرج سنة سـبع وعشرين الى الفـلاة فى شـدة الحر ومعـه أصحابه . فأدركتهم القـائلة فى بعض الأيام ، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار ، فما راعهم الا وأبنـاء مقبـل فى جماعة من عبيدهم ينادون : يالثارات مقبـل ! فقتلوا كبيش بن منصـور صبرا ، ولعقوا دمه . وتولى بعده أخوه طفيل ابن منصور الذى ذكرنا أنه نفى أبا العبـاس الفاسى .

ذكر بعض المشاهد الكريمة
بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيع الغرقد ، وهو بشرقى المدينة المكرمة ، ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع .

فأول ما يلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ، وهى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأم الزبير بن العوام رضى الله عنه ، وأمامها قبر امام المدينة أبى عبد الله مالك [1] بن أنس رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ، ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وعليه قبة بيضاء . وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وهو المعروف بأبى شحمة . وبازائه قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما . وبازائهم روضة يذكر أن قبور أمهات المؤمنين بها ، رضى الله عنهن . ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب ، عليهم السلام . وهى قبة ذاهبة فى الهواء ، بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع . ورأس الحسن الى رجلى العباس عليهما السلام . وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متسعان مغشيان بألواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر [2] البديعة العمل .

وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، الا أنها لا يعرف أكثرها .

وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمرو عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعليه قبة كبيرة .

وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب رضى الله عنها وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قباء ، وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها ، والطريق بينهما فى حدائق النخل ، وبه المسجد الذى أسس على التقوى والرضوان ، وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة ، تظهر على البعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم تسليما ، يتبرك الناس بالصلاة فيه . وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما .

وفى قبلى المسجد دار كانت لأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، ويليها دور تنسب لأبى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم .

وبازائه بئر أريس ، وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا [1] ، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه .

ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة ، يقال ان الزيت رشح من حجر هنالك للنبى صلى الله عليه وسلم تسليما [2] .

---

(١) سيدنا مالك ، صاحب المذهب المشهور ، رضى الله عنه .

(٢) الصفر (بضم الصاد وسكون الفاء) النحاس .

(١) ليس هذا بثابت ثبوتا قطعيا .

(٢) ليس بثابت ثبوتا قطعيا .

والى جهة الشمال بئر بضاعة .

وبازائها جبل الشيطان ، حيث صرخ يوم أحد وقال : قتل نبيكم !

وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الأحزاب حصن خرب ، يعرف بحصن العزاب ، يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة .

وأمامه الى جهة الغرب بئر رومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين ألفا .

ومن المشاهد الكريمة أحد ، وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : ان أحدا جبل يحبنا ونحبه . وهو بجوار المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها ، وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم .

وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ورضى عنه ، وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد رضى الله عنهم ، وقبورهم لقبلى أحد .

وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومسجد ينسب الى سلمان الفارسى رضى الله عنه ، ومسجد الفتح ، حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام ، وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير ، وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه ، وبعضهم يذكرون الله ، وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا ، والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين .

وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل ، يعرف بمنصور بن شكل ، وأضافنى بها ، واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى . وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان . وصحبنى أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة ، يسمى بعلى بن حجر الأموى .

حكاية

لما وصلنا الى المدينة ، كرمها الله ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ذكر لى على بن حجر هذا أنه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له : اسمع منى واحفظ عنى :

هنيئا لكم يازائرين ضريحه
أمنتم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة
فطوبى لمن يضحى بطيبة أو يمسى

وجاوز هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ، ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند ، فى سنة ثلاث وأربعين ، فنزل فى جوارى . وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند ، فأمر باحضاره ، فحضر بين يديه وحكى له ذلك ، فأعجبه واستحسنه ، وقال له كلاما جميلا بالفارسية ، وأمر بانزاله وأعطاه ثلثمائة تنكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار ، وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام ، وخلعة ، وعين له مرتبا فى كل يوم .

وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية ، يعرف هنالك بجمال الدين المغربي ، فصحبه علي بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلاما . وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد . فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا ، فلما أتى الدار لم يجد لهما أثرا ، ولا للذهب . فامتنع عن الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه . فعرضت قضيته بين يدى الملك ، فأمر أن يخلف له ذلك ، فبعث اليه من يعلمه بذلك ، فوجده قد مات ... رحمه الله تعالى .

وصف الطريق الى مكة

وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى . فنزلنا بقرب مسجد ذى الحليفة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، والمدينة منه على خمسة أميال . وهو منتهى حرم المدينة . وبالقرب منه وادى العقيق . وهنالك تجردت من مخيط الثياب ، واغتسلت ولبست ثوب احرامى ، وصليت ركعتين ، وأحرمت بالحج مفردا .

ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وجدور ، الى أن أتيت شعب على عليه السلام ، وبه نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء ، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ، ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء ، وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم ، وفيها حصن كبير ، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأنجز وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين . وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع ، يدخل اليه من بطن واد بين جبال . وببدر عين فوارة يجرى ماؤها . وموضع القليب [1] الذى سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان ، وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء . وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد . ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة . وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى ، متصل بسفح جبل الطبول ، وموضع الوقيعة أمامه . وعند نخل القليب مسجد يقال له : مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . وبين بدر والصفراء نحو بريد [2] فى واد بين جبال تطرد فيه العيون ، وتتصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء ، وهى برية يضل بها الدليل ، ويذهل عن خليله الخليل ، مسيرة ثلاث . وفى منتهاها وادى رابغ ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب ، وهو دون الجحفة .

وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ، ومررنا بعقبة السويق ، وهى على مسافة نصف يوم من

(۱) القليب : البئر .
(۲) البريد اربعة فراسخ .

خليص ، كثيرة الرمل ، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطا بالسكر . والأمراء يملئون منه الأحواض ويسقونها الناس .

ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ، ولم يكن مع أصحابه طعام ، فأخذ من رملها فأعطاهم اياه فشربوه سويقا ...

ثم نزلنا بركة خليص ، وهى فى بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد فى قنة جبل . وفى البسيط حصن خرب ، وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد فى الأرض وسربت الى الضياع . وصاحب خليص شريف حسنى النسب . وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام [1] .

ثم رحلنا الى عسفان ، وهى فى بسيط من الأرض بين جبال ، وبها آبار ماء معين ، تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضى الله عنه . والمدرج المنسوب الى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص ، وهو مضيق بين جبلين ، وفى موضع منه بلاط على صورة درج ، وأثر عمارة قديمة . وهنالك بئر تنسب الى على عليه السلام ، ويقال انه أحدثها . وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد ، قد أوهنه الخراب ، وبه من شجر المقل كثير .

ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ، ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية . ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى .

(١) ما يؤتدم به .

ثم أدلجنا [1] من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها ، مسرورة بحالها ومآلها ، فوصلنا عند الصباح الى البلد الأمين ... مكة شرفها الله تعالي ، فوردنا منها على حرم الله تعالي ومبدأ خليله ابراهيم ، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا ، من باب بني شيبة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، وهى كالعروس تتجلى علي منصة الجلال ، وترفل فى برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن ، موصلة الى جنة الرضوان . وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء . وشربنا من ماء زمزم ، وهو لما شرب له ، على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما .

ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم . والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم ، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم ، وزمزم والحطيم [2] .

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة ، والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكنا فى القلوب ، فلا يحل بها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها الا أسفا لفراقها ، متولها لبعاده عنها ، شديد الحنين اليها ، ناويا

(١) أدلج : سار ليلا .
(٢) الحطيم : حجر الكعبة حيث ينحطم الناس للدعاء .

لتكرار الوفادة عليها . فأرضها المباركة نصب الأعين ، ومحبتها حشو القلوب ... حكمة من الله بالغة ، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام . والشوق يحضرها وهى نائية ، ويمثلها وهى غائبة ، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ، ويعانيه من العناء .

وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ، فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا ، كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصبا !

انه لأمر الهى وصنع ربانى ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة ، ولا يطرقها تمويه ، وتعز فى بصيرة المستبصرين ، وتبدو فى فكر المتفكرين . ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء ، والمثول بذلك الفناء ، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى ، وخوله خير الدارين : الدنيا والأخرى . فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوله ، ويديم الحمد على ما أولاه .

جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته ، وربحت فى قصدها تجارته ، وكتبت فى سبيل الله آثاره ، ومحيت بالقبول أوزاره ، بمنه وكرمه .

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان ، مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها . وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . والأخشبان من جبالها هما جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب منها ، وجبل قعيقعان [1] . وفى الشمال منها الجبل الأحمر . ومن جهة أبى قبيس أجياد الأكبر وأجياد الأصغر ، وهما شعبان ، والخندمة ، وهى جبل .

والمناسك كلها — منى وعرفة والمزدلفة — بشرقى مكة شرفها الله .

ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى بأعلاها ، وباب الشبيكة من أسفلها ، ويعرف أيضا بباب الزاهر وبباب العمرة ، وهو الى جهة المغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ، ومنه يتوجه الى التنعيم ، وسيذكر ذلك . وباب المسفلة ، وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح .

ومكة شرفها الله — كما أخبر الله فى كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل — بواد غير ذى زرع ، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب اليها ، وثمرات كل شىء تجبى اليها . ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب ، والتين ، والخوخ ، والرطب ما لا نظير له فى الدنيا . وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة . واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم . وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ، ووادى نخلة ، وبطن مر الظهران ، لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق .

وصف المسجد الحرام
شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام فى وسط البلد ، وهو متسع الساحة ، طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع (حكى ذلك الأزرقى) ،

(1) قعيقعان ، جبل بمكة وجهه الى ابى قبيس ، كانت جرهم تصنع أسلحتها فيه فتتقعقع « القاموس »

وعرضه يقرب من ذلك ، والكعبة العظمى في وسطه . ومنظره بديع ، ومرآه جميل ، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ، ولا يحيط الواصف بحسن كماله .

وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا ، وسقفه على أعمدة طوال ، مصطفة ثلاثة صفوف ، بأتقن صناعة وأجملها . وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا ، كأنها بلاط واحد . وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ، ما عدا الجصية التي في دار [1] الندوة المزيدة في الحرم ، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقي ، وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه .

ويتصل بجدار هذا البلاط مصاطب تحت قسي حنايا ، يجلس بها المقرئون ، والنساخون والخياطون . وفي جدار البلاط الذي يقابله مصاطب تماثلها ، وسائر البلاطات تحت جدرانها مصاطب بدون حنايا . وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوار جصية .

وللخليفة المهدي محمد ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام ، واحكام بنائه . وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب : « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته ، في سنة سبع وستين ومائة » .

(1) دار الندوة : بناها قصي ، لانهم كانوا يندون فيها اي يجتمعون « المصباح المنير »

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة
زادها الله تعظيما وتكريما

والكعبة ماثلة في وسط المسجد ، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا ، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي . وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي . وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا .

والطواف انما هو خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصم السمر ، قد ألصقت بأبدع الالصاق وأحكمه وأشده ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان .

وباب الكعبة المعظمة في الصفح [1] الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء .

وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار . وهو مصفح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة . وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل .

(1) الجهة .

ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . ورسمهم فى فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب ، لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها ، ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة ، فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشيبيين [1] وبيده المفتاح الكريم ، ومعه السدنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب ، فاذا فتحه قبّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده ، وسد الباب ، وأقام قدر ما يركع ركعتين .

ثم يدخل سائر الشيبيين ، ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول .

وفى أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة ، وقلوب ضارعة ، وأيد مبسوطة الى الله تعالى .

فاذا فتح كبروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ياأرحم الراحمين .

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى . وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض . وهى تتلألأ عليها نورا

(1) الشيبيون : بنو شيبة بن عثمان الحجبى ، بيدهم مفاتيح الكعبة ولهم سدانتها .

واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض .

ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم .

ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف .

ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران . وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله ، فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها [1] . ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض ... فاما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه ...

فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم ، وجعل لها المهابة والتعظيم ...

ذكر الميزاب المبارك

والميزاب فى أعلى الصفح الذى على الحجر ، وهو من الذهب وسعته شبر واحد ، وهو بارز بمقدار ذراعين ، والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء .

وتحت الميزاب فى الحجر قبر اسماعيل عليه السلام . وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب ، متصلة برخامة خضراء مستديرة ، وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر ، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر . والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر

(1) كلام فيه نظر .

عليها السلام ، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف . وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسـود فارتفـاعه عن الأرض ستة أشبار ، فالطـويل من النـاس يتطامن لتقبيله ، والقصير يتطاول اليه .

وهو ملصـق فى الركن الذى الى جهـة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن ، وفيـه أربع قطع ملصقة .

ويقال ان القرمطى ، لعنه الله ، كسره . وقيل ان الذى كسره سواه ، ضربه بدبوس فكسره ، فتبادر الناس الى قتله ، وقتل بسببه جماعة من المغاربة .

وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضـها على سـواد الحجر الـكريم ، فتجتلى منه العيون حسنا باهرا .

ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ، ويود لاثمـه ألا يفارق لثمه ... خاصة مودعة فيه ، وعناية ربانية به . وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه يمين الله فى أرضـه . نفعنـا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شـيق اليه .

وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه ، نقطـة بيضاء صـغيرة مشرقة ، كأنهـا خال فى تلك الصحيفة البهية . وترى الناس اذا طافوا بهـا يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمـة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم .

ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أول الأركان التى يلقـاها الطائف ، اذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ، ثم يلقى بعـده الركن العراقى وهو الى جهة الشمال ، ثم يلقى الركن الشامى وهو الى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ، ثم يعود الى الحجر الأسود وهو الى جهة الشرق .

ذكر المقام الكريم

اعلم أن بين الكعبة ، شرفها الله ، وبين الركن العراقى موضعا طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك ، وارتفاعه نحو شبرين ، وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام ، ثم صرفه النبى صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى . وبقى ذلك الموضـع شبه الحوض ، واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل ، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه .

وموضع المقام الكريم يقـابل ما بين الركن العراقى والباب الـكريم ، وهو الى البـاب أميل ، وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق .

والشباك مقفل ، ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتى الطواف .

وفى الصحيح أن رسول الله ، صلى الله عليه وسـلم تسليما ، لما دخل المسـجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرأ : « واتخذو

من مقام ابراهيم مصلى » ، وركع خلفه ركعتين .

وخلف المقام مصلى امام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك .

ذكر الحجر والمطاف

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة ، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق . وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر ، وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة ، البديع الاتقان .

وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب ، وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا .

وللحجر مدخلان : أحدهما بينه وبين الركن العراقى وسعته ست أذرع . وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته ، كما جاءت الآثار الصحاح .

والمدخل الآخر عند الركن الشامى ، وسعته أيضا ست أذرع . وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا .

وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود ، محكمة الالصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطى ، الا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم ، فانها امتدت اليه حتى أحاطت به .

وسائر الحرم ، مع البلاطات ، مفروش برمل أبيض . وطواف النساء فى آخر الحجرة المفروشة .

ذكر زمزم المباركة

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، وبينهما أربع وعشرون خطوة .

والمقام الكريم عن يمين القبة ، ومن ركنها اليه عشر خطى . وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض .

وتنور [1] البئر المباركة فى وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة ، وهو من الرخام البديع الالصاق ، مفرغ بالرصاص ، ودوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر .

وعمق البئر احدى عشرة قامة . وهم يذكرون أن ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة .

وباب القبة الى جهة الشرق ، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء . وحولها مصطبة يقعد الناس عليها للوضوء .

ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضى الله عنه ، وبابها الى جهة الشمال . وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال يسمونها الدوارق ، وكل دورق له مقبض واحد ، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس .

وبها اختزان المصاحف الكريمة ، والكتب التى للحرم الشريف . وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وأهل مكة اذا أصابهم قحط أو شدة

(1) تنور البئر : مفجر الماء أو موضع اجتماعه .

أخرجوا هذا المصحف الكريم ، وفتحوا باب الكعبة الشريفة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه فى مقام ابراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رءوسهم ، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز ، والمقام الكريم ، فلا ينفضون الا وقد تداركهم الله برحمته ، وتغمدهم بلطفه .

ويلى قبة العباس ، رضى الله عنه ، على انحراف منها ، القبة المعروفة بقبة اليهودية .

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام ، شرفه الله تعالى ، تسعة عشر بابا . وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة .

فمنها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج الى المسعى .

ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة ، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا ، جاعلا طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى رحمه الله ، علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الى الصفا .

ومنها باب أجياد الأصغر ، مفتح على بابين .

ومنها باب الخياطين ، مفتح على بابين .

ومنها باب العباس رضى الله عنه ، مفتح على ثلاثة أبواب .

ومنها باب النبى صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح على بابين .

ومنها باب بنى شيبة ، وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرا ، وهو مفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بنى عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء .

ومنها باب صغير ازاء باب بنى شيبة لا اسم له . وقيل يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط السدرة .

ومنها باب الندوة ، ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان منتظمان ، والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة . ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا اليه ، وهى تقابل الميزاب .

ومنها باب صغير لدار العجلة ، محدث .

ومنها باب السدرة ، واحد .

ومنها باب العمرة ، واحد . وهو من أجامل أبواب الحرم .

ومنها باب ابراهيم ، واحد . والناس مختلفون فى نسبته : فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام ، والصحيح أنه منسوب لابراهيم الخوزى من الأعاجم .

ومنها باب الحزورة ، مفتح على بابين .

ومنها باب أجياد الأكبر ، مفتح على بابين .

ومنها باب ينسب الى أجياد أيضا ، مفتح على بابين ، وباب ثالث ينسب اليه ، مفتح على بابين ، ويتصل بباب الصفا . ومن الناس من ينسب البابين ، من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد ، الى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس : احداهن على ركن أبى قبيس عند باب الصفا ، والأخرى

على ركن باب بني شيبة ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السدرة ، والخامسة على ركن أجياد .

وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر ، الذى تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن ، وكان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون .

وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل .

وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو ، قد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف . وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأقشهري .

وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته . وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي ، الذي كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه .

وبمقربة منه رباط الموفق ، وهو من أحسن الرباطات ، سكنته أيام مجاورتى بمكة المعظمة . وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوى المغربى . وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرانى ، ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به ، رضى الله عنه . وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة . وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين . دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شىء سوى حصير ، فقلت له فى ذلك ، فقال لى : استر على ما رأيت .

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم ، وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام . ودور لها أبواب تفضى الى الحرم . منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين . ومنها دار العجلة ودار الشرابى وسواها .

ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى ، وهي فى دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربة من باب النبى صلي الله عليه وسلم .

وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام ، وبمقربة منها دار أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس . ويقال انه كان يسلم على النبى صلي الله عليه وسلم . ويذكر أن النبى ، صلي الله عليه وسلم تسليما ، جاء يوما الى دار أبي بكر الصديق ، ولم يكن حاضرا ، فنادى به النبي صلي الله عليه وسلم تسليما ، فنطق الحجر وقال : يارسول الله ، انه ليس بحاضر ...

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا ، الذى هو أحد أبواب المسجد الحرام ، الى الصفا ست وسبعون خطوة .

وسعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وله أربع عشرة درجة ، علياهن كأنها مصطبة .

وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة ، منها من الصفا الى الميل الأخضر ثلاث

وتسعون خطوة ، ومن الميل الأخضر الى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ، ومن الميلين الأخضرين الى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة .

وللمروة خمس درجات ، وهى ذات قوس واحدة كبيرة . وسعة المروة سبع عشرة خطوة .

والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم عن يسار الساعى الى المروة . والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب على من أبواب الحرم ، احداهما فى جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب ، والأخرى تقابلها . وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل [1] ذاهبا وعائدا .

وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة ، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه . والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة . وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه ، الا البزازون والعطارون عند باب بنى شيبة .

وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه ، وهى الآن رباط يسكنه المجاورون ، عمره الملك الناصر رحمه الله . وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين ، وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور ، والآخر فى سوق العطارين ، وعليها ربع يسكنه خدامها . وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال .

(1) الهرولة .

وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبى نمى . وسنذكره .

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارج باب المعلى ، ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحجون . واياه عنى الحارث بن مضاض الجرهمى بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء ، الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها ، فلا يعرف منها الا القليل . فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد ، أم أولاد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ، ما عدا ابراهيم ، وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين .

وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، رضى الله عنهم أجمعين . وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذى بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات ، وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق .

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحجون وقد ذكرناه ، ويقال أيضا ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة .

ومنها المحصب ، وهو أيضا الأبطح ، وهو يلي الجبانة المذكورة ، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

ومنها ذو طوى ، وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص ، دون ثنية كداء ، ويخرج منه الى الأعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم . وكان عبد الله بن عمر ، رضي الله عنه ، اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة . ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك .

ومنها ثنية كُدى (بضم الكاف) وهي بأعلى مكة ، ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوداع الى مكة .

ومنها ثنية كَداء (بفتح الكاف) ، ويقال لها الثنية البيضاء ، وهي بأسفل مكة ، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع . وهي بين جبلين ، وفي مضيقهما كوم حجارة موضوع على الطريق ، وكل من يمر به يرجمه بحجر . ويقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب . وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى .

وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة ، شرفها الله ، مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق ، كأنه مصطبة ، يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه ، يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته ، فيتبرك الناس بتقبيله ، ويستندون اليه .

ومنها التنعيم ، وهو على فرسخ من مكة ، ومنه يعتمر أهل مكة ، وهو أدنى الحل الى الحرم . ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجه الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه ، وأمره أن يعمرها من التنعيم .

وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق ، تنسب كلها الى عائشة رضي الله عنها .

وطريق التنعيم طريق فسيح ، والناس يتحرون كنسه في كل يوم ، رغبة في الأجر والثواب ، لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافيا . وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة .

ومنها الزاهر ، وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق . وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء ، يملؤها خادم ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهي بعيدة القعر جدا . والخادم من الفقراء المجاورين ، وأهل الخير يعينونه على ذلك ، لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء . وذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قبيس ، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله . وهو أحد

الأخشبين ، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ، ويقابل ركن الحجر الأسود ، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة . وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره . وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه ، والكعبة المعظمة .

ويذكر أن جبل أبى قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى ، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان . وكانت قريش تسميه الأمين ، لأنه أدى الحجر الذى استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام . ويقال ان قبر آدم عليه السلام به .

وفى جبل أبى قبيس موضع موقف النبى صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر .

ومنها قعيقعان وهو أحد الأخشبين [1] .

ومنها الجبل الأحمر ، وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله .

ومنها الخندمة ، وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر .

ومنها جبل الطير ، وهو على أربعة عن جهتى طريق التنعيم ، يقال انها الجبال التى وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها ، على ما نص الله فى كتابه العزيز ، وعليها أعلام من حجارة .

ومنها جبل حراء ، وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى ، على نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ، ذاهب فى الهواء ، عالى القنة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) الوارد بالقاموس أن الاخشبين هما ابو قبيس والاحمر ـ

يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحى ، وهو الذى اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثبت ، فما عليك الا نبى وصديق وشهيد . واختلف فيمن كان معه يومئذ ، وروى أن العشرة كانوا معه . وقد روى أيضا أن جبل ثبير اهتز تحته أيضا .

ومنها جبل ثور ، وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى ، على طريق اليمن ، وفيه الغار الذى أوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ، ومعه الصديق رضى الله عنه ، على ما ورد فى الكتاب العزيز . وذكر الأزرقى فى كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال : الىّ يامحمد ، الىّ الىّ ... فقد آويت قبلك سبعين نبيا . فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به ، وصاحبه الصديق معه ، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار ، وصنعت الحمامة عشا وفرخت [1] فيه باذن الله تعالى . فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر الى الغار ، فقالوا : هاهنا انقطع الأثر ، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار ، والحمام مفرخة . فقالوا : ما دخل أحد هنا ، وانصرفوا .

فقال الصديق : يارسول الله ، لو ولجوا علينا منه ؟

قال : كنا نخرج من هنا .

وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ــ ولم يكن فيه باب ــ فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب .

(1) صار لها فرخ .

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك ، فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبى صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك . فمنهم من يتأتى له ، ومنهم من لا يتـأتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف . ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله . وأهل تلك البلاد يقولون انه من كان لرشدة دخله ، ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله . ولهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح .

***

قال ابن جزى : أخبرنى بعض أشياخنا الحجاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول اليه هو أن بداخله — مما يلى هذا الشق الذى يدخل منه — حجرا كبيرا معترضا . فمن دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه أن ينطوى الى العلو ووجهه وصدره يليان الأرض ... فذلك هو الذى ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجبذ الى خارج . ومن دخل منه مستلقيا على ظهره أمكنه ، لأنه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا ، فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض ، وأوسطه فى الشق ، ورجلاه من خارج الغار ، ثم يقوم قائما بداخل الغار .

***

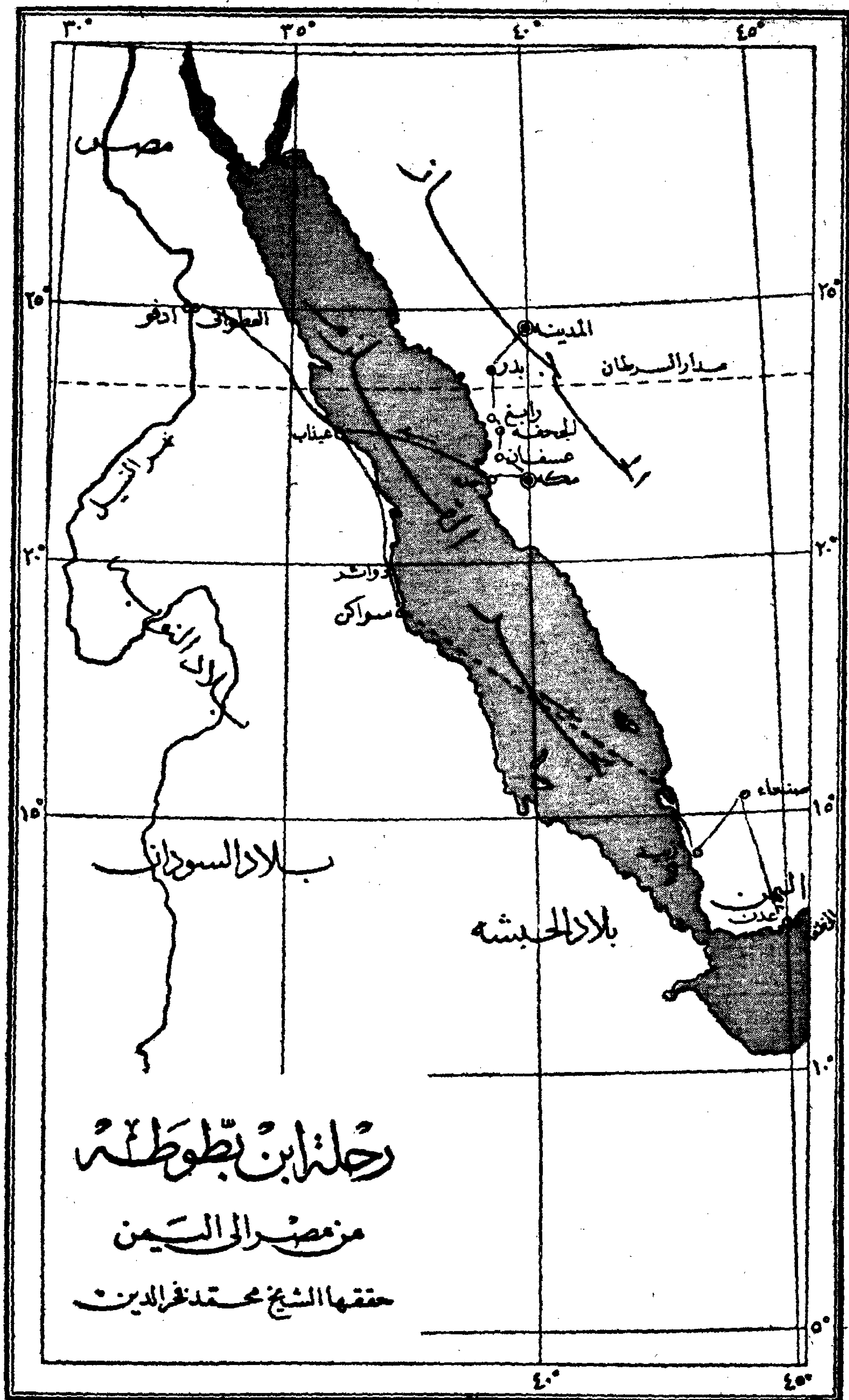
حكاية

ومما اتفق لهذا الجبل لصاحبين من أصحابى : أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقى التوزى ، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسى الآشى ، أنهما قصدا الغار فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه ، فتاها وضلا طريق الغار ، وسلكا طريقا سواها منقطعة ، وذلك فى أوان اشتداد الحر ، فلما نفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار ، أخذا فى الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه ، وكان يفضى الى جبل آخر . واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش ، وعاينا الهلاك ، وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة ، وألقى بنفسه الى الأرض .

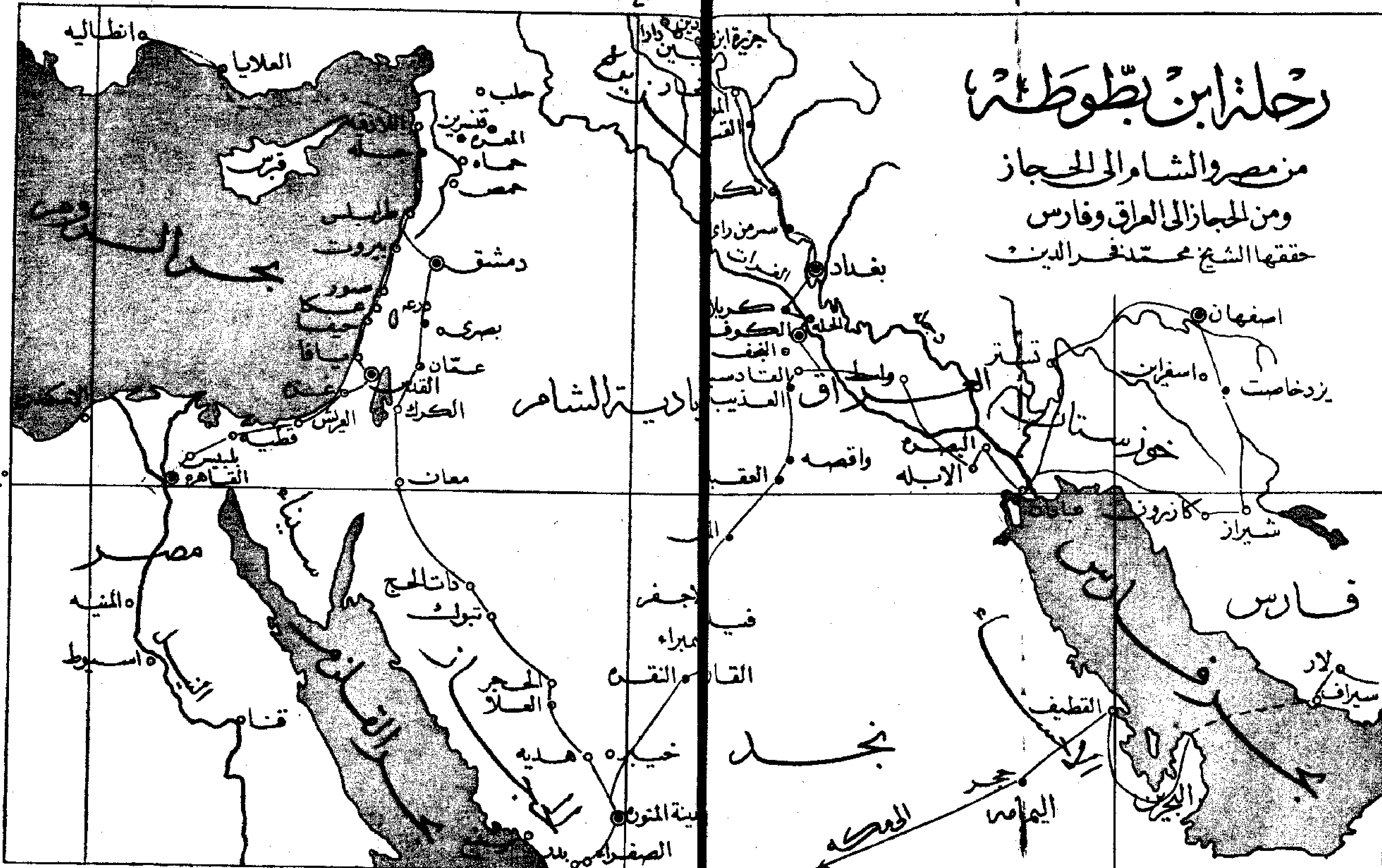
ونجا الأندلسى بنفسه ، وكان فيه فضل قوة ، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أجياد ، فدخل الى مكة شرفها الله تعالى ، وقصدنى وأعلمنى بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التوزى وانقطاعه فى الجبل ، وكان ذلك فى آخر النهار .

ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادى نخلة ، وكان اذ ذاك بمكة . فأعلمته بما جرى على ابن عمه . وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل ، امام المالكية ، نفع الله به ، فأعلمته بخبره ، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه .

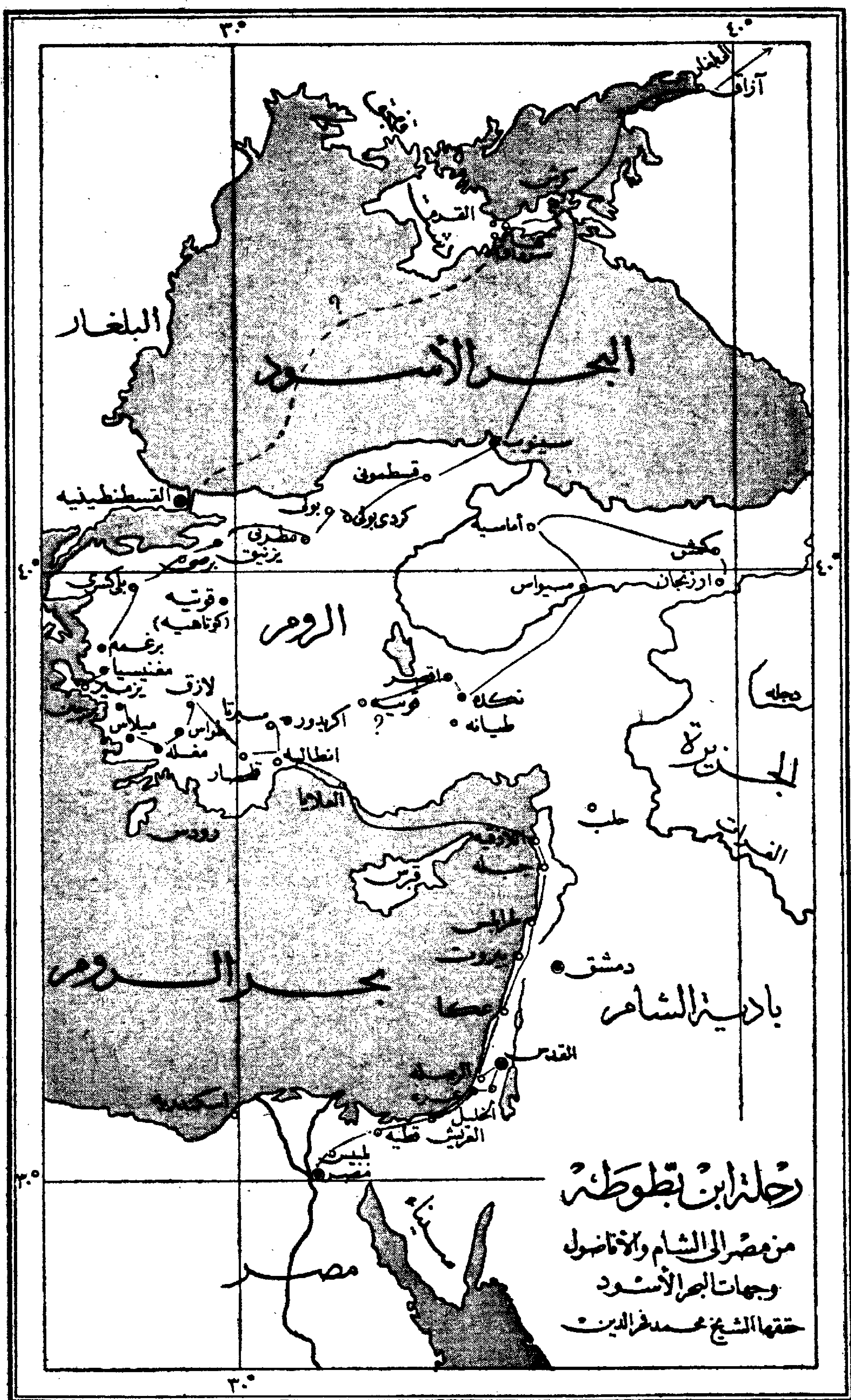
وكان من أمر عبد الله التوزى أنه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله ، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته . فلما انصرم النهار وأتى الليل ، وجد فى نفسه قوة ، وأنعشه برد الليل فقام عند الصباح على



مصر
نهر النيل
ادفو
عيذاب
المدينة
مدار السرطان
بدر
رابغ
الجحفة
عسفان
مكة
سواكن
بلاد السودان
بلاد الحبشه
صنعاء
اليمن
عدن
٣٠°
٣٥°
٤٠°
٤٥°
٢٥°
٢٠°
١٥°
١٠°
٥°
رحلة ابن بطوطة
من مصر الى اليمن
حققها الشيخ محمد فخر الدين



رحلة ابن بطوطة
من مصر والشام الى الحجاز
ومن الحجاز الى العراق وفارس
حققها الشيخ محمد فخر الدين
٣٠°
٤٠°
٥٠°
انطاليه
العلايا
حلب
قنسرين
المعرة
حماه
حمص
قبرص
اللاذقية
طرابلس
بيروت
دمشق
صور
عكا
بصرى
يافا
عمان
القدس
غزة
الكرك
العريش
قطيه
بلبيس
القاهرة
معان
بحر الروم
مصر
المنيه
اسيوط
قنا
النيل
ذات الحج
تبوك
الحجر
العلا
هديه
خيبر
المدينة المنورة
الصفراء
مكة
بادية الشام
نجد
بغداد
سر من راى
الفرات
دجلة
كربلاء
الحلة
الكوفة
النجف
القادسية
العذيب
واقصه
العقبة
واسط
العراق
تستر
خوزستان
البصرة
الابلة
اصفهان
يزدخاصت
كازرون
شيراز
فارس
لار
سيراف
القطيف
البحرين
هجر
اليمامة


٣٠°
٤٠°
آزاق
البحر الأسود
البلغار
القسطنطينيه
سينوب
قسطموني
كردي بولي
بولي
مطرني
يزنيق
برصه
بلي كسري
قونيه
(كوتاهيه)
الروم
برغمه
مغنيسيا
يزمير
لاذق
ميلاس
مغله
اكريدور
انطاليه
العلايا
أماسية
سيواس
ارزنجان
نكده
طيانه
رودس
قبرس
حلب
الجزيرة
دجله
الفرات
دمشق
بادية الشام
بحر الروم
عكا
القدس
الخليل
العريش
قطيه
بلبيس
مصر
مصر
رحلة ابن بطوطة
من مصر الى الشام والأناضول
وجهات البحر الأسود
حققها الشيخ محمد فخر الدين

قدميه ، ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس ، فلم يزل ماشـيا الى أن بدت له دابة فقصد قصـدها ، فوجد خيمـة للعرب ، فلمـا رآها وقـع الى الأرض ولم يستطع النهوض ، فرأته صاحبة الخيمة ، وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء ، فسقته ما كان عندها من الماء ، فلم يرو ، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو ، وأركبه حمارا له وقدم به مكة ، فوصلها عند صـلاة العصر من اليـوم التالى متغيرا كأنه قام من قبر .

ذكر أميرى مكة

وكانت امارة مكة فى عهـد دخولى اليهـا للشريفين الأجلين الأخوين : أسد الدين رميثة ، وسيف الدين عطيفة ، ابنى الأمير أبى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنيين . ورميثة أكبرهما سنا ، ولكنه كان يقدم اسم عطيفـة فى الدعاء له بمكة لعدله .

ولرميثة من الأولاد : أحمد وعجلان — وهو أمير مكة فى هذا العهد — وتقية ، وسند ، وأم قاسم . ولعطيفة من الأولاد : محمد ، ومبارك ، ومسعود .

ودار عطيفة عن يمين المروة ، ودار أخيـه رميثة برباط الشرابى عنـد باب بنى شيبة . وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم .

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمـكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والايثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغـرباء . ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبـدأ فيها بإطعام الفقـراء المنقطعين المجـاورين ، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسـن خلق ، ثم يطعمهم .

وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله يتبعـه المسـاكين ، فيعطى كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين . ولو كانت له خبزة واحدة ، فانه يعطى ثلثها أو نصفها ، طيب النفس بذلك من غيـر ضجر .

ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتـام الصـغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قفتان : كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة مكتلا ، فيـأتى الرجل من أهل مكة الى السـوق ، فيشـترى الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك الصبى ، فيجعل الحبـوب فى احـدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيـأ له طعامه منهـا ، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحدا من الصـبيان خـان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجـوه . ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس .

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس ، وأكثر لباسهم البيـاض ، فترى ثيـابهم أبدا ناصعة ساطعة ، ويسـتعملون الطيب كثيرا ، ويكتحلون ، ويكثـرون السـواك بعيـدان الأراك الأخضر .

ونسـاء مكة فائقـات الحسـن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف . وهن يكثرن التطيب ، حتى ان احـداهن لتبيت طـاوية وتشترى بقوتها طيبا .

وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا .

ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره ، سنذكرها — ان شاء الله تعالى — اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها .

ذكر قاضى مكة وخطيبها
وامام الموسم وعلمائها وصلحائها

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد ، ابن الامام العالم محيى الدين الطبرى ، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين ، حسن الأخلاق ، كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة ، يطعم الطعام الكثير فى المواسم المعظمة ، وخصوصا فى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين . وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا ، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجرى على يديه .

وولده شهاب الدين فاضل ، وهو الآن قاضى مكة شرفها الله .

وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام ، الفصيح المصقع ، وحيد عصره ، بهاء الدين الطبرى ، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان ، وذكر لى أنه ينشىء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد .

وامام الموسم ، وامام المالكية بالحرم الشريف ، هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد ، ابن الفقيه الامام الصالح الورع أبى زيد عبد الرحمن ، وهو المشتهر بخليل ، نفع الله به وأمتع ببقائه ، وأهله من بلاد الجريد من افريقية ، ويعرفون بها ببنى حيون ، وهم من كبارها ، ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله ، وهو أحد الكبار من أهل مكة ، بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك ، مستغرق العبادة فى جميع أوقاته ، حيى كريم النفس ، حسن الأخلاق ، كثير الشفقة ، لا يرد من سأله خائبا .

حكاية مباركة

رأيت أيام مجاورتى بمكة شرفها الله — وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية — رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى النوم ، وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة ، والناس يبايعونه . فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل ، قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وجعل يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أبايعك على كذا وكذا ... وعدد أشياء منها : وألا أرد من بيتى مسكينا خائبا ... وكان ذلك آخر كلامه .

فكنت أعجب من قوله وأقول فى نفسى : كيف يقول هذا ويقدر عليه ، مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام !؟

وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان ، كان يلبسها فى بعض الأوقات .

فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته

برؤياى ، فسر بها وبكى وقال لى : تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدى ، فأنا ألبسها تبركا .

وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا ، وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم .

وأهل مكة لا يأكلون فى اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت . ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر ، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات .

وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضى نجم الدين الطبرى ، فشك فى طلاقها وفارقها ، وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويرى من كبار المجاورين ، وهو من صعيد مصر ، وأقامت عنده أعواما ، وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين ، فحنث فى يمين بالطلاق ، ففارقها على ضناته بها ، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة .

ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين ابن البرهان .

ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن على ، من كبار أئمة مكة وفضلائها ، يطعم المجاورين وأبناء السبيل . وهو أكرم فقهاء مكة ، ويدان فى كل سنة أربعين ألف درهم ، وخمسين ألفا ، فيؤديها الله عنه . وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لأنه امامهم .

ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد ابن عثمان ، البغدادى الأصل المكى المولد ، وهو نائب القاضى نجم الدين ، والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى ، والناس يهابونه لسطوته .

حكاية

كان تقى الدين المصرى محتسبا بمكة ، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه ، فاتفق فى بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده ، فقال له تقى الدين : ان لم تقطعها بحضرتك ، والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه ... فأمر بقطع يده فى حضرته ، فقطعت .

وحقدها لتقى الدين ، ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه ، لأن له حسبا من الأميرين رميثة وعطيفة ، والحسب عندهم أن يعطى أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن أعطيته ، ولا تزول حرمتها معا حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة .

فأقام تقى الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة ، وودع الأميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا ، فلقيه صاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله ، وطلب منه ما يستعين به على حاجته ، فانتهره تقى الدين وزجره ، فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه .

ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبرى ، شقيق نجم الدين المذكور ، من أهل الفضل والاحسان للمجاورين .

ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشى ، من فضلاء مكة ، وكان ينوب عن القاضى نجم

الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي .

ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان ، زاهد ورع ، مبتلى بالوسواس . رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه فى البركة . وكان ، اذا أراد الصلاة ، ربما صلى الامام الشافعى وهو يقول : نويت نويت ... فيصلى مع غيره .

وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر .

ذكر المجاورين بمكة

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفى ، المحقق العابد ، عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمنى الشافعى الشهير باليافعى ، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار . وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم ، فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلى الصبح . وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان ، وكانت صغيرة السن ، فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيأمرها بالصبر ، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته .

ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفونى ، كان قاضيا ببلاد الصعيد ، فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف . وكان يعتمر فى كل يوم من التنعيم ، ويعتمر فى رمضان مرتين فى اليوم اعتمادا على ما فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما أنه قال : « عمرة فى رمضان تعدل حجة معى » .

ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبى ، كثير الطواف والتلاوة ، من قدماء المجاورين ، مات بمكة شرفها الله .

ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازى المعروف بالصامت ، كثير الطواف ، أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها .

ومنهم الصالح خضر العجمى ، كثير الصوم والتلاوة والطواف .

ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمى الواعظ ، كان ينصب له كرسى تجاه الكعبة الشريفة ، فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب .

ومنهم الصالح المجوّد برهان الدين ابراهيم المصرى ، مقرىء مجيد ، ساكن رباط السدرة ، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى ، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم .

ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطى ، من أصحاب الأموال الطائلة ، يحمل اليه من بلده المال الكثير فى كل سنة ، فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ، ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه . ولم يزل ذلك دأبه الى أن توفى .

ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن على بن رزق الله الأنجرى ، من أهل قطر طنجة ، من كبار الصالحين ، جاور بمكة أعواما وبها وفاته ، كانت بينه وبين والدى صحبة قديمة ، ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا ، وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوى

بالليل الى مسكنه برباط ربيع ، وهو من أحسن الرباطات بمكة ، بداخله بئر عذبة لا تماثلهـا بئر بمكة ، وسكانه الصالحون . وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شـديدا ، وينذرون له النذور . وأهل الطـائف يأتونه بالفواكه . ومن عادتهم أن كل من له بسـتان من النخيل والعنب والفرسك (وهو الخوخ) والتين (وهم يسمونه الخمط) يخرج منـه العشر لهذا الرباط ، ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ، ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ، ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السـنة الآتية وأصابتها الجوائح .

حكاية في فضله

أتى يوما غلمان الأمير أبى نمى ، صـاحب مكة ، الى هذا الرباط ، ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر ، فلما عادوا بالخيل الي مرابطها أصـابتها الأوجاع ، وضربت بأنفسها الأرض وبرءوسها وأرجلهـا . واتصل الخبر بالأمير أبى نمى فأتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به ، واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافهـا من ذلك الماء ، وبرئت ممـا أصابها ، ولم يتعرضـوا بعـدها للرباط الا بالخير .

ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري ، من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله ، وسكن رباط ربيع ، ووفاته بمكة شرفها الله .

ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف ، من بادية سبتة ، كان خادما للشيخين المذكورين ، فلمـا توفيا صار شيخ الرباط بعدهما .

ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن على بن فرغوس التلمساني .

ومنهم الشيخ سعيـد الهنـدي شيخ رباط كلالة .

حـكاية

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة ، فسجنـه الأمير عطيفة وطالبه بأداء المال فامتنع ، فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الي بلاد الهند ، ورأيته بها . ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنى أمير عرب الشام ، وكان غدا سـاكنا ببـلاد الهنـد متزوجا بأخت ملكها (وسيذكر أمره) ، فأعطى ملك الهند للشـيخ سعيد جملة مال ، وتوجه صـحبة حاج يعرف بوشـل من ناس الأمير غدا ، وجهـه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ، ووجه معه أموالا وتحفا ، منها الخلعـة التى خلعها عليـه ملك الهنـد ليلة زفافه بأختـه ، وهى من الحرير الأزرق ، مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها ، وبعث معه خمسين ألف درهم ليشـترى له الخيـل العتاق ، فسافر الشيخ سعيد صـحبة وشل ، واشتريا سلعا بما عندهما من الأموال . فلمـا وصلا جزيرة سقطرة (المنسوب اليهـا الصبر السقطرى) خرج عليهما لصـوص الهنـد في مراكب كثيرة ، فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة ، وكان وشل راميا فقتـل منهم جماعة ، ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك ، وأخذوا ما كان عنـدهم ، وتركوا لهم مركبهم بآلة سـفره وزاده ، فذهبوا الى عدن ومات بها وشل .

وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلونَ أحداً الا حين القتال ، ولا يغرقونه ، وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ، ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم .

وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده ، كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه ، مثل السلطان شمس الدين لَلْتمِش (واسمه بفتح اللام الأولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجمة) وولده ناصر الدين ، ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه ، والسلطان غياث الدين بلبن ، وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد .

فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالأمر ، فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند ، فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر الى الهند ، فلما وصل كنبايت — وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند — كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدم الشيخ سعيد ، وأن معه أمر الخليفة وكتابه ، فورد الأمر ببعثه الى الحضرة مكرما ، فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه ، فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبّله ووضعه على رأسه ، ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ، ولبس احدى الخلع وكسا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المنتصر العباسي (وكان مقيما عنده وسيذكر خبره) ، وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير ، وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب .

وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه ، وأركبه على الفيل ، ودخل المدينة كذلك ، والسلطان أمامه على فرسه ، وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين ، والمدينة قد زينت بأنواع الزينة ، وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب ، كل قبة منها أربع طبقات ، فى كل طبقة طائفة من المغنين رجالا ونساء ، والراقصات ، وكلهم مماليك السلطان ، والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها ، وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد ، وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفلَ والنورة ، فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه ولثاته ، وتقمع عنه الصفراء ، وتهضم ما أكل من الطعام .

ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدى الفيل يطأ عليها الفيلُ من باب المدينة الى دار السلطان ، وأنزل بدار تقرب من دار الملك ، وبعث له أموالا طائلة ، وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب ، والموضوعة بين يدى الفيل ، لا تعود الى السلطان ، بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب ، وخدام الأحواض وغيرهم ... وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر .

وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة .

وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة ، فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر .

وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا الى الخليفة ، وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية ، وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق ، وبعث معه هدايا للخليفة ، منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار . وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ، ويبعث لها سواه من يظهر له ... هكذا نص عليه كتابه اعتقادا منه فى الخلافة وحسن نية .

وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف . فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بمحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر ، فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر ، فباعه واشترى بثمنه — وهو ثلاثمائة ألف درهم — أربعة أحجار ، وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الأحجار ، ودفع سائرها لأمرائه .

واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلبه ، فوجهوا الشهود الى الخليفة ، وأشهد على نفسه أنه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها .

وبعث الملك الصالح رسولا من قبله — وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمى — ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية ، وركبوا بحر فارس من الأبلة الى هرمز — وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه — فأكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند ، فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها ، وأميرها يومئذ مقبول التلتكى أحد خواص ملك الهند ، فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له : ان الشيخ سعيد انما جاءكم بالتزوير ، والخلع التى ساقها انما اشتراها بعدن ، فينبغى أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم (وهو السلطان) .

فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان ، فما يفعل به هذا الا بأمره . ولكنى أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه .

وكتب الأمير بذلك كله الى السلطان ، وكتب به أيضا صاحب الأخبار ، فوقع فى نفس السلطان تغير ، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رءوس الأشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ماصدر ، فمنع رجب من الدخول عليه ، وزاد فى اكرام الشيخ سعيد .

ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه ، وكان متى دخل اليه يقوم له .

وبقى الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظما مكرما ، وبها تركته سنة ثمان وأربعين .

وكان بمكة أيام مجاورتى بها حسن المغربى المجنون ، وأمره غريب وشأنه عجيب ، وكان قبل ذلك صحيح العقل خادما لولى الله تعالى نجم الدين الأصبهانى أيام حياته .

حكاية

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل ، وكان يرى فى طوافه بالليل فقيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار ، فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له : ياحسن ، ان أمك تبكى

عليك ، وهى مشتاقة الى رؤيتك (وكانت من اماء الله الصالحات) ... أفتحب أن تراها ؟

قال له : نعم ، ولكنى لا قدرة لى على ذلك .

فقال له : نجتمع هاهنا فى الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى .

فلما كانت الليلة المقبلة ، وهى ليلة الجمعة ، وجده حيث واعده ، فطافا بالبيت ما شاء الله ، ثم خرج وهو فى أثره الى باب المعلى ، فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ، ففعل ذلك ، ثم قال بعد ساعة : أتعرف بلدك ؟

قال : نعم .

قال : ها هو هذا ...

ففتح عينيه فاذا به على دار أمه ، فدخل عليها ، ولم يعلمها بشىء مما جرى ، وأقام عندها نصف شهر ، وأظن أن بلده مدينة أسفى .

ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له : كيف أنت ؟

فقال : ياسيدى ، انى اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين ، وكنت خرجت على عادتى وغبت عنه هذه الأيام ، وأحب أن تردنى اليه .

فقال له : نعم .

وواعده الجبانة ليلا ، فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله فى مكة شرفها الله ، من تغميض عينيه والامساك بذيله ، ففعل ذلك فاذا به فى مكة شرفها الله ، وأوصاه ألا يحدث نجم الدين بشىء مما جرى ، ولا يحدث به غيره .

فلما دخل على نجم الدين قال له : أين كنت ياحسن فى غيبتك ؟

فأبى أن يخبره ، فعزم عليه ، فأخبره بالحكاية ، فقال : أرنى الرجل .

فأتى معه ليلا ، وأتى الرجل على عادته ، فلما مر بهما قال له : ياسيدى ، هو هذا ...

فسمعه الرجل ، فضرب بيده على فمه وقال : اسكت أسكتك الله .

فخرس لسانه وذهب عقله ، وبقى بالحرم مولها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة ، والناس يتبركون به ويكسونه ، واذا جاع خرج الى السوق التى بين الصفا والمروة ، فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما أحب ، لا يصده أحد ولا يمنعه ، بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء فى بيعه وربحه ، ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم اليه ، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده لما جربوه من بركته ، وكذلك فعله مع السقائين متى أحب أن يشرب .

ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين ، فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك ، فاستصحبه معه الى ديار مصر ، فانقطع خبره ، نفع الله تعالى به ...

ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلى أول الأئمة امام الشافعية ، وهو المقدم من قبل أولى الأمر . وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، فى حطيم له هنالك بديع . وجمهور الناس بمكة على مذهبه .

والحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلهما خشبتان على صفتهما ،

وقد عقدت على أرجل مجصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد ، يعلق منها قناديل زجاج .

فاذا صلى الامام الشافعى صلى بعده امام المالكية فى محراب قبالة الركن اليمانى ، ويصلى امام الحنبلية معه فى وقت واحد ، مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، ثم يصلى امام الحنفية قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك . ويوضع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم الشمع ، وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع .

وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد ، كل امام يصلى بطائفته . ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى ، وسجد الحنفى بسجود الحنبلى ، وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو .

ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم فى يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقى ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم . فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طليسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون اعلاما بخروج الخطيب .

ولا يزال كذلك الى أن يقرب من المنبر ، فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمى (وهو رئيس المؤذنين) بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ، ممسكا له بيده .

وتركز الرايتان عن جانبى المنبر ، فاذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرجة يسمع بها الحاضرين ، ثم يضرب فى الدرجة الثانية ضربة ثم فى الثالثة أخرى . فاذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبلا الكعبة . ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويرد عليه الناس ، ثم يقعد .

ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد ، فاذا فرغ من الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر فيها من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى أثنائها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف (ويشير باصبعه الى البيت الكريم) ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف . ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن عمى النبى صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام . ثم يدعو للملك الناصر ، ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول . ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة : سيف الدين عطيفة ، وهو أصغر

الأخوين (ويقدم اسمه لعدله) ، وأسد الدين رميثة ابنى أبى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة . وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك . فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه ، اشعارا بانقضاء الصلاة . ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم .

ذكر عادتهم فى استهلال الشهور

وعادتهم فى ذلك أن يأتى أمير مكة فى أول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض ، معتم ، متقلد سيفا ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ، ثم يقبل الحجر ، ويشرع فى طواف أسبوع ، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم . فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته . ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ، ويفعل به هكذا فى السبعة الأشواط . فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ، ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ، ثم انصرف . ويفعل مثل هذا ، سواء اذا أراد سفرا أو اذا قدم من سفر أيضا .

ذكر عادتهم فى شهر رجب

واذا هل هلال رجب ، أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ، ثم يخرج فى أول يوم منه راكبا ، ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب ، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجرون ، والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها ، والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم ، وعلى وأحمد ابنى صبيح ، وعلى بن يوسف ، وشداد بن عمر ، وعامر الشرق ، ومنصور بن عمر ، وموسى المزرق ، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ، ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب ، وعليهم السكينة والوقار ، ويسيرون حتى ينتهوا الى الميقات . ثم يأخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمى بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط ، على ما ذكرناه من عادته .

فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم ، وصلى عند المقام وتمسح به ، وخرج الى المسعى فسعى راكبا ، والقواد يحفون به ، والحرابة بين يديه ، ثم يسير الى منزله .

وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد ، ويلبسون فيه أحسن الثياب ، ويتنافسون فى ذلك .

ذكر عمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله . وهى متصلة ليلا ونهارا ، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة ، وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين ، فانهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام .

شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه ، وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها أكسية الحرير والكتان الرفيع ، كل أحد يفعل بقدر استطاعته ، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير ، وأستار الهوادج ضافية ، تكاد تمس الأرض ، فهى كالقباب المضروبة .

ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشعلة بجنبتي الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج ، والجبال تجيب بصداها اهلال المهللين ، فترق النفوس ، وتنهمل الدموع .

فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة ، بعد مضى شيء من الليل ، والمسعى متقد السرج ، غاص بالناس ، والساعيات في هوادجهن ، والمسجد الحرام يتلألأ نورا . وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية ، لأنهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غلوة [1] على مقربة من المسجد المنسوب الى على رضى الله عنه .

والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة ، وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى الى الأكمة فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح ، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد .

وكان يوم عبد الله مذكورا ، أهدى فيه بدنا كثيرة ، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم ، وأقاموا أياما يَطعَمون ويُطعِمون ، شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه .

ثم لما قتل ابن الزبير ، نقض الحجاج الكعبة

(1) غلا بالسهم : رفع يديه لاقصى الغاية . وغلا السهم : ارتفع في ذهابه وجاوز المدى . ومرماة السهم هى الغلوة (بفتح الغين) .

وردها الى بنائها في عهد قريش ، وكانوا قد اقتصروا في بنائها . وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر . ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها الى بناء ابن الزبير ، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك ، وقال : ياأمير المؤمنين ، لا تجعل البيت ملعبة للملوك ، متى أراد أحدهم أن يغيره فعل . فتركه على حاله سدا للذريعة .

وأهل الجهات الموالية لمكة — مثل بجيلة وزهران وغامد — يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز ، فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق .

ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف [1] من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ، ووقع الموت في مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم . فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم . وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين .

وبلاد السرو [2] — التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل — مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة ، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمكن غيرهم الطواف

(1) الشظف : الضيق والشدة .
(2) محلة حمير « القاموس »

معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد ، ولباسهم الجلود . واذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم .

وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء . وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : الايمان يمان والحكمة يمانية . وذكر أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم ، وشأنهم عجيب كله . وقد جاء فى أثر : زاحموهم فى الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا .

ذكر عادتهم
فى ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة ، يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ، ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات ، لكل جماعة امام ، ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل . ويقابل ذلك ضوء القمر ، فتتلألأ الأرض والسماء نورا . ويصلون مائة ركعة ، يقرءون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونهما عشرا . وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار .

ذكر عادتهم
فى شهر رمضان المعظم

واذا هل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام ، من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل ، حتى يتلألأ الحرم نورا ، ويسطع بهجة واشراقا .

وتتفرق الأئمة فرقا ، وهم : الشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والزيدية . وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع . ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارىء يصلى بجماعته ، فيرتج المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس ، وتحضر القلوب ، وتهمل الأعين ، ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر منفردا .

والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا . وعاداتهم أنهم اذا أكملوا التراويح المعتادة (وهى عشرون ركعة) يطوف امامهم وجماعته ، فاذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة ، وكان ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يطوف أسبوعا ، هذا الى أن يتم عشرين ركعة أخرى . ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون .

وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا .

واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم ، فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، والمؤذنون فى سائر الصوامع ، فاذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه .

وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان . فاذا قرب الفجر ،

ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة ، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضا .

ولديار مكة شرفها الله سطوح ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل .

وفى كل ليلة من ليالى العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضى والفقهاء الكبراء ، ويكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة . فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير ، وأوقد الشمع ، وخطب . فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله ، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات . وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر .

وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم . وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم ، وتعرض بينها ألواح طوال ، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج ، فيكاد يعشى الأبصار شعاع الأنوار . ويتقدم الامام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ، ثم يبتدىء بقراءة سورة القدر ، واليها يكون انتهاء قراءة الأئمة فى الليلة التى قبلها . وفى تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ، ويحضرونها متبركين ، فيختم الامام فى تسليمتين ، ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام ، فاذا فرغ من ذلك عاد الأئمة الى صلاتهم ، وانفض الجمع ، ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر ، وعن المباهاة منزه موقر .

ذكر عاداتهم فى شوال

وعاداتهم فى شوال (وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات) أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجوا المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى أبى قبيس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء .

فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، لأنه لا موضع أفضل منه .

ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون ، فيفتحون باب الكعبة المقدسة ، ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه ، الى أن يأتى أمير مكة فيتلقوه . ويطوف بالبيت أسبوعا ، والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة ، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر .

ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين ، والفرقعة أمامه وهو لابس السواد ، فيصلى خلف المقام الكريم ، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة . ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار . ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ، ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى ، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ، ثم ينصرفون .

ذكر احرام الكعبة

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع ، صونا لها من الأيدى أن تنتهبها . ويسمون ذلك احرام الكعبة ، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

واذا كان أول يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات بكرة وعشية ، اشعارا بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات .

فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة ، يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم يوم الوقفة .

فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى . وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى . وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى ايقاد الشمع ، ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائما .

فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة ، فيمرون فى طريقهم بوادى محسر ويهرولون (وذلك سنة) . ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى . ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور ، زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال .

ولعرفة ثلاثة أسماء ، وهى : عرفة ، وجمع ، والمشعر الحرام .

وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة . وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف وفيما حوله .

والعلمان قبله بنحو ميل ، وهما الحد ما بين الحل والحرم . وبمقربة منهما مما يلى عرفة بطن عرنة [1] الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ، ويجب التحفظ منه ، ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس ، فان الجمالين ربما استحثوا كثيرا من الناس وحذروهم الزحام من النفر ، واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم .

وجبل الرحمة الذى ذكرناه قائم فى وسط بسيط جمع ، منقطع عن الجبال ، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض ، وفى أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضى الله عنها ، وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات ، وفى قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيها الناس .

وفى أسفل هذا الجبل ، عن يسار المستقبل للكعبة ، دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام ، وعن يسارها الصخرات التى كان موقف النبى صلى الله عليه وسلم عندها . وحول ذلك صهاريج وجباب للماء ، وبمقربة منه الموضع الذى يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر .

(١) بطن بعرفات .

وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الأراك ، وبه أراك أخضر يمتد فى الأرض امتدادا طويلا . واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكى بيده ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال . فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه ، وتطمح الآمال الى نفحات رحماه . جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه .

وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين ، وأمير الركب المصرى يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر .

وحجت فى تلك السنة ابنة الملك الناصر ، وهى زوجة أبى بكر بن أرغون هذا ، وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة ، وهى بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم . وأمير الركب الشامى سيف الدين الجوبان .

ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة ، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما ، على ما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام .

ومزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار ، وذلك مستحب . ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف ، والأمر فى ذلك واسع .

ولما انتهى الناس الى منى بادروا لرمى جمرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شىء الا النساء والطيب ، حتى يطوفوا طواف الافاضة . ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ، ومنهم من أقام الى اليوم الثانى .

وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين ، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله ، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة .

ذكر كسوة الكعبة

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون فى اسبالها على الكعبة الشريفة .

وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم » .

وفى سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدى الناس .

والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج اليه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة .

وفى هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى . وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى أربعة أيام ، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم . ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا ، فمن لقوه فى الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب ، وكذلك يعطون للمشاهدين للكعبة الشريفة . وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق . ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا ، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة ، وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة ... لكثرة ما تصدقوا به من الذهب !

وفى هذه السنة ذكر اسم السلطان أبى سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم .

ذكر الانفصال عن مكة
شرفها الله تعالى

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة فى صحبة أمير ركب العراق البهلوان [1] محمد الحويج ، وهو من أهل الموصل ، وكان يلى امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر . وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه ، يحلق لحيته وحاجبيه على الطريقة القلندرية .

ولما خرجت من مكة ، شرفها الله تعالى ، فى صحبة الأمير البهلوان ، أكترى لى شقة محارة الى بغداد ، ودفع اجارتها من ماله ، وأنزلنى فى جواره ، وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر ، فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم . فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس .

***

وفى هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض . واذا نزل الركب طبخ طعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه .

وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى ، كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه .

***

قال ابن جزى : كرم الله هذه الكنية الشريفة ، فما أعجب أمرها فى الكرم !

وحسبك بمولانا بحر المكارم ، ورافع رايات الجود ، الذى هو آية فى الندى والفضل ، أمير المسلمين أبى سعيد ، ابن مولانا قامع الكفار ، والآخذ للاسلام بالثار ، أمير المسلمين

(١) البهلول الضاحك والسيد الجامع لكل خير ، تعريب بهلوان . ويظهر أن هذا لقبه أو لقب اسرته .

أبي يوسف ... قدس الله أرواحهم الكريمة ، وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر الى يوم الدين .

***

وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة ، وأنواع الأطعمة والفواكه . وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطارات والمحارات ، فترى الأرض تتلألأ أنوارا ، والليل قد عاد نهارا ساطعا .

ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص . ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادى السمك ، ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر . وهذه المراحل ثنتان فى اليوم : احداهما بعد الصبح والأخرى بالعشى .

ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ، ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث .

ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام ، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث .

ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس ، فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها فى الأرض فينبطون ماء عذبا معينا .

ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج .

ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ، ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة ، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ، مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها . وهذا الموضع هو وسط أرض نجد ، فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة ، معتدل فى كل فصل .

ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر ، وفيه مصانع للماء . وربما جفت فحفر عن الماء فى الجفار .

ثم رحلنا ونزلنا سميرة ، وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون ، وماؤها كثير فى آبار الا أنه زعاق . ويأتى عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك .

ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو فى بيداء من الأرض ، وفى أعلاه ثقب نافذ تخرقه (1) الريح .

ثم رحلنا منه الى وادى الكروش ولا ماء به .

ثم أسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد ، وهو حصن كبير فى بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة . وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى ، فاذا عادوا وجدوه . وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ، ومنه الى الكوفة مسيرة اثنى عشر يوما فى طريق سهلٍ به المياه فى المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ، ارهابا للعرب المجتمعين هنالك ، وقطعا لأطماعهم عن الركب .

(1) تمر فيه .

وهنالك لقينا أميرى العرب ، وهما فياض وحيار ، وهما ابنا الأمير مهنا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة . فظهر منهما المحافظة على الحاج والرجال والحيطة لهم . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه .

ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالأجفر ، ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة .

ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء .

ثم أسرينا ونزلنا زرود ، وهى بسيط من الأرض فيه رمال منهالة ، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة .

ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ، ولها حصن خرب ، بازائه مصنع هائل ينزل اليه فى درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الركب . ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم ، فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل .

ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة ، وكل من مر به رجمه . ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج ، فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة ، فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة .

وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك . وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ، مما بنته زبيدة رحمة الله عليها . وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التى بين مكة وبغداد ، فهى من كريم آثارها — جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها — ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق ، فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافى ، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير ، وفيه مصنع ممتلىء بالماء .

ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة [1] ، وهى قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة ، وهى من مناهل هذا الطريق .

ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين ، وفيه مصنعان للماء .

ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة فى اليوم الثانى ، وليس بهذا الطريق وعر سواها ، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة .

ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة ، فيه قصر كبير ومصانع للماء ، معمور بالعرب ، وهو آخر مناهل هذا الطريق . وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور ، الا مشارع ماء الفرات ، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويهنىء الناس بعضهم بعضا بالسلامة .

ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة ، فيه مصنع كبير للماء .

ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاثة مصانع .

ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون ، وهى

(1) فى معجم البلدان « زبالة » وينطبق عليها هذا الوصف .

منارة فى بيداء الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها .

ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب ، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر .

ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس ، التى أظهر الله فيها دين الاسلام ، وأذل المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم . وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضى الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق النخل ، وبها مشارع من ماء الفرات .

ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنجف ، وهى مدينة حسنة فى أرض فسيحة صلبة ، من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة . دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية ، ثم سوق العطارين ، ثم باب الحضرة حيث القبر الذى يزعمون أنه قبر على عليه السلام . وبازائه المدارس والزوايا والخوانق ، معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشانى ، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن .

ذكر الروضة والقبور التى بها

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم .

ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية . فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم (وذلك على قدر الزائر) ، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ، ويقولون : عن أمركم ياأمير المؤمنين ، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية ، فان أذنتم له والا رجع ، وان لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر .

ثم يأمرونه بتقبيل العتبة ، وهى من الفضة وكذلك العضادتان . ثم يدخل القبة ، وهى مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه ، وبها قناديل الذهب والفضة ، منها الكبار والصغار . وفى وسط القبة مصطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل ، مسمرة بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شىء . وارتفاعها دون القامة ، وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام ، والثانى قبر نوح عليه الصلاة والسلام ، والثالث قبر على رضى الله تعالى عنه .

وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب ، يغمس الزائر يده فى ذلك ويدهن به وجهه تبركا .

وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة ، وعليه ستور من الحرير الملون ، يفضى الى مسجد مفروش بالبسط الحسان ، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير ، وله أربعة

أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير . وأهل هذه المدينة كلهم رافضية .

وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر على رضى الله عنه .

فمنها أن فى ليلة السابع والعشرين من رجب — وتسمى عندهم ليلة المحيا — يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم ، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك ، فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس ، والناس ينتظرون قيامهم ، وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة ، فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء وهم يقولون : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، على ولى الله ...

وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات ، ولم أحضر تلك الليلة لكنى رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال ، أحدهم من أرض الروم والثانى من أصبهان ، والثالث من خراسان ، وهم مقعدون ... فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبرونى بأنهم لم يدركوا ليلة المحيا ، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر .

وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ، ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام .

وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال ، وانما يحكم عليهم نقيب الأشراف .

وأهلها تجار يسافرون فى الأقطار . وهم أهل شجاعة وكرم ، ولا يضام جارهم . صحبتهم فى الأسفار فحمدت صحبتهم ، لكنهم غلوا فى على رضى الله عنه .

ومن الناس ، فى بلاد العراق وغيرها ، من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برىء ، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتى به الروضة فيجعله النقيب فى الخزانة ، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء .

وخزانة الروضة عظيمة ، فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته .

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ، ومنزلته رفيعة . وله ترتيب الأمراء الكبار فى سفره ، وله الأعلام والأطبال ، وتضرب « الطبلخانة » عند بابه مساء وصباحا ، واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه . ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره .

وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى (نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة) . وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ، ومنهم قوام الدين ابن طاوس ، ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهرى من عراق العجم ، وهو الآن بأرض الهند ، من ندماء ملكها . ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا ابن جماز بن شيحة الحسينى المدنى .

حكاية

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة ، وتعلم العلم واشتهر بذلك ، وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله ، فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة .

ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة ، فمات النقيب قوام الدين ابن طاوس ، فاتفق أهل العراق على تولية أبى غرة نقابة الأشراف ، وكتبوا بذلك الى السلطان أبى سعيد ، فأمضاه ونفذ له اليرليغ — وهو الظهير بذلك — وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق ، فغلبت عليه الدنيا ، وترك العبادة والزهد ، وتصرف فى الأموال تصرفا قبيحا ، فرفع أمره الى السلطان ، فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا أنه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضى بطوس ، وكان قصده الفرار .

فلما زار قبر على بن موسى قدم هراة — وهى آخر بلاد خراسان — وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند ، فرجع أكثرهم عنه ، وتجاوز هو أرض خراسان الى السند .

فلما جاز وادى السند المعروف بنج آب ضرب طبوله وأنقاره ، فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم ، وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا ، وأعلموا أميرها بما سمعوه ، فركب فى عساكره واستعد للحرب ، وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الأطبال والأعلام ، فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند ، فرجع الطلايع الى الأمير وأخبروه بكيفية الحال ، فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده .

ودخل الشريف مدينة أوجا ، وأقام بها مدة تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشيا ، وكان مولعا بذلك .

ويذكر أنه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الأطبال على رأسه ، فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له : زد نقرة يانقار ... حتى لقب بذلك !

وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الأطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ، ورفعه الأعلام ، وعادة أهل الهند ألا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ، ولا يفعله الا فى السفر ، وأما فى حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة ... بخلاف مصر والشام والعراق ، فان الطبول تضرب على أبواب الأمراء .

فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره ، وفعل فى نفسه .

ثم خرج الأمير الى حضرة الملك . وكان الأمير كشلى خان — والخان عندهم أعظم الأمراء — وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند ، وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم ، لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه ... قد قدم على حضرة ملك الهند ، فخرج الملك للقائه ، فاتفق أن كان وصول الشريف فى ذلك اليوم ، وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطبال ، فلم يرعه الا السلطان فى موكبه ، فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه ، وسأله السلطان عن حاله وما الذى جاء به فأخبره .

ومضى السلطان حتى لقى الأمير كشلى خان وعاد الى حضرته ، ولم يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره .

وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة أباد — وتسمى أيضا بالكتكة [1] ، وتسمى أيضا بالدويجر (دوكير) — وهى على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك .

فلما شرع فى السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم ، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا . وقال لرسوله اليه : قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده ، وان أراد السفر معنا فهى نفقته فى الطريق ، وان أراد الاقامة بالحضرة فهى نفقته حتى نرجع .

فاغتم الشريف لذلك ، وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هى عادته مع أمثاله . واختار السفر صحبة السلطان ، وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعو بخواجه جهان ، وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو ، وبه يدعوه سائر الناس ، فان من عادتهم أنه متى سمى الملك أحدا باسم مضاف الى الملك (من عماد أو ثقة أو قطب) ، وباسم مضاف الى الجهان (من صدر وغيره) ... فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ، ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة ... فأكدت المودة بين الوزير والشريف ، فأحسن اليه ورفع قدره ، ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد ، وأمره أن تكون اقامته بها .

وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة فى الغرباء والاحسان اليهم ، وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا ، فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام ، وحصل من ذلك مالا عظيما .

ثم أراد الخروج فلم يمكنه ، فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه ، وهو محب فى الغرباء ، فقليلا ما يأذن لأحدهم فى السراح .

فأراد الفرار من طريق الساحل فرد منه ، وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه . فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند ، وأعطاه عشرة آلاف درهم من دراهمهم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار . فأتى بها فى بدرة ، فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته فى الدنانير وفرحه بها ، وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شىء منها فانه كان بخيلا ، فأصابه وجع فى جنبه بسبب رقاده عليها ، ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره الى أن توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه .

وأوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق ... وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ ، وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه ، انما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتى مستحقه .

وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم ، سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف أبى عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى . ثم انتقل

(1) الكتكة : بفتح الكافين والتاء التى بينهما .

الى جبل طارق فسكنه الى أن استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء . وكان بهمة من البهم [1] ، لا يصطلى بنـاره ، خرق المعتاد فى الشجاعة ، وله فيها أخبار شهيرة عند الناس ، وترك ولدين همـا فى كفـالة ربيبهما الشريف الفاضل أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم بز نفيس الحسينى الكربلائى (الشـهير بـبـلاد المغرب بالعراقى) . وكان تزوج أمهمـا بعـد موت أبيهما ، وهو محسن لهما ، جـزاه الله خيرا .

ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليـه السلام ، سافر الركب الى بغداد ، وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة . وهم أهل تلك البلاد ، ولهم شـوكة عظيمـة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر فى تلك الأقطار الا فى صحبتهم . فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى .

وخرجنا من مشهد على عليه السلام ، فنزلنا الخورنق ، موضـع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء . وبه عمـارة وبقايا قباب ضخمة ، فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات .

ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقـائم الواثق ، وبه أثر قرية خربة ومسـجد خرب لم يبق منه الا صومعته .

ثم رحلنـا عنـه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار ، وهو غابة قصب فى وسط الماء ، يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى . وهم قطاع الطريق رافضـية المذهب ، خرجوا على جمـاعة من الفقـراء تأخروا عن رفقتنـا فسلبوهم حتى النعـال والكشـاكل . وهم يتحصنون بتلك الغـابة ويمتنعـون بها ممن يريدهم . والسباع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل .

مدينـة واسـط

ثم وصلنا مدينـة واسـط . وهى حسـنة الأقطار ، كثيرة البساتين والأشجار . وأهلها من خيار أهل العراق ، بل هم خيرهم على الاطلاق ، أكثرهم يحفظون القرآن الـكريم ويجيـدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، واليهم يأتى أهل بلاد العراق لتعلمه . وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وبها مدرسـة عظيمـة حافلة ، فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن ، عمرها الشـيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ، وهو من كبـار أهلها وفقهائها . ويعطى كل متعلم بها كسـوة فى السنة ، ويجرى له نفقته فى كل يوم ، ويقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة . وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرا ودراهم .

ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة ، فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى ، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة ، على مسـيرة يوم من واسـط ، فطلبت من الشيخ تقى الدين أن يبعث معى من يوصلنى اليها ، فبعث معى ثلاثة من عرب بنى أسد ، وهم قطان تلك الجهة ، وأركبنى فرسا له .

وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحـوش بنى أسد .

(1) بهمة (على وزن عمدة) ، والجمع بهم (على وزن عمد) ، هو الشجاع .

ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى الى الرواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء ، وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد قوجك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى ، الذى قصدنا زيارته . وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم لزيارة قبر جده ، واليه انتهت الشيوخة بالرواق .

ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء فى الرقص ، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس . ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر ، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده .

ثم أخذوا فى السماع ، وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعا ، وهذا دأبهم . وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

حكاية

كنت مررت بموضع يقال له أفقانبور ، من عمالة هزار أمروها ، وبينها وبين دهلى حضرة الهند مسيرة خمس ، وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور ، وذلك فى أوان الشكال (والشكال عندهم هو المطر ، وينزل فى ابان القيظ) . وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال قراجيل ، فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة ، فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد .

ووصل الى هناك جماعة من الفقراء فى أعناقهم أطواق الحديد وفى أيديهم ، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون ، وهم من الطائفة المعروفة بالجيدرية ، فباتوا عندنا ليلة وطلب منى كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم ، فكلفت والى تلك الجهة ، وهو عزيز المعروف بالخمار (وسيأتى ذكره) ، أن يأتى بالحطب ، فوجه منه نحو عشرة أحمال ، فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا ، وأخذوا فى السماع ، ثم دخلوا فى تلك النار ، فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها ، وطلب منى كبيرهم قميصا ، فأعطيته قميصا فى النهاية من الرقة ، فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت ، وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئا ألبتة ، فطال عجبى منه .

ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبى العباس الرفاعى ، نفع الله به ، عدت الى مدينة واسط ، فوجدت الرفقة التى كنت فيها قد رحلت ، فلحقتها فى الطريق ، ونزلنا ماء يعرف بالهضيب .

ثم رحلنا ونزلنا بوادى الكراع ، وليس به ماء .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشيرب . ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة .

مدينة البصرة

ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة ، فنزلنا بها رباط مالك بن دينار . وكنت رأيت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن ، فسألت عنه فقيل لى هو مسجد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح

الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها ، وبينه الآن وبينها ميلان ، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما .

ومدينة البصرة احدى أمهات العراق ، الشهيرة الذكر فى الآفاق ، الفسيحة الأرجاء ، المونقة الأفناء ، ذات البساتين الكثيرة ، والفواكه الكثيرة ، توفر قسمها [1] من النضارة والخصب ، لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب . وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها ، فيباع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة . ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة [2] تمر يحملها الرجل على تكلف ، فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم ، أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق . ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان ، وهو طيب كأنه الجلاب .

والبصرة ثلاث محلات [3] : احداها محلة هذيل ، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، من الكرماء الفضلاء ، أضافنى وبعث الى بثياب ودراهم .

والمحلة الثانية محلة بنى حرام ، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى ، ذو مكارم وفواضل ، أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدراهم .

والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها جمال الدين بن اللوكى .

(١) حظها .
(٢) القوصرة وعاء للتمر .
(٣) المحلة : منزل القوم .

وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيما بينهم غريب . وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه الذى ذكرته ، ثم يسد فلا يأتونه الا فى الجمعة . وهذا المسجد من أحسن المساجد ، وصحنه متناهى الاتساع مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع . وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل ، وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » .

حكاية اعتبار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره ، وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين ، فقال لى : ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو .

وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، فسبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور !

هذه البصرة التى الى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها امامه الذى لا ينكر سبقه ... لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها !

ولهذا المسجد سبع صوامع [1] : احداها الصومعة التى تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة ، فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها ، كأنه مقبض مملسة [2] البناء .

(١) أى مآذن .
(٢) فى الاساس : ملس ارضه بالملاسة والمملسة ، وهى الخشبة التى يملس بها .

فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المقبض وقال : بحق رأس أمير المؤمنين على رضى الله عنه ... تحركى .

وهز المقبض فتحركت الصومعة !

فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له : وأنا أقول : بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... تحركى .

وهززت المقبض ، فتحركت الصومعة ، فعجبوا من ذلك !

وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ، ويخاف من يفعل مثل فعلى عندهم . ولو جرى مثل هذا بمشهد على أو مشهد الحسين ، أو بالحلة ، أو بالبحرين ، أو قم ، أو قاشان ، أو ساوة ، أو آوة ، أو طوس ، لهلك فاعله ، لأنهم رافضة غالية [1] .

***

قال ابن جزى : قد عاينت بمدينة برشانة — من وادى المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله — صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم .

***

ذكر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضى الله عنهم . وهو بداخل المدينة ، وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا .

ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، رضى الله عنه . وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه . وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل .

ومنها قبر حليمة السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضى الله عنها ، والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها قبر أبى بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة .

وعلى ستة أميال منها ، بقرب وادى السباع ، قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سبيل لزيارته الا فى جمع كثيف ، لكثرة السباع وعدم العمران .

ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصرى ، سيد التابعين ، رضى الله عنه .

ومنها قبر محمد بن سيرين رضى الله عنه .

ومنها قبر محمد بن واسع رضى الله عنه .

ومنها قبر عتبة الغلام رضى الله عنه .

ومنها قبر مالك بن دينار رضى الله عنه .

ومنها قبر حبيب العجمى رضى الله عنه .

ومنها قبر سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه .

وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته . وذلك كله داخل السور القديم . وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال .

وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهدين يوم الجمل .

وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التوريزى ، أضافنى فأحسن الى .

والبصرة على ساحل الفرات ودجلة ، وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادى سلا من بلاد

(1) غالية : مبالغون .

المغرب وسواه . والخليج الملح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها . فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب ، واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الملح ، فيستسقى أهل البصرة الماء لدورهم ، ولذلك يقال ان ماءهم زعاق .

***

قال ابن جزى : وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد ، وألوان أهلها مصفرة كاسفة ، حتى ضرب بهم المثل . وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدى الصاحب [1] أترجة :

لله أترج غدا بيننا
معبرا عن حال ذى عبرة
لما كسا الله ثياب الضنا
أهل الهوى وساكنى البصرة

***

ثم ركبت من ساحل البصرة فى « صنبوق » — وهو القارب الصغير — الى الأبلة ، وبينها وبين البصرة عشرة أميال ، فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار ، والباعة فى ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه .

وفيما بين البصرة والأبلة متعبد سهل بن عبد الله التسترى ، فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادى ، ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولى رضى الله عنه .

وكانت الأبلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ، فخربت ، وهى الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها .

(١) الصاحب بن عباد .

ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمغامس — وذلك فيما بعد المغرب — فصبحنا عبادان [1] ، وهى قرية كبيرة فى سبخة [2] لا عمارة بها . وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين ، وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال .

***

قال ابن جزى : عبادان كانت بلدا فيما تقدم ، وهى مجدبة لا زرع بها ، وانما يجلب اليها ، والماء أيضا بها قليل . وقد قال فيها بعض الشعراء :

من مبلغ أندلسا أننى
حللت عبادان أقصى الثرى
أوحش ما أبصرت لكننى
قصدت فيها ذكرها فى الورى
الخبز فيها يتهادونه
وشربة الماء بها تشترى

***

وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام . وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ، وكل من يمر بهم يتصدق عليهم .

وذكر لى أهل هذه الزاوية أن بعبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له ، يأتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ، ثم لا يرى الا بعد تمام شهر ، وهو على ذلك منذ أعوام . فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شأن الا طلبه ، فاشتغل من كان معى بالصلاة فى

(١) عبادان ، بالعين المفتوحة ، وتشديد الباء .
(٢) السبخة (بفتح السين والباء ، ويجوز تسكين الباء) أرض ذات نز وملح . الجمع سباخ (بكسر السين) .

المســاجد والمتعبــدات ، وانطلقت طالبا له ، فجئت مسجدا خربا ، فوجدته يصلى فيــه ، فجلست فى جانبه ، فأوجز فى صلاته . ولما سلم أخذ بيدى وقال لى : بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة . فقــد بلغت بحمــد الله مرادى فى الدنيا وهو الســياحة فى الأرض ، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيرى فيما أعلمــه . وبقيت الأخرى ، والرجاء قوى فى رحمة الله وتجاوزه ، وبلوغ المراد من دخول الجنة .

ولما أتيت أصــحابى أخبرتهم خبــر الرجل وأعلمتهم بموضعه ، فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر ، فعجبوا من شأنه .

وعدنا بالعشى الى الزاوية فبتنا بها . ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشــاء الآخرة ، ومن عادة ذلك الفقير أن يأتى عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ، ثم يعود الى زاويته . فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد ، فأعطاه سمكة طرية ، وقال له : أوصل هذه الى الضيف الذى قدم اليوم .

فقال لنا الفقير عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم ؟

فقلت له : أنا رأيته .

فقال : يقول لك : هذه ضيافتك .

فشكرت الله على ذلك . وطبخ لنا الفقــير تلك السمكة ، فأكلنا منها كلنا أجمعون . وما أكلت قط سمكا أطيب منها .

وهجس فى خاطرى الاقامة بقيــة العمر فى خدمة ذلك الشيخ ، ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك .

ثم ركبنا البحر عنــد الصبح بقصــد بلدة ماجول . ومن عادتى فى سفرى ألا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك . وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشــار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللثور ، ثم الى عراق العجم ، ثم الى عراق العرب ، فعملت بمقتضى اشارته .

ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول [1] ، وهى صغيرة على ســاحل هذا الخليج الذى ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس ، وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ، ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق . وأقمت بها يوما واحدا ، ثم اكتريت دابة لركوبى من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول ، وسرنا ثلاثا فى صحراء يسكنها الأكراد فى بيوت الشعر ، ويقــال ان أصلهم من العرب .

ثم وصلنا الى مدينــة رامز ، وهى مدينــة حسنة ذات فواكه وأنهار ، ونزلنــا بها عنــد القاضى حسام الدين محمود ، ولقيت عنــده رجلا من أهل العلم والدين والورع ، هنــدى الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيــل ، وهو من أولاد الشيخ بهــاء الدين أبى زكريا الملتانى ، وقرأ على مشايخ توريز وغيرها .

وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة . ثم رحلنا منها ثلاثا فى بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد ، وفى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبــز واللحم والحلواء . وحلواؤهم من رب العنب مخلوطا بالدقيــق والســمن . وفى كل زاوية الشــيخ والامام والمؤذن والخــادم للفقــراء والعبيد ، والخدم يطبخون الطعام .

ثم وصلت الى مدينــة تستر ، وهى آخر البسيط من بلاد أتابك ، وأول الجبال .

(1) على وزن قاموس .

وصف مدينة تستر

مدينـة كبيرة رائقة نضرة ، وبها البسـاتين الشريفـة ، والرياض المنيفـة ، ولها المحاسن البارعة ، والأسواق الجامعة . وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد . ووالي هذه المدينـة ينسب الى سهل بن عبد الله . ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب ، في نهاية من الصفاء ، شديد البرودة في أيام الحر ، ولم أر كزرقته الا نهر بلخشـان . ولهـا باب واحد للمسافرين يسمى دروازه دسبول . والدروازة عندهم : الباب . ولها أبواب غيره شارعة الى النهر . وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب . والنهر عميق ، وعلى باب المسافرين منـه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة .

***

قال ابن جزى :

وفي هذا النهر يقول بعضهم :

انظر لشاذروان تستر واعتجب
من جمعـه ماء لرى بلاده
كمليـك قوم جمعت أمواله
فغـدا يفـرقه على أجناده

***

والفواكه بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة غزيرة ، ولا مثـل لأسـواقها في الحسـن . وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ، وينذرون لها النذور ، ولها زاوية بها جماعة من الفقراء ، وهم يزعمون أنها تربة زين العـابدين على بن الحسـين بن على بن أبى طالب .

وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسـة الشـيخ الامام الصـالح المتفنن شرف الدين موسى ، ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبـد الله . وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ، جامع بين العلم والدين والصـلاح والايثـار . وله مدرسة وزاوية ، وخدامها فتيـان له أربعة : سنبل ، وكافور ، وجوهر ، وسرور . أحدهم موكل بأوقاف الزاوية ، والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم ، والثالث خـادم السـماط بين أيدى الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين . فأقمت عنده سـتة عشر يوما ، فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه : يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الأربعة من طعام الأرز المفلفل المطبوخ في السمن ، والدجـاج المقلى والخبز واللحم والحلواء .

وهذا الشيخ من أحسن النـاس صـورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صـغر لدى كل واعظ رأيتـه قبله بالحجاز والشام ومصر ، ولم ألق فيمن لقيتهم مثله .

حضرت يوما عنده ببسـتان له على شاطئ النهر ، وقد اجتمع فقهاء المدينـة وكبراؤها ، وأتى الفقراء من كل ناحية ، فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر ، وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء أمامه بالتلاحين المبـكية والنغمـات المحركة المهيجـة . وخطب خطبة بسكينة ووقار ، وتصرف في فنـون العلم من تفسير كتاب الله ، وايراد حديث رسـول الله والتكلم على معانيه .

ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية . ومن عادة الأعاجم أن يكتبـوا المسـائل في رقاع

ويرموها الى الواعظ فيجيب عنها . فلما رمى اليه بتلك الرقاع جمعها فى يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه . وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا .

وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة . وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد ، وجز نواصيهم ، وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة لذلك ، وعشرة رجال من عوام تستر .

حكاية

لما دخلت هذه المدينة أصابنى مرض الحمى . وهذه البلاد يحم داخلها فى زمان الحر كما يعرض فى دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه . وأصابت الحمى أصحابى أيضا ، فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراسانى ، وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه . وتركت بها صاحبا لى يدعى بهاء الدين الختنى ، فمات بعد سفرى .

وكنت حين مرضى لا أشتهى الأطعمة التى تصنع لى بمدرسته ، فذكر لى الفقيه شمس الدين السندى من طلبتها طعاما فاشتهيته ، ودفعت له دراهم وطبخ لى ذلك الطعام بالسوق وأتى به الى فأكلت منه . وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الى وقال لى : كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام فى السوق ؟ وهلا أمرت الخدام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ؟

ثم أحضر جميعهم وقال لهم : جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به ، واطبخوا له ما يشاؤه . وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد ، جزاه الله خيرا .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شامخة ، وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك .

ووصلنا الى مدينة ايذج ، وهى حضرة السلطان أتابك . وعند وصولى اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى ، وله النظر فى جميع الزوايا ، وهم يسمونها المدرسة ، والسلطان يعظمه ويقصد زيارته ، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا . فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى بزاوية تعرف باسم الدينورى ، وأقمت بها أياما . وكان وصولى فى أيام القيظ ، وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ، ثم ننزل الى الزاوية ضحوة . وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ، ونحن على أحسن ترتيب .

ذكر ملك ايذج وتستر

وملك ايذج فى عهد دخولى اليها السلطان أتابك أفراسياب ، ابن السلطان أتابك أحمد . وأتابك ، عندهم ، سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك . وتسمى هذه البلاد بلاد اللور .

وولى هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف ، وولى يوسف بعد أبيه أتابك أحمد . وكان أحمد ملكا صالحا ، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده ، منها بحضرة ايذج أربع وأربعون . وقسم خراج بلاده أثلاثا : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه . ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة ، وربما وفد عليه بنفسه .

وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شامخة ، وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة وسويت ووسعت ، بحيث تصعدها الدواب بأحمالها . وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة ، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض ، تشقها الأنهار ، وشجرها البلوط ، وهم يصنعون من دقيقه الخبز .

وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة ، فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته ، سواء طلب ذلك أو لم يطلبه ، فان عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ، ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء . وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها .

وكان السلطان آتابك أحمد زاهدا صالحا كما ذكرناه ، يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر .

حكاية

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد ، فقال له بعض خواصه : ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع (وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا) ، فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته ، فدخل عليه يوما فقام اليه الأمير الجوبان عظيم أمراء العراق ، والأمير سويته أمير ديار بكر ، والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق ، وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه ، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ، ورآه السلطان أبو سعيد ، وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ، وقال له : سن آطا . (ومعناها بالتركية أنت أبي) ، وعوضه عن هديته بأضعافها ، وكتب له ألا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده .

وفي تلك السنة توفي ، وولي ابنه آتابك يوسف عشرة أعوام ، ثم ولي أخوه أفراسياب .

ولما دخلت مدينة ايذج أردت رؤية السلطان أفراسياب المذكور ، فلم يتأت لي ذلك بسبب أنه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه الخمر .

وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه ، فمرض في تلك الأيام . ولما كان في احدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته ، وذهب عني ، ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران [١] كبيران : أحدهما بالطعام ، والآخر بالفاكهة ، وخريطة فيها دراهم ، ومعه أهل السماع بآلاتهم ، فقال : اعملوا السماع حتى يرهج [٢] الفقراء ويدعوا لابن السلطان .

فقلت له : ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص .

ودعونا للسلطان ولولده ، وقسمت الدراهم على الفقراء .

ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض .

ولما كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا : ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء ، فينبغي لك أن تذهب في جملتهم ، فأبيت ذلك ، فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير ، فسرت معهم ، فوجدت

(١) الطيفور : وعاء للطعام يظهر انه على شكل طائر ، لأن الطيفور لغة هو الطائر الصغير .

(٢) من معاني الارهاج الصخب ، والمراد هنا التواجد والرقص له

«مشور» [1] دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والأجناد ، وقد لبســوا التــلاليس [2] وجلال الدواب ، وجعلوا فوق رءوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جز ناصيته . وانقسموا فرقتين : فرقة بأعلى « المشور » وفرقة بأسفله ، وتزحف كل فرقة الى جهة الأخرى ، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون : خوند كارما . ومعنــاه : مولاى أنا (مولانا) ...

فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله .

حــكاية

ومن غريب ما اتفق لى يومئــذ أنى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد اســتندوا الى حيطان « المشور » ، وهو غاص بهم من جميع جهاته ، وهم بين باك ومتباك ومطرق ، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلى أجســادهم ، وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود . وهــكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما ، وهى نهاية الحزن عندهم . وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة .

فلما رأيت جهات « المشور » غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسى ، فرأيت هناك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر ، وفى احــدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد ، عليه ثوب صوف شبه اللبد ، يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الأســفار . فتقــدمت الى حيث الرجل ، وانقطع عنى أصحابى لما رأوا اقدامى نحوه ، وعجبوا منى وأنا لا علم عندى بشىء من حاله . فصــعدت السقيفــة وسلمت على الرجل ، فرد السلام وارتفــع عن الأرض كأنه يريد القيام — وهم يســمون ذلك نصــف القيام — وقعدت فى الركن المقــابل له . ثم نظرت الى النــاس وقد رمونى بأبصــارهم جميعا ، فعجبت منهم ، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مســتندين الى الحــائط تــحت السقيفة . وأشار الىّ أحد القضاة أن أنحط الى جانبه فلم أفعــل . وحينئذ شعــرت أنه السلطان .

فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل ، فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل ، فقام اليه وجلس فيما بينى وبينه ، فحينئذ علمت أن الرجل هو السلطان .

ثم جىء بالجنازة وهى بين أشــجار الأترج والليمون والنارنج ، وقد ملئــوا أغصــانها بثمارها ، والأشــجار بأيدى الرجال ، فكأن الجنازة تمشى فى بستان ، والمشاعل فى رماح طوال بين يديهــا ، والشــمع كذلك ، فصلى عليها ، وذهب الناس معها الى مدفن الملوك ، على أربعة أميال من المدينة .

وهنالك مدرســة عظيمــة يشقها النهر ، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة ، وبخارجها حمام ، ويحفه بها بستان عظيم ، وبها الطعام للوارد والصادر .

ولم أســتطع أن أذهب معهــم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع ، فعدت الى المدرسة .

(١) « المشور » كلمة أعجمية يراد بها مجلس السلطان للاستقبال . وقد ضبطــها بعض المستشرقين على وزن مقعد .

(٢) التلاليس (لعله جمع تليســة) هنة تسوى من الخوص ، وتطلق على الجوالق والزكائب فى الصعيد .

فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا ، يدعونى اليه ، فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر ، وصعدنا فى درج كثيرة ، الى أن انتهينا الى موضع لا فرش به ، لأجل ما هم فيه من الحزن ، والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان [1] قد غطيتا : احداهما من الذهب والأخرى من الفضة .

وكانت بالمجلس سجادة خضراء ، ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها . وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه . فسألنى عن حالى وبلادى ، وسألنى عن الملك الناصر وبلاد الحجاز ، فأجبته عن ذلك .

ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لى السلطان : هذا مولانا فضيل (والفقيه ببلاد الأعاجم كلها انما يخاطب بمولانا ، وبذلك يدعوه السلطان وسواه) . ثم أخذ فى الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لى أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر .

ثم قال لى باللسان العربى (وكان يحسنه) : تكلم !

فقلت : ان كنت تسمع منى أقل لك ... أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد ، وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غير هذا (وأشرت الى الآنيتين) . فخجل من كلامى وسكت .

وأردت الانصراف فأمرنى بالجلوس ، وقال لى : الاجتماع مع أمثالك رحمة .

(1) الاناء (بكسر الهمزة) جمعه آنية وأوان . وكثيرا ما ورد لفظ « آنية » فى هذا الكتاب كأنه لمفرد ، وهاهو ذا هنا يثنيه !

ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت .

وكنت تركت نعلى بالباب فلم أجدها ، فنزل الفقيه محمود فى طلبها ، وصعد الفقيه فضيل يطلبها فى داخل المجلس ، فوجدها فى طاق هنالك ، فأتى الى بها فأخجلنى بره ، واعتذرت اليه ، فقبل نعلى حينئذ ووضعها على رأسه ، وقال لى : بارك الله فيك ، هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله انى لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلى من حضرة ايذج بعد أيام ، فنزلت بمدرسة السلاطين التى بها قبورهم ، وأقمت بها أياما ، وبعث الىّ السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابى .

وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عشرة أيام فى جبال شامخة ، وفى كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ما هو فى العمارة ، ومنها ما لا عمارة حوله ، ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه .

وفى اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ (وهى آخر بلاد هذا الملك) .

وسافرنا منها فى بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة [1] مدينة أصفهان .

ثم وصلنا الى بلدة أشتركان ، وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ، ولها مسجد بديع يشقه النهر .

ثم رحلنا الى مدينة فيروزان ، واسمها كأنه تثنية فيروز ، وهى مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين . وصلناها بعد صلاة العصر ،

(1) العمالة مثلثة العين أجر العامل . ولكن المراد هنا نحو الاقليم ، وهو بعيد من المعنى اللغوى .

فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة ، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل ، وأتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الأغاني المطربة ، فعجبنا من شأنهم .

وبتنا بها ليلة ، ومررنا بالغد بقرية يقال لها تبلان ، وهي كبيرة على نهر عظيم ، والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن ، يصعد اليه في درج وتحفه البساتين .

وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ، ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم .

وصف مدينة أصفهان

ومدينة أصفهان من كبار المدن وأحسنها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض ، وهي متصلة بينهم حتى الآن ، فلا يزالون في قتال . وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له ، يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبسونه ويدخرونه ، ونواه ينكسر عن لوز حلو ، ومنها السفرجل الذي لا مثيل له في طيب المطعم وعظم الجرم ، والأعناب الطيبة ، والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله ، الا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم ، وقشره أخضر وداخله أحمر ، ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب ، وله حلاوة شديدة ، ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله ، وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان .

وأهل أصفهان حسان الصور ، وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة ، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة ، تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة ، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له : اذهب معي لتأكل نانا وماسا (والنان بلسانهم : الخبز ، والماس : اللبن) ، فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك .

وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم ، يسمونه الكلو ، وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات .

وتتكون الجماعة من الشبان الأعزاب ، وتتفاخر تلك الجماعات ، ويضيف بعضهم بعضا ، مظهرين لما قدروا عليه من الامكان ، محتفلين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم .

ولقد ذكر لي أن طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ، ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير .

وكان نزولي بأصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد ، وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر ، وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني ، وهو موقوف في السبيل ، لا يلزم أحدا في دخوله شيء .

وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء . وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد . أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما ، فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب ، وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة .

وساعة وصولى الزاوية بعث الى بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذى وصفناه آنفا ، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته .

كرامة لهذا الشيخ

دخل على يوما بموضع نزولى من الزاوية ، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ ، وكانت ثيابه قد غسلت فى ذلك اليوم ونشرت فى البستان . ورأيت فى جملتها جبة بيضاء مبطنة ، تدعى عندهم هزرميخى ، فأعجبتنى وقلت فى نفسى : مثل هذه كنت أريد .

فلما دخل على الشيخ نظر فى ناحية البستان وقال لبعض خدامه : ائتنى بذلك الثوب . فأتوا به فكسانى اياه ، فأهويت الى قدميه أقبلهما ، وطلبت منه أن يلبسنى « طاقية » من رأسه ويجيزنى فى ذلك بما أجازه والده عن شيوخه . فألبسنى اياها فى الرابع عشر لجمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة ، كما لبس من والده شمس الدين ، ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ، ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ، ولبس على من الامام شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى ، ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبى النجيب السهروردى ، ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ، ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ، ولبس محمد من الشيخ أخى فرج الزنجانى ، ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينورى ، ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينورى ، ولبس ممشاد من الشيخ المحقق على بن سهل الصوفى ، ولبس على من أبى القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من سرى السقطى ، ولبس سرى السقطى من داود الطائى ، ولبس داود من الحسن بن أبى الحسن البصرى ، ولبس الحسن بن أبى الحسن البصرى من أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

***

قال ابن جزى : هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند . والمعروف فيه أن سريا السقطى صحب معروفا الكرخى ، وصحب معروف داود الطائى ، وكذلك داود الطائى بينه وبين الحسن حبيب العجمى . وأخو فرج الزنجانى انما المعروف أنه صحب أبا العباس النهاوندى ، وصحب النهاوندى أبا عبد الله بن خفيف ، وصحب ابن خفيف أبا محمد رويما ، وصحب رويم أبا القاسم الجنيد . وأما محمد ابن عبد الله عمويه فهو الذى صحب الشيخ أحمد الدينورى الأسود ، وليس بينهما أحد ، والله أعلم . والذى صحب أخا فرج الزنجانى هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبى النجيب .

***

ثم سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز ، وبينهما مسيرة عشرة أيام ، فوصلنا الى بلدة كليل ، وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة . وهى بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه : رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة .

ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى ، وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه فى سبيل الخيرات ، من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لأبناء السبيل .

ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قـرية كبيرة تعرف بصرماء ، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، عمرها خواجه كافى أيضا .

ثم سرنا منها الى يزدخاص ، بلدة صـغيرة متقنة العمارة حسنة السوق . والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقوف بها ، والبلدة على ضفة خندق فيـه بسـاتينها ومياهها . وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليـه باب حديد ، وهو فى النهاية من الحصانة والمنعة . وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاج اليه المسافرون . وهذا الرباط عمره الأمير محمـد شاه ينجـو والد السلطان أبى اسـحق ملك شيراز .

وفى يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصى ، ولا نظير له فى طيبه ، ووزن الجبنة منه من أوقيتين الى أربع .

ثم سرنا منها على طريق دشت الروم ، وهى صحراء يسكنها الأتراك .

ثم سـافرنا الى مايين ، وهى بلدة صـغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز .

ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز .

وصف شـيراز

وهى مدينة أصيلة البناء ، فسيحة الأرجاء ، شهيرة الذكر ، منيفـة القـدر ، لها البساتين المونقة ، والأنهار المتدفقة ، والأسواق البديعة ، والشوارع الرفيعة . وهى كثيرة العمـارة ، متقنـة المبـانى ، عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة فى سوقها لا يخالطهم غيرهم ، وأهلهـا حسان الصور نظاف الملابس . وليس فى المشرق بلد تدانى مدينة دمشـق فى حسن أسـواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صـور ساكنيها الا شيراز .

وهى فى بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات ، وتشقها خمسـة أنهـار : أحدها النهر المعروف بركن آباد ، وهو عذب الماء شـديد البرودة فى الصـيف ، سخن فى الشتاء ، فينبعث من عين فى سفح جبل هنالك يسمى القليعة .

ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق ، وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بنـاء ، وصحنه متسع مفروش بالمرمر ، ويغسل فى أوان الحر كل ليلة ، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ، ويصلون به المغرب والعشاء .

وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى الى سوق الفاكهة ، وهى من أبدع الأسواق ، وأنا أقول بتفضيلهـا على سـوق باب البريد من دمشق .

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف ، وخصوصا نساءها ، وهن يلبسن الخفـاف ، ويخرجن ملتحفات متبرقعـات فلا يظهر منهن شىء ، ولهن الصدقات والايثار . ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربما اجتمع منهن الألف والألفان ، بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر . ولم أر اجتماع النساء فى مثل عددهن فى بلدة من البلاد .

وعند دخولى الى مدينة شيراز لم يكن لى هم الا قصـد الشيخ القـاضى الامام قطب الأولياء ، فريد الدهر ، ذى الكرامات الظاهرة

مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ، ومعنى خداد : عطية الله . فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه ، وبها سكناه ، وهى من عمارته . فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابى ، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة فى انتظاره ، فخرج الى صلاة العصر ، ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه ، روح الدين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وهما نائباه فى القضاء لضعف بصره وكبر سنه . فسلمت عليه وعانقنى وأخذ بيدى الى أن وصل الى مصلاه ، فأرسل يدى ، وأومأ الى أن أصلى الى جانبه ففعلت . وصلى صلاة العصر ، ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصاغانى . وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا . وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحا ومساء . ثم سألنى عن حالى وكيفية قدومى ، وسألنى عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك . وأمر خدامه فأنزلونى بدويرة صغيرة بالمدرسة .

وفى غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبى سعيد ، وهو ناصر الدين الدرقندى من كبار الأمراء ، خراسانى الأصل ، فعند وصوله اليه نزع « شاشيته » عن رأسه ، وقبل رجل القاضى ، وقعد بين يديه ممسكا أذن نفسه بيده . وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم فى نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة ، ودخل الى القاضى فى خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا .

حكاية
هى السبب فى تعظيم هذا الشيخ
وهى من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده ، قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان وأسلمت باسلامه التتر ، زاد فى تعظيم هذا الفقيه ، فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة ، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن عليا ابن عمه وصهره هو وارث الخلافة ، ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذى بيده انما هو ارث عن أجداده وأقاربه ، مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين . فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض ، وكتب بذلك الى العراقين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وبعث الرسل الى البلاد ، فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز وأصفهان .

فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم ، وهم أهل السنة ، وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ! وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فى السلاح وبه رسول السلطان . فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه ، وهم نحو اثنى عشر ألفا فى سلاحهم ، وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها ، فحلفوا له أنه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ، ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله . وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء

الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر الا اسم على ومن تبعه كعمار رضى الله عنهم . فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة .

وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد . فرجعت الرسل الى الملك فأخبروه بما جرى فى ذلك ، فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث ، فكان أول من أتى به منهم القاضى مجد الدين قاضى شيراز ، والسلطان اذ ذاك فى موضع يعرف بقراباغ ، وهو موضع مصيفه . فلما وصل القاضى أمر أن يرمى به الى الكلاب التى عنده ، وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم . فاذا أتى بمن يسلط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ، ثم بعثت تلك الكلاب عليه ، فيفر أمامها ولا مفر له ، فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه .

فلما أرسلت الكلاب على القاضى مجد الدين ووصلت اليه ، بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ، ولم تهجم عليه بشىء . فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين ، فأكب على رجلى القاضى يقبلهما ، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب . وهى أعظم كرامات السلطان عندهم . واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه ، ما دامت تلك الثياب أو شىء منها . وأعظمها فى ذلك السراويل .

ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به . ورجع السلطان عن مذهب الرفض ، وكتب الى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضى وصرفه الى بلاده مكرما معظما ، وأعطاه فى جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم ، والقرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز .

ومن قراه العظيمة التى تضاهى المدن ، قرية ميمن ، وهى للقاضى المذكور .

ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان : أن نصفه مما يلى شيراز ، وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا ، شديد البرد ، وينزل فيه الثلج ، وأكثر شجره الجوز ، والنصف الآخر مما يلى بلاد هنج وبال وبلاد اللار ، فى طريق هرمز ، شديد الحر وفيه شجر النخيل .

وقد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين ثانية حين خروجى من الهند ، قصدته من هرمز متبركا بلقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين . وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما ، فدخلت عليه ، وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفنى ، وقام الى فعانقنى ، ووقعت يدى على مرفقه ، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما . وأنزلنى بالمدرسة حيث أنزلنى أول مرة .

وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق (وسيقع ذكره) قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدى الملك .

وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا ، فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة فى

ميراثا ، فصرفهما الى القاضي مجد الدين ، فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده ، وفصل بينهما بواجب الشرع .

وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي ، وانما يقولون له : مولانا أعظم ، وكذلك يكتبون فى التسجيلات والعقود التى تفتقر الى ذكر اسمه فيها . وكان آخر عهدى به فى شهر ربيع الثانى من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة . ولاحت على أنواره وظهرت لى بركاته ، نفع الله به وبأمثاله .

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه ينجو ، سماه أبوه باسم الشيخ أبى اسحاق الكازرونى نفع الله به .

وهو من خيار السلاطين ، حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع ، صاحب قوة وملك كبير ، وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والأعاجم .

وبطانته الأدنون اليه أهل أصفهان . وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ، ولايستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهل نجدة وبأس شديد ، وجراءة على الملوك . ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب . ولقد شاهدت مرة رجلا تجره « الجنادرة » [1] — وهم الشرط — الى الحاكم ، وقد ربطوه فى عنقه ، فسألت عن شأنه فأخبرت أنه وجدت فى يده قوس بالليل . فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفهانيين عليهم ، لأنه يخافهم على نفسه .

(1) فارسية ، جمع جندار ، وهو حارس ذات الملك .

وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قِبَل ملك العراق ، وكان حسن السيرة محببا الى أهلها . فلما توفى ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، وهو ابن الجوبان أمير الأمراء (وسيأتى ذكره) ، وبعث معه العساكر الكثيرة ، فوصل الى شيراز وملكها ، وضبط مجابيها .

وهى من أعظم بلاد الله مجبى . ذكر لى الحاج قوام الدين الطمغجى — وهو والى المجبى بها — أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم (وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهبا) .

وأقام بها الأمير حسين مدة ، ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبى اسحاق بن محمد شاه ينجو ، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك ، وعلى والدته طاش خاتون ، وأراد حملهم الى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم . فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء أن ترى فى تلك الحال ، فان عادة نساء الأتراك ألا يغطين وجوههن ، واستغاثت بأهل شيراز ، وقالت : أهكذا ياأهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان ؟

فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود ، وقد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز ، فقال : لا نتركها تخرج من بلادنا ولا نرضى بذلك .

فتابعه الناس على قوله ، وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح ، وقتلوا كثيرا من العسكر ، وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها .

وفر الأمير حسين ومن معه ، وقدم على السلطان أبى سعيد مهزوما ، فأعطاه العساكر الكثيفة ، وأمره بالعود الى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء . فلما بلغ أهلها ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم به . فقصدوا القاضى مجد الدين وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح ، فخرج الى الأمير حسين ، فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح .

ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة . فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى أجمل ترتيب ، وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير . ودخل الأمير حسين فى أبهة وحفل عظيم ، وسار فيهم بأحسن سيرة .

فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده ، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم . وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس ، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر .

واشتدت شوكته ، وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد . فبدأ بالأقرب منها وهى مدينة يزد ، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة . وأهلها تجار شافعية المذهب ، فحاصرها وتغلب عليها ، وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال ، فحاصره بها ، فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله . فكان يضرب على عسكر السلطان أبى اسحاق ليلا ، ويقتل ما شاء ويحرق المضارب والفساطيط ، ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه .

وضرب ليلة على دوار [1] السلطان ، وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة ، وعاد الى قلعته . فأمر السلطان أن تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعوا له الكمائن ، ففعلوا ذلك . وخرج على عادته فى مائة من أصحابه فضرب على العسكر ، وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر ، فقاتلهم وخلص الى قلعته ، ولم يصب من أصحابه الا واحد ، أتى به الى السلطان أبى اسحاق فخلع عليه وأطلقه ، وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فأبى ذلك .

ثم وقعت بينهما المراسلة ، ووقعت له محبة فى قلب السلطان أبى اسحاق ، لما رأى من شجاعته ، فقال : أريد أن أراه ، فاذا رأيته انصرفت عنه .

فوقف السلطان فى خارج القلعة ، ووقف هو ببابها وسلم عليه ، فقال له السلطان : انزل على الأمان .

فقال له مظفر : انى عاهدت الله ألا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتى ، وحينئذ أنزل اليك .

فقال له : أفعل ذلك .

فدخل اليه السلطان فى عشرة من أصحابه الخواص . فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر ، وقبل ركابه ، ومشى بين يديه مترجلا . فأدخله داره وأكل من طعامه ، ونزل معه الى المحلة [2] راكبا ، فأجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ، ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبى اسحاق ،

(١) المراد هنا الخيم ، ولكنه ليس من معانى الدوار .
(٢) المراد المعسكر . وقد استعمل الرحالة هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى .

وتكون البلاد لمظفر وأبيه . وعاد السلطان الى بلاده .

وكان السلطان أبو اسحاق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كايوان كسرى ، وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه ، فأخذوا فى ذلك . وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم ، فانتهوا فى المباهاة الى أن صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش . وفعلوا نحو ذلك فى براذع الدواب وأخراجها . وصنع بعضهم الفئوس من الفضة ، وأوقدوا الشمع الكثير .

وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم ، والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له . وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاث أذرع .

ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه ، وصارت الفعلة تخدم فيه بالأجرة ، ويحشر لذلك آلاف منهم . وسمعت والى المدينة يقول : ان معظم مجباها ينفق فى ذلك البناء . وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين ابن الفلكى التوريزى ، وهو من الكبار ، كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جيلان .

ولهذا الأمير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله ، ويلقب بهاء الملك ، وفد على ملك الهند حين وفودى عليه ، ووفد معنا شرف الملك أمير بخت ، فخلع ملك الهند علينا جميعا ، وقدم كل واحد فى شغل يليق به ، وعين لنا المرتب والاحسان (وسنذكر ذلك) .

وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند فى الايثار واجزال العطايا ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟ اذ أعظم ما تعرفناه من عطيات أبى اسحاق أنه أعطى الشيخ زاده الخراسانى ، الذى أتاه رسولا عن ملك هراة ، سبعين ألف دينار . وأما ملك الهند فلم يزل يعطى أضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم .

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين أنه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان ، هروى الدار من سكان خوارزم ، يسمى بالأمير عبد الله ، بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلودمور ، صاحب خوارزم ، بهدية الى ملك الهند المذكور ، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها ، وبعث ذلك اليها .

واختار رسولها الاقامة عنده فصيره فى ندمائه . فلما كان ذات يوم قال له : ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب ، فذهب الى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة ، وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته ، وربط كل خريطة بعضو من أعضائه — وكان صاحب قوة — وقام بها . فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض ، فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بأمنان دهلى ، والمن الواحد خمسة وعشرون رطلا مصرية . فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به .

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراسانى ، وهو الذى تقدم ذكره آنفا ،

بحضرة ملك الهند ، فأتاه الملك عائدا . ولما دخل عليه أراد القيام ، فحلف له الملك ألا ينزل عن كته (والكت هو السرير) ، ووضع للسلطان متكأة فقعد عليها ، ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك ، وأمر المريض أن يقعد فى احدى كفتى الميزان ، فقال : ياخوند عالم [1] لو علمت انك تفعل هذا للبست عليّ ثيابا كثيرة .

فقال له : البس الآن جميع ما عندك من الثياب .

فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد فى كفة الميزان ، ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب . وقال له : خذ هذا فتصدق به على رأسك . وخرج عنه .

حكاية تناسبها

وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردويلى ، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه ، فجعل مرتبه مائة دينار دراهم فى اليوم (وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا) .

وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى ، فأعجبه حفظه ، وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه .

ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية من ذهب — وهى مثل الطيفور الصغير — وأمر أن يأتى فيها ألف دينار من الذهب ، وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال : هى لك مع الصينية ...

ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفراينى ، وكان أبوه نزل بغداد ، فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا .

(١) ياخوند عالم : يامالك العالم .

وسنذكر كثيرا من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند ، وانما ذكرنا هذا لما قدمناه من أن السلطان أبا اسحاق يريد التشبه به فى العطايا . وهو ، وان كان كريما فاضلا ، فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا ابن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنهم . وهو مشهد معظم عند أهل شيراز ، يتبركون به ويتوسلون الى الله تعالى بفضله . وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبى اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والقراء يقرءون القرآن على التربة دائما . ومن عادة الخاتون أنها تأتى الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ، ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء .

وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء ، سمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف ، بين صغير وكبير . ونقيبهم عضد الدين الحسينى .

فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك ختموا القرآن قراءة فى المصاحف ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء . فاذا أكل القوم وعظ الواعظ . ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى ، والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك . ثم تضرب الطبول والأنقار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك [1] .

(١) البوقات جمع بوق (كما فى المصباح) . واما الانقار فضرب من الابواق ، غير عربية ، ولعلهم اخذوها من النقير وهو شبه الصفير كما فى القاموس .

ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف ، المعروف عندهم بالشيخ ، وهو قدوة بلاد فارس كلها ، ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا ويتمسحون به . وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائرا واستلمه .

وتأتى الخاتون الى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة . وعليه زاوية ومدرسة ، ويجتمع به القضاة والفقهاء ، ويفعلون به كفعلهم فى مشهد أحمد بن موسى . وقد حضرت الموضعين جميعا . وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى اسحاق متصلة بهذه التربة .

والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الأولياء شهير الذكر ، وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند .

كرامة لهذا الشيخ [1]

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء ، فأصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة ، وتاهوا عن الطريق ، وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار ، وهى فى ذلك المحل كثيرة جدا ، ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند . فنهاهم الشيخ عن ذلك ، فغلب عليهم الجوع ، فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها ، وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ عن أكله .

فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم ، فكانت تشم الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم ، وشمت الشيخ ولم تتعرض له .

(١) اشبه بالخرافات .

وآخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره ، وأتى به الموضع الذى فيه العمارة . فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره . فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الأرض بحيث يرونه ، فجاءوا اليه وتمسحوا به ، وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره (وهم كفار) ، وأقام عندهم أياما .

وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران (والخور هو النهر) . وبذلك الموضع مغاص الجوهر .

ويذكر أن الشيخ غاص فى بعض تلك الأيام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا ، وقال للملك : اختر ما فى احداهما . فاختار ما فى اليمنى ، فرمى اليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثيل لها ، وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها .

وقد دخلت جزيرة سيلان هذه . وهم مقيمون على الكفر ، الا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون فى بيوتهم بين أهليهم وأولادهم ، خلافا لسائر كفار الهند ، فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها ، مع أنهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم . ولقد كنا نضطر الى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز (وهو طعامهم) ، ويصبون عليه الكوشان (وهو الادام) ويذهبون ، فنأكل منه ، وما فضل عنا تأكله الكلاب والطير . وان أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه

وأطعموه روث البقر ، وهو الذى يطهر فى زعمهم !

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان البقلى ، من كبار الأولياء ، وقبره فى مسجد جامع يخطب فيه ، وبذلك المسجد يصلى القاضى مجد الدين الذى تقدم ذكره رضى الله عنه .

وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ، قال : أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا ، قالت : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أبى بكر بن المبارك الزبيدى ، قال : أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى ، قال : أخبرنا أبو الحسن المكى بن محمد بن منصور ابن علان العرضى ، قال : أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشى ، عن أبى العباس بن يعقوب الأصم ، عن الربيع بن سليمان المرادى ، عن الامام أبى عبد الله الشافعى .

وسمعت أيضا عن القاضى مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الأنوار للامام رضى الدين أبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى ، بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبى هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمى الكوفى ، بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروى ، عن المصنف .

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لاطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ، ويفرش البيت بالحصر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق ، وشباكا من حديد ، فيدخل منه القراء يقرأون بالأصوات الحسان . وليس فى معمور الأرض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ، ويوقدون السرج بها ، فكأن الميت لم يبرح . وذكر لى أنهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى . وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح الى جهة السوق ، وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه . فسلمت عليه وجلست اليه ، فسألنى عن مقدمى فأخبرته ، وسألته عن شأن هذا المسجد ، فأخبرنى أنه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم ، وأن تلك الزاوية التى جلست اليه فيها هى موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة . ثم رفع بساطا كان تحته ، والقبر مغطى عليه ألواح خشب ، وأرانى صندوقا كان بازائه فقال : فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى ، ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح ، فدفع لى هذه الدراهم ، فتركتها لتكون نفقة مواراتى ، وما فضل منها يتصدق به .

فعجبت من شأنه ، وأردت الانصراف ، فحلف عليّ وأضافني بذلك الموضع .

ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي ، وربما ألمع في كلامه بالعربي . وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح . وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد . وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون . وكذلك فعلت عنده رحمه الله .

وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة وهما مبنيتان على قبر شمس الدين السمناني ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين ، وأمره في الكرم عجيب ، وربما جاد بكل ما عنده ، وبالثياب التي كانت عليه . ويلبس مرقعة له ، فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه . ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم .

ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون ، وهي على مسيرة يومين من شيراز ، فنزلنا أول يوم ببلاد الشول ، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرية ، وفيهم الصالحون .

كرامة لبعضهم

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز ، وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل اثر صلاة الظهر ، فخطر بخاطري أنه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه ، فدخل علي في أثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي : خذ !

فرفعت رأسي اليه ، فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني ، فختمته ذلك اليوم قراءة ، وانتظرته لأرده له فلم يعد الي ، فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولي ، ولم أره بعد .

ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به ، وبتنا بها تلك الليلة .

ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن ، وتؤكل بالرقاق . ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ، ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية ، وهم يزيدون على مائة ، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون ، فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ، ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق ، فتقضى حاجته باذن الله .

وهذا الشيخ أبو اسحاق معظم عند أهل الهند والصين . ومن عادة ركاب بحر الصين أنهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره ، فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره (1) .

وما من مركب يأتي من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير ، فيأتي الوكلاء من جهة

(1) مثل هذه النذور غير شرعي . وقراءة القرآن على الاضرحة والدعاء عندها من البدع السيئة .

خادم الزاوية فيقبضون ذلك . ومن الفقراء من يأتي طالبا صدقة الشيخ ، فيكتب له أمر بها ، وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة ، فيضعون القالب في صبغ أحمر ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ، ويكون مضمنه أن من عنده نذر للشيخ أبي اسحاق فليعط منه فلانا كذا ، فيكون الأمر بالألف والمائة ، وما بين ذلك ودونه ، على قدر الفقير . فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الأمر بما قبضه .

ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحاق عشرة آلاف دينار ، فبلغ خبرها فقراء الزاوية . فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية .

مدينة الزيدين

ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين . وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصاريين ، صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنهما .

وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه ، مليحة الأسواق عجيبة المساجد ، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة .

ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني ، وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل [1] ، وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح ، وتزوج بأخت هذا الملك (وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر) . وبها توفي القاضي نور الدين المذكور .

(1) ذيبة المهل هي الجزائر التي تعرف اليوم باسم جزائر المالديف .

ثم سافرنا منها الى الحويزاء ، وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم ، بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس .

ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائي ، شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة .

ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لاماء بها الا في موضع واحد يسمى الطرفاوي ، وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ، ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة .

مدينة الكوفة

وهي احدى أمهات البلاد العراقية ، المتميزة فيها بفضل المزية ، مثوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين ، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، الا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها ، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فانهم يقطعون طريقها .

ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجر ، وأسواقها حسان ، وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك .

وجامعها الأعظم جامع كبير شريف ، بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة ، قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض ، وأفرغت بالرصاص ، وهي مفرطة الطول .

وبهذا المسجد آثار كريمة : فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع ، وعلى مقربة منه محراب محلق عليه

بأعواد الساج مرتفع ، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم ، والناس يقصدون الصلاة به .

وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام . وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام . وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام . ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام . وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والبيت الذي غسل فيه . ويتصل به بيت يقال أيضا أنه بيت نوح عليه السلام . والله أعلم بصحة ذلك كله .

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه ، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه . وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام .

وأما قصر الامارة بالكوفة ، الذي بناه سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، فلم يبق منه الا أساسه .

والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها ، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض .

ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام . وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة ، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل . ونزلت بخارجها وكرهت دخولها ، لأن أهلها روافض .

مدينة الحلة

ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة ، وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة ، وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ، ودورها بين الحدائق ، ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل .

وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية ، وهم طائفتان : احداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامعين . والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا .

وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول . وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان .

ومن عاداتهم أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ،

فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله ياصاحب الزمان ، باسم الله اخرج ! قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل .

ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنقار الى صلاة المغرب .

وهم يقولون : ان محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج . وهو الامام المنتظر عندهم .

وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبى سعيد الأمير أحمد بن رميثة بن أبى نمى أمير مكة ، وحكمها أعواما ، وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله ، وأخذ الأموال والذخائر التى كانت عنده .

مدينة كربلاء

ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء ، مشهد الحسين بن على عليهما السلام . وهى مدينة صغيرة تحف بها حدائق النخل ، ويسقيها ماء الفرات .

والروضة المقدسة داخلها ، وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر . وعلى باب الروضة الحجاب والقومة ، لا يدخل أحد الا عن اذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة ، وهى من الفضة .

وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير .

وأهل هذه المدينة طائفتان : أولاد رخيك ، وأولاد فائز ، وبينهما القتال أبدا . وهم جميعا امامية ، يرجعون الى أب واحد . ولأجل فتنتهم تخربت هذه المدينة ...

ثم سافرنا منها الى بغداد .

مدينة بغداد

مدينة دار السلام ، وحضرة الاسلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ، ومقر العلماء .

قال أبو الحسين بن جبير رضى الله عنه : وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الامامية القرشية ، فقد ذهب رسمها ، ولم يبق الا اسمها . وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب اليها ، كالطلل الدارس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعى من المستوفز النظر ، الا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهى تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ ، والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ ...

***

قال ابن جزى : وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغداد ناعيها
فليبكها لخراب الدهر باكيها

كانت على مائها — والحرب موقدة
والنار تطفأ — حسنا فى نواحيها

ترجى لها عودة فى الدهر صالحة
فالآن أضمر منها اليأس راجيها

مثلُ العجوزِ التي ولت شبيبتها
وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا . وفيها قال الامام القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى ، وأنشدنيه والدى رحمه الله مرات :

طيب الهواء ببغداد يشوقنى
قربا اليها ، وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت
طيب الهواءين : ممدودٌ ومقصور

وفيها يقول أيضا ، رحمه الله تعالى ورضى عنه :

سلام على بغداد فى كل موطن
وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها
وانى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علىَّ برحبها
ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه
وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها ، وأنشدنيه والدى ، رحمه الله ، غير ما مرة :

بغداد دار لأهل المال واسعة
وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشى مضاعا فى أزقتها
كأننى مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة :

آنست بالعراق بدرا منيرا
فطوت غيبا وخاضت هجيرا
واستطابت ربا نسائم بغدا
د فكادت لولا البرى أنْ تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا
لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا المحول نورا
واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها :

آها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر فى أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن
فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

***

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء ، فهم فى ذلك فى نزهة متصلة .

وببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا ، منها بالجانب الغربى ثمانية ، وبالجانب الشرقى ثلاثة . والمساجد سواها كثيرة جدا ، وكذلك المدارس الا أنها خربت .

وحمامات بغداد كثيرة ، وهى من أبدع الحمامات . وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود . وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا

به ، ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرق منها ويجلب الى بغداد .

وفى كل حمام منها خلوات كثيرة ، كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع ، فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما .

وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان ، أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد ، فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا اذا أراد ذلك .

وفى زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال ، فيه أيضا أنبوبان يجريان بالحار والبارد .

وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط : احداها يتزر بها عند دخوله ، والأخرى يتزر بها عند خروجه ، والأخرى ينشف بها الماء عن جسده .

ولم أر هذا الاتقان كله فى مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك .

ذكر الجانب الغربى من بغداد

والجانب الغربى منها هو الذى عمر أولا ، وهو الآن خراب أكثره . وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلة ، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة . وفى ثمان منها المساجد الجامعة .

ومن هذه المحلات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور رحمه الله .

والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على دجلة ، وهو قصر كبير خرب ، بقيت منه الآثار .

وفى هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكرخى رضى الله عنه ، وهو فى محلة باب البصرة .

وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ، من أولاد على بن أبى طالب .

وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، والد على بن موسى الرضا . والى جانبه قبر الجواد . والقبران داخل الروضة ، عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة .

ذكر الجانب الشرقى منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيه على حدة .

وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها . وفى آخره المدرسة المستنصرية ، ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط .

ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابسا ثياب السواد معتما ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة .

وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ، ودار الوضوء .

وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم . وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل .

لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق ، سراج الدين أبا حفص عمر بن على بن عمر القزوينى . وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى ، وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة . قال : أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة ، بنت الملوك ، فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على بن على بن أبى البدر ، قالت : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود ابن بهروز الطبيب المارستانى ، قال : أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجرى الصوفى ، قال : أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودى ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى ، عن أبى عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى ، عن أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى .

والجامع الثانى جامع السلطان ، وهو خارج البلد ، وتتصل به قصور تنسب للسلطان .

والجامع الثالث جامع الرصافة ، وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد
وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين ، رضى الله عنهم ، بالرصافة . وعلى كل قبر منها اسم صاحبه ، فمنهم قبر المهدى ، وقبر الهادى ، وقبر الأمين ، وقبر المعتصم ، وقبر الواثق ، وقبر المتوكل ، وقبر المنتصر ، وقبر المستعين ، وقبر المعتز ، وقبر المهتدى ، وقبر المعتمد ، وقبر المعتضد ، وقبر المكتفى ، وقبر المقتدر ، وقبر القاهر ، وقبر الراضى ، وقبر المتقى ، وقبر المستكفى ، وقبر المطيع لله ، وقبر الطائع ، وقبر القائم ، وقبر القادر ، وقبر المستظهر ، وقبر المسترشد ، وقبر الراشد ، وقبر المقتفى ، وقبر المستنجد ، وقبر المستضىء ، وقبر الناصر ، وقبر الظاهر ، وقبر المستنصر ، وقبر المستعصم . وهو آخرهم ، وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة [1] .

وبقرب الرصافة قبر الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وعليه قبة عظيمة ، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية . فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها .

وبالقرب منها قبر الامام أبى عبد الله أحمد ابن حنبل رضى الله عنه ، ولا قبة عليه . ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه .

وبالقرب منه قبر أبى بكر الشبلى ، من أئمة المتصوفة رحمه الله ، وقبر سرى السقطى ، وقبر بشر الحافى ، وقبر داود الطائى ، وقبر أبى القاسم الجنيد ، رضى الله عنهم أجمعين .

وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، هكذا الى آخر الأسبوع .

---

(1) توافق سنة 1256 للميلاد .

وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم .

وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وانما تجلب اليها من الجهة الغربية ، لأن فيها البساتين والحدائق .

ووافق وصولي الي بغداد كون ملك العراق بها ، فلنذكره هاهنا .

ذكر سلطان العراقين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادر [1] خان (وخان عندهم الملك) ، ابن السلطان الجليل محمد خدا بنده ، وهو الذى أسلم من ملوك التتر . وضبط اسمه مختلف فيه ، فمنهم من قال ان اسمه خذا بنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) ، وبنده لم يختلف فيه ، (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) . وتفسيره على هذا القول عبد الله ، لأن « خذا » بالفارسية اسم الله عز وجل ، و « بنده » غلام أو عبد أو ما فى معناهما . وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) . وتفسير « خر » بالفارسية الحمار . فمعناه على هذا غلام الحمار ... فشذ ما بين القولين من الخلاف ، على أن هذا الأخير هو المشهور ، وكان الأول غيره اليه من تعصب . وقيل ان سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته ، فلما ولد هذا السلطان وكان أول داخل الزمال ، وهم يسمونه خربنده ، فسمى به .

وأخو خربنده هو قازغان ، الذى يقول فيه الناس قازان .

(1) بهادر : بفتح الباء وضم الدال .

وقازغان هو القدر ، وقيل سمى بذلك لأنه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر .

وخذا بنده هو الذى أسلم وقدمنا قصته ، وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض ، وقصة القاضى مجد الدين معه .

ولما مات ولى الملك ولده أبو سعيد بهادر خان ، وكان ملكا فاضلا كريما ، ملك وهو صغير السن ، ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة ، لا نبات بعارضيه ، ووزيره اذ ذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد . وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خذا بنده والد أبى سعيد .

رأيتهما يوما بحراقة فى الدجلة (وتسمى عندهم الشبارة ، وهى شبه سلورة) ، وبين يديه دمشق خواجه ابن الأمير جوبان المتغلب على أبى سعيد ، وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ، ورأيت من مكارمه فى ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان ، فشكوا ضعف حالهم ، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجرى عليه .

ولما ولى السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه ، استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان ، وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم . ويذكر أنه احتاج فى بعض الأعياد الى نفقة ينفقها ، فلم يكن له سبيل اليها ، فبعث الى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب .

ولم يزل كذلك الى أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له : لو كنا نحن

الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه .

فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام ، فقالت له : لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحريم أبيك ، وأنه بات البارحة عند طغى خاتون ، وقد بعث الي وقال لى : الليلة أبيت عندك ...

وما الرأى الا أن تجمع الأمراء والعساكر ، فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه ... وأبوه يكفى الله أمره .

وكان الجوبان اذ ذاك غائبا بخراسان ، فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره . فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية . فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندى يعرف بالحاج المصرى ، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكبا ، فضرب الحاج المصرى السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا ، فأحاطت بهما العساكر . ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه ، وفتى يعرف بلؤلؤ ، دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك أبا سعيد برأسه ، فرموا به بين يدى فرسه ... وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم .

وأمر السلطان بنهب داره ، وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه .

واتصل الخبر بأبيه الجوبان ، وهو بخراسان ومعه أولاده : أمير حسن وهو الأكبر ، وطالش ، وجلوخان وهو أصغرهم ، وهو ابن أخت السلطان أبى سعيد ، أمه ساطى بك بنت السلطان خذا بنده ، ومعه عساكر التتر وحاميتها . فاتفقوا على قتال السلطان أبى سعيد وزحفوا اليه .

فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان ، فلما رأى ذلك نكص على عقبيه ، وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا ومتحصنا بمدينته ، وكانت له عليه أياد سابقة ، فلم يوافقه ولداه حسن وطالش على ذلك ، وقالا له انه لا يفى بالعهد ، وقد غدر فيروز شاه بعد أن لجأ اليه وقتله .

فأبى الجوبان الا أن يلحق به ، ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الأصغر جلوخان ، فخرج غياث الدين لاستقباله ، وترجل له وأدخله المدينة على الأمان ، ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبى سعيد .

وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك ، فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما .

وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش ، فهرب الى ديار مصر فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الاسكندرية ، فأبى من قبولها وقال : انما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد .

وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذى يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر . وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله ، وبعث برأسه الى أبى سعيد ، وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم .

ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين ، فوقف بهما على عرفات ، وحملا الى المدينة

ليدفنا فى التربة التى اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع .

والجوبان هو الذى جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى .

ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان ، وكانت تسمى بغداد خاتون ، وهى من أجمل النساء ، وكانت تحت الشيخ حسن الذى تغلب بعد موت أبى سعيد على الملك ، وهو ابن عمته ، فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد ، وكانت أحظى النساء لديه .

والنساء لدى الأتراك والتتر لهن حظ عظيم ، وهم اذا كتبوا أمرا يقولون فيه : عن أمر السلطان والخواتين . ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابى العظيمة ، واذا سافرت مع السلطان تكون فى محلة على حدة . وغلبت هذه الخاتون على أبى سعيد ، وفضلها على سواها ، وأقامت على ذلك مدة أيام .

ثم انه تزوج امرأة تسمى بدلشاد ، فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون ، فغارت لذلك وسمته فى منديل مسحته به بعد الجماع ، فمات وانقرض عقبه ، وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره .

ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هى التى سمته أجمعوا على قتلها ، وبدر لذلك الفتى الرومى خواجه لؤلؤ — وهو من كبار الأمراء وقدمائهم — فأتاها وهى فى الحمام فضربها بدبوسه وقتلها ، وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس . واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب ، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبى سعيد ، كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته .

ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبى سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذى ذكرناه آنفا ، تغلب على عراق العرب جميعا .

ومنهم ابراهيم شاه ابن الأمير سنيته ، تغلب على الموصل وديار بكر .

ومنهم الأمير أرتنا ، تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضا ببلاد الروم .

ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان ، تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى وورامين وفرغان والكرج .

ومنهم الأمير طغيتمور ، تغلب على بعض بلاد خراسان .

ومنهم الأمير حسن ابن الأمير غياث الدين ، تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان .

ومنهم ملك دينار ، تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج .

ومنهم محمد شاه بن مظفر ، تغلب على يزد وكرمان وورقو .

ومنهم الملك قطب الدين تمهتن ، تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات .

ومنهم السلطان أبو اسحاق الذى تقدم ذكره ، تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس ، وذلك مسيرة خمس وأربعين .

ومنهم السلطان افراسياب أتابك ، تغلب على ايذج وغيرها من البلاد ، وقد تقدم ذكره .

ترتيب ملك العراق في رحيله

ولنعد الى ما كنا بسبيله ... ثم خرجت من بغداد في محلة [1] السلطان أبي سعيد ، وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله ، وكيفية تنقله وسفره .

وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى . وترتيبهم أنه يأتى كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، فيقف في موضع لا يتعداه ، قد عين له اما في الميمنة أو الميسرة . فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنقاره ، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه .

ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل ، عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان .

وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات [2] ، وهى تسمى عندنا بالغيطات ، فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ، ثم يمسكون .

ويغنى عشرة من أهل الطرب نوبتهم . فاذا قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات ، ثم أمسكوا ، وغنى عشرة آخرون نوبتهم ... هكذا الى أن تتم عشر نوبات ، فعند ذلك يكون النزول .

ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنقار والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على مراتبهم .

وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات ، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة .

وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته أن يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ، ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل ، فيؤتى به الى الأمير ، فيبطح على الأرض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره ، سواء كان رفيعا أو وضيعا ، لا يحاشون من ذلك أحدا .

واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة ، وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ، ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق . وينزل الوزراء والكتاب وأهل الأشغال على حدة ، وينزل كل أمير على حدة ، ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة ، والمشاعل بين أيديهم .

فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ، ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التى هى الملكة ، ثم أطبال سائر الخواتين ، ثم طبل الوزير ، ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ، ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ، ثم يتبعه الخواتين ، ثم أثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ، ثم أمير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الأثقال والخواتين ، ثم سائر الناس .

مدينة تبريز

وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام ، ثم صحبت الأمير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز [1] . وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ،

(١) المراد هنا : في حاشيته وما يتبعها من الات السفر وعدده ، تسمية اصطلاحية لا لغوية .
(٢) الصرناية ضرب من الناى ، غير عربية .

(١) تبريز ، في ثالثها الفتح والكسر .

فوصلنا بعد عشرة أيام الى مدينة تبريز ، ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام ، وهنالك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء . وأنزلنى الأمير بتلك الزاوية ، وهى ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة .

وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى .

واجتزت بسوق الجوهريين ، فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهى بأيدى مماليك حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه ، فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها .

ودخلنا سوق العنبر والمسك ، فرأينا مثل ذلك أو أعظم .

ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان ، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة ، وعن يساره زاوية ، وصحنه مفروش بالمرمر ، وحيطانه بالقاشانى ، وهو شبه الزليج . ويشقه نهر ماء ، وبه أنواع الأشجار ودوالى العنب وشجر ياسمين .

ومن عادتهم أنهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة النبأ بعد صلاة العصر فى صحن المسجد ، ويجتمع لذلك أهل المدينة .

وبتنا ليلة بتبريز . ثم وصل بالغد أمر السلطان أبى سعيد الى الأمير علاء الدين بأن يصل اليه ، فعدت معه .

ولم ألق بتبريز أحدا من العلماء .

ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمه الأمير المذكور بمكانى ، وأدخلنى عليه فسألنى عن بلادى وكسانى وأركبنى . وأعلمه الأمير أنى أريد السفر الى الحجاز الشريف ، فأمر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل ، وكتب لى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف .

العودة الى بغداد

وعدت الى مدينة بغداد ، واستوفيت ما أمر لى به السلطان ، وكان قد بقى لأوان سفر الركب أزيد من شهرين ، فظهر لى أن أسافر الى الموصل وديار بكر ، لأشاهد تلك البلاد وأعود الى بغداد فى حين سفر الركب ، فأتوجه الى الحجاز الشريف .

فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل ، وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة .

ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة ، مخصبة فسيحة .

ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق ، وهو مبنى على دجلة . وفى العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة « سر من رأى » ، وتسمى أيضا « سامرا » . ويقال لها « سام راه » ، ومعناه بالفارسية : طريق سام . و « راه » هو الطريق . وقد استولى الخراب على هذه المدينة

فلم يبق منها الا القليل . وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها . وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة .

مدينة تكريت

ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا مدينة تكريت ، وهى مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد ، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق . ودجلة فى الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط دجلة ، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها .

ثم رحلنا منها مرحلتين ، ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط دجلة ، وبأعلاها ربوة كان بها حصن ، وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد ، له أبراج ، وبناؤه حافل ، والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة ، بمقربة من دجلة . وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ويجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلا رطبا ، وله رائحة طيبة . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا . وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار ، فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعا وينقلونه .

وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو .

ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل .

مدينة الموصل

وهى مدينة عتيقة كثيرة الخصب ، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن ، شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله .

وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة ، وفى باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره ، وقد تمكن فتحها فيه لسعته . ولم أر فى أسوار البلاد مثله الا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند .

وللموصل ربض [1] كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق ، وبه مسجد جامع على شط دجلة ، تدور به شبابيك حديد ، وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة ، فى النهاية من الحسن والاتقان ، وأمامه مارستان .

وبداخل المدينة جامعان ، أحدهما قديم ، والآخر حديث . وفى صحن الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج ، فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن .

و « قيسارية » الموصل مليحة لها أبواب حديد ، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء .

وبهذه المدينة مشهد جرجس النبى عليه السلام ، وعليه مسجد ، والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل اليه . وهو فيما بين الجامع

(١) وربض المدينة هو ما حولها .

الجديد وباب الجسر ، وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده ، والحمد لله تعالى .

وهنالك تل يونس عليه السلام ، وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه ، يقال انه أمر قومه بالتطهر فيها ، ثم صعدوا التل ودعا ودعوا ، فكشف الله عنهم العذاب .

وبمقربة منه قرية كبيرة بقرب منها خراب ، يقال انه موضع المدينة المعروف بنينوى مدينة يونس عليه السلام ، وأثر السور المحيط بها ظاهر ، ومواضع الأبواب التى به متبينة .

وفى التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات ، يضم الجميع باب واحد . وفى وسط الرباط بيت عليه ستر حرير ، وله باب مرصع ، يقال انه الموضع الذى به موقف يونس عليه السلام . ومحراب المسجد الذى بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام . وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه .

وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة فى الغريب واقبال عليه . وكان أميرها حين قدومى عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر . وهو من الكرماء الفضلاء ، أنزلنى بداره وأجرى علىّ الانفاق مدة مقامى عنده . وله الصدقات والايثار المعروف . وكان السلطان أبو سعيد يعظمه ، وفوض اليه أمر هذه المدينة وما يليها .

ويركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده . ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا ، وله شجاعة ومهابة . وولده — فى حين كتب هذا — فى حضرة فاس ، مستقر الغرباء ، ومأوى الفرق ومحط رجال الوفود ، زادها الله — بسعادة مولانا أمير المؤمنين — بهجة واشراقا ، وحرس أرجاءها ونواحيها .

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد ، وهى على نهر عليه جسر مبنى ، وبها خان كبير .

ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة .

ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهى مدينة كبيرة حسنة ، محيط بها الوادى ، ولذلك سميت جزيرة . وأكثرها خراب ، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة ، محكم العمل ، وسورها مبنى بالحجارة أيضا ، وأهلها فضلاء لهم محبة فى الغرباء . ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودى ، المذكور فى كتاب الله عز وجل ، الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل .

مدينة نصيبين

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين ، وهى مدينة عتيقة متوسطة ، قد خرب أكثرها ، وهى فى بسيط أفيح فسيح ، فيه المياه الجارية ، والبساتين الملتفة ، والأشجار المنتظمة ، والفواكه الكثيرة ، وبها يصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى الطيب . ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار ، منبعه من عيون فى جبل قريب منها ، وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ، ويدخل منه نهر الى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ، ويخترق صحن مسجدها الأعظم ، وينصب فى صهريجين ، أحدهما فى وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقى . وبهذه المدينة مارستان ، ومدرستان ،

وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ولقد صدق أبو نواس فى قوله :

طابت نصيبين لى يوما وطبت لها
يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

***

قال ابن جزى : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة .

وفيها يقول بعض الشعراء :

لنصيبين قد عجبت وما فى
دارها لى داع الى العلات
يعدم الورد أحمرا فى ذراها
لسقام حتى من الوجنات

***

مدينة سنجار

ثم رحلنا الى مدينة سنجار ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار ، مبنية فى سفح جبل ، تشبه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها . ومسجدها الجامع مشهور البركة ، يذكر أن الدعاء به مستجاب ، ويدور به نهر ماء ويشقه . وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم .

وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردى ، أحد المشايخ الكبار ، صاحب كرامات ، يذكر عنه أنه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ، ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير . لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ، ودعا لى وزودنى بدراهم لم تزل عندى الى أن سلبنى كفار الهنود اياها .

مدينتا دارا وماردين

ثم سافرنا الى مدينة دارا ، وهى عتيقة كبيرة ، بيضاء المنظر ، لها قلعة مشرفة . وهى الآن خراب لا عمارة بها . وفى خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا .

ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين ، وهى عظيمة فى سطح جبل ، من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا . وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز [1] ، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع فى قنة جبلها .

***

قال ابن جزى : قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء ، واياها عنى شاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى بقوله فى سمطه :

فدع ربوع الحلة الفيحاء
وازور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحدباء
ان شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضا . وهذه المسمطة بديعة ، مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين ، وكان كريما شهير الصيت ، ولى الملك بها نحو خمسين سنة ، وأدرك أيام قازان ملك التتر ، وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون .

***

ذكر سلطان ماردين
فى عهد دخولى اليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ، ورث الملك عن أبيه ، وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض العراق والشام ومصر

(1) المرعز هو الزغب الذى تحت شعر العنز .

أكرم منه . يقصده الشعراء والفقهاء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه .

قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المَرْوِي المكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم . وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام .

وله وزير كبير القدر ، وهو الامام العالم ، وحيد الدهر ، وفريد العصر ، جمال الدين السنجاري ، قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار .

وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي . وهو ينتسب الى الشيخ الولى فتح الموصلي ، وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل ، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ، ويعتم بنحو ذلك . وكثيرا ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة ، كان يتعبد فيه ، فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه .

حكاية

ذكر لى أن امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ، ولم تكن تعرفه ، فقالت له : ياشيخ ، أين يجلس القاضي ؟

فقال لها : وما تريدين منه ؟

فقالت له : ان زوجي ضربني ، وله زوجة ثانية ، وهو لا يعدل بيننا فى القسم . وقد دعوته الى القاضي فأبى ، وأنا فقيرة ليس عندى ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه .

فقال لها : وأين منزل زوجك ؟

فقالت : بقرية الملاحين خارج المدينة .

فقال لها : أنا أذهب معك اليه .

فقالت : والله ما عندى شيء أعطيك اياه .

فقال لها : وأنا لا آخذ منك شيئا .

ثم قال لها : اذهبى الى القرية وانتظرينى خارجها ، فانى على أثرك .

فذهبت كما أمرها وانتظرته ، فوصل اليها وليس معه أحد ، وكانت عادته ألا يدع أحدا يتبعه ، فجاءت به الى منزل زوجها ، فلما رآه قال لها : ما هذا الشيخ النحس الذى معك ؟ فقال له : نعم والله ، أنا كذلك . ولكن أرض زوجتك .

فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه ، وخاف ذلك الرجل وخجل ، فقال له القاضي : لا عليك ... أصلح ما بينك وبين زوجتك .

فأرضاها الرجل من نفسه ، وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف .

لقيت هذا القاضي وأضافنى بداره .

الرجوع الى بغداد

ثم رحلت عائدا الى بغداد ، فوصلت الى مدينة الموصل التى ذكرناها ، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد ، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة ، وهي من ذرية الخلفاء ، حجت مرارا وهى ملازمة الصوم . سلمت عليها وكنت فى جوارها ، ومعها جملة من الفقراء يخدمونها . وفى هذه الوجهة توفيت ، رحمة الله عليها . وكانت وفاتها بزرود ، ودفنت هنالك .

ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل ، فقصدت أميرها معروف خواجه ، فطلبت منه ما أمر لى به السلطان ،

فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم ، وكتب لي بذلك ، ووجهه الى أمير الركب ، وهو البهلوان محمد الحويج فأوصاه بي . وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا . ولم أزل في جواره وهو يحسن الى ويزيدني على ما أمر لي به .

وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال ، فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم ، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي ، ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى ، زادها الله شرفا وتعظيما .

وطفت بالبيت الحرام ، كرمه الله تعالى ، طواف القدوم ، وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا ، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الأمير الحويج .

ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين ، فلما نزلنا مني أخذت في الراحة والابلال من مرضي .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة . وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال ، مشيد الدواوين ، مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب شيبة .

وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم ، منهم : تاج الدين بن الكويك ، ونور الدين القاضي ، وزين الدين بن الأصيل ، وابن الخليلي ، وناصر الدين الأسيوطي .

وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية ، وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار .

وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد ، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفوني (وهي أول حجة حجها) ، والأخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ، ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر ، وجماعة غيرهم .

وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك ، وهو من الفضلاء ، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة ، بلدي حرسها الله ، منهم : الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي ، والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله ، والفقيه أبو محمد عبد الله الحضرى ، والفقيه أبو عبد الله المرسي ، وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسي ، وأبو محمد بن القابلة ، وأبو الحسن البياري ، وأبو العباس ابن نافوت ، وأبو الصبر أيوب الفخار ، وأحمد بن حكامة .

ومن أهل قصر المجاز ، الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف .

ومن أهل القصر الكبير : الفقيه أبو محمد ابن مسلم ، وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى وولده .

ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تقز دمور من الخاصكية ، والأمير موسى بن قرمان ، والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك ، والتاج أبو اسحاق ، والست حدق مربية الملك الناصر ... وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف ، وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين .

وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمانية وعشرين .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة ، حرسها الله ، سنة تسع وعشرين .

وفى هذه السنة وصل أحمد ابن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة ، من العراق ، فى صحبة الأمير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوى والشيخ دانيال . وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبى سعيد ملك العراق . وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ، ودعوا له بأعلى قبة زمزم ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين . ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك ، وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك ، فأمر رميثة برده ، فرد ، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك .

ووقفنا تلك السنة — وهى سنة تسع وعشرين — يوم الثلاثاء .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين .

وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين آيدمور أمير جندار الناصرى . وسبب ذلك أن تجارا من أهل اليمن سُرقوا ، فتشكوا الى آيدمور بذلك ، فقال آيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة : ايت بهؤلاء السراق .

فقال : لا أعرفهم ، فكيف نأتى بهم ؟ وبعد ، فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك . ان سُرق لأهل مصر والشام شىء فاطلبنى به .

فشتمه آيدمور ، وقال له : ياقواد ، تقول لى هكذا ؟

وضربه على صدره ، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه ، وغضب له عبيده . وركب آيدمور يريد عسكره ، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده .

ووقعت الفتنة بالحرم ، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ، ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض أهل مكة على القتال . وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم « خاص ترك » ، فخرج اليهم القاضى والأئمة والمجاورون ، وفوق رءوسهم المصاحف ، وحاولوا الصلح ، ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا الى مصر .

وبلغ الخبر الملك الناصر فشق عليه ، وبعث العساكر الى مكة ، ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك ، وخرج أخوه رميثة وأولاده الى وادى نخلة . فلما وصل العسكر الى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده فأمنوا . وأتى رميثة وكفنه فى يده الى الأمير فخلع عليه ، وسلمت اليه مكة ، وعاد العسكر الى مصر . وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، حليما فاضلا .

فخرجت فى تلك الأيام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن ، فوصلت الى حدة ، وهى نصف الطريق ما بين مكة وجدة .

ثم وصلت الى جدة ، وهى بلدة قديمة على ساحل البحر ، يقال انها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ، وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض ، تفوت الاحصاء كثرة . وكانت هذه السنة قليلة المطر ، وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم ، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لى بجدة أنه وقف على بابى سائل أعمى يطلب الماء ، يقوده غلام ، فسلم على وسمانى باسمى وأخذ بيدى ، ولم

أكن عرفته قط ولا عرفني ، فعجبت من شأنه .
ثم أمسك أصبعي بيده وقال : أين الفتخة [1] ؟ (وهي الخاتم) وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ، ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء ، فدفعت له خاتمي . فلما سألني عنه هذا الأعمى ، قلت له : أعطيته فقيرا .

فقال : ارجع في طلبه ، فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار .

فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله ، والله أعلم بحاله .

*

وبجدة جامع يعرف بجامع الأبنوس ، معروف بالبركة يستجاب فيه الدعاء .

وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة ، شافعي المذهب . واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة ، أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها ، فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة ، وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا . ولا يعتبر من ليس من أهلها ، وان كانوا عددا كثيرا .

ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة ، وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل ، وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ، ورغب مني أن أكون معه ، فلم أفعل ، لكونه كان معه في جلبته الجمال ، فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في « الجلب » وهم متأهبون للسفر .

(1) الفتخة خاتم كبير يكون في اليد والرجل . « القاموس »

حكاية

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه « بعديلة » دقيق (وهي نصف حمل) ، و « بطة » سمن ، يأخذهما من « جلب » أهل اليمن ، فأخذهما وأتى بهما اليه . فأتاني التجار باكين ، وذكروا لي أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة [1] ، ورغبوا مني أن أكلمه في ردها وأن يأخذ سواها . فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له : ان للتجار في جوف هذه « العديلة » شيئا .

فقال : ان كان سكرا [2] فلا أرده اليهم ، وان كان سوى ذلك فهو لهم .

ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم ، وقال لي : لو كان عجلان ما ردها .

وعجلان هو ابن أخيه رميثة ، وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق كان قاصدا لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها . وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل .

*

ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين ، وتغيرت الريح بعد ذلك ، وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد [3] بالناس . ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر ، فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا . ورأيت بذلك المرسى عجبا :

(1) نقرة (بضم النون) معناها : من الفضة .
(2) سكرا (بفتح السين والكاف) يعني بها نبيذ التمر .
(3) الميد (بفتح الميم وسكون الباء) هو الحركة والاضطراب .

وهو خور مثل الوادى يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا ، كل سمكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبورى . فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا .

وقصدت الينا طائفة من البجاة ، وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمرا فى عرض الأصبع . وهم أهل نجدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصهب ، يركبونها بالسروج . فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهى تأنس بالآدمى ولا تنفر منه .

وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل ، مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم .

وفى ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن ، وهى على نحو ستة أميال من البر ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب اليها فى القوارب ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر . وهى جزيرة كبيرة ، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش . والمعزى عندهم كثير ، والألبان والسمن ، ومنها يجلب الى مكة ، وحبوبهم « الجرجور » [1] وهو نوع من الذرة كبير الحب ، يجلب منها أيضا الى مكة .

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن أبى نمى ، وأبوه أمير مكة ، وأخواه أميرها بعده ، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما ... وصارت اليه

(1) الغالب أن اللفظ غير عربى بهذا المعنى .

من قبل البجاة ، فانهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة .

وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن ، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ويرسون وينزلون الى البر ، فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب . وهم يسمون رئيس المركب الربان ، ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان [1] على الأحجار ، وهم يسمونها النبات .

مدينة حلى

وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى [2] ، وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما . وهى كبيرة حسنة العمارة ، يسكنها طائفتان من العرب وهم : بنو حرام ، وبنو كنانة .

وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع ، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة ، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندى ، من كبار الصالحين ، لباسه مرقعة وقلنسوة لبد ، وله خلوة متصلة بالمسجد ، فرشها الرملّ ، لا حصير بها ولا بساط . ولم أر بها حين لقائى له شيئا الا ابريق الوضوء ، وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة ، وصحيفة فيها ملح وسعتر ، فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ، من غير تكلف شىء .

واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ الى صلاة المغرب . واذا صلوا المغرب

(1) سكان السفينة هو ما يوضع فى مؤخرتها لتوجيهها ، وهو ما يقال منه اليوم « الدفة » .

(2) حلى بفتح الحاء وكسر اللام غير مشددة .

أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل ، فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة . فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ، ثم انصرفوا . ويعودون في أول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ، ثم يذكرون الى أن تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها . ومنهم من يقيم الى أن يصلى صلاة الضحى بالمسجد ، وهذا دأبهم أبدا .

ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقى عمرى فلم أوفق لذلك ، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

ذكر سلطان حلى

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بنى كنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء ، صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج فى سنة ثلاثين .

ولما قدمت مدينته أنزلنى وأكرمنى ، وأقمت فى ضيافته أياما . وركبت البحر فى مركب له ، فوصلت الى بلدة السرجة [1] ، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبى ، وهم طائفة من تجار اليمن ، أكثرهم ساكنون بصعداء ، ولهم فضل وكرم واطعام لأبناء السبيل . ويعينون الحجاج ويركبونهم فى مراكبهم ويزودونهم من أموالهم ، وقد عرفوا بذلك واشتهروا به . وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير .

وليس بالأرض من يماثلهم فى ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة ، فله مثل ذلك من المآثر والايثار .

وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين . ثم رحلنا الى مرسى « الحادث » ولم ننزل به ، ثم الى مرسى « الأبواب » .

(1) السرجة : بفتح السين .

مدينة زبيد

ثم الى مدينة زبيد ، مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا . وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره . وهى برية لا شطية ، احدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت . وهى وادى الخصيب الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ فى وصيته : « يامعاذ ، اذا جئت وادى الخصيب فهرول » .

ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت الى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب ، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . ويخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن — مع ما ذكرناه من الجمال الفائت — الأخلاق الحسنة والمكارم . وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا . فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وان كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له الى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها . واذ كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا ، ولو أعطيت احداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل .

وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق . لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى ، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الأبيانى ، والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ، ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ، ودخلت حدائقهم .

واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى ، أحد فضلاء اليمن ، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمنى ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة له

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ، ولم يبرح الشيخ موضعه ، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ، ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر ، وكانوا يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق أفعاله . فقال لهم الشيخ : فان كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا . فأرادوا القيام فلم يستطيعوا .

وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية ، وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له : ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد . فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم ، وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيىء ، وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا . وانصرفوا الى بلادهم .

وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل ، فأضافنى وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ وأقمت عنده ثلاثا .

وسافرت فى صحبته الى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعى ، وهو من كبار الصالحين ، وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه . فوصلنا الى جبلة ، وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ، فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وأنزله بزاويته . وسلمت عليه معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام فى خير مقام .

مدينة تَعِز

ثم انصرفنا ، وبعث معنا أحد الفقراء ، فتوجهنا الى مدينة تعز ، حضرة ملك اليمن ، وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها ، وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة ، وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك .

وهى ثلاث محلات : احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته ، وتسمى باسم لا أذكره . والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة . والثالثة يسكنها عامة الناس ، وبها السوق العظمى وتسمى المحالب .

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين على ، ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ، ابن السلطان المظفر يوسف بن على بن رسول . شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بنى العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ، ثم استقل أولاده بالملك .

وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه . وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذى بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعى فى صحبتى ، قصد بى الى قاضى القضاة الامام المحدث صفى الدين الطبرى المكى ، فسلمنا عليه ورحب بنا ، وأقمنا بداره فى ضيافته ثلاثا .

فلما كان فى اليوم الرابع — وهو يوم الخميس — وفيه يجلس السلطان لعامة الناس ، دخل بى عليه ، فسلمت عليه .

وكيفية السلام عليه أن يمس الانسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها الى رأسه ويقول : أدام الله عزك !

ففعلت كمثل ما فعله القاضى . وقعد القاضى عن يمين الملك ، وأمرنى فقعدت بين يديه ، فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبى سعيد رضى الله عنه ، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور ، فأجبته عما سأل من أحوالهم . وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامى وانزالى .

وترتيب قعود هذا الملك : أنه يجلس فوق دكانة [1] مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسى ، وبين يديه فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر ، وأمير « جندار » على رأسه ، و « الشاوشية » — وهم من « الجنادرة » — وقوف على بعد . فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : باسم الله ، فاذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده . فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه ، فسلم ووقف حيث رسم له فى الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقعد الا من أمر بالقعود : يقول السلطان للأمير « جندار » : مر فلانا يقعد ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ، ويقعد على بساط هنالك بين أيدى القائمين فى الميمنة والميسرة .

ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان : طعام العامة ، وطعام الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف . وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد .

ومجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ، ولا يزاحم أحد منهم أحدا . وعلى مثل هذا الترتيب سواء ، ترتيب ملك الهند فى طعامه ، فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند ؟

وأقمت فى ضيافة سلطان اليمن أياما ، وأحسن الىَّ وأركبنى .

مدينة صنعاء

وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء ، وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء .

ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل فى أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان ، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال

(١) اللغى فى كتب اللغة « دكان » لا دكانة ، وقد نبهنا على ذلك .

لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة .

ومدينة صنعاء مفروشة [1] كلها ، فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها .

وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ، وفيه قبر نبى من الأنبياء عليهم السلام .

مدينة عدن

ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم ، والجبال تحف بها ، ولا مدخل اليها الا من جانب واحد . وهى مدينة كبيرة ، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر . والماء على بعد منها ، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب .

وهى شديدة الحر . وهى مرسى أهل الهند ، تأتى اليها المراكب العظيمة من كنبايت ، وتانه ، وكولم ، وقالقوط ، وفندراينه ، والشاليات ، ومنجرور ، وفاكنور ، وهنور ، وسندابور ، وغيرها . وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضا .

وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه ، لا يشاركه فيه غيره ، لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة .

حكاية

ذكر لى أن بعضهم بعث غلاما له ليشترى له كبشا ، وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا . فاتفق أنه لم يكن بالسوق فى ذلك

(1) مبلطة .

اليوم الا كبش واحد ، فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين ، فانتهى ثمنه الى أربعمائة دينار ، فأخذه أحدهما وقال : ان رأس مالى أربعمائة دينار ، فان أعطانى مولاى ثمنه فحسن ، والا دفعت فيه رأس مالى ، ونصرت نفسى وغلبت صاحبى .

وذهب بالكبش الى سيده . فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار ... وعاد الآخر الى سيده خائبا ، فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه .

*

ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفارى ، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار ، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك .

ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق ، يحسنون الى الغريب ويؤثرون الفقير ، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى ، وكان والده من العبيد الحمالين ، واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد . وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت فى ضيافته أياما .

وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع .

مدينة زيلع

وهى مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مقدشو . ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن .

وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة .

وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة ، الا أنها أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتنا . وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التي ينحرونها في الأزقة . ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها .

مدينة مَقْدَشُو[1]

ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ، ووصلنا مقدشو ، وهي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم . ولهم أغنام كثيرة ، وهم تجار أقوياء . وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ، ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها .

ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق[2] — وهي القوارب الصغار — اليه ، ويكون في كل « صنبوق » جماعة من شبان أهلها ، فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هذا نزيلي . وكذلك يفعل كل واحد منهم .

ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، الا من كان كثير التردد الى البلد وعرف أهله ، فانه ينزل حيث شاء . فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له . ومن اشترى منه ببخس ، أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود عندهم ، ولهم منفعة في ذلك .

ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء الي بعضهم فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وانما هو فقيه .

فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي .

وكان فيهم أحد أصحاب القاضي ، فعرفه بذلك ، فأتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث الي أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابي ، وسلمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ .

فقلت : ومن الشيخ ؟

فقال : السلطان .

وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ .

فقلت له : اذا نزلت توجهت اليه .

فقال لي : ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ألا ينزل حتى يرى السلطان .

فذهبت معهم اليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مقدشو

وسلطان مقدشو ، كما ذكرناه ، انما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو في الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشي ، ويعرف اللسان العربي . ومن عاداته أنه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟

---

(١) مقدشو بفتح الميم ، واسكان القاف ، وفتح الدال والشين ، واسكان الواو .

(٢) اللفظ غير عربي .

ومن ربانه (وهو الرئيس) ؟ وما وسقه [1] ؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ؟ فيعرف بذلك كله ، ويعرض على السلطان ، فمن استحق أن ينزله عنده أنزله .

ولما وصلت مع القاضي المذكور (وهو يعرف بابن البرهان المصرى الأصل) الى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي ، فقال : بلغ الأمانة ، وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ .

ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التانبول [2] والفوفل [3] ، فأعطانى عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى القاضي كذلك ، وأعطى أصحابى وطلبة القاضي ما بقى فى الطبق ، وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقى فسكب على وعلى القاضي ، وقال : ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة (وهى دار معدة لضيافة الطلبة) .

فأخذ القاضي بيدى وجئنا الى تلك الدار ، وهى بمقربة من دار الشيخ ، مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه . ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه ، وهو الموكل بالضيوف ، فقال : مولانا يسلم عليكم ويقول لكم : قدمتم خير مقدم .

ثم وضع الطعام فأكلنا . وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن ، يجعلونه فى صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف « الكوشان » وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن

(1) وسقه (بفتح الواو وسكون السين) اى حمله .
(2) التانبول : ضرب من اليقطين طعم ورقه كالقرنفل ، مشه - اى فاتح للشهية - مطرب . « القاموس »
(3) الفوفل : نوع من النخل كنخل النارجيل تحمل كباس فيها الفوفل أمثال التمر . « القاموس »

الحليب ، ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن الرائب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبر ، وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح ، والزنجبيل الأخضر والعنبا [1] ، وهى مثل التفاح ولكن لها نواة . وهى - اذا نضجت - شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون ، يصبرونها فى الخل . وهم اذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات .

والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ، وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها .

ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي . وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم ، وتلك عادتهم .

فلما كان اليوم الرابع ، وهو يوم الجمعة ، جاءنى القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتونى بكسوة . وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان فى وسطه عوض السراويل ، فانهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسى [2] مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة . وأتوا لأصحابى بكسى تناسبهم .

وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة ، فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي ، فرحب ، وتكلم بلسانهم مع القاضي ، ثم قال باللسان العربى : قدمت خير مقدم ، وشرفت بلادنا وآنستنا .

وخرج الى صحن المسجد ، فوقف على قبر والده (وهو مدفون هناك) فقرأ ودعا ، ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا .

(1) المنجو كما يأتى فى الحواشى . والكلمة غير عربية .
(2) نسبة الى القدس .

وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن : يضع سبابته فى الأرض ثم يجعلها على رأسه ويقول : أدام الله عزك !

ثم خرج الشيخ من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضى أن ينتعل ، وأمرنى أن أنتعل ، وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حفاة .

ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب ، وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسية خضراء ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة . وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنقار ، وأمراء الأجناد أمامه وخلفه ، والقاضى والفقهاء والشرفاء معه .

ودخل الى « مشوره » على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك ، وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه غيره عليه ، والفقهاء والشرفاء معه .

ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر . فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ، ثم ضربت الأطبال والأنقار والأبواق والصرنايات . وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى أمام .

فاذا فرغ من ضرب « الطبلخانة » سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا . وتلك عادة لهم فى كل يوم جمعة .

واذا كان يوم السبت يأتى الناس الى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى « المشور » الثانى فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك . ويكون القاضى على دكان وحده ، وكل صنف على دكان لا يشاركهم فيه سواهم .

ثم يجلس الشيخ بمجلسه ، ويبعث الى القاضى فيجلس عن يساره . ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، وسائرهم يسلمون وينصرفون . ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه . ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ، ويسلم سائرهم وينصرفون . ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد : طائفة بعد طائفة أخرى ، فيسلمون وينصرفون .

ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم . وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فأكل معه ، ويأكل سائر الناس بدار الطعام . وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ .

ثم يدخل الشيخ الى داره ، ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات ، فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضى ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى ، وهم الوزراء والأمراء ، وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه ، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره . وتلك عادتهم دائما .

ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج .

مدينة كَلْوَا

فوصلنا الى جزيرة منبسى [1] ، وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها ، وأشجارها الموز والليمون والأترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهى شبه الزيتون ، ولها نوى كنواه ، الا أنها شديدة الحلاوة .

ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وانما يجلب اليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك .

وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح . ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والبئران ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع .

والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، وعلى بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه . ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام .

وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر الى مدينة كلوا ، وهى مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين [2] من جنادة .

وذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر . ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة .

ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

ذكر سلطان كلوا

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ، ويكنى أيضا « أبو المواهب » ، لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، منهم : محمد بن جماز ، ومنصور بن لبيدة بن أبى نمى ، ومحمد بن شميلة بن أبى نمى . ولقيت بمقدشو أتيل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه .

وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : ياأبا المواهب !

فقال : لبيك يافقير ، ما حاجتك ؟

قال : أعطنى هذه الثياب التى عليك .

(1) وردت فى « معجم البلدان » لياقوت : منبسة .
(2) الليميين : فى بعض الكتب اليمنيين .

فقال له : نعم أعطيكها .

قال : الساعة ؟

قال : نعم الساعة .

فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها .

فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضا بعشرة رؤوس من الرقيق ، وحملين من العاج . ومعظم عطاياهم العاج ، وقلما يعطون الذهب .

ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولى أخوه داود ، فكان على الضد من ذلك ، اذا أتاه سائل يقول له : مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى . ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

مدينة ظفار [1]

وركبنا البحر من مدينة كلوا الى مدينة ظفار الحموض ، وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ، ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند . ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند — مع مساعدة الريح — فى شهر كامل ، قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة ، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار .

(1) ظفار بفتح الظاء والفاء ، والراء مبنية على الكسر .

وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما ، وبينها وبين عمان عشرون يوما .

ومدينة ظفار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها .

والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء ، وهى من أقذر الأسواق وأشدها نتنا ، وأكثرها ذبابا ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها فى النهاية من السمن .

ومن العجائب أن دوابهم انما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ، ولم أر ذلك فى سواها .

وأكثر باعتها الخدم ، وهن يلبسن السواد . وزرع أهلها الذرة ، وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها فى صهريج يسقون منه .

ولهم قمح يسمونه العلس [1] ، وهو فى الحقيقة نوع من السلت [2] . والأرز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم .

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها . وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها . ومن عادتهم أنه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا فى « صنبوق » الى

(1) فى القاموس : ضرب من البر تكون حبتان فى قشر ، وهو طعام صنعاء .

(2) السلت : ضرب من الشعير .

المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، وللكرانى وهو كاتب المركب . ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيزكبونها . وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر الى دار السلطان ، فيسلمون على الوزير وأمير جندار . وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا ، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان ، وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب .

وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء . ولباسهم القطن ، وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ، ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السراويل ، وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر . ويغتسلون مرات فى اليوم .

وهى كثيرة المساجد ، ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا . والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . وأكثر رجالهم مبتلون بالأدرة [1] والعياذ بالله .

ومن عاداتهم الحسنة التصافح فى المسجد اثر صلاة الصبح والعصر ، يستند أهل الصف الأول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم ، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة ، يتصافحون أجمعين .

ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء الا عاد عليه مكره ، وحيل بينه وبينها . وذكر لى أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه ، صاحب هرمز ، نازلها مرة فى البر والبحر ، فأرسل الله عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ، ورجع عن حصارها وصالح ملكها .

وكذلك ذكر لى أن الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير لانتزاعها من يد ملكها (وهو أيضا ابن عمه) ، فلما خرج ذلك الأمير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها .

ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم : نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم — وهو عيسى بن على ، كبير القدر كريم النفس — فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب ، احداهن اسمها بخيتة ، والأخرى زاد المال ... ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها .

وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم . وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت ، يصلى عليها صاحب البيت ، كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة .

وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة ، وسواهم من قبائل المغرب ، أصلهم من حمير .

ويقرب من هذه المدينة — بين بساتينها — زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر بن عيسى ، من أهل ظفار . وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها ، فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه . رأيت بها شخصا ذكر لى أن له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان . وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح .

---

(1) الادرة هى انتفاخ الخصى ، من فتق أو غيره .

أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور ، وشاهدت لهما فضلا عظيما . ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشرب منه ، وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه ، وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم .

وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدى ، وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ، ولا يكل ذلك الى غيره .

وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث ، وهى معظمة عندهم ، ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له . ومن عادة الجند أنه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم ، استجاروا بهذه التربة ، وأقاموا فى جوارها الى أن يعطوا أرزاقهم .

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف ، وهى منازل عاد . وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادى السمك . وفى الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعا مكتوبا عليه : هذا قبر هود بن عابر ، والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده ، والله أعلم .

ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم ، وزنت بمحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية ، وهو طيب الطعم شديد الحلاوة . وبها أيضا التانبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها ، اللهم الا أن فى مدينة زبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل . واذ قد وقع ذكر التانبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما .

ذكر التانبول

والتانبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ، ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب ، أو يغرس فى مجاورة شجرة النارجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى ، وكما يصعد الفلفل . ولا ثمر للتانبول ، وانما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العليق . وأطيبه الأصفر ، وتجنى أوراقه فى كل يوم .

وأهل الهند يعظمون التانبول تعظيما شديدا ، واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ، ولا سيما ان كان أميرا أو كبيرا . واعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب .

وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل — وهو شبه جوز الطيب — فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ، ويجعله الانسان فى فمه ويعلكه ، ثم يأخذ ورق التانبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل .

وخاصته أنه يطيب النكهة [1] ، ويذهب بروائح الفم ، ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ، ويفرح آكله .

ويجعله الانسان عند رأسه ليلا ، فاذا استيقظ من نومه أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة

(1) ريح الفم .

كريهة . ولقد ذكر لى أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره . وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

ذكر النارجيل [1]

وهو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا . وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما [2] الا أن هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا . وجوزها يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيها شبه العينين والفم ، وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء ، وعليها ليف يشبه الشعر ، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضا عن مسامير الحديد ، ويصنعون منه الحبال للمراكب .

فالجوزة منها — وخصوصا التى بجزائر ذيبة المهل — تكون بمقدار رأس الآدمى .

ويزعمون أن حكيما من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة ، فقال الحكيم للملك : ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر ثمرا عظيما يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا .

فقال له الملك : فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته ؟

قال : ان لم يظهر فاصنع برأسى كما صنعت برأسه .

فأمر الملك برأس الوزير فقطع ، وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر فى دماغه وعالجها حتى صارت شجرة ، وأثمرت هذا الجوز .

(1) ضبطت هذه الكلمة فى القاموس بكسر الراء .
(2) فيه نظر .

وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة فى حمرة الوجه . وأما الاعانة على الباءة ، ففعله فيها عجيب . ومن عجائبه : أنه يكون فى ابتداء أمره أخضر ، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة ، شرب منها ماء فى النهاية من الحلاوة والبرودة . ومزاجه حار معين على الباءة ، فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما فى داخل الجوزة من الطعم ، فيكون طعمها كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ، ويتغذى به ، ومنه كان غذائى أيام اقامتى بجزائر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام .

وعجائبه أنه يصنع منه الزيت والحليب والعسل .

فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل ، ويسمون الفازانية ، يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا ، اذا أرادوا أخذ مائها الذى يصنعون منه العسل ، فيقطعون العذق الذى يخرج منه الثمر ، ويتركون منه مقدار أصبعين ، ويربطون عليه قدرا صغيرا ، فيقطر فيها الماء الذى يسيل من العذق . فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء ، فيصب ما اجتمع من ماء العذق فى أحد القدحين ، ويغسله بالماء الذى فى القدح الآخر ، وينجر [1] من العذق قليلا ، ويربط عليه القدر ثانية ، ثم يفعل غدوة كفعله عشيا . فاذا اجتمع

(1) ينحت .

له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه الرب ، فيصير عسلا عظيم النفع طيبا ، فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء .

وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسى ، تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصا فى أحد طرفيها حديدة مشرفة ، فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويجرشون [1] ما فى بطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجتمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء . ثم يمرس [2] ذلك الجريش بالماء ، فيصير كلون الحليب بياضا ، ويكون طعمه كطعم الحليب ، ويأتدم به الناس .

وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ، ويقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس ، فاذا ذبل طبخوه فى القدور واستخرجوا زيته ، وبه يستصبحون ويأتدمون ، وتجعله النساء فى شعورهن ، وهو عظيم النفع .

ذكر سلطان ظفار

وهو السلطان الملك المغيث ، ابن الملك الفائز ، ابن عم ملك اليمن . وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن ، وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة . ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية . وكان من عزم ملك اليمن على محاربته ، وتعيين ابن عمه لذلك ، ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا .

وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن ، عظيم فسيح ، والجامع بازائه . ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنقار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر . وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر الى بابه فيقفون خارج « المشور » ساعة وينصرفون .

والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا فى يوم الجمعة ، فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره . ولا يمنع أحدا من دخول « المشور » ، وأمير « جندار » قاعد على بابه ، واليه ينتهى كل صاحب حاجة أو شكاية ، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين .

واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة ، وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب ، فيركب السلطان ونديمه فى المحمل بحيث لا يرى ، واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل .

وعادته ألا يعارضه أحد فى طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب . فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاشوها .

ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدنى ، وكان معلم صبيان ، فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره ان ملك ، فلما ملك استوزره ، فلم يكن يحسنها ، فكان الاسم له والحكم لغيره .

(١) جرش الشىء : لم ينعم دقه .
(٢) ينقع ويمرث باليد .

ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس المصيرى ، من أهل جزيرة مصير .

وفى الثانى لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك ، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكندر ، وهو رقيق الورق ، واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا ، وذلك الصمغ هو اللبان ، وهو كثير جدا هنالك .

ولا معيشة لأهل ذلك المرسى الا من صيد السمك . وسمكهم يعرف باللخم ، وهو شبيه كلب البحر ، يشرح ويقدد ويقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال .

وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان ، وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر ولى لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخا نائما ، فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام ، فكلمناه فلم يكلمنا ، وكان يحرك رأسه ، فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله ، فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ، ولا نعلم ما يقول ، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد ، وليس معه ركوة [1] ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل . وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل .

وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده ، وأقام يصلى الى العشاء الآخرة ، ثم أذن وصليناها معه . وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها .

(١) وعاء للماء .

ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف . فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره . ثم انى أردت الرجوع اليه لما انصرفنا ، فلما دنوت منه هبته وغلب على الخوف .

ورجعت الى أصحابى وانصرفت معهم وركبنا البحر ، ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة ، فأرسينا وصعدنا اليها ، فوجدناها ملأى بطيور تشبه الشقاشق [1] الا أنها أعظم منها ، وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها ، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها . وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم ، فرأيته يأكل معهم تلك الطيور ، فأنكرت ذلك عليه ، فاشتد خجله وقال لى : ظننت أنهم ذبحوها ، وانقطع عنى بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يقربنى حتى أدعوه .

وكان طعامى فى تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك . وكانوا يصطادون بالغدوة والعشى سمكا يسمى بالفارسية «شير ماهى» ، ومعناه : أسد السمك ، لأن « شير » هو الأسد ، و « ماهى » السمك . وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة ، لا يفضلون أحدا على أحد ، ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر .

وكان عندى خبز وكعك استصحبتهما من ظفار ، فلما نفدا كنت أقتات من ذلك السمك فى جملتهم .

(١) لم نعثر على هذه الكلمة فيما لدينا من المراجع .

وعيدنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبت علينا فى يومه ريح عاصفة بعد طلوع الفجر ، ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا .

حكاية

وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ، يدعى بمولانا ، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة . فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم ، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له : يامولانا خضر ، كيف رأيت ؟

قال : كنت عند الهول أفتح عينى أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ؟ فلا أراهم ، فأقول : الحمد لله ، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ، ثم أغلق عينى ثم أفتحها فأنظر كذلك ، الى أن فرج الله عنا .

*

وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد ، خرج عوما بعد جهد شديد .

وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة ، طبخها من غير طحن ، وصب عليها عسل التمر وأكلناه .

ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا فيه . وهى جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها الا من السمك ، ولم تنزل اليها لبعد مرساها عن الساحل ، وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة . وأقمنا بها يوما ، وتوجه صاحب المركب الى داره وعاد الينا .

ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ، ورأينا منها مدينة قلهات فى سفح جبل ، فخيل لنا أنها قريبة ، وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال أو قبله .

فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشى اليها والمبيت بها ، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب ، فسألت عن طريقها ، فأخبرت أنى أصل اليها عند العصر ، فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها .

وصحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره ، وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم . وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مئونة حملها ، وحملت فى يدى رمحا ، فاذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابى ، فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر ، فيه المد والجزر ، فأراد عبوره بالثياب فقلت له : انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز ، فرجع .

ثم رأينا رجالا جازوه عوما ، فتحققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى ، وكنت أهز الرمح ، فهابنى ذلك الدليل .

وصعدنا حتى وجدنا مجازا ، ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها ، وعطشنا واشتد بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقانى وسقى صاحبى . وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها خنادق تمشى فيها الأميال الكثيرة . فلما كان من العشى أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر ، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة ، فأراد أن تنشب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت

له : انما نمشى على هذه الطـريق التى نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل .

فلما أظلم الليل قال لنا : ان المدينة قريبـة منا ، فتعالوا نمش حتى نبيت بخارجهـا الى الصباح ، فخفت أن يتعرض لنا أحد فى طريقنا ، ولم أحقق مقدار ما بقى اليها ، فقلت له : انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله .

وكنت قد رأيت جملة من الرجال فى سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصـوصا ، وقلت التستر أولى .

وغلب العطش على صاحبى فلم يوافق على ذلك ، فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شـجر أم غيـلان ، وقد أعييت وأدركنى الجهد ، لـكنى أظهـرت قوة وتجلدا خوف الدليل .

وأما صـاحبى فمريض لا قوة له ، فجعلت الدليل بينى وبين صاحبى وجعلت الثيـاب بين ثوبى وجسدى ، وأمسكت الرمح بيـدى ، ورقد صاحبى ورقد الدليل ، وبقيت ساهرا ، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أنى مستيقظ .

ولم نزل كذلك حتى أصبحنا ، فخرجنا الى الطريق ، فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافـق الى المدينة ، فبعثت الدليل ليأتينا بمـاء ، وأخذ صاحبى الثياب ، وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق ، فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر .

ثم وصلنا الى مدينة قلهات ، فأتيناها ونحن فى جهد عظيم ، وكنت قد ضـاقت نعلى على رجـلى حتى كاد الدم أن يخـرج من تحت أظفارها .

فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب لابد لك أن تذهب معى الى أمير المدينة ليعرف قضـيتك ، ومن أين قدمت ؟ فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الأخلاق ، وسألنى عن حالى وأنزلنى . وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام .

مدينة قلهات

ومدينة قلهات على الساحل ، وهى حسـنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن المساجد ، حيطانه بالقاشانى ، وهو شبه الزليج ، وهـو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى . وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ، ومعنى بيبى عندهم الحرة .

وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثـله فى اقليم من الأقاليم ، وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه . وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه . والأرز يجلب اليهم من أرض الهند .

وهم أهل تجارة ، ومعيشتهم مما يأتى اليهم فى البحر الهندى . واذا وصـل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح . وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمـة يتكلمـون بها يصلونها بـ « لا » ، فيقولون مثلا : تأكل لا ، تمشى لا ، تفعل كذا لا .

وأكثرهم خوارج ، لكنهم لا يقـدرون على اظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة .

وبمقربة من قلهات قرية « طيبى » ، واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه . وهى من أجمل القرى وأبدعها حسـنا ، ذات

أنهار جارية ، وأشجار ناضرة ، وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه الى قلهات . وبهـا الموز المعروف بالمرواري ، والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروار : الجوهر) ، وهو كثير بها ، ويجلب منها الى هرمز وسواها ، وبهـا أيضا التانبول لكن ورقته صغيرة ، والتمـر يجلب الى هذه الجهات من عمان .

بلاد عمـان

ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا سـتة أيام في صحراء ، ثم وصلنـا بلاد عمـان في اليـوم السابع . وهي خصبة ذات أنهـار وأشـجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفـة الأجناس .

ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهي مدينـة نزوا ، مدينة في سفح جبل ، تحف بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية . وعادة أهلهـا أنهم يأكلون في صـحون المساجد ، يأتي كل انسـان بمـا عنـده ، ويجتمعون للأكل في صحن المسـجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر . ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبدا .

وهم اباضية [1] المذهب ، ويصلون الجمعـة ظهرا أربعا ، فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ، ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى [2] فيه عن أبي بكر وعمر ، ويسكت عن عثمان وعلي . وهم اذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنـوا عنه بالرجل ، فقالوا : ذكر عن الرجل ، أو قال الرجل . ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه : العبد الصالح قامع الفتنة .

ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك ، وسـنذكر حكاية اثر هذا مما يشهد بذلك .

ذكر سلطان عمان

وسلطانها عربي من قبيلة الأزد بن الغوث ، ويعرف بأبي محمد بن نبهان ، وأبو محمـد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان ، كما هي أتابك عند ملوك اللور .

وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ، ولا حاجب له ولا وزير ، ولا يمنـع أحدا من الدخول اليه من غريب أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العـرب ، ويعين له الضيافة ، ويعطيـه على قـدره . وله أخلاق حسـنة . ويؤكل عـلى مائدته لحم الحمـار الانسي ، ويبـاع بالسـوق ، لأنهـم قائلون بتحليله ، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره .

ومن مدن عمان مدينة زكي ، لم أدخلها ، وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة .

ومنها : القريات ، وشبا ، وكلبا وخورفكان ، وصحار ، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشـجار نخل ، وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز .

حـكاية

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان ، فأتته امرأة صـغيرة السن ، حسـنة الصـورة ، بادية الوجه ، فوقفت بين يديه وقالت له : ياأبا محمـد ، طغى الشـيطان في رأسي .

(1) الاباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن اباض المري . وفي سنة ١٥٣ هـ تغلبوا على مملكة افريقيـة وانتشروا في طرابلس الغرب . ومعتقـدهم فيمـا يختص بأصول الدين يوافق معتقد السنيين تقريبا .

(2) يقول : رضي الله عنه .

فقال لها : اذهبى واطردى الشيطان .

فقالت له : لا أستطيع ، وأنا فى جوارك ياأبا محمد .

فقال لها : اذهبى ، فافعلى ماشئت !

فذكر لى — لما انصرفت عنه — أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون فى جوار السلطان ، وتذهب للفساد ، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها ، وان قتلوها قتلوا بها ، لأنها فى جوار السلطان .

السفر الى هرمز

ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز . وهرمز مدينة على ساحل البحر ، وتسمى أيضا موغ استان ، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة ، وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ .

ووصلنا الى هرمز الجديدة ، وهى جزيرة مدينتها تسمى جرون ، وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة ، وهى مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان .

وبهذه المدينة سكنى السلطان . والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم . وأكثرها سباخ [1] وجبال ملح وهو الملح الدارانى ، ومنه يصنعون الأوانى للزينة والمنارات التى يضعون السرج عليها .

وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان .

والماء فى هذه الجزيرة له قيمة ، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر : وهى على بعد من المدينة ، ويأتون اليها بالقرب فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر ، يوسقونها فى القوارب ويأتون بها الى المدينة .

ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق ، رأس سمكة كأنه رابية ، وعيناه كأنهما بابان ، فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الأخرى .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقصارانى ، وأصله من بلاد الروم ، فأضافنى وزارنى وألبسنى ثوبا ، وأعطانى كمر الصحبة ، وهو يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند . وأكثر فقراء العجم يتقلدونه .

وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام ، يذكر أنهما يصليان فيه ، وظهرت له بركات وبراهين .

وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ ، يخدم بها الوارد والصادر ، وأقمنا عنده يوما .

وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه ، فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية ، وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما . وكان هذا الرجل من كبار التجار ، فحج البيت وقطع العلائق ، وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به ، وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل ، رضى الله تعالى عنه ، وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه .

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه . وهو من كرماء السلاطين ، كثير التواضع حسن الأخلاق . وعادته أن يأتى لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ، ويقوم بحقه .

(1) جمع سبخة . وقد تقدم شرحها .

ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين ، والغلاء مستول على الجزيرة . فأتى الينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجماعة من الفضلاء ، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب .

وأقمنا عندهم ستة عشر يوما ، فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب : كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان ؟

فجئنا دار الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها ، فقلت له : انى أريد السلام على الملك .

فقال : باسم الله .

وأخذ بيدى فذهب بى الى داره وهى على ساحل البحر ، فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة ، وعلى رأسه عمامة ، وهو مشدود الوسط بمنديل . فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ، ولم أعرف أنه الملك . وكان الى جانبه ابن أخته ، وهو على شاه بن جلال الدين الكيجى ، وكان بينى وبينه معرفة ، فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك ، فعرفنى الوزير بذلك ، فخجلت منه لاقبالى بالحديث على ابن أخته دونه ، واعتذرت اليه .

ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، ودخلت مع الوزير ، فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها ، وفى يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها ، لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه . فجلس أحد الأمراء الى جانبه ، وجلست الى جانب ذلك الأمير ، وسألنى عن حالى ومقدمى وعمن لقيته من الملوك ، فأخبرته بذلك .

وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم . ثم قام فودعته وانصرفت .

وسبب الحرب التى بينه وبين ابنى أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة للنزهة فى هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ، كما قدمناه ، فخالفه [1] عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر ، فخاف قطب الدين على نفسه ، وركب البحر الى مدينة قلهات التى تقدم ذكرها ، وهى من جملة بلاده ، فأقام بها شهورا ، وجهز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه ، وعاد الى قلهات ، وفعل ذلك مرارا ، فلم تكن له حيلة الا أن راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات . وأتى هو الى الجزيرة فدخلها ، وفر ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر الى جزيرة قيس ، حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها .

ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال . فلما جزنا البحر اكترينا دواب من التركمان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق .

وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريق لصوص الأعراب . وتهب فيها ريح السموم فى شهرى تموز وحزيران ، فمن صادفته فيها قتلته . ولقد ذكر لى أن الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو

(1) يريد خرج عليه . وهو تعبير كثير الدوران فى هذه الرحلة . ويظهر لنا أنه غير فصيح .

منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح .

وكنا نسافر فيها بالليل ، فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ، ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس .

وفى هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك الشهير الاسم هنالك .

حكاية

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمى الأصل . و « اللك » (بضم اللام) معناه الأقطع [1] ، وكانت يده قطعت فى بعض حروبه ، وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق . وكان يبنى الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس . ويقال انه كان يدعو ألا يسلط الا على من لا يزكى ماله . وأقام على ذلك دهرا .

وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ، ويدفنون بها قرب الماء وروايا [2] ، فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك . وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثم تاب وتعبد حتى مات . وقبره يزار ببلده .

*

وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان ، وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين ، وهو شديد الحر .

ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا الى مدينة لار ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ، ولها أسواق حسان .

ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد ، وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال . وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء .

ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ، ثم يطوفون على دور المدينة فيعطون من كل دار الرغيف والرغيفين ، فيطعمون منها الوارد والصادر .

وأهل الدور قد ألفوا ذلك ، فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ، ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام .

وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ، ويأتى كل منهم بما تيسر له من الدراهم ، فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ، ويبيتون فى عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين ، تركمانى الأصل ، بعث الينا بضيافة ، ولم نجتمع به ولا رأيناه .

مدينة خنج بال

ثم سافرنا الى مدينة خنج بال ، وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذى قصدنا زيارته ، وبزاويته نزلنا . ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب ، وعليه جبة صوف خضراء بالية ، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء . فسلمت عليه فأحسن الرد ، وسألني عن مقدمى وبلادى وأنزلنى ، وكان يبعث الى الطعام

(1) أى بلسانهم .
(2) جمع راوية ، وهى الدابة يستقى عليها ، ولكن المراد هنا القربة على المجاز .

والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع ، صائم الدهر كثير الصلاة .

ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجيب وأمر غريب ، فان نفقته فى هذه الزاوية عظيمة ، وهو يعطى العطاء الجزيل ، ويكسو الناس ويركبهم الخيل ، ويحسن الى كل وارد وصادر ، ولم أر فى تلك البلاد مثله ، ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والأصحاب ، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون [1] .

وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال ، وله اسم بتلك البلاد شهير ، وشأن فى الولاية كبير ، وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه .

وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التى كنت فى صحبتها .

وسمعت أن بالمدينة (خنج بال المذكورة) زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين ، فرحت اليها بالعشى ، وسلمت على شيخهم وعليهم ، ورأيت جماعة مباركة ، قد أثرت فيهم العبادة ، فهم صفر الألوان ، نحاف الجسوم ، كثيرو البكاء ، غزيرو الدموع .

وعند وصولى اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم : ادع لى ولدى محمدا ، وكان معتزلا فى بعض نواحى الزاوية ، فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر ، مما نهكته العبادة ، فسلم وقعد ، فقال له أبوه : يابنى ، شارك هؤلاء الواردين فى الأكل تنل من بركاتهم . وكان صائما فأفطر معنا . وهم شافعية المذهب . فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا .

(1) اى ان الله تعالى يرزقه من حيث لا يدرى ، وهو بعيد .م

مدينة قيس

ثم سافرنا منها الى مدينة قيس ، وتسمى أيضا بسيراف ، وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس ، مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة ، فى دورها بساتين عجيبة ، فيها الرياحين والأشجار الناضرة ، وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها .

وهم عجم من الفرس أشراف ، وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف ، وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين ، فى خور راكد مثل الوادى العظيم . فاذا كان شهر أبريل وشهر مايو تأتى اليه القوارب الكثيرة ، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه — مهما أراد أن يغوص — شيئا يكسوه من عظم الغيلم : وهى السلحفاة [1] ، ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص .

ويتفاوتون فى الصبر فى الماء : فمنهم من يصبر الساعة والساعتين [2] فما دون ذلك . فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا فى الرمل ، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها فى مخلاة جلد منوطة بعنقه . فاذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه الى القارب ، فتؤخذ منه المخلاة .

(1) الغيلم : السلحفاة الذكر .م
(2) مبالغة .م

ويفتح الصدف ، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة ، فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر [١] ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه ، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه .

مدينة البحرين

ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المؤنة . يحفر عليه بالأيدي فيوجد . وبها حدائق النخل والرمان والأترج ، ويزرع بها القطن .

وهي شديدة الحر ، كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها .

وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر .

وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو في غربيها ، ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها ، وبهما ضرب المثل فقيل : كسير وعوير ، وكل غير خير .

ثم سافرنا الى مدينة القطيف [٢] ، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير ، يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضية غلاة ، يظهرون الرفض جهارا ، لا يتقون أحدا ، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليا ولي الله ، ويزيد بعد الحيعلتين [٣] : حي على خير العمل . ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلي خير البشر ، من خالفهما فقد كفر .

مدينة هجر

ثم سافرنا منها الى مدينة هجر ، وتسمى الآن بالحسا ، وهي التي يضرب المثل بها فيقال : كجالب التمر الى هجر . وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ، ومنه يعلفون دوابهم . وأهلها عرب ، وأكثرهم من قبيلة عبد القيس ابن أفصى .

مدينة اليمامة (حجر)

ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضا بحجر . وهي مدينة حسنة خصبة ، ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بني حنيفة ، وهي بلدهم قديما ، وأميرهم طفيل بن غانم .

ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج ، وذلك في سنة ثنتين وثلاثين .

العودة الى الحجاز

فوصلت الى مكة ، شرفها الله تعالى .

وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر ، رحمه الله ، وجملة من أمرائه ، وهي آخر حجة حجها ، وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين .

وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده ، وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقي .

حكاية

ذكر أن الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية ، فلما أراد الدنو منها قالت له : اني حامل من الملك الناصر ، فاعتزلها .

---

(١) هذا غير الواقع .

(٢) ضبطها ابن بطوطة على صيغة التصغير ، وضبطها صاحب القاموس كشريف .

(٣) لعله يريد بالحيعلتين : حي على الصلاة ، وحي على الفلاح .

وولدت ولدا سماه بأمير أحمد ، ونشأ فى حجره ، فظهرت نجابته ، واشتهر بابن الملك الناصر .

فلما كان فى هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر ، وأن يتولى أمير أحمد الملك ، وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال .

فنما الخبر الى الملك الناصر ، فبعث الى أمير أحمد فى يوم شديد الحر ، فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب ، فشرب الملك الناصر قدحا ، وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم ، فشربه . وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت . فرحل الناس .

ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد ، فاكترث بكتمور لموته ، وقطع أثوابه ، وامتنع من الطعام والشراب . وبلغ خبره الى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه ، وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له : بحياتى عليك ، الا شربت فبردت نار قلبك !

فشربه ومات من حينه .

ووجد عنده خلع السلطنة والأموال ، فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر .

ولما انقضى الحج توجهت الى جدة ، برسم ركوب البحر الى اليمن والهند ، فلم يقض لى ذلك ، و لاتأتى لى رفيق .

وأقمت بجدة نحو أربعين يوما ، وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى ، يروم السفر الى القصير من عمالة قوص ، فصعدت اليه لأنظر حاله ، فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه . وكان ذلك لطفا من الله تعالى ، فانه سافر ، فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبى محمد ، فخرج صاحبه وبعض التجار فى العشارى بعد جهد عظيم ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك بعضهم ، وغرق سائر الناس ، وكان فيه نحو سبعين من الحجاج .

ثم ركبت البحر بعد ذلك فى « صنبوق » برسم عيذاب ، فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير ، وسافرنا منه فى البر مع البجاة ، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان ، فيها عرب جهينة وبنى كاهلْ ، وطاعتهم للبجاة .

ووردنا ماء يعرف بمفرور ، وماء يعرف بالجديد . ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما ، وتزودنا لحومها .

ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى ، وأخبرنى أن البجاة أسروه ، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما ، انما يقتات بلبن الابل .

ونفد منا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ، ولم يبق لنا زاد ، وكان عندى نحو حمل من التمر الصيحانى والبرنى برسم الهدية لأصحابى ، ففرقته على الرفقة ، وتزودناه ثلاثا .

وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير ، وصلنا الى عيذاب ، وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما ، واكترينا الجمال ، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ، ووردنا ماء يعرف بالجنيب (ولعله الخبيب) وحللنا بحميثرا ، حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى .

وزرناه ثانية ، وبتنا فى جواره .

العودة الى صعيد مصر

ثم وصلنا الى قرية العطواني ، وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة ادفو من الصعيد الأعلى .

واجتزنا النيل الى مدينة اسنا ، ثم الى مدينة أرمنت ، ثم الى الأقصر ، وزرنا الشيخ أبا الحجاج الأقصري ثانية . ثم الى مدينة قوص ، ثم الى مدينة قنا ، وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ، ثم الى مدينة هو ، ثم الى مدينة أخميم ، ثم الى مدينة أسيوط ، ثم الى مدينة منفلوط ، ثم الى مدينة منلوى ، ثم الى مدينة الأشمونين ، ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ، ثم الى مدينة البهنسة ، ثم الى مدينة بوش ، ثم الى مدينة منية القائد — وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد — ثم الى مصر ، وأقمت بها أياما .

وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ، ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري ، ولم يزل في صحبتي سنين الى أن خرجنا من بلاد الهند ، فتوفي بسندابور ، وسنذكر ذلك .

ووصلنا الى مدينة غزة ، ثم الى مدينة الخليل عليه السلام ، وتكررت لنا زيارته ، ثم الى بيت المقدس ، ثم الى مدينة الرملة ، ثم الى مدينة عكا ، ثم الى مدينة طرابلس ، ثم الى مدينة جبلة ، وزرنا ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ثانية ، ثم الى مدينة اللاذقية . وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها .

السفر الى بر الترك

ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة [1] كبيرة ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم . وانما نسبت الى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم ، ومنها الروم الأقدمون واليونانية ، ثم استفتحها المسلمون . وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان .

وسرنا في البحر عشرا بريح طيبة ، وأكرمنا النصراني [1] ، ولم يأخذ منا نولا [2] .

مدينة العلايا

وفي العاشر وصلنا الى مدينة العلايا ، وهي أول بلاد الروم .

وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا ، وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد : فأهله أجمل الناس صورا ، وأنظفهم ملابس ، وأطيبهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة في الشام والشفقة في الروم ، وانما عنى به أهل هذه البلاد .

وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا ، يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن ، فاذا سافرنا عنهم ودعونا ، كأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات .

ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يقوتهم سائرها ، فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار في يوم خبزه ، ومعه الادام الطيب ، اطرافا لنا بذلك ، ويقولون لنا : ان النساء بعثن هذا اليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء .

---

(1) مركب كبير . وهو بغير هاء كما في القاموس ، كما نبهنا على ذلك .

(1) يريد صاحب المركب .

(2) النول : كلمة يونانية الاصل ، معناها : ما يدفعه المسافر في المركب من الاجرة ، وهو ما يسميه عامتنا « الناولون » .

وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مقيمون على السنة ، لا قدرى فيهم ولا رافضى ، ولا معتزلى ولا خارجى ، ولا مبتدع . وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها ، الا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك .

ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة ، على ساحل البحر ، يسكنها التركمان ، وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام . وهى كثيرة الخشب ، ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منهما الى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها ، عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الأرزنجانى ، وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها ، وأضافنى وأكرمنى .

وأضافنى أيضا بها شمس الدين بن الرجيحانى ، الذى توفى أبوه علاء الدين بـ « مالى » من بلاد السودان .

ذكر سلطان العلايا

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين ، وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك (ومعنى بك : الملك) ، ابن قرمان ، ومسكنه على عشرة أميال من المدينة . فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد ، فسلمت عليه . وسألنى عن مقدمى ، فأخبرته عما سأل ، وانصرفت عنه ، وبعث الى احسانا .

مدينة أنطالية

وسافرت من هنالك الى مدينة أنطالية ، وأما التى بالشام فهى أنطاكية على وزنها ، الا أن الكاف عوض عن اللام . وهى من أحسن المدن ، متناهية فى اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد ، وأكثره عمارة ، وأحسنه ترتيبا .

وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى : فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا ، وعند صلاة الجمعة .

والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضا سور .

واليهود فى موضع آخر وعليهم سور .

والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ، ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق .

وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ، ومدرسة وحمامات كثيرة ، وأسواق ضخمة ، مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها ، وبجميع المواضع التى ذكرناها .

وفيها البساتين الكثيرة ، والفواكه الطيبة ، والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين ، وفى نواته لوز حلو . وهو ييبس ، ويحمل الى ديار مصر ، وهو بها مستظرف .

وفيها عيون الماء الطيب العذب ، الشديد البرودة فى أيام الصيف .

نزلنا من هذه المدينة بمدرستها ، وشيخها شهاب الدين الحموى .

ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع ، وفى المدرسة أيضا ، سورة الفتح ، وسورة الملك ، وسورة عم .

ذكر الأخية [1] الفتيان

واحد الأخية « أخى » على لفظ الأخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة ، وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر .

و « الأخى » عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ... وتلك هى الفتوة أيضا . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، الى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية .

فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم .

ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم ، كما ذكرنا ، « الأخى » ، ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم .

---

(1) الجمع والمفرد مما تواضعوا عليه . وليس فى العربية . أو لعلها نسبة الى الاخية بمعنى الحرمة والذمة كما فى القاموس . وفى أفعال هؤلاء الفتيان نبل وهمة ونجدة وسخاء ، يظهر ذلك للمتتبع لاخبارهم فى هذا الكتاب .

ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، الا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظم اكراما له ، وشفقة عليه .

وفى الثانى من يوم وصولنا الى هذه المدينة ، أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى ، وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد ، فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هذا الرجل ؟

فقلت : لا أعلم ما قال .

فقال لى : انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك .

فعجبت منه ، وقلت له : نعم .

فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه .

فضحك الشيخ وقال لى : هذا أحد شيوخ الفتيان (الأخية) ، وهو من الخرازين [1] ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل .

وصف الضيافة

فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه الى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من «البياسيس» ، والبيسوس : شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس ، وفى

---

(1) الخراز : الاسكاف .

وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، والى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لاصلاح الفتيلة ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الخراجى (الجراغجى) [1] .

وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين .

فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى [2] وسواه ، حسنة المنظر . وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين .

ولما استقر بنا المجلس عندهم آتوا بالطعام الكثير ، والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص . فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم .

ذكر سلطان أنطالية

وسلطانها خضر بك بن يونس بك . وجدناه عند وصولنا اليها عليلا ، فدخلنا عليه بداره ، وهو فى فراش المرض ، فكلمنا بألطف كلام وأحسنه ، وودعناه ، وبعث الينا باحسان .

وسافرنا الى بلدة بردور ، وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة فى رأس جبل شاهق ، نزلنا بدار خطيبها .

واجتمعت « الأخية » وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة فى بستان لأحدهم ، وذهبوا بنا اليها . فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا ، والاستبشار والفرح ، وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا .

وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا .

مدينة سبرتا

ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا ، وهى بلدة حسنة العمارة والأسواق ، كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة فى جبل شامخ ، وصلنا اليها بالعشى ، ونزلنا عند قاضيها .

مدينة آكريدور

وسافرنا منها الى مدينة آكريدور ، مدينة عظيمة كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، ذات أنهار وأشجار وبساتين ، ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الى أقشهر ، وبقشهر ، وغيرهما من البلاد والقرى .

ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم ، بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين . قرأ بالديار المصرية والشام ، وسكن بالعراق . وهو فصيح اللسان ، حسن البيان ، أطروفة من طرف الزمان . أكرمنا غاية الاكرام ، وقام بحقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان آكريدور

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك ، من كبار سلاطين تلك البلاد . سكن ديار مصر أيام أبيه ، وحج ، وله سير حسنة .

ومن عادته أنه يأتى كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فاذا قضيت صلاة العصر

(1) جراغجى : معناها الموكل بالقنديل ، بلسانهم .
(2) نوع من الحرير الرقيق ، بلسانهم .

استند الى جدار القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية ، فقرأوا سورة « الفتح والملك والنبأ » بأصوات حسان ، فعالة فى النفوس ، تخشع لها القلوب ، وتقشعر الجلود ، وتدمع العيون ، ثم ينصرف الى داره .

وأظلنا عنده شهر رمضان ، فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند الى مخدة كبيرة ، ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه ، وأجلس الى جانب الفقيه ، ويلينا أرباب دولته ، وأمراء حضرته .

ثم يؤتى بالطعام ، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صحفة صغيرة ، عليه العدس ، مسقى بالسمن والسكر . ويقدمون الثريد تبركا ، ويقولون : ان النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام ، فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له .

ثم يؤتى بسائر الأطعمة ، وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان .

وتوفى فى بعض تلك الأيام ولد السلطان ، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم .

فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح .

وفى ثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيا على رجلى ، فبعث لى بفرس واعتذر . فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده ، وقال : انما أعطيته عطية لا عارية . وبعث الى بكسوة ودراهم .

مدينة قل حصار

فانصرفنا الى مدينة قل حصار ، مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب ، قد نبت فيه القصب ، فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه ، لا يسع الا فارسا واحدا .

والمدينة على تل فى وسط المياه ، منيعة لا يقدر عليها . ونزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) بها .

ذكر سلطان قل حصار

وسلطانها محمد جلبى (وجلبى تفسيره بلسان الروم : سيدى) ، وهو أخو السلطان أبى اسحاق ملك أكريدور . ولما وصلنا الى مدينته كان غائبا عنها ، فأقمنا بها أياما ، ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا .

وانصرفنا على طريق قرا أغاج (وقرا تفسيره أسود ، وأغاج تفسيره الخشب) ، وهى صحراء خضرة يسكنها التركمان .

وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا مدينة لاذق ، بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان ، يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية ، ولهم مدينة يقال لها كوتاهية ، فعصمنا الله منهم .

مدينة لاذق

ووصلنا الى مدينة لاذق ، وتسمى أيضا « دون غزلة » ، وتفسيره بلد الخنازير . وهى من أبدع المدن وأضخمها ، وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة . ولها البساتين الرائقة ، والأنهار المطردة ، والعيون النابعة ، وأسواقها حسان . وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب

لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها ، وقوة غزلها ، وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها .

وأكثر الصناع بها نساء الروم ، وبها من الروم كثير تحت الذمة ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها . وعلامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عمائم كبار .

وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر ، بل كذلك أهل هذا الاقليم كله .

وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ، ويتركونهن للفساد ، وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه اليه .

وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال ، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه . وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة .

وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون . وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا .

ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال : انهم من الفتيان ، وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى (أخى) سنان ، والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب فى أن يكون نزولكم عندهم ، فعجبنا من كرم نفوسهم .

ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة : فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا ، فوقعت قرعة « أخى » سنان وبلغه ذلك . فأتى الينا فى جماعة من أصحابه فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام ، ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى ، يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم .

ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم ، وحلواء وفاكهة كثيرة .

وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا فى السماع والرقص .

وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد ، بعث فى طلبنا بالعشى ، فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره .

ثم عدنا الى الزاوية ، فألفينا « الأخى » طومان وأصحابه فى انتظارنا ، فذهبوا بنا الى زاويتهم ، ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام . ثم مضوا بنا الى الزاوية ، ففعلوا أيضا من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ، ثم السماع والرقص ، كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم بالزاوية أياما .

ذكر سلطان لاذق

وهو السلطان ينتج بك ، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم .

ولما نزلنا بزاوية «أخى» سنان كما قدمناه ، بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين

القسطموني ، واستصحب معه خيلا بعددنا ، وذلك في شهر رمضان ، فتوجهنا اليه وسلمنا عليه .

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ، ولين الكلام ، وقلة العطاء . فصلينا معه المغرب ، وحضر طعامه فأفطرنا عنده وانصرفنا ، وبعث الينا بدراهم . ثم بعث الينا ولده مراد بك ، وكان ساكنا في بستان خارج المدينة ، وذلك في ابان الفاكهة ، وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه ، فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة . وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه . ثم انصرفنا غدوة .

وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى ، وخرج السلطان في عساكره والفتيان (الأخية) ، كلهم بالأسلحة .

ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار . وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيئة ، وكمال الشكة [1] . ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز ، فيذبحون البهائم بالمقابر ، ويتصدقون بها وبالخبز . ويكون خروجهم أولا الى المقابر ، ومنها الى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله ، وحضر الطعام ، فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة ، وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ، ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني .

وأقمنا بهذه البلدة مدة ، بسبب مخاوف الطريق . ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ، ووصلنا الى حصن طواس ، وهو حصن كبير . ويذكر أن صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه ، من أهل هذا الحصن . وكان مبيتنا بخارجه .

ووصلنا بالغد الى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا ، فأخبرناهم ، وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ، ليختبر نواحي الحصن والطريق ، خوفا من اغارة السراق على الماشية ، فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم . وهكذا فعلهم أبدا .

ونزلنا من هذا الحصن بربضه في زاوية رجل فقير ، وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد .

وسافرنا منه الى مغلة ، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان من الكرماء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخل الا بطعام أو بفاكهة أو حلواء .

ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا .

مدينة ميلاس

ثم سافرنا الى مدينة ميلاس ، وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان (الأخية) ، ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال ، وجميل الأعمال .

ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بأبي الشتبتري ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة ، وعقله ثابت ، وذهنه جيد ، دعا لنا وحصلت لنا بركته .

(1) السلاح =

ذكر سلطان ميلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا ، وهو من خيار الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء ، وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة ، منهم الفقيه الخوارزمي ، عارف بالفنون فاضل .

وكان السلطان في أيام لقائي له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة أياسلوق ووصوله الى سلطانها ، وقبول ما أعطاه . فسألني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره ، فأثنيت عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا .

وسكناه في مدينة برجين ، وهي قريبة من ميلاس ، بينهما ميلان . وهي جديدة على تل هنالك ، بها العمارات الحسان والمساجد ، وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد . وبهذه البلدة لقيناه ، ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخي) علي .

مدينة قونية

ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا ، كما قدمناه ، الى مدينة قونية ... مدينة عظيمة حسنة العمارة ، كثيرة الماء والأنهار والبساتين والفواكه ، وبها المشمش المسمى بقمر الدين ، وقد تقدم ذكره ، ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام .

وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة . ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر . وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان ، وسنذكره . وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم .

نزلنا منها بزاوية قاضيها ، ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان ، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، ولهم في الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة .

وكان صنيع هذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل ، وبعث ولده عوضا عنه لدخول الحمام معنا .

وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين [1] المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر ، وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية بالعراق ، والحيدرية بخراسان ، وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر .

حكاية

يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا ، يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية . فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهي مقطعة قطعا ، يبيع القطعة منها بفلس . فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك . فأخذ الحلواني [2] قطعة منه وأعطاها الشيخ ، فأخذها بيده وأكلها ، فخرج الحلواني ولم يطعم أحدا سوى

---

(1) هو جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣ م) أعظم شعراء الاسلام الصوفيين ومؤسس طريقة الجلاليين ، المولويين . ولد في بلخ وتوفي في قونية . وله كتب شعرية باللغة الفارسية ، منها : « المثنوي » و « الديوان » .

(2) نسبة الى أحد مصادر « حلا » .

الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس .

فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه ، فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا .

ثم انه عاد اليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق[1] الذى لا يفهم[2] ، فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه « المثنوى » .

وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ، ويقرأونه بزواياهم فى ليالى الجمعات .

وفى هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذى يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور .

مدينة اللارندة

ثم سافرنا الى مدينة اللارندة ، وهى مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين .

ذكر سلطان اللارندة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان ، وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر ، وعوضه عنها بعوض ، وبعث اليها أميرا وعسكرا .

ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده ، فنزلت له عن دابتى ، فنزل هو عن دابته ، وسلمت عليه ، وأقبل على .

ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله ، وزادوا فى اكرامه . وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سببا لحرمان الوارد . وقد جرى لى ذلك مع بعضهم ، وسأذكره .

ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ، ودخلت معه المدينة ، فأمر بانزالى أحسن منزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير[1] الفضة ، والشمع ، وكسا وأركب وأحسن . ولم يطل مقامنا عنده .

مدينة أقصرا

وانصرفنا الى مدينة أقصرا ، وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها ، تحف بها العيون الجارية ، والبساتين من كل ناحية . ويشق المدينة ثلاثة أنهار ، ويجرى الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالى العنب ، وبداخلها بساتين كثيرة .

وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم ، لا مثيل لها فى بلد من البلاد ، ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك .

وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق . ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الأمير أرتنا ، وأرتنا : هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم .

وهذا الشريف من الفتيان ، وله طائفة كثيرة ، وأكرمنا اكراما متناهيا ، وفعل أفعال من تقدمه .

مدينة نكدة

ثم رحلنا الى مدينة نكدة ، وهى من بلاد ملك العراق ... مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة ،

(١) اى ذو القافية الواحدة فى الشطرين من البيت كالرجز .
(٢) فيه نظر ، ويظهر ان فى الحكاية مبالغة وتلفيقا ـ

(١) صحاف . وقد سبق شرحها .

قد تخرب بعضها . ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار ، عليه ثلاث قناطر ، احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها ، وعليه النواعير بالداخل والخارج ، منها تسقى البساتين ، والفواكه بها كثيرة .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتيان ، وأقمنا بها ثلاثا .

وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية ، وهي من بلاد صاحب العراق ، وهي احدى المدن العظام بهذا الاقليم ، بها عسكر أهل العراق ، واحدى خواتين الأمير علاء الدين أرتنا . وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ، ولها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغا ، ومعنى أغا الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك ، واسمها طغى خاتون .

دخلنا اليها فقامت لنا ، وأحسنت السلام والكلام ، وأمرت باحضار الطعام ، فأكلنا .

ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم ، وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها ، واعتذرت .

ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (الأخى) أمير على ، وهو أمير كبير من كبار «الأخية» بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها .

وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل ، وطعاما كثيرا واتقانا . والكبراء ، من أصحابه وغيرهم ، يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون في اكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم .

ومن عادات هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان « فالأخى » هو الحاكم به ، وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره . وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

مدينة سيواس

ثم سافرنا الى مدينة سيواس ، وهي من بلاد ملك العراق ، وأعظم ما له بهذا الاقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله ... مدينة حسنة العمارة ، واسعة الشوارع ، أسواقها غاصة بالناس ، وبها دار مثل المدرسة ، تسمى دار السيادة ، لا ينزلها الا الشرفاء ، ونقيبهم ساكن بها . وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره ، ويزودون اذا انصرفوا .

ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى (أخى) أحمد بجقجى ، وبجق بالتركية : السكين ، (وهذا منسوب اليه ، والجيمان منه معقودان بينهما قاف ، وباؤه مكسورة) . وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة .

ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى (أخى) جلبى ، وهو من كبار « الأخية » ، وطبقته أعلى من طبقة « أخى » بجقجى ، فطلبوا أن تنزل عندهم ، فلم يمكن ذلك لسبق الأولين .

ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون . والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم . ثم كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم .

وأقمنا عندهم ثلاثا في أحسن ضيافة . ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ، ومعهم خيل الأمير علاء الدين أرتنا ، نائب ملك العراق ببلاد الروم ، فركبنا اليه ، واستقبلنا الأمير الى دهليز داره ، فسلم علينا ورحب .

وكان فصيح اللسان بالعربية . وسألني عن العراقين وأصبهان [1] وشيراز وكرمان ، وعن

(1) بفتح الهمزة وكسرها « القاموس »

السلطان أتابك ، وبلاد الشام ومصر ، وسلاطين التركمان . وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل ، فلم أفعل ذلك ، بل شكرت الجميع ، فسر بذلك منى وشكرنى عليه .

ثم أحضر الطعام فأكلنا . وقال : تكونون فى ضيافتى . فقال له الفتى (أخى) جلبى : انهم لم ينزلوا بعد بزاويتى ، فليكونوا عندى وضيافتك تصلهم .

فقال : افعل .

فانتقلنا الى زاويته ، وأقمنا بها ستا فى ضيافته ، وفى ضيافة الأمير .

ثم بعث الأمير بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا .

وسافرنا الى مدينة أماصية ... مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار ، وفواكه كثيرة ، وعلى أنهارها النواعير تسقى جناتها ودورها . وهى فسيحة الشوارع والأسواق ، وملكها صاحب العراق .

ويقرب منها بلدة سونسا ، وهى لصاحب العراق أيضا . وبها سكنى أولاد ولى الله تعالى أبى العباس أحمد الرفاعى ، منهم الشيخ عز الدين ، وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعى ، واخوته الشيخ على والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى ، أولاد الشيخ أحمد كوجك (ومعناه : الصغير) ، ابن تاج الدين الرفاعى . ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .

ثم سافرنا الى مدينة كمش ، وهى من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، يأتيها التجار من العراق والشام ، وبها معادن الفضة . وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها .

ونزلنا منها بزاوية « الأخى » مجد الدين ، وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته ، وفعل أفعال من قبله . وجاء الينا نائب الأمير أرتنا ، وبعث بضيافة وزاد .

وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا الى ارزنجان ، وهى من بلاد صاحب العراق ... مدينة كبيرة عامرة ، وأكثر سكانها الأرمن ، والمسلمون يتكلمون بها بالتركية . ولها أسواق حسنة الترتيب ، ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها . وفيها معادن النحاس ، ويصنع منها الأوانى والبياسيس التى ذكرناها .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) نظام الدين ، وهى من أحسن الزوايا ، وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم ، أضافنا أحسن ضيافة .

وانصرفنا الى مدينة أرز الروم ، وهى من بلاد ملك العراق ، كبيرة الساحة . خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها . ويشقها ثلاثة أنهار ، وفى أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالى .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) طومان ، وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة وثلاثين سنة . ورأيته متوكئا على عصا ، ثابت الذهن ، مواظبا على الصلاة فى أوقاتها ، لم ينكر من نفسه شيئا ، الا أنه لا يستطيع الصوم . وخدمنا بنفسه فى الطعام ، وخدمنا أولاده فى الحمام ، وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا ، فشق عليه ذلك وأبى ، وقال : ان فعلتم نقصتم حرمتى ، وان أقل الضيافة ثلاث ، فأقمنا لديه ثلاثا .

مدينــة بركى

ثم انصرفنا الى مدينة بركى ، ووصلنا اليها بعد العصر ، فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية « الأخى » بها ، فقال : أنا أدلكم عليها . فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه فى بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيتـه ، والأشـجار مظللة ، وذلك أوان الحر الشديد ، وأتى الينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن فى ضـيافته ، وعلف دوابنا ، وبتنا عنده تلك الليلة .

وكنا قد علمنا أن بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى محيى الدين ، فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده (وكان من الطلبة) الى المدرسة ، واذا بالمدرس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة[1] ، ومماليكه وخدامه عن جانبيـه والطلبـة بين يديه ، وعليه ثياب مفـرجة حسـان مطرزة بالذهب . فسلمنا عليه ، فرحب بنا ، وأحسن السلام والكلام ، وأمسك بيدى وأجلسنى الى جانبه .

ثم جاء القاضى عز الدين فرشتى ، (ومعنى فرشتى : الملك) ، لقب بذلك لدينـه وعفافه وفضله ، فقعـد عن يمين المدرس ، وأخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفرعية .

ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسـة ، فأمر بفرشـها وأنزلنى فيها ، وبعث ضـيافة حافلة .

ثم وجه الينا بعد المغرب ، فمضيت اليـه ، فوجـدته فى مجلس ببسـتان له ، وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض ، يدور بها القاشانى ، وبين يديه جملة من الطلبة ، ومماليـكه وخـدامه وقوف عن جانبيه ، وهو قاعد على مرتبـة . فخلتـه لما شاهدته ملكا من الملوك . فقام الى واستقبلنى ، وأخذ بيدى وأجلسنى الى جانبه على مرتبته ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وانصرفنا الى المدرسة .

وذكر لى بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس ، فعـادتهم الحضور لطعامه كل ليلة .

وكتب هـذا المدرس الى السلطان بخبرنا وأثنى على فى كتابه . والسلطان فى جبل هناك يصيف فيه لأجل شدة الحر ، وذلك الجبـل بارد ، وعادته أن يصيف فيه .

ذكر سلطان بركى

وهو السلطان محمد بن آيدين ، من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم . ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبرى وجه نائبه الى لآتيـه ، فأشـار على المدرس أن أقيم حتى يبعث الى ثانية .

وكان المدرس اذ ذاك قد خـرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها ، وانقطع عن المدرسة .

ثم ان السلطان بعث فى طلبى ثانية ، فشـق ذلك عـلى المدرس فقـال : أنا لا أسـتطيع الركوب ، ومن غرضى التوجه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك .

ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ، ولم يضـع رجله فى الركـاب . وركبت أنا وأصحابى ، وصعدنا الى الجبل فى طريق قد نحتت وسويت ، فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز .

وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه ، الى صهره

(١) فارهة : نشيطة خفيفة .

السلطان آرخان بك . فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك ، فسلما على الفقيه ، وأمرهما بالسلام علىَّ ففعلا ذلك ، وسألاني عن حالي ومقدمي ، وانصرفا .

وبعث الى ببيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ، ويسد متى احتيج الى سده . وأتوا بالفرش ففرشوه ، وقعد الفقيه وقعدت معه ، وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز . وذلك الموضع شديد البرد ، ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد .

ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ، ثم عاد الى وأعلمني بذلك .

وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا ، فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه ، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه . فسألني عن حالي ومقدمي ، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين ، وبلاد الأعاجم . ثم حضر الطعام ، فأكلنا وانصرفنا .

وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام ، وكذلك فعل الترك .

وأقمنا على تلك الحال أياما ، يبعث الينا في كل يوم فنحضر طعامه . وأتى يوما الينا بعد الظهر ، وقعد الفقيه في صدر المجلس ، وأنا عن يساره ، وقعد السلطان عن يمين الفقيه ، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك ، وطلب مني أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكتبتها له ، وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة ، فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي .

ثم قام فخرج ، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار[1] ولا خضر ، فأمر بعقاب صاحب خزانته ، وبعث بالأبزار والسمن .

وطالت اقامتنا بذلك الجبل ، فأدركني الملل وأردت الانصراف ، وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك ، فبعث الى السلطان يخبره أني أريد السفر .

فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ، ولم أكن اذ ذاك أفهمها ، فأجابه عن كلامه وانصرف ، فقال لي المدرس : أتدري ماذا قال ؟

قلت : لا أعرف ما قال .

قال : ان السلطان بعث الى ليسألني : ماذا يعطيك ؟ فقلت له : عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد ، فليعطه ما أحب من ذلك .

فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال : ان السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم ، وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة .

فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ، ونزل ونحن معه الى المدينة ، فخرج الناس لاستقباله ، وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ، ودخل السلطان ونحن معه .

فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة ، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه الى داره . فلما وصلنا الى دهليز الدار ،

(1) توابل .

[illegible] عليهم ثياب الحرير ، وشعورهم مفروقة مرسلة ، وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة .

فقلت للفقيه : ما هذه الصور الحسان ؟

فقال : هؤلاء فتيان روميون .

وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى أن انتهينا الى مجلس حسن فى وسطه صهريج ماء ، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه ، وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة ، وفوق احداها مرتبة السلطان .

فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده ، وقعد معنا على الاقطاع ، وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه ، وأنا مما يلى القاضى ، وقعد القراء بأسفل المصطبة ، والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه . ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب [1] المحلول ، قد عصر فيه ماء الليمون ، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة ، وجاءوا معها بصحاف صينية فيها مثل ذلك ، وفيها ملاعق خشب ، فمن تورع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب .

وتكلمت بشكر السلطان ، وأثنيت على الفقيه ، وبالغت فى ذلك ، فأعجب ذلك السلطان وسره .

حكاية

وفى أثناء قعودنا مع السلطان ، أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة ، فسلم عليه وقام له القاضى والفقيه وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه . فقلت للفقيه : من هذا الشيخ ؟

فضحك وسكت . ثم أعدت السؤال ، فقال لى : هذا يهودى طبيب ، وكلنا محتاج اليه ، فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له .

فأخذنى ما حدث وقدم من الاستعاض ، فقلت لليهودى : ياملعون يابن الملعون ، كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودى ؟ وشتمته ورفعت صوتى .

فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى ، فأخبره الفقيه به . وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال .

ولما انصرفنا قال لى الفقيه : أحسنت بارك الله فيك ، ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ، ولقد عرفته بنفسه .

حكاية أخرى

وسألنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى : هل رأيت قط حجرا نزل من السماء ؟

فقلت : ما رأيت ذلك ولا سمعت به .

فقال لى : انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء .

ثم دعا رجالا وأمرهم أن يأتوا بالحجر ، فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق ، قدرت أن زنته تبلغ قنطارا . وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم ، فأمرهم أن يضربوه . فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد ، فلم يؤثروا فيه شيئا . فعجبت من أمره ! وأمر برده الى حيث كان .

---

(1) ماء الورد كما فى القاموس . وفى كتاب « الألفاظ الفارسية المعربة » للسيد « ادى شير » أنه العسل أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد .

وفي ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان ، صنع صنيعا عظيما ، ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة ، فطعموا ، وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان ، وغدنا الى منزلنا بالمدرسة .

وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع في كل ليلة . ثم بعث الى مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة ، وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل ، وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم ، كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين ، جزاه الله تعالى خيراً ، وودعنا وانصرفنا .

وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة ، أربعة عشر يوما .

مدينة تيرة

ثم قصدنا مدينة تيرة ، وهي من بلاد هذا السلطان ، مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخي) محمد ، وهو من كبار الصالحين ، صائم الدهر ، وله أصحاب على طريقته ، فأضافنا ودعا لنا .

مدينة أياسلوق

وسرنا الى مدينة أياسلوق ، مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم ، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها ، منحوتة أبدع نحت .

والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا ، لا نظير له في الحسن ، وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من شتى البلاد ، فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا . وحيطانه من الرخام اللون ، وفرشه الرخام الأبيض ، وهو مسقوف بالرصاص ، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة ، في وسط كل قبة صهريج ماء . والنهر يشقه ، وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس ، ودوالي العنب ومعرشات الياسمين ، وله خمسة عشر بابا .

وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين . وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ، ثم لقيته بهذه المدينة خارجها ، فسلمت عليه وأنا راكب ، فكره ذلك مني ، وكان سبب حرماني لديه ... فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ، ولم يبعث الي الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ .

واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا .

مدينة يزمير

ثم سرنا الى مدينة يزمير [1] ، مدينة كبيرة على ساحل البحر ، معظمها خراب ، ولها قلعة متصلة بأعلاها .

نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب ، وهو من الأحمدية ، صالح فاضل .

ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ، ومعه زاده الأخلاطي ، من كبار المشايخ ، ومعه مائة فقير من المولهين ، وقد ضرب لهم الأمير الأخبية ، وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة ، وحضرتها واجتمعت بهم .

وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا . وسكناه بقلعتها .

(1) ازمير م

[illegible] ثم أقام بعد خمس من نزولنا بها ، فكان من مكارمه أن أتى الى بالزاوية ، فسلم على واعتذر ، وبعث ضيافة عظيمة . وأعطانى بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقولة وثوبين من الكمخا ، وهى ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين . وذكر لى الفقيه الذى يؤم به ، أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذى أعطانى بسبب كرمه رحمه الله .

وأعطى أيضا الشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضية كبيرة تسمى عندهم المشربة ، مملوءة دراهم وثيابا من الملف [1] والمرعز [2] والقدسى والكمخا ، وجوارى وغلمانا .

وكان هذا الأمير كريما صالحا كثير الجهاد ، له أجفان [3] غزوية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى ، فيسبى ويغنم ، ويفنى ذلك كرما وجودا . ثم يعود الى الجهاد الى أن اشتدت على الروم وطأته . فرفعوا أمرهم الى البابا ، فأمر نصارى جنوة وافرانسة [4] بغزوه فغزوه . وجهز جيشا من رومة ، وطوقوا مدينته ليلا فى عدد كبير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة . ونزل اليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه . واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها .

(١) ما يطلق عليه عندنا « الجوخ » .

(٢) الزغب الذى تحت شعر العنز ، كما سبق .

(٣) مراكب الحرب . والأمثل أن تجمع على « جفان » . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور » . لأن المفرد جفنة ، على التشبيه ، وليس من التسمية اللغوية .

(٤) فرنسا .

ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية ، ونزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان ، وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل ، وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه .

ذكر سلطان مغنيسية

وسلطانها يسمى صاروخان . ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده ، وكان قد توفى منذ أشهر ، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته .

والولد قد صبّر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقصدر [1] ، وعلق فى قبة لا سقف لها حتى تذهب رائحته ، وحينئذ تسقف القبة ، ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض ، وتجعل ثيابه عليه . وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل .

وسلمنا عليه بذلك الموضع ، وصلينا معه صلاة العيد ، وعدنا الى الزاوية . فأخذ الغلام الذى كان لى أفراسنا ، وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب ، لسقيها ، فأبطأ . ثم لما كان العشى ، لم يظهر لهما أثر .

وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين ، فركب معى الى السلطان ، وأعلمناه بذلك ، فبعث فى طلبهما فلم يوجدا ، واشتغل الناس فى عيدهم .

وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة ، على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين ، وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية ، فيقنع منهم بها ، لحصانة بلدهم .

(١) المصنوع بالقصدير .

فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الأتراك والأفراس ، وذكروا أنهما اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرهما ، واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار .

ثم سافرنا من مغنيسية ، وبتنا ليلة عند قوم من التركمان ، قد نزلوا في مرعى لهم ، ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة . وبات أصحابنا يحرسون مداولة بينهم خوف السرقة . فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري ، فسمعته يقرأ سورة البقرة ، فقلت له : اذا أردت النوم فأعلمني لأنظر من يحرس . ثم نمت فما أيقظني الا الصباح ، وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ، وكان من جياد الخيل ، اشتريته بأياسلوق .

مدينة برغمة

ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة ، مدينة خربة ، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال : ان أفلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة ، وداره تشتهر باسمه الى الآن . ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية ، ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا .

ذكر سلطان برغمة

وسلطانها يسمى يخشي خان (والخان عندهم هو السلطان ، ويخشي معناه جيد) ، صادفناه في مصيف له ، فأعلم بقدومنا ، فبعث بضيافة وثوب قدسي .

مدينة بلي كسرى

ثم اكترينا من يدلنا على الطريق ، وسرنا في جبال شامخة وعرة ، الى أن وصلنا الى مدينة بلي كسرى ، مدينة حسنة ، كثيرة العمارات ، مليحة الأسواق ، ولا جامع لها يجمع فيه [1] . وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها ، فبنوا حيطانه ، ولم يجعلوا له سقفا ، وصاروا يصلون به ويجمعون تحت ظلال الأشجار .

ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (أخي) سنان ، وهو من أفاضلهم ، وأتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى .

ذكر سلطان بلي كسرى

ويسمى دمور خان ، ولا خير فيه . وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة ، وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا ، والناس على دين الملك ورايته . وبعث الي ثوب حرير .

واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة .

مدينة برصا

ثم سرنا الى مدينة برصا ، مدينة كبيرة عظيمة ، حسنة الأسواق ، فسيحة الشوارع ، تحف بها البساتين من جميع جهاتها ، والعيون الجارية . وبخارجها نهر شديد الحرارة ، يصب في بركة عظيمة ، وقد بني عليها بيتان أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . والمرضى يستشفون بهذه الحمة [2] ويأتون اليها من أقاصي البلاد .

وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ، ويطعمون مدة مقامهم ، وهي ثلاثة أيام . وعمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان .

ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى (أخي شمس الدين ، من كبار الفتيان . ووافقنا عند

---

(١) تصلى فيه صلاة الجمعة .
(٢) الحمة : العين الحارة يستشفى بها المرضى .

يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا ، وأفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة .

وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوى ، ووعظ وذكر وأحسن .

ثم أخذوا فى السماع والرقص ، وكانت ليلة عظيمة الشأن .

وهذا الواعظ من الصالحين ، يصوم الدهر ، ولا يفطر الا فى كل ثلاثة أيام ، ولا يأكل الا من كد يمينه . ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ، ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ، ولا ينام الا فى المقبرة . ويعظ فى المجالس ويذكر ، فيتوب على يديه فى كل مجلس الجماعة من الناس . وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيت الجبانة فلم أجده ، ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس .

حكاية

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشى عليه منها ، فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق ، فأعادوا عليه ذلك فلم يفق . واختلفت الناس فيه : فمن قائل انه ميت ، ومن قائل انه مغشى عليه

وأتم الواعظ كلامه ، وقرأ القراء ، وصلينا الصبح ، وطلعت الشمس . فاختبروا حال الرجل ، فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله . فاشتغلوا بغسله وتكفينه ، وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه

وكان هذا الفقير يسمى الصياح . وذكروا أنه كان يتعبد بغار هنالك فى جبل ، فمتى علم أن الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ، ولم يأكل طعام أحد . فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه . ثم يفيق فيتوضأ ويصلى ركعتين . ثم اذا سمع الواعظ صاح . يفعل ذلك مرارا فى الليلة ، وسمى الصياح لأجل ذلك .

وكان أعذر اليد والرجل ، لا قدرة له على الخدمة . وكانت له والدة تقوته من غزلها ، فلما توفيت اقتات من نبات الأرض .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصرى السائح ، وهو من الصالحين ، جال الأرض الا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم .

ذكر سلطان برصا

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك ، وأرخان ابن السلطان عثمان جوق . وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان ، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن . وهو فى أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ، ويقيم بكل حصن منها أياما ، لاصلاح شئونه وتفقد حاله .

ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلده ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم . ووالده هو الذى استفتح مدينة برصا من أيدى الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة للنصارى .

ويذكر أنه حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ، ومات قبل فتحها . فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه نحو اثنتى عشرة سنة وافتتحها ، وبها كان لقائى له . وبعث الى بدراهم كثيرة .

ثم سافرنا الى مدينة يزنيك ، وبتنا قبل الوصول اليها بقرية تدعى كرلة ، بزاوية فتى من « الأخية » .

ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا فى أنهار ماء ، على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض .

ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب ، على ثمانية أميال من يزنيك ، لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر ، لا يسلك عليها الا فارس واحد ، وبذلك امتنعت هذه المدينة . والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات . وهى خاوية على عروشها ، لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان . وبها زوجته بيلون خاتون ، وهى الحاكمة عليهم ، امرأة صالحة فاضلة .

وعلى المدينة أسوار أربعة ، بين كل سورين خندق ، وفيه الماء .

ويدخل اليها على جسور خشب ، متى أرادوا رفعها رفعوها .

وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة . وشربها من آبار قريبة . وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز .

والقسطل [1] عندهم كثير جدا ، رخيص الثمن . ويسمون القسطل قسطنة (بالنون) ، والجوز القوز (بالقاف) . وبها العنب العذارى [2] ، لم أر مثله فى سواها متناهى الحلاوة ، عظيم الجرم ، صافى اللون ، رقيق القشر ، وللحبة منه نواة واحدة .

أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور ، علاء الدين السلطانيوكى . وهو من الفضلاء الكرماء ، ما جئت قط لزيارته الا أحضر الطعام . وصورته حسنة ، وسيرته أحسن ، وتوجه معى الى الخاتون المذكورة ، فأكرمت ، وأضافت ، وأحسنت .

وبعد قدومنا بأيام ، وصل الى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذى ذكرناه ، وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، بسبب مرض فرس لى ، فلما طال علىّ المكث تركته وانصرفت ، ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان ، وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا ، وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة .

ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا ، بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا .

وسافرنا من عنده ، وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خادم لها ، وهى قاصدة مدينة ينجا ، ونحن فى اتباع أثرها . فوصلت الى واد كبير يقال له سقرى ، كأنه نسب الى سقر ، أعاذنا الله منها ، فذهبت تجوز الوادى . فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ، ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخادم الذى كان معها استخلاصها ، فذهب الوادى بهما معا .

وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ، ووجدوا الرجل قد قضى نحبه ، رحمه الله .

(1) هو ما يسمى عندنا بأبى فروة .

(2) شبيه باللؤلؤ ، لان من معانى العذراء : الدرة لم تثقب ، الا أن صيغة النسب غير صحيحة .

وأخبرنا أولئك الناس أن المعدية (١) أسفل من ذلك الموضع ، فتوجهنا اليها وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ، ويجذبها الرجال من العدوة الأخرى ، ويركب عليها الناس ، وتجوز الدواب سباحة ، وكذلك فعلنا .

ووصلنا تلك الليلة الى كاوية ، واسمها على مثال فاعلة ، من الكي ، نزلنا منها بزاوية أحد « الأخية » ، فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية ، فأتى الفقيه ، فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا .

وبتنا تلك الليلة بالزاوية ، وبعث معنا دليلا الى ينجا ، بلدة كبيرة حسنة ، بحثنا بها عن زاوية « الأخي » فوجدنا بها أحد الفقراء المولهين ، فقلت له : هذه زاوية « الأخي » ؟

فقال لي : نعم .

فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي ، فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة .

ونزلنا بالزاوية ، وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ، ولم يكن « الأخي » حاضرا ، وحصل الأنس بهذا الطالب ، ولم يكن يعرف اللسان العربي . لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة ، فأعطاني فارسا من أصحابه ، وتوجه معنا الى كينوك ، وهي بلدة صغيرة ، يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين ، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين ، وهم الحكام عليهم .

وهي من بلاد السلطان أرخان بك .

(١) عداه (بفتح العين ، ودال مشددة مفتوحة) : أجازه وأنقذه ... « القاموس » .

فنزلنا بدار عجوز كافرة ، وذلك ابان الثلج والشتاء ، فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة .

وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي للعنب ، ولا يزرع بها الا الزعفران . وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير ، وظنت أننا تجار نشتريه منها .

ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية ، فبعث معنا فارسا غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني .

وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق ، فتقدمنا ذلك الفارس ، فاتبعنا أثره ، الى أن وصلنا في نصف النهار الى قرية للتركمان ، فأتوا بطعام ، فأكلنا منه . وكلمهم ذلك الفارس ، فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة .

فلما خلصنا من ذلك ، قال لنا ذلك الفارس : أعطوني شيئا من الدراهم .

فقلنا له : اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك . فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا ، فأخذ قوسا لبعض أصحابي ومضى غير بعيد . ثم رجع فرد الينا القوس . فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنا ، وتركنا لا نعرف أين نقصد ، ولا طريق يظهر لنا .

فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، الى أن بلغنا عند غروب الشمس جبلا لم يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهلاك على نفسي ومن معي ، وتوقعت نزول الثلج ليلا ، ولا عمارة هنالك : فان نزلنا عن الدواب هلكنا ، وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه .

وكان لى فرس من الجياد ، فعملت على الخلاص ، وقلت فى نفسى : اذا سلمت فلعلى أحتال فى سلامة أصحابى ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى ، وسرت .

وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبورا ، فظهر لى منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت : اللهم اجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة . ووفقنى الله تعالى الى باب دار ، فرأيت عليها شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار الى بالدخول ، فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى .

وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم ، وكانت بينى وبينه معرفة ، فسلم على ، وأخبرته خبر أصحابى ، وأشرت اليه بأن يمضى مع الفقراء لا ستخلاص الأصحاب . ففعلوا ذلك وتوجهوا معى الى أصحابى ، وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة .

وكانت ليلة جمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله ، وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام ، وارتفعت المشقة .

مدينة مطرنى

ورحلنا عند الصباح ، فوصلنا الى مدينة مطرنى عند صلاة الجمعة ، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) وبها جماعة من المسافرين . ولم نجد مربطا للدواب ، فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط .

فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا ، وكان يعرف اللسان العربى ، فسررت برؤيته ، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء ، فقال : أما ربطها فى منزل فلا يتأتى ، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ، ولكننى أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق . فدلنا عليها ، وربطنا بها دوابنا ، ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب .

حكاية

وكان من غريب ما اتفق لنا ، أنى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشترى السمن ، فأتى أحدهما بالتبن والآخر دون شىء ، وهو يضحك .

فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال : انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن ، فأشار الينا بالوقوف وكلم ولدا له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن . فأخذناه منه وقلنا له : انا نريد السمن ، فقال : هذا السمن .

وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن ، بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم رباغ [1] .

*

ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه أن يسافر معنا الى قصطمونية ، وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر . وكسوته ثوبا مصريا من ثيابى ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير .

(1) فى النسخة المطبوعة بأوربا « روغان » *

وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير ، وله ديون على الناس ، غير أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سيىء الأفعال . وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا ، فيأخذ ما يفضل من الخبز ، ويشتري به الأبزار والخضر والملح ، ويمسك ثمن ذلك لنفسه ، وذكر لي أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك ،

وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله الى أن فضحناه . وكنا نقول له في آخر النهار : ياحاج ، كم صرفت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا . فنضحك منه ، ونرضى بذلك .

ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس في بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه .

ومنها أنا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى ، فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ ، كلها ميبسة ، وتجعل في الماء حتى ترطب ، فتؤكل ويشرب ماؤها ، فأردنا أن نحسن اليها ، فعلم بذلك فقال : لا تعطوها شيئا ، وأعطوني ذلك . فأعطيناه ارضاء له ، وأعطيناها احسانا في خفية بحيث لم يعلم بذلك .

مدينة بولى

ثم وصلنا الى مدينة بولى . ولما انتهينا الى قريب منها ، وجدنا واديا يظهر في رأي العين صغيرا . فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج ، فجازوه جميعا ، وبقيت جارية صغيرة خافوا اجازتها .

وكان فرسي خيرا من أفراسهم فأردفتها وأخذت في جواز الوادي . فلما توسطته وقع بي الفرس ، ووقعت الجارية ، فأخرجها أصحابي وبها رمق ، وخلصت أنا .

ودخلنا المدينة ، فقصدنا زاوية أحد الفتيان (الأخية) . ومن عاداتهم أنه لا تزال النار موقدة في زواياهم أيام الشتاء أبدا ، يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقدا للنار ، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ، ولا يؤذي الزاوية ، ويسمونها البخاري واحدها بخيري [1] .

***

قال ابن جزي : وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي في قوله في التورية ، وتذكرته بذكر البخيري :

ان البخيري مذ فارقتموه غدا
يحثو الرماد على كانونه الترب
لو شئتمو أنه يمسي أبا لهب
جاءت بغالكم حمالة الحطب

***

قال : فلما دخلنا الزاوية ، وجدنا النار موقدة ، فنزعت ثيابي ، ولبست ثيابا سواها ، واصطليت بالنار . وأتى « الأخي » بالطعام والفاكهة ، وأكثر من ذلك . فلله درهم من طائفة ، ما أكرم نفوسهم ، وأشد ايثارهم ، وأعظم شفقتهم على الغريب ، وألطفهم بالوارد ، وأحبهم فيه ، وأجملهم احتفالا بأمره . فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه .

مدينة كردي بولى

وبتنا تلك الليلة بحال مرضية . ثم رحلنا بالغداة ، فوصلنا الى مدينة كردي بولى وهي

(1) المفرد والجمع ليسا على أصول اللغة .

مدينة كبيرة فى بسيط من الأرض ، حسنة متسعة الشوارع والأسواق ، من أشد البلاد بردا . وهى محلات مفترقة ، كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم .

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك ، من متوسطى سلاطين هذه البلاد ، حسن الصورة والسيرة ، جميل الخلق ، قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ، ونزلنا بزاوية منها .

ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقى الحنبلى ، وهو من مستوطنيها منذ سنين ، وله بها أولاد . وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ، ومسموع الكلام عنده .

ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية ، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا ، فشكرته على فعله .

واستقبلت السلطان فسلمت عليه ، وجلس فسألنى عن حالى وعن مقدمى ، وعمن لقيته من السلاطين . فأخبرته بذلك كله ، وأقام ساعة ثم انصرف ، وبعث بدابة مسرجة وكسوة .

مدينة برلو

وانصرفنا الى مدينة برلو ، وهى مدينة صغيرة ، على تل تحتها خندق ، ولها قلعة بأعلى شاهق .

وتزلنا منا بمدرسة فيها حسنة ، وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرستها وطلبتها ، ويحضر معهم الدرس . وهو على علاته من الطلبة ، حنفى المذهب .

ودعانا أمير هذه البلدة — وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ، ملك قصطمونية ، وسنذكره — فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه ، فرحب بنا وأكرمنا .

وسألنى عن أسفارى وحالى فأجبته عن ذلك . وأجلسنى الى جانبه ، وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد ، وهو من كبار الكتاب . وحضر الطعام فأكلنا ، ثم قرأ القراء بأصوات مبكية ، وألحان عجيبة ، وانصرفنا .

السفر الى قصطمونية

وسافرنا بالغد الى قصطمونية ، وهى من أعظم المدن وأحسنها ، كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالأطروش [1] لثقل سمعه . ورأيت منه عجبا : وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء ، وتارة فى الأرض ، بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ، ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها .

وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، فكنا نشترى طابق [2] اللحم الغنمى السمين بدرهمين، ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ، ونحن عشرة . ونشترى حلواء العسل بدرهمين ، فتكفينا أجمعين ، ونشترى جوزا بدرهم ، وقسطلا بمثله ، فنأكل منها أجمعون ، ويفضل باقيها ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد ، وذلك أوان البرد الشديد . ولم أر فى البلاد مدينة أرخص أسعارا منها .

ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتى المدرس تاج الدين السلطانيوكى ، من كبار العلماء ، قرأ بالعراقين وتبريز ، واستوطنها مدة ، وقرأ بدمشق ، وجاور بالحرمين قديما .

(١) الاطروش : الاصم ... ذكره فى « القاموس » .
(٢) أى نصف الخروف ... « القاموس » .

ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنيكى ، من أهل فنيكة من بلاد الروم ، وأضافنى بمدرسته التى بسوق الخيل .

ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على . دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل ، فوجدته ملقى على ظهره ، فأجلسه بعض خدامه ، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما ، وكلمنى بالعربى الفصيح ، وقال : قدمت خير مقدم .

وسألته عن عمره ، فقال : كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله ، وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة ، وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة .

فطلبت منه الدعاء ، فدعا لى وانصرفت .

ذكر سلطان قصطمونية

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه ، وهو كبير السن ، ينيف على سبعين سنة ، حسن الوجه ، طويل اللحية ، صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء .

دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى الى جانبه ، وسألنى عن حالى ومقدمى ، وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام ، فأجبته .

وأمر بانزالى على قرب منه ، وأعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون ، وكسوة ، وعين لى نفقة وعلفا ، وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير .

ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ، ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الأكل . ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ، ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ، ويأتى أرباب الدولة ويأكلون عنده وينصرفون .

ومن عادته فى يوم الجمعة أن يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره .

والمسجد المذكور ثلاث طبقات من الخشب ، ليصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الأجناد فى الطبقة السفلى ، ويصلى الأفندى — وهو أخو السلطان — وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ، ويصلى ابن السلطان وولى عهده — وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد — وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا .

ويجتمع القراء فيقعدون حلقة أمام المحراب ، ويقعد معهم الخطيب والقاضى ، ويكون السلطان بازاء المحراب . ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكررون الآيات بترتيب عجيب . فاذا فرغوا من قراءتها ، صعد الخطيب المنبر ، فخطب ثم صلى . فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارىء بين يدى السلطان عشرا ، وانصرف السلطان ومن معه .

ثم يقرأ القارىء بين يدى أخى السلطان ، فاذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه .

ثم يقرأ القارىء بين يدى ابن السلطان ، فاذا فرغ من قراءته قام المعرف — وهو المذكر — فيمدح السلطان بشعر تركى ، ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف .

ويأتى ابن الملك الى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه فى طريقه ، وعمه واقف فى انتظاره ، ثم يدخلان الى السلطان ، فيتقدم أخوه ويقبل يده ، ويجلس بين يديه . ثم يأتى ابنه فيقبل

يده وينصرف الى مجلسه ، فيقصد به مع ناسه .

فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا ، وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه ، فلا يعود اليه الا فى الجمعة الأخرى . وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه .

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا بزاوية عظيمة باحدى القرى ، من أحسن الزوايا التي رأيتها فى تلك البلاد ، بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين ، وجعل النظر فيها لولده ، والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء ، وفوائد القرية وقف عليها .

وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه . وبنى سوقا بالقرية ، ووقفه على المسجد الجامع ، وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه ، وثلاثمائة درهم يوم سفره ، والنفقة أيام مقامه (وهى الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء) ، ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام .

ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه ، عمرها بعض الفتيان (الأخية) ، ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ، ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية .

مدينة صنوب

ثم سافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب . وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، الا واحدة ، وهي جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد . لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها .

وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه .

ولما استؤذن لنا عليه ، دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين (أخى) جلبى ، وهى خارج باب البحر . ومن هنالك يصعد الى جبل داخل فى البحر كميناء سبتة ، فيه البساتين والمزارع والمياه ، وأكثر فواكهه التين والعنب .

وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه . وفيه احدى عشرة قرية ، يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين . وبأعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام ، لا تخلو من متعبد ، وعندها عين ماء ، والدعاء فيها مستجاب .

وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر .

والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد . وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب . وذلك من عمارة السلطان بروانة ابن السلطان علاء الدين الرومى ، وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة .

وملك بعده ابنه غازى جلبى ، فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان .

وكان غازي جلبي شجاعا مقداما ، ووهب الله له الصبر تحت الماء ، وقوة السباحة . وكان

يسافر في « الأجفان » الحربية لحرب الروم ، فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال ، غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها «أجفان» العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق .

وطرقت مرسى بلده مرة « أجفان » العدو فخرقها وأسر من كان فيها .

وكانت فيه كفاية لا كفاء لها ، الا أنهم يذكرون أنه كان يكثر من أكل الحشيش ، وبسببه مات ...

خرج يوما للصيد وكان مولعا به ، فاتبع غزالة دخلت بين أشجار ، وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات .

وتغلب السلطان سليمان على البلد ، وجعل به ابنه ابراهيم . ويقال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه .

على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكله . ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب ، وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها ، فرأيت نفرا من كبار الأجناد ، وبين أيديهم خادم لهم ، بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء ، وأحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل ، وأنا أنظر اليه ، ولا علم لي بما في الشكارة . فسألت من كان معي ، فأخبرني أنه الحشيش .

وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ، ونائب الأمير بها ومعلمه ، ويعرف بابن عبد الرزاق .

حكاية

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا ، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ، ولا كيفية صلاته . والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين . وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم ، فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك ، فأخبرناهم أننا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منا .

واستقرت التهمة في نفوسهم ، حتى بعث الينا نائب السلطان بأرنب ، وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به . فذبحناه وطبخناه وأكلناه ، وانصرف الخادم اليه وأعلمه بذلك ، فحينئذ زالت عنا التهمة ، وبعثوا لنا بالضيافة ... والروافض لا يأكلون الأرنب .

وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب ، توفيت أم الأمير ابراهيم بها ، فخرجت في جنازتها ، وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك ، وثيابهم مقلوبة . وأما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رؤوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود ، عوضا عن العمائم . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما ، وهي مدة العزاء عندهم .

وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، ننتظر تيسير السفر في البحر الى مدينة القرم . فاكترينا مركبا للروم ، وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر ، فلما توسطناه بعد ثلاث هاج علينا واشتد بنا الأمر ، ورأينا الهلاك عيانا .

وكنت بالطارمة [1] ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك وأتاني بالطارمة ، فقال لي : أستودعكم الله .

(1) « الطارمة » مكان في السفينة تحت السكان في لغة الملاحين . وفي « المختار » : الطارمة بيت من خشب ، فارسي معرب .

ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله . ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها . وأراد بعض التجار النزول الى مرساها ، فمنعت صاحب المركب من انزاله .

ثم استقامت الريح وسافرنا ، فلما توسطنا البحر هاج علينا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى ، ثم ساعدت الريح .

ورأينا جبال البر ، وقصدنا مرسى يسمى الكرش ، فأردنا دخوله ، فأشار الينا أناس كانوا بالجبل ألا تدخلوا . فخفنا على أنفسنا ، وظننا أن هنالك « أجفانا » للعدو ، فرجعنا مع البر . فلما قربنا منه ، قلت لصاحب المركب ، أريد أن أنزل هاهنا ، فأنزلني بالساحل .

ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ، ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة ، متقلدا سيفا وبيده رمح ، وبين يديه سراج موقد . فقلت للراهب : ما هذه الصورة ؟

فقال : هذه صورة النبي علي !

فعجبت من قوله ، وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها ، اذ كانت مما استصحبناه فى المركب ، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه .

وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق بلسان الترك . وهذه الصحراء خضرة نضرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ، وانما يوقدون الأرواث ، ويسمونها « التزك » ، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها فى أطراف ثيابهم . ولا يسافر فى هذه الصحراء الا فى العجل ، وهى مسيرة ستة أشهر : ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أوزبك ، وثلاثة فى بلاد غيره .

مدينة الكفا

ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذا المرسى ، توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق ، وهم على دين النصرانية ، فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس ، فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا . وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر ، يسكنها النصارى ، وأكثرهم الجنويون ، ولهم أمير يعرف بالدمدير . ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ، ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ، ولم أكن سمعتها قط ، فهالني ذلك . وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ، ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، ففعلوا ذلك . فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح ، فسلم علينا . واستفهمناه عن شأنه ، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك ، وقال : لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون . ثم انصرف عنا وما رأينا الا خيرا .

ولما كان من الغد جاء الينا الأمير وصنع طعاما فأكلنا عنده . وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق ، وكلهم كفار . ونزلنا الى مرساها ، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري ، صغير وكبير ، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة .

مدينة القرم

ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم ، وهى مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور .

وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا فى طريقنا فعرفه بقدومنا ، فبعث الى مع امامه سعد الدين بفرس .

ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراسانى ، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا ، وأحسن الينا ، وهو معظم عندهم ، ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم .

وأخبرنى هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى فى دير يتعبد به ويكثر الصوم ، وأنه انتهى الى أن يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول ، وأنه يكاشف بالأمور . ورغب منى أن أصحبه فى التوجه اليه فأبيت ، ثم ندمت بعد ذلك على أن لم آكن رأيته وعرفت حقيقة أمره .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلى ، قاضى الحنفية . ولقيت بها قاضى الشافعية وهو يسمى بخضر ، والفقيه المدرس علاء الدين الأصى ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذى يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين ، وكان من الروم فأسلم وحسن اسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين ، وهو من الفقهاء المعظمين .

وكان الأمير تلكتمور مريضا ، فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن الينا . وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك ، فعملت على السير فى صحبته ، واشتريت العجلات لذلك .

ذكر العجلات
التى يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عربة ، وهى عجلات تكون الواحدة منهن أربع بكرات كبار . ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضا البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها .

والذى يخدم العربة يركب احدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليها سرج وفى يده سوط ، يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد .

ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللبد أو بالملف [1] .

ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره .

والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قفل .

وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ، ومعى بها جارية لى ، وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التوزرى ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة .

---

(١) هو ما يسمى بالجوخ عندنا ، والكلمة بهذا المعنى غير عربية كما سبق أن نوهنا .

وسرنا فى صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه : قطلودمور ، وصارر بك . وسافر أيضا معه فى هذه الوجهة امامه سعد الدين ، والخطيب أبو بكر ، والقاضى شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى ، والمعرف علاء الدين .

وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الأمير فى مجلسه ، فاذا أتى القاضى يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال : باسم الله ، سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام ، مبين الفتاوى والأحكام ، باسم الله .

واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ، باسم الله ...

فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ، ويقوم اليه ويفسح له فى المجلس .

وعادة الأتراك أن يسيروا فى هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى درب الحجاز : يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحا ، ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا . واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات ، وسرحوها للرعى ليلا ونهارا . ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره .

وخاصة هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب . وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصة ، ولذلك كثرت الدواب بها .

ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة . وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق ، كلفه أن يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله ، فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك ، فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وانما يصنعون طعاما من شىء عندهم يسمونه الدوقى [1] : يجعلون على النار الماء ، فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى ، وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ، ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ، ويشربون عليه لبن الخيل . وهم يسمونه القمز [2] .

وهم أهل قوة وشدة ، وحسن مزاج . ويستعملون فى بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخانى ، وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ، ويثقبون أوساطها ، ويجعلونها فى قدر ، فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها . ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره . وهم يرون أكل الحلواء عيبا .

وقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان ، فأحضرت لحوم الخيل — وهى ما يأكلون من اللحم — ولحوم الأغنام . وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابى ، فقدمتها بين يديه . فجعل أصبعه عليها ، وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

وأخبرنى الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان ، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا ، قال له السلطان يوما : كل الحلواء أعتقكم جميعا ، فأبى وقال : لو قتلتنى ما أكلتها !

ولما خرجنا من مدينة القرم ، نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور فى موضع يعرف بسجان ،

(١) نبات عندهم ، والاسم غير عربى .
(٢) الكلمة غير عربية .

فبعث الي أن أحضر عنده ، فركبت اليه — وكان لي فرس معد لركوبي ، يقوده خادم العربة ، فاذا أردت ركوبه ركبته — وأتيت الزاوية ، فوجدت الأمير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز . ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار ، فشرب القوم منه .

وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه ، وأنا أليه ، فقلت له : ما هذا ؟

فقال : هذا ماء الدهن . فلم أفهم ما قال ، فذقته فوجدت له حموضة فتركته .

فلما خرجت سألت عنه فقالوا : هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقي . وهم حنفية المذهب ، والنبيذ عندهم حلال . ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي : البوزة .

وانما قال لي الشيخ مظفر الدين : ماء الدخن ، ولسانه فيه اللكنة الأعجمية ، فظننت أنه يقول ماء الدهن .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم ، وصلنا الى ماء كثير ، نخوضه يوما كاملا ، واذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة . فذهب الأمير الى راحلتي ، وقدمني أمامه مع بعض خدامه ، وكتب لي كتابا الى أمير أزاق ، يعلمه أني أريد القدوم على الملك ، ويحضه على اكرامي .

مدينة أزاق

وسرنا حتى انتهيت الى ماء آخر ، نخوضه نصف يوم . ثم سرنا بعده ثلاثا ، ووصلنا الى مدينة أزاق . وهي على ساحل البحر ، حسنة العمارة ، يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات . وبها من الفتيان «أخي بجقجي» ، وهو من العظماء ، يطعم الوارد والصادر .

ولما وصل كتاب الأمير تلكتمور الى أمير أزاق ، وهو محمد خواجه الخوارزمي ، خرج الى استقبالي ، ومعه القاضي والطلبة ، وأخرج الطعام . فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه .

ووصلنا الى المدينة ، ونزلنا بخارجها ، بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام . وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكي ، نسبة الى قرية بالعراق ، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة .

وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور ، وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة . وأعدوا له الضيافات ، وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض ، احداها من الحرير الملون عجيبة ، واثنتان من الكتان .

ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها ، فكان من مكارمه وفضله ، أن قدمني أمامه ، ليرى ذلك الأمير منزلتي عنده .

ثم وصلنا الى الخباء الأول وهو المعد لجلوسه ، وفي صدره كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع ، وعليه مرتبة حسنة . فقدمني الأمير أمامه ، وقدم الشيخ مظفر الدين ، وصعد هو ، فجلس فيما بيننا ، ونحن جميعا على المرتبة . وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها ، عن يسار الكرسي ، على فرش فاخرة . ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه ، والأمير محمد وأولاده في الخدمة .

ثم أتوا بالأطعمة ، من لحوم الخيل وسواها ، وأتوا بألبان الخيل ، ثم أتوا بـ « البوزة » .

وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه ، وخطب خطبة بليغة ، ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين ... يقول ذلك بالعربى ، ثم يفسره لهم بالتركى . وفى أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب .

ثم أخذوا فى الغناء ، يغنون بالعربى ، ويسمونه القول ، ثم بالفارسى والتركى ويسمونه الملمع .

ثم أتوا بطعام آخر ، ولم يزالوا على ذلك الى العشي . وكلما أردت الخروج منعنى الأمير .

ثم جاءوا بكسوة للأمير وكسى لولديه وأخيه ، وللشيخ مظفر الدين ولى . وأتوا بعشر أفراس للأمير ولأخيه ، ولولديه بست أفراس ، ولكل كبير من أصحابه بفرس ولى بفرس .

والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر ، قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه .

وهذه الخيل هى التى تعرف بمصر بالأكاديش . ومنها معاشهم ، وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا ، بل أكثر : فيكون للتركى منهم آلاف منها .

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد ، أصحاب الخيل ، أنهم يصنعون فى العربات التى يركب فيها نساؤهم قطعة لبد فى طول الشبر ، مربوطة الى عود رقيق فى طول الذراع فى ركن العربة .

ويجعل لكل ألف فرس قطعة ، ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ، ومن له دون ذلك .

وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند ، فيكون فى الرفقة منها ستة آلاف ، وما فوقها وما دونها ، ولكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه .

ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ، ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذى هو راكبه ، ورمى الحبل فى عنقه وجذبه ، فيركبه ويترك الآخر للرعى .

واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف ، لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ، ويموت لهم منها الكثير ويسرق .

ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس ، بموضع يقال له ششنقار ، ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند . وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه ، فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك ، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ، ومن تجار الكفار العشر .

ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير ، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وصرفها من الذهب المغربى خمسة وعشرون دينارا ، وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه ، وضعفيه ، والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك .

وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق ، لأنهم يلبسون فى الحرب الدروع ، ويدرعون الخيل ، وانما يبغون قوة الخيل واتساع

لخيلها . والخيل التى يتخذونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ، ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف .

مدينة الماجر

ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام ، حتى جهز لى الأمير محمد خواجه آلات سفرى . وسافرت الى مدينة الماجر ، وهى مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير ، وبها البساتين والفواكه الكثيرة .

ونزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحى ، من بطائح العراق . وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه . وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب . وعيشهم من الفتوح .

ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن فى الفقراء ، وفى كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ، ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ، ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير ، وخصوصا النساء ، فانهن يكثرن الصدقة ، ويتحرين أفعال الخير .

وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر ، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها ، وله جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه ، ووعظ وذكر ، وأمير المدينة حاضر وكبراؤها .

فقام الشيخ محمد البطائحى فقال : ان الفقيه الواعظ يريد السفر ، ونريد له زادا . ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه ، وقال : هذه منى اليه . فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ، ومن أعطى فرسا ، ومن أعطى دراهم ، واجتمع له كثير من ذلك كله .

ورأيت بـ « قيسارية » هذه المدينة يهوديا سلم على وكلمنى بالعربى ، فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس ، وأنه قدم منها فى البر ولم يسلك بحرا ، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى ، وبلاد الروم وبلاد الجركس . وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر ، وأخبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك ، بصحة مقاله .

ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم ، وهن أعلى شأنا من الرجال . فأما نساء الأمراء ، فكانت أول رؤيتى لهن عند خروجى من القرم رؤية الخاتون [1] زوجة الأمير سلطية فى عربة لها ، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه ، وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن ، بديعات اللباس ، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها .

ولما قربت من منزل الأمير ، نزلت عن العربة الى الأرض ، ونزل معها نحو ثلاثين من الجوارى ، يرفعن أذيالها . ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب .

ومشت كذلك متبخترة ، فلما وصلت الى الأمير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الى جانبه ودار بها جواريها .

وجاءوا بروايا القمز ، فصبت منه فى قدح ، وجلست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير .

(١) الاميرة .

وحضر الطعام فأكلت معه ، وأعطاها كسوة وانصرفت ...

وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء ، وسنذكر نساء الملك فيما بعد .

وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن ، واحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى يرفعن أذيالها ، وعلى رأسها « البغطاق » ، وهو أقروف [1] مرصع بالجواهر ، وفى أعلاه ريش الطواويس . وتكون طيقان البيت مفتوحة ، وهى بادية الوجه ، لأن نساء الأتراك لا يحتجبن .

وتأتى احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن ، فتبيعه من الناس بالسلع العطرية .

وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ، ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم ، وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك !

وتجهزنا من مدينة الماجر ، نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيام من الماجر ، بموضع يقال له بش دغ ، ومعنى « بش » عندهم خمسة ، ومعنى « دغ » الجبل . وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار ، يغتسل منها الأتراك ، ويزعمون أن من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض .

وارتحلنا الى موضع المحلة [2] فوصلناه أول يوم من رمضان ، فوجدنا المحلة قد رحلت . فعدنا الى الموضع الذى رحلنا منه ، لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتى على تل هنالك ، وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك .

وأقبلت المحلة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء . وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم . فاذا بلغوا المنزل ، أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل ، كذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت .

واجتاز بنا خواتين السلطان ، كل واحدة بناسها على حدة . ولما اجتازت الرابعة منهن — وهى بنت الأمير عيسى بك ، وسنذكرها — رأت البيت بأعلى التل ، والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد ، فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على ، وأبلغونى سلامها ، وهى واقفة تنتظرهم . فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابى ، ومع معرف الأمير تلكتمور . فقبلتها تبركا ، وأمرت أن أنزل فى جوارها ، وانصرفت . وأقبل السلطان فنزل فى محلة على حدة .

ذكر السلطان المعظم
محمد أوزبك خان

واسمه محمد أوزبك ، ومعنى خان عندهم السلطان . وهذا السلطان عظيم المملكة ، شديد القوة ، كبير الشان ، رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى ، مجتهد فى جهادهم . وبلاده متسعة ، ومدنه عظيمة ، منها الكفا والقرم ، والماجر ، وأزاق ، وسرداق (سوداق) ، وخوارزم ، وحضرته السرا .

---

(١) قبعة مستطيلة مخروطية الشكل . وليست الكلمة بعربية فيما نعلم .
(٢) المراد القافلة . وقد وردت كثيرا بهذا المعنى فى الرحلة .

وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها ، وهم : مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه ، امام الطائفة المنصورة ، الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، والسلطان أوزبك هذا ، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

ترتيب السلطان محمد أوزبك في سفره

ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة ، معه مماليكه وأرباب دولته ، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها . فاذا أراد أن يكون عند واحدة منهن ، بعث اليها يعلمها بذلك ، فتتهيأ له .

وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع .

ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة . وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضة خالصة ، ورؤوسها مرصعة بالجواهر .

ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلى ، وتليها الخاتون كبك ، وعلى يساره الخاتون بيلون ، وتليها الخاتون أردجى .

ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثاني جان بك ، وتجلس بين يديه ابنته ايت كججك . واذا أتت احداهن ، قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير .

وأما طيطغلى ، وهي الملكة وأحظاهن عنده ، فانه يستقبلها الى باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها . فاذا صعدت على السرير وجلست ، حينئذ يجلس السلطان ... وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب .

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه .

ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه ، واخوته وأقاربه ، ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال .

ثم يدخل الناس للسلام : الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد .

فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها الى محلتها ، فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل ، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ، ومثلهم مشاة ، بأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهم بين الفرسان والفتيان ...

وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها .

وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذى نذكره فيما بعد .

وفي الغد من يوم وصولي دخلت الي السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء ، وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره . وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير ، وأشاروا علي السلطان باكرامي .

وهؤلاء الأتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة ، وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز ، وتلك كرامتهم .

وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان ، فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود ، وجاءوا بالطعام ، ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء ، فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركب في عربة ، وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب ، أو الخشب المرصع ، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب ، وخادم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي .

والخاتون قاعدة في عربة ، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى « أولو خاتون » ومعنى ذلك الوزيرة ، وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى « كجك خاتون » ، ومعنى ذلك الحاجبة . وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الجمال متناهيات الكمال . ومن ورائها اثنتان منهن تستند اليهما . وعلي رأس الخاتون « البغطاق » ، وهو مثل التاج الصغير المكلل بالجواهر ، وبأعلاه ريش الطواويس ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه « المنوت » التي يلبسها الروم .

وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير ، مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر ، وعلى رأس كل واحدة من البنات « الكلا » وهو شبه « الأقروف » ، وفي أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها . وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب .

ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين ، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهبة المرصعة بالجواهر ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة ، أو يكون من عود ملبس بهما ، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة ، في كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار ، ثيابهن من الحرير ، وعلى رؤوسهن « الكلا » .

وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر ، تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها . ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى اللاتى ذكرنا . فان العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة .

وكل خاتون على هذا الترتيب ، ولنذكرهن على الانفراد .

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى هي الملكة والدة السلطان خان بك وتين بك ، وسنذكرهما . وليست أم ابنته ايت كجحك ، وأمهـا كانت الملكة قبـل هذه .

واسم هذه الخاتون طيطغلى ، وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده ، وعندها يبيت أكثر لياليها . ويعظمها الناس بسبب تعظيمـه لها ، والا فهي أبخل الخواتين .

وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبـار هذه الملكة ، أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها ، وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر .

وذكر لي غيره أنها من سـلالة المرأة التي يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السـلام بسببها . ولما عاد اليـه ملكه أمر أن توضـع بصحراء لا عمارة فيها ، فوضعت بصـحراء قفجق .

ولم أر في صحراء قفجق ولا في غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ، ولا سمع بها ، الا هذه الخاتون .

اللهم الا أن بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة . ولم يقع بيدي ذلك ، ولا عرفت له حقيقة .

وفي غد اجتمـاعي بالسلطان ، دخلت هذه الخـاتون ، وهي قاعدة فيمـا بين عشر من النساء القواعد ، كأنهن خادمات لهـا ، وبين يديها نحو خمسـين جارية صـغيرة ، يسمين البنات ، وبين أيديهن طيافير [1] الذهب والفضة ، مملوءة بحب الملوك [2] وهي ينقينه . وبين يدى الخاتون صـينية ذهب مملوءة منـه ، وهي تنقيه ، فسلمنا عليها .

وكان في جملة أصحابي قارىء يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقـة حسـنة وصوت طيب ، فقرأ .

ثم أمرت أن يؤتى بـ « القمز » ، فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف ، فأخذت القـدح بيدها وناولتني اياه ، وتلك نهاية الـكرامة عندهم . ولم أكن شربت القمز قبلها ، ولكن لم يمكنني الا قبوله . وذقته ولا خير فيـه ، ودفعته لأحد أصحابي .

وسـألتني عن كثيـر من حال سـفرنا ، فأجبناها ، ثم انصرفنا عنها ، وكان ابتـداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون الثانية التي تلي الملكة

واسمها كبـك خاتون ، ومعناه بالتركيـة النخالة ، وهي بنت الأمير نغطى . وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس ، وقد رأيتـه . وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون ، فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا . فسلمنا عليها ، وأحسنت في السلام والكلام . وقرأ قارئنـا فاستحسنته وأمرت بالقمز ، فأحضر ، وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

ذكر الخاتون الثالثـة

واسمها بيلون ، وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور . ودخلنا على هـذه الخـاتون ، وهي قاعدة على سرير مرصـع

(1) صحاف .
(2) نبات يعد من بعض انواع اليتوعات .

قوائمه فضة ، وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات ، منهن قائمات وقاعدات ، والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها ، من رجال الروم . فسألت عن حالنا ومقدمنا ، وبُعد أوطاننا ، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة . وأمرت بالطعام فأحضر ، وأكلنا بين يديها وهى تنظر الينا .

ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا ، وترددوا الينا ، وطالعونا بحاجاتكم . وأظهرت مكارم الأخلاق ، وبعثت فى اثرنا بطعام وخبز كثير ، وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة ، وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها .

ومع هذه الخاتون كان سفرى الى القسطنطينية العظمى ، كما نذكره بعد .

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أردوجا ، و « أردوجا » بلسانهم المحلة ، وسميت بذلك لولادتها فى المحلة . وهى بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس ، ومعناه أمير الأمراء . وأدركته حيا ، وهو متزوج ببنت السلطان ايت كججك ، وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل ، وأشفقهن ، وهى التى بعثت الى لما رأت بيتى على التل ، عند جواز المحلة كما قدمناه .

دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه ، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا ، وسألت عن حالنا فأجبناها .

ودخلنا أيضا الى أختها ، زوجة الأمير على ابن أرزق .

ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك

واسمها ايت كججك ، ومعنى اسمها الكلب الصغير ، فان ايت هو الكلب ، وكججك هو الصغير . وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل ، كما تفعل العرب .

وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهى فى محلة منفردة ، على نحو ستة أميال من محلة والدها ، فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة ، والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء .

وحضر زوجها الأمير عيسى الذى بنته زوجة السلطان ، فقعد معها على فراش واحد ، وهو معتل بالنقرس ، فلا يستطيع التصرف [1] على قدميه ، ولا ركوب الفرس ، وانما يركب العربة ، واذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه المجلس محمولا .

وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الأمير نغطى ، وهو أبو الخاتون الثانية . وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الأتراك .

ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها . وأجزلت الاحسان وأفضلت ، جزاها الله خيرا .

ذكر ولدى السلطان

وهما شقيقان ، وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التى قدمنا ذكرها . والأكبر منهما اسمه تين بك ، وبك معناه الأمير ، وتين معناه الجسد ، فكأن اسمه أمير الجسد . واسم أخيه جان بك ، ومعنى جان الروح ، فكأن اسمه أمير الروح . وكل واحد منهما له محلة على حدة .

(1) يريد المشى وما اليه ــ وهو تعبير غريب ــ

وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة . وعهد له أبوه بالملك ، وكانت له الحظوة والتشريف عنده . ولم يرد الله ذلك : فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ، ثم قتل لأمور قبيحة جرت له . وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل .

وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جان بك ، وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والامام المقرىء حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى ، أن يكون نزولى بمحلة جان بك لفضله ، ففعلت ذلك .

ذكر سفرى الى مدينة بلغار [1]

وكنت سمعت بمدينة بلغار ، فأردت التوجه اليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلنى اليها ، فبعث معى من أوصلنى اليها ، وردنى اليه .

ووصلتها فى رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا ، وأذن بالعشاء فى أثناء افطارنا فصليناها ، وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر اثر ذلك ! وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا . وأقمت بها ثلاثا .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة ، والدخول اليها من بلغار ، وبينهما أربعون يوما ، ثم أضربت عن ذلك لعظم المئونة فيه وقلة الجدوى .

(1) قال ياقوت : مدينة الصقالبة ، ضاربة فى الشمال ، شديدة البرودة ، لا يكاد الثلج يقلع عن ارضها صيفا ولا شتاء . وبين اتل مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر . ويصعد اليها فى نهر اتل نحو شهرين .

والسفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فان تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد .

ولا يدخلها الا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه ، فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر .

والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة ، وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها . وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فاذا وقف وقفت .

وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره . واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم ، والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف .

فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة ، نزلوا عند الظلمة . وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا الى منزلهم المعتاد .

فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بازائه من السمور [1] ، والسنجاب [2] ، والقاقم [3] . فان أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه ، وان لم يرضه تركه ، فيزيدونه . وربما رفعوا متاعهم ، أعنى أهل

(1) دابة يتخذ من جلدها فراء مثمنة ... «القاموس»
(2) حيوان على حد اليربوع اكبر من الفأر ، ويتخذ من جلده الفراء ... ذكره الدميرى .
(3) لم نعثر على ضبطه فيما لدينا من المعجمات .

الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم .

ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم من الانس ، ولا يرون أحدا [1] .

*

والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون . وهى شديدة البياض ، من جلد حيوان صغير فى طول الشبر ، وذنبه طويل ، يتركونه فى الفروة على حاله .

والسمور دون ذلك ، تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ...

ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل . وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق ، وكذلك تجار فارس والعراقين .

*

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذى بعثه السلطان فى صحبتى ، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ ، وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان ، وحضرت معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

ذكر ترتيبهم فى العيد

ولما كان صباح يوم العيد ، ركب السلطان فى عساكره العظيمة ، وركبت كل خاتون عربتها ، ومعها عساكرها ، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها ، اذ هى الملكة على الحقيقة ، ورثت الملك عن أمها ، وركب أولاد السلطان ، كل واحد فى عسكره .

(1) حكاية اهل الظلمة هذه تكاد تكون خيالية

وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السايلى ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضى حمزة ، والامام بدر الدين القوامى ، والشريف ابن عبد الحميد .

وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ، ولى عهد السلطان ، ومعهم الطبول والأعلام ، فصلى بهم القاضى شهاب الدين ، وخطب أحسن خطبة .

وركب السلطان ، وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك ، فجلس فيه ومعه خواتينه . ونصب برج ثان دونه ، فجلس فيه ولى عهده وابنته صاحبة التاج . ونصب برجان دونهما ، عن يمينه وشماله ، فيهما أبناء السلطان وأقاربه .

ونصبت الكراسى للأمراء وأبناء الملوك عن يمين البرج وشماله ، فجلس كل واحد على كرسيه . ثم نصبت طبلات للرمى ، لكل أمير طومان طبلة خاصة به . وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف ، فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر ، يقودون مائة وسبعين ألفا ، وعسكره أكبر من ذلك . ونصب لكل أمير شبه منبر ، فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه ، فكانوا على ذلك ساعة .

ثم أتى بالخلع ، فخلعت على كل أمير خلعة ، وعندما يلبسها يأتى الى أسفل برج السلطان فيخدم [1] . وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ، ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة .

(1) يظهر شعائر الطاعة والخضوع . وقد استعمل ابن بطوطة هذا التعبير كثيرا فى رحلته ، وليس فصيحا فيما نعلم .

ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم ، فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ، ويقوده بنفسه الى كرسيه . وهنالك يركبه ويقف مع عسكره ... ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم .

ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس ، وعن يمينه ابنه ولى العهد ، وتليه بنته الملكة ايت كججك ، وعن يساره ابنه الثانى وبين يديه الخواتين الأربع فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب .

وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة ، فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم الى أن يصل الى الوطاق [1] ، وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة . والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ومكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وفى أعلى كل عمود جامور [2] من الفضة المذهبة له بريق وشعاع . وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية . ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير .

وينصب فى وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمونه التخت . وهو من خشب مرصع ، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم . وفى وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته ايت كججك ، ومعها الخاتون أردوجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ، ومعها الخاتون كبك .

ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تين بك ، ولد السلطان ، ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثانى .

ونصبت كراسى عن اليمين والشمال ، جلس فوقها أبناء الملوك والأمراء الكبار ، ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة ، وهم الذين يقودون الفا .

ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكل مائدة يحملها أربعة رجال ، وأكثر من ذلك .

وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة . وتوضع بين يدى كل أمير مائدة . ويأتى « الباورجى » ، وهو مقطع اللحم ، وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها .

ويكون لكل أمير باورجى ، فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة ، فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع الباورجى اللحم قطعا صغارا . ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم ، فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم .

ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب .

وأكثر شربهم من نبيذ العسل ، فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ، ثم ناولته القدح فشرب . ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله الخاتون الكبرى ، فتشرب منه ، ثم تناول سائر الخواتين على ترتيبهن .

(1) يراد الخيمة بلسانهم .

(2) قال فى اللسان : والجامور الرأس تشبيها بجامور السفينة . والمراد هنا رأس العمود .

ثم يأخذ ولى العهد القدح ويخدم ، ويناوله أباه فيشرب ، ثم يناول الخواتين ثم أخته ، ويخدم لجميعهن .

ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له .

ثم يقوم الأمراء الكبار ، فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له .

ثم يقوم أبناء الملوك فيسقى كل واحد منهم هذا الابن الثانى ويخدم له .

ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ...

ويغنون فى أثناء ذلك .

وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا ازاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف ، وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم . فأتينا بموائد الذهب والفضة ، يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك . ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان الا الكبار ، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد : فكان من الفقهاء من أكل ، ومنهم من تورع عن الأكل فى موائد الفضة والذهب .

ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال عربات ، عليها روايا القمز ، فأمر السلطان بتفريقها على الناس ، فأتوا الى بعربة منها ، فأعطيتها جيرانى من الأتراك .

ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة ، فأبطأ السلطان ، فمن قائل انه لا يأتى لأن السكر قد غلب عليه ، ومن قائل انه لا يترك الجمعة . فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل ، فسلم على السيد الشريف ، وتبسم له . وكان يخاطبه بـ « آطا » وهو الأب بلسان الترك .

ثم صلينا الجمعة ، وانصرف الناس الى منازلهم ، وانصرف السلطان الى البارگة ، فبقى على حاله الى صلاة العصر . ثم انصرف الناس أجمعون ، وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته .

مدينة الحاج ترخان [1]

ثم كان رحلينا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد . فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ، ومعنى « ترخان » عندهم الموضع المحرر من المغارم ، والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضعها ، وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ، ثم عظمت وتمدنت .

وهى من أحسن المدن ، عظيمة الأسواق ، مبنية على نهر اتل [2] ، وهو من أنهار الدنيا الكبار .

وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ، ويجمد هذا النهر ، وتجمد المياه المتصلة به . ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن ، فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر . والتبن هنالك لا تأكله الدواب ، لأنه يضرها ، وكذلك ببلاد الهند ، وانما أكلها الحشيش الأخضر ، لخصب البلاد .

ويسافرون بالعربات ، فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ، ثلاث مراحل . وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء ، فيغرقون ويهلكون .

ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ، ابنة ملك الروم ، من السلطان أن يأذن لها فى زيارة أبيها لتضع حملها عنده

---

(1) وتسمى : استراخان »

(2) هو نهر فلجا »

وتعود اليه ، فأذن لها . ورغبت منه أن يأذن لي فى التوجه فى صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى ، فمنعني خوفا على . فلاطفته وقلت له : انما أدخلها فى حرمتك ، وجوارك ، فلا أخاف أحدا ، فأذن لى وودعناه .

ووصلنى بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة . وأعطتنى كل خاتون منهن سبائك الفضة . وأعطت بنته أكثر منهن ، وكستنى وأركبتنى . واجتمع لى من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة .

ذكر سفرى الى القسطنطينية

وسافرنا فى العاشر من شوال ، فى صحبة الخاتون بيلون ، وتحت حرمتها . ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ، ورجع هو والملكة وولي عهده . وسافرت سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ، ثم رجعن . وسافر فى صحبتها الأمير بيدرة فى خمسة آلاف من عسكره .

وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقون من الترك . وكان معها من الجوارى نحو مائتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ، ونحو ألفى فرس لجرها وللركوب ، ونحو ثلاثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال لجرها . وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندى ، وقائد الروميين يسمى بميخائيل ، ويقول له الأتراك : لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار . وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان ، اذا كانت قد توجهت للزيارة ووضع الحمل .

مدينة آكك

وتوجهنا الى مدينة آكك ، وهي مدينة متوسطة ، حسنة العمارة ، كثيرة الخيرات ، شديدة البرد ، وبينها وبين السرا حضرة السلطان ، مسيرة عشر . وعلي مسيرة يوم من هذه المدينة ، جبال الروس ، وهي نصاري شقر الشعور ، زرق العيون ، قباح الصور ، أهل غدر . وعندهم معادن الفضة . ومن بلادهم يؤتي بالصوم ، وهي سبائك الفضة التى بها يباع ويشترى بهذه البلاد . ووزن الصومة منها خمس أواق .

مدينة سردق

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سردق ، وهى من مدن دشت قفجق ، علي ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها ، وبخارجها البساتين والمياه .

وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصناعات ، وأكثر بيوتها خشب .

وكانت هذه المدينة كبيرة ، فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك ، وكانت الغلبة للروم ، فانتصر للترك أصحابهم ، وقتلوا الروم شر قتلة ، ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن .

وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر ، والدوقى والقمز وألبان البقر والغنم . وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده ، تعظيما لها لا خوفا عليها ، لأن تلك البلاد آمنة .

مدينة بابا سلطوق

ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق . وهذه البلدة آخر بلاد الترك ، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما ، فى برية غير معمورة ، منها ثمانية أيام لا ماء بها ، يتزود لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات .

وكان دخولنا اليها فى أيام البرد ، فلم نحتج الى كثير من الماء . والأتراك يرفعون الألبان فى القرب ، ويخلطونها بالدوقى المطبوخ ، ويشربونها فلا يعطشون .

وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية . واحتجت الى زيادة أفراس ، فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك ، وكنت أسلم عليها صباحا ومساء . ومتى أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم . فكنت أترك الخيل لأذبحها . وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الأتراك ، فاجتمع لى نحو خمسين فرسا . وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا ، وأمرت وكيلها « ساروجة الرومى » أن يختارها سمانا من خيل المطبخ ، وقالت : لا تخف ، فان احتجت الى غيرها زدناك .

ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة ، فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوما ، واقامتنا خمسة . ورحلنا فى هذه البرية ثمانية عشر يوما ، وما رأينا الا خيرا والحمد لله .

ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى ، وهو أول عمالة الروم . وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها ، فوصلها الى هذا الحصن كفالى نقولة الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة . وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية .

وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما ، منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية . ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال ، وتترك العربات به لأجل الوعر والجبال .

وجاء كفالى ببغال كثيرة . وبعثت الى الخاتون بستة منها ، وأوصت أمير الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والأثقال ، فأمر لهم بدار . ورجع الأمير بيدرة بعساكره . ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها .

وتركت مسجدها بهذا الحصن ، وارتفع حكم الأذان . وكان يؤتى اليها بالخمور فى الضيافة فتشربها ، وبالخنازير ، وأخبرنى بعض خواصها أنها أكلتها . ولم يبق معها من يصلى الا بعض الأتراك ، كان يصلى معنا .

وتغيرت البواطن لدخولنا فى بلاد الكفر ، ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالى باكرامى . ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا .

ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك ، وهو بسفح جبل على نهر زخار ، يقال له أصطفيلى . ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره . وبخارجه قرية كبيرة .

ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج ، وعلى ساحله قرية كبيرة ، فوجدنا فيها المد ، فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه ، وعرضه نحو ميلين . ومشينا أربعة أميال فى رمال ، ووصلنا الخليج الثانى فخضناه ، وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ،

ووصلنا الخليج الثالث وعرضه ميل واحد ... فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلا . وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض الا فى القوارب .

مدينة الفنيكة

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة ، وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة ، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها ، والبساتين تحف بها . ويدخر بها العنب والاجاص ، والتفاح والسفرجل ، من السنة الى الأخرى .

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، والخاتون فى قصر لأبيها هنالك . ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس ، شاكين فى السلاح .

ولما أرادوا لقاء الخاتون ، ركب أخوها فرسا أشهب ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأسه مظلة مكللة بالجواهر ، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم ، لابسين البياض أيضا ، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب .

وجعل بين يديه مائة من الماشين ، ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم ، وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا ، عليه شكة [1] فارس ، من البيضة [2] المجوهرة ، والدروع والتركش [3] ، والقوس والسيف ، وبيده رمح فى طرف رأسه راية . وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة . وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان .

وقسم فرسانه على أفواج ، كل فوج فيه مائتا فارس ، ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح . وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشر من العلامات ملونة ، بأيدى عشرة من الفرسان ، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنقار والصرنايات .

وركبت الخاتون فى مماليكها ، وجواريها وفتيانها وخدامها ، وهم نحو خمسمائة ، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة . وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ، ويقال لها أيضا النسيج ، مرصعة بالجوهر ، وعلى رأسها تاج مرصع . وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب ، وفى يديه ورجليه خلاخيل الذهب ، وفى عنقه قلائد مرصعة ، وعظم السرج مكسو ذهبا ، مكلل جوهرا .

وكان التقاؤهما فى بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد . وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنا منها ، وقبل ركابها ، وقبلت رأسه . وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها ، وانصرفت مع أخيها .

وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر (لا أثبت الآن اسمها) ، ذات أنهار وأشجار ، نزلنا بخارجها . ووصل أخو الخاتون ولى العهد فى ترتيب عظيم ، وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع ، وعلى رأسه تاج ، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم . وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء ، الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر . ولاقته أخته فى مثل زيها الأول . وترجلا جميعا ، وأتى بخباء حرير فدخلا فيه ، فلا أعلم كيفية سلامهما .

---
(1) سلاح .
(2) شبه الخوذة على الراس هـ
(3) جعبة السهام بلسانهم هـ

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية . فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ، ركبانا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس . وضربت عند الصبح الطبول والأبواق والأنقار ، وركبت العساكر .

وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون ، وأرباب الدولة والخواص ، وعلى رأس الملك رواق [1] يحمله جملة من الفرسان ، ورجال بأيديهم عصى طوال ، فى أعلى كل عصا شبه الكرة من الجلد ، يرفعون بها الرواق ، وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى .

ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر ، وكثر العجاج [2] ، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم ، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها ، خوفا على نفسى . وذكر لى أنها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما ، ثم قبلت حافرى فرسيهما ، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك .

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك ، وجدنا به مائة رجل ، معهم قائد لهم فوق دكان . وسمعتهم يقولون : سراكنو ، سراكنو ، ومعناه المسلمون ، ومنعونا من الدخول .

فقال لهم أصحاب الخاتون : انهم من جهتنا .

فقالوا : لا يدخلون الا باذن .

فأقمنا بالباب ، وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك ، وهى بين يدى والدها ، فذكرت له شأننا ، فأمر بدخولنا ، وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون . وكتب لنا أمرا بألا نعترض حيث نذهب من المدينة ، ونودى بذلك فى الأسواق .

وأقمنا بالدار ثلاثا ، تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش . وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان .

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تكفور ابن السلطان جرجيس ، وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة فى الكنائس ، وترك الملك لولده ، وسنذكره .

وفى اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية ، بعثت الينا الخاتون الفتى سنبلا الهندى ، فأخذ بيدى وأدخلنى الى القصر . فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف ، بها رجال وأسلحتهم ، وقائدهم على دكان مفروش . فلما وصلنا الى الباب الخامس ، تركنى الفتى سنبل ودخل . ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ، ففتشونى لئلا يكون معى سكين .

وقال لى القائد : تلك عادة لهم ، لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام ، غريب أو بلدى .

وكذلك الفعل بأرض الهند . ثم لما فتشونى قام الموكل بالباب فأخذ بيدى وفتح الباب . وأحاط بى أربعة من الرجال ، أمسك اثنان بكمى ، واثنان من ورائى ، فدخلوا بى الى مشور كبير ، حيطانه بالفسيفساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد

---

(١) قال فى القاموس : والرواق بيت كالفسطاط أو سقف فى مقدم البيت . والمراد هنا الفسطاط .

(٢) الغبار .

وفى وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الأشجار ، والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا ، لا يتكلم أحد منهم .

وفى وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة اليهم ، فأمسكوا بثيابى ، كما فعل الآخرون . وأشار اليهم رجل فتقدموا بى ، وكان أحدهم يهوديا ، فقال لى بالعربى : لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا الترجمان ، وأصلى من بلاد الشام . فسألته : كيف أسلم ؟

فقال : قل السلام عليكم !

ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره ، وزوجته — أم هذه الخاتون — بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون وأخواتها ، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة ، وكلهم بالسلاح .

فأشار الى قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنيهة ، ليسكن روعى ، ففعلت ذلك . ثم وصلت اليه ، فسلمت عليه ، وأشار الى أن اجلس ، فلم أفعل .

وسألنى عن بيت المقدس ، وعن الصخرة المقدسة ، وعن القمامة [1] وعن مهد عيسى وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق ، وبلاد الروم . فأجبته عن ذلك كله ، واليهودى يترجم بينى وبينه . فأعجبه كلامى ، وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأمنوه .

ثم خلع على خلعة ، وأمر لى بفرس مسرج ملجم ، ومظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه ، وهى علامة الأمان . وطلبت منه أن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها فى بلادى ، فعين لى ذلك .

ومن العادات عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ، ويركب فرسه ، يطاف به فى أسواق المدينة بالأبواق والأنقار والطبول ، ليراه الناس . وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذوا ... فطافوا بى فى الأسواق .

وصف المدينة

وهى متناهية فى الكبر ، منقسمة قسمين ، بينهما نهر عظيم المد والجزر ، على شكل وادى سلا من بلاد المغرب . وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت ، وهو الآن يعبر فى القوارب ، واسم هذا النهر أبسمى .

وأحد القسمين يسمى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته ، وسائر الناس . وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح [1] متسعة . وأهل كل صناعة على حدة لايشاركهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب ، تسد عليه بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها النساء .

والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر . وفى أعلاه قلعة صغيرة ، وقصر السلطان . والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد اليه من جهة البحر . وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى فى وسط هذا القسم من المدينة .

---

(١) قال فى « القاموس » : نصرانية بنته دبرا فسمى باسمها .

(١) الصفاح (بضم الصاد وفتح الفاء وتشديدها) : حجارة عراض رقاق ... ذكره فى « القاموس » .

وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة ، وهو بالعدوة الغربية من النهر ، شبيه برباط الفتح [1] في قربه من النهر .

وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه . وهم أصناف : فمنهم الجنويون ، والبنادقة ، وأهل رومية ، وأهل افرانسة . وحكمهم الى ملك القسطنطينية ، يقدم عليهم منهم من يرتضونه ، ويسمونه « القمص » ، وعليهم وظيفة [2] في كل عام لملك القسطنطينية . وربما استعصوا عليه ، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة .

ومرساهم من أعظم المراسي ، رأيت به نحو مائة جفن [3] من القراقر ، وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة ، الا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس .

ذكر الكنيسة العظمى

وانما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده . وهي تسمى عندهم أيا صوفيا . ويذكر أنها من بناء آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام . وهي من أعظم كنائس الروم ، عليها سور يطيف بها ، فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر بابا .

ولها حرم نحو ميل ، عليه باب كبير ، ولا يمنع أحد من دخوله . وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ، وهو شبه مشور مسطح بالرخام ، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع ، مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة . والأشجار منتظمة على جهتي الساقية .

ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع ، عليه دوالي العنب ، وفي أسفله الياسمين والرياحين .

وفي خارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات [1] خشب ، يجلس عليها خدام ذلك الباب . وعن يمين القبة مصاطب وحوانيت ، أكثرها من الخشب ، يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم . وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب ، وفيها كرسي كبير مطبق بالملف [2] يجلس فوقه قاضيهم ، وسنذكره . وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين .

والساقية التي ذكرناها ، تنقسم قسمين : أحدهما يمر بسوق العطارين ، والآخر يمر بالسوق ، حيث القضاة والكتاب .

وعلى باب الكنيسة سقائف ، يجلس بها خدامها الذين يقمون [3] طرقها ، ويوقدون سرجها ، ويغلقون أبوابها . ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم . وهو على باب الكنيسة ، مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع ، قد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا .

وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب ، وحلقتاه من الذهب الخالص .

وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين ، وأن بداخلها

---

(١) مدينة قرب مراكش .
(٢) جعل (بضم الجيم وسكون العين) .
(٣) كان يجب أن يقول : مائة جفنة ، كما تقدم .

مصاطب فيما يظهر . واستعمال الكلمة غريب .
(١) سبق أنه شبه « الجوخ » عندنا .
(٢)
(٣) يقمون : يكنسون .

كنيسة مختصة بالنساء ، فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ، أن يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة .

ويأتي اليها البابا مرة في السنة . واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له ، وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه . ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

ذكر المانستارات بالقسطنطينية

والمانستار على مثل لفظ المارستان ، الا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة . وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين . وهذه الماستارات بها كثيرة . فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره ، وهو بخارج اسطنبول مقابل الغلطة .

ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها ، وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء ، وأحدهما للرجال والآخر للنساء ، وفي كل واحد منهما كنيسة ، وبدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات ، وقد حبس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم ... بناهما أحد الملوك .

ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى ، على مثل هذين الآخرين . ويطيف بهما بيوت . وأحدهما يسكنه العميان ، والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ، ممن بلغ الستين أو نحوها . ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك .

وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه ، وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ، ولبس المسوح (وهي ثياب الشعر) ، وقلد ولده الملك ، واشتغل بالعبادة حتى يموت .

وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسفساء . وهي كثيرة بهذه المدينة .

ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر ، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر ، عليهن المسوح ، ورؤوسهن محلوقة ، فيها قلانيس اللبد ، ولهن جمال فائق ، وعليهن أثر العبادة ، وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم . فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر .

وقال لي الرومي : ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة ، وكذلك الصبيان القراء . ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة .

ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان ، فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد ، وصبي يقرأ لهن على منبر ، وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين .

فقال لي الرومي : هؤلاء بنات الوزراء والأمراء ، يتعبدن بهذه الكنيسة .

ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد ، والى كنائس من العجائز

والقواعد من النساء ، والى كنائس فيها الرهبان ، يكون فى الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل .

وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون ، وكنائسها لا تحصى كثرة . وأهل المدينة من جندى وغيره ، صغير وكبير ، يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا ، والنساء لهن عمائم كبار .

ذكر الملك المترهب جرجيس

وهذا الملك ولى الملك ابنه وانقطع للعبادة ، وبنى مانستارا [1] خارج المدينة على ساحلها .

وكنت يوما مع الرومى المعين للركوب معى ، فاذا بهذا الملك ماش على قدميه ، وعليه المسوح [2] وعلى رأسه قلنسوة لبد ، وله لحية بيضاء طويلة ، ووجه حسن عليه أثر العبادة ، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان ، وبيده عكاز وفى عنقه سبحة . فلما رآه الرومى نزل وقال لى : انزل فهذا والد الملك . فلما سلم عليه الرومى ، سأله عنى ثم وقف ، وبعث لى فجئت اليه فأخذ بيدى ، وقال لذلك الرومى ، وكان يعرف اللسان العربى : قل لهذا السراكنو (يعنى المسلم) : أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس ، والرجل التى مشت داخل الصخرة ، والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة ، وبيت لحم . وجعل يده على قدمى ومسح بها وجهه . فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم .

ثم أخذ بيدى ومشيت معه ، فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى ، وأطال السؤال . ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا .

ولما قارب الباب الأعظم ، خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه ، وهو من كبارهم فى الرهبانية . ولما رآهم أرسل يدى ، فقلت له : أريد الدخول معك الى الكنيسة .

فقال للترجمان : قل له : لابد لداخلها من السجود للصليب الأعظم ، فان هذا مما سنته الأوائل ، ولا يمكن خلافه .

فتركته ، ودخل وحده ، ولم أره بعدها .

قاضى القسطنطينية

ولما فارقت الملك المترهب دخلت سوق الكتاب ، فرآنى القاضى ، فبعث الى أحد أعوانه ، فسأل الرومى الذى معى فقال له : انه من طلبة المسلمين . فلما عاد اليه وأخبره بذلك ، بعث الى أحد أصحابه — وهم يسمون القاضى : النجشى كفالى — فقال لى : النجشى كفالى يدعوك .

فصعدت اليه الى القبة التى تقدم ذكرها ، فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة [1] عليه لباس الرهبان ، وهو الملف الأسود ، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون ، فقام الى وقام أصحابه ، وقال : أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك . وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر ، وأطال الكلام ، وكثر عليه الازدحام . وقال لى : لابد لك أن تأتى الى دارى ، فأضيفك . فانصرفت عنه ، ولم ألقه بعد .

الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها ، وراغبة فى المقام

---

(1) المانستار : شبه الزاوية عند المسلمين ، وهى غير عربية .

(2) المسوح جمع مسح ، وهو لباس خشن من صوف .

(1) الشعر المجاوز شحمة الاذن .

معه ، طلبوا منها الاذن فى العودة الى بلادهم ، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا ، وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميرا يسمى « ساروجة الصغير » فى خمسمائة فارس .

وبحثت عنى فأعطتنى ثلاثمائة دينار من ذهبهم ، وألفى درهم بندقية ، وشقة ملف من عمل البنات ، وهو أجود أنواعه ، وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف ، وفرسين ... وذلك من عطاء أبيها . وأوصت بى ساروجة وودعتها وانصرفت . وكانت مدة مقامى عندهم شهرا وستة أيام .

وسافرنا فى صحبة ساروجة ، فكان يكرمنى حتى وصلنا الى آخر بلادهم ، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا . فركبنا العربات ودخلنا البرية . ووصل ساروجة معنا الى مدينة « بابا سلطوق » ، وأقام بها ثلاثا فى الضيافة ، وانصرف الى بلاده ، وذلك فى اشتداد البرد .

وكنت ألبس ثلاث فروات وسراولين ، أحدهما مبطن ، وفى رجلى خف من صوف ، وفوقه خف مبطن بثوب كتان ، وفوقه خف من البرغالى ، وهو جلد الفرس ، مبطن بجلد ذئب .

وكنت آتوضأ بالماء الحار ، بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة ، الا جمدت لحينها . واذا غسلت وجهى ، يصل الماء الى لحيتى ، فيجمد فأحركها ، فيسقط منها شبه الثلج . والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب . وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما على من الثياب ، حتى يركبنى أصحابى .

ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان ، حيث فارقنا السلطان أوزبك ، فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه . فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا ، وهى جامدة . وكنا اذا احتجنا الى الماء قطعنا قطعا من الجليد ، وجعلناها فى القدر حتى تصير ماء ، فنشرب منه ونطبخ به .

مدينة السرا

ووصلنا الى مدينة السرا ، وهى حضرة السلطان أوزبك . ودخلنا على السلطان ، فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته ، فأعلمناه . وأمر باجراء النفقة علينا ، وأنزلنا .

ومدينة السرا من أحسن المدن ، متناهية الكبر ، فى بسيط من الأرض ، تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متسعة الشوارع .

وركبنا يوما مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطوف حولها ، ومعرفة مقدارها . وكان منزلنا فى طرف منها ، فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها الا بعد الزوال ، فصلينا الظهر وأكلنا طعاما ، فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب .

ومشينا يوما فى عرضها ذاهبين وراجعين فى نصف يوم . وذلك فى عمارة متصلة الدور ، لا خراب فيها ولا بساتين .

وفيها ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة ، أحدها للشافعية . وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدا .

وفيها طوائف من الناس ، منهم المغل وهم أهل البلاد ، والسلاطين وبعضهم مسلمون ، ومنهم الاص وهم مسلمون ، ومنهم القفجق والجركس والروس والروم ، وهم نصارى ... وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها .

والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ، ساكنون بمحلة عليها سور ، احتياطا على أموال التجار .

وقصر السلطان بها يسمى آلطون طاش . وآلطون معناه الذهب ، وطاش معناه حجر .

وقاضي هذه الحضرة ، بدر الدين الأعرج ، من خيار القضاة .

وبها من مدرسي الشافعية ، الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزى ، أحد الفضلاء . وبها من المالكية شمس الدين المصرى ، وهو ممن يطعن فى ديانته .

وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين ، أضافنا بها وأكرمنا .

وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمى ، رأيته بها ، وهو من فضلاء المشايخ ، حسن الأخلاق ، كريم النفع ، شديد التواضع ، شديد السطوة على أهل الدنيا . يأتى اليه السلطان أوزبك زائرا فى كل جمعة ، فلا يستقبله ولا يقوم اليه ، ويقعد السلطان بين يديه ، ويكلمه ألطف كلام ، ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك . وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان ، فانه يتواضع لهم ويكلمهم ألطف كلام ويكرمهم .

وأكرمنى جزاه الله خيرا ، وبعث الى بغلام تركى . وشاهدت له بركة .

كرامة له

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم ، فنهانى عن ذلك وقال لى : أقم أياما ، وحينئذ تسافر . فنازعتنى النفس ، ووجدت رفقة كبيرة آخذة فى السفر ، فيهم تجار أعرفهم ، فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم . وذكرت له ذلك ، فقال لى : لابد لك من الاقامة . فعزمت على السفر ، فأبق لى غلام أقمت بسببه ... وهذه من الكرامات الظاهرة .

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الى ، فحينئذ سافرت الى خوارزم .



وبينها وبين حضرة السرا صحراء ، مسيرة أربعين يوما ، لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ ، وانما تجر العربات بها الجمال .

فسرنا من السرا عشرة أيام ، فوصلنا الى مدينة سراجوق ، ومعنى « جوق » صغير ، فكأنهم قالوا سرا الصغيرة . وهى على شاطىء نهر كبير زخار يقال له ألوصو ، ومعناه الماء الكبير ، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد .

والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات . وبعناها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس ، وأقل من ذلك ، لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة . واكترينا الجمال لجر العربات .

وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (ومعناه الوالد) ، أضافنا بها ، ودعا لنا . وأضافنا أيضا قاضيها ، ولا أعرف اسمه .

ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا تنزل الا ساعتين : احداهما عند الضحا ، والأخرى عند المغرب . وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه ، وهو يطبخ من غلية

واحدة . ويكون معهم الخليع [1] من اللحم يجعلونه عليه ، ويصبون عليه اللبن . وكل انسان انما ينام أو يأكل في عربته حال السير .

ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها ، والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى ، بعد أن يسمن . والماء في هذه البرية في مناهل معلومة ، بعد اليومين والثلاثة : وهو ماء المطر والحسيان [2] .

مدينة خوارزم

ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها ، كما ذكرناه ، وصلنا الى خوارزم . وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة ، والعمارة الكبيرة ، والمحاسن الأثيرة ، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم ، وتموج بهم موج البحر .

ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق ، فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشور ، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام ، وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس ، فبقيت متحيرا ، وبعد جهد شديد رجعت .

وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة ، لأنهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الأسواق ، فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة .

وهذه المدينة تحت امرة السلطان أوزبك ، وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور ، وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة . وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك .

وبخوارزم مارستان له طبيب شامي ، يعرف بالصهيوني ، نسبة الى صهيون من بلاد الشام .

ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء .

ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة . فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة . وفي كل مسجد درة معلقة لذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو لاطعام الفقراء والمساكين . ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .

وبخارج خوارزم نهر جيحون ، أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة ، وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر اتل ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فيهلكوا . ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ، ويجلبون منها القمح والشعير ، وهي مسيرة عشر للمنحدر .

وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى ، وكان من كبار الصالحين . وفيها الطعام للوارد والصادر ،

---

(١) صوابه « الخلع » . قال في القاموس : الخلع لحم يطبخ بالتوابل في وعاء من جلد ، أو القديد الخ .
(١) صوابه الإحساء أو الحساء . جمع حسي (بكسر الحاء وسكون السين) وحسى (مقصورا) ، وهو سهل يستنقع فيه الماء كما مضى .

وشيخها المدرس سيف الدين بن عضبة ، من كبار أهل خوارزم .

وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى ، من كبار الصالحين ، أضافنا بها . وبخارجها قبر الامام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، وعليه قبة . و « زمخشر » قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم .

ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها ، وتوجه بعض أصحابى الى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى ، فبعث الى نائبه نور الاسلام ، فسلم على ثم عاد اليه . ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم على ، وهو فتى السن كبير الفعال .

وله نائبان : أحدهما نور الاسلام المذكور ، والآخر نور الدين الكرمانى ، من كبار الفقهاء ، وهو الشديد فى أحكامه ، القوى فى ذات الله تعالى .

ولما اجتمعت بالقاضى قال لى : ان هذه المدينة كثيرة الزحام ، ودخولكم نهارا لا يتأتى ، وسيأتى اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل . ففعلنا ذلك ، ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد . ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة ، منهم : مولانا همام الدين ، ومولانا زين الدين المقدسى ، ومولانا رضى الدين يحيى ، ومولانا فضل الله الرضوى ، ومولانا جلال الدين العمادى ، ومولانا شمس الدين السنجرى ، امام أميرها ... وهم أهل مكارم وفضائل ، والغالب على مذهبهم الاعتزال ، لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة .

وكنت أيام اقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر بمسجده ، فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهى قريبة من المسجد ، فأدخل معه الى مجلسه ، وهو من أبدع المجالس ، فيه الفرش الحافلة ، وحيطانه مكسوة بالملف . وفيه طيقان كثيرة ، وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب ، والأوانى العراقية ... وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا فى بيوتهم .

ثم يؤتى بالطعام الكثير . وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع ، وهو سلف الأمير « قطلودمور » ، متزوج بأخت امرأته .

وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين ، أكبرهم مولانا زين الدين المقدسى ، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطى ، الخطيب المصقع ، أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع فى الدنيا أحسن منهم .

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قطلودمور ، ومعنى اسمه « الحديد المبارك » ، لأن « قطلو » هو المبارك ، و « دمور » هو الحديد . وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك ، وأكبر أمرائه ، وهو واليه على خراسان . وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الملكة طيطغلى ، وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة .

ولما أتانى القاضى مسلما على ، كما ذكرته ، قال لى : ان الأمير قد علم بقدومك ، وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك .

فركبت مع القاضي الى زيارته ، وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب . ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة ، قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب ، والأمير على فرش له من الحرير ، وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس ، (وهي علة فاشية في الترك) ...

فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه . وقعد القاضي والفقهاء . وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك ، وعن الخاتون بيلون وعن أبيها ، وعن مدينة القسطنطينية ، فأعلمته بذلك كله .

ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وأفراخ الحمام ، وخبز معجون بالسمن ، والكعك والحلوى . ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب ، في أواني الذهب والفضة ، ومعه ملاعق الذهب ، وبعضه في أواني الزجاج العراقي ، ومعه ملاعق من الخشب ، ومن العنب والبطيخ العجيب .

ومن عادات هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره ، فيجلس بمجلس معد له ، ومعه الفقهاء وكتابه . ويجلس في مقابلته أحد الأمراء الكبراء ، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم . ويتحاكم الناس اليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة ، لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة !

ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير ، بعث الينا الأرز والدقيق والغنم والسمن والأبزار [1] وأحمال الحطب .

وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم ، وكذلك الهند وخراسان ، وبلاد العجم . وأما الصين فيوقدون فيها حجارة [2] تشتعل فيها النار ، كما تشتعل في الفحم ، ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا به ثانية ... كذلك حتى يتلاشى .

مكرمة لهذا القاضي والأمير

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص ، فقال لي : ان الأمير أمر لك بخمسمائة درهم ، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى ، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه . فلما أمر بذلك قلت له : أيها الأمير ، تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين ؟ لو جعلت له جميع المال كان أحسن له . فقال : أفعل ذلك . وقد أمر لك بالألف كاملة . ثم بعثها الأمير في صحبة امامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه .

وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم ، وركبته في ذهابي الى المسجد ، فما أعطيت ثمنه الا من تلك الألف .

وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك ، حتى انتهت الى عدد لا أذكره ، خيفة مكذب يكذب به . ولم تزل حالي في الزيادة ، حتى دخلت أرض الهند .

---

(1) الافاويه كما تقدم في الحواشي .
(2) يظهر انها الفحم الحجري المعروف الآن .

وكانت عندى خيل كثيرة ، لكنى كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل . وبقى عندى الى انقضاء ثلاث سنين ، ولما هلك تغيرت حالى .

وبعثت الى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضى مائة دينار دراهم ، وصنعت لى أختهـا ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبعثت الى بفروة سمور وفرس جيد . وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن ، جزاها الله خيرا .

حكاية

ولما انفصلت من الدعوة التى صنعت لى هذه الخاتون ، وخرجت من الزاوية ، تعرضت لى امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ، ومعها نسوة لا أذكر عددهن ، فسلمت على ، فرددت عليها السلام ، ولم أقف معها ولا التفت اليها . فلما خرجت أدركنى بعض الناس وقال لى : ان المرأة التى سلمت عليك هى الخاتون . فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها ، فوجدتها قد انصرفت . فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها ، واعتذرت عما كان منى لعدم معرفتى بها .

ذكر بطيخ خوارزم

وبطيخ خوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا ، الا ما كان من بطيخ بخارى ، ويليه بطيخ أصفهان . وقشره أخضر وباطنه أحمر ، وهو صادق الحلاوة ، وفيه صلابة .

ومن العجائب أنه يقدد وييبس فى الشمس ، ويجعل فى القواصر . ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين . وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه .

وكنت أيام اقامتى بدهلى ، من بلاد الهند ، متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قديد البطيخ . وكان ملك الهند اذا أتى اليه بشىء منه بعث الى به لما يعلم من محبتى فيه . ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك .

حكاية

كان قد صحبنى من مدينة السرى الى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى على بن منصور ، وكان من التجار . فكنت أكلفه أن يشترى لى الثياب وسواها ، فكان يشترى لى الثوب بعشرة دنانير ويقول : اشتريته بثمانية . ويحاسبنى بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله ، وأنا لا علم لى بفعله ، الى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس . وكان مع ذلك قد أسلفنى دنانير .

فلما وصل الى احسان أمير خوارزم ، رددت اليه ما أسلفنيه ، وأردت أن أحسن بعده اليه مكافأة لأفعاله الحسنة . فأبى ذلك وحلف ألا تفعل ، وأردت أن أحسن الى فتى كان له اسمه كافور ، فحلف ألا أفعل . وكان أكرم من لقيته من العراقيين .

وعزم على السفر معى الى بلاد الهند ، ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين ، فأخذ فى السفر معهم . فقلت له فى ذلك فقال : هؤلاء أهل بلدى ، يعودون الى أهلى وأقاربى ويذكرون أنى سافرت الى الهند برسم الكدية ، فيكون سبة على ، لا أفعل ذلك .

وسافر معهم الى الصين ، فبلغنى بعد — وأنا بأرض الهند — أنه لما بلغ مدينة المالق (وهى آخر البلاد التى من عمالة ما وراء النهر ، وأول بلاد الصين) أقام بها ، وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه . وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه فى فندق واحد ، فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئا بخلال ما يصل فتاه ، فلم يفعل . ثم أكد قبح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف ، بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن الذى كان له فى الفندق . فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ، ودخل الى بيته فذبح نفسه ، فأدرك وبه رمق . واتهموا غلاما كان له بقتله ، فقال لهم : لا تظلموه ، فانى أنا فعلت ذلك بنفسى . ومات من يومه ، غفر الله له .

وكان قد حكى لى عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا ، فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال ، وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين ، فاستحيا من صاحب المال ، ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت ، وأراد أن يخنق نفسه . وكان فى أجله تأخير ، فتذكر صاحبا له من الصيارفة ، فقصده وذكر له القضية ، فسلفه مالا دفعه للتاجر .

*

ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة [1] . وكان عديلى [2] بها عفيف الدين التوزرى ، وركب الخدام بعض الخيل ، وجللنا باقيها لأجل البرد . ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى ، وهى مسيرة ثمانية عشر يوما ، فى رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة .

(1) شبه الهودج .

(2) اى الذى يعادلنى فى تلك المحارة .

فودعت الأمير قطلودمور ، وخلع على خلعة ، وخلع على القاضى أخرى . وخرج مع الفقهاء لوداعى .

مدينة ألكات

وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة ألكات ، وليس بهذه الطريق عمارة سواها . وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد ، فكان الصبيان يلعبون فوقها ، ويزلقون عليها .

وسمع بقدومى قاضى ألكات ، ويسمى صدر الشريعة ، وكنت قد لقيته بدار قاضى خوارزم . فجاء الى مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقى . ثم عرض على القاضى الوصول الى أمير تلك المدينة ، فقال له الشيخ محمود : القادم ينبغى له أن يزار ، وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتى به . ففعلوا ذلك ، وأتى الأمير بعد ساعة فى أصحابه وخدامه ، فسلمنا عليه .

وكان غرضنا تعجيل السفر ، فطلب منا الاقامة ، وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ، ووقف الشعراء يمدحونه . وأعطانى كسوة وفرسا جيدا .

وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية ، وفى تلك الصحراء مسيرة ست ، دون ماء . ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة ، وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى ، بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين ، وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة . وعندهم فاكهة يسمونها العلو ، فييبسونه ويجلبه الناس الى الهند والصين ، ويجعل عليه الماء ، ويشرب ماؤه . وهو أيام

كونه أخضر حلو ، فاذا يبس صار فيه يسير حموضة . ولحميته كثيرة ، ولم أر مثله بالأندلس ولا بالمغرب ولا بالشام .

ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا .

ووصلنا الى مدينة بخارى التى ينسب اليها امام المحدثين أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى . وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد ، وخربها اللعين « تنكيز التترى » [1] جد ملوك العراق . فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة الا القليل ، وأهلها أذلاء ، وشهادتم لا تقبل بخوارزم وغيرها ، لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق . وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ، ولا من له عناية به .

ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تنكيز خان حدادا بأرض الخطا ، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم . وكان يجمع الناس ويطعمهم ، ثم صارت له جماعة ، فقدموه على أنفسهم ، وغلب على بلده ، وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره ، فغلب على ملك الخطا ، ثم على ملك الصين . وعظمت جيوشه ، وتغلب على بلاد الختن ، وكاشخر ، والمالق .

وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ، ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، له قوة عظيمة وشوكة ، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له . فاتفق أن بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار ، وهى آخر عمالة جلال الدين .

فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك ، واستأذنه ما يفعل فى أمرهم . فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ، ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ، ويردهم الى بلادهم ، لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم ... رأيا فائلا [1] وتدبيرا سيئا مشئوما .

فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة ، لغزو بلاد الاسلام ، فلما سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره . فذكر أن أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل ، فلم يجد من يطعمه ، ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيئا . فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء ، وفصد فرسه وملأها بدمها ، وعقدها وشواها بالنار ... فكانت طعامه . فعاد الى أطرار فأخبر عاملها بأمرهم ، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم ، فاستمد مليكه جلال الدين ، فأمده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر .

فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ، ودخل مدينة أطرار بالسيف ، فقتل الرجال وسبى الذرارى ، وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته ، فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الاسلام مثلها .

وآل الأمر الى أن تملك تنكيز ما وراء النهر ، وخرب بخارى وسمرقند وترمذ ، وعبر النهر (وهو نهر جيحون) الى مدينة بلخ فتملكها ، ثم الى اليامیان (الباميان) فتملكها . وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم . فثار

(١) جنكيز خان .

(١) مخطئا .

عليه المسلمون فى بلخ وفيما وراء النهر ، فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف ، وتركها خاوية على عروشها .

ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ ، فخربت ولم تعمر بعد ، لكن بنيت مدينة على ميلين منها وهى التى تسمى اليوم « ترمذ » . وقتل أهل الباميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جامعها ، وعفا عن أهل بخارى وسمرقند . ثم عاد بعد ذلك الى العراق .

وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حاضرة الاسلام ، ودار الخلافة بغداد بالسيف ، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، رحمه الله .

***

قال ابن جزى : أخبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو البركات بن الحاج ، أعزه الله ، قال : سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول : لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له ، فتفاوضنا بالحديث ، فقال لى : هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ، ولم يبق منهم غيرى ، وغير ذلك ... وأشار الى ابن أخيه .

***

قال : ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح آباد ، حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزى ، وكان من كبار الأولياء . وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ ، حيث نزلنا ، عظيمة لها أوقاف ضخمة ، يطعم منها الوارد والصادر . وشيخها من ذريته ، وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى .

وأضافنى هذا الشيخ بداره ، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان ، ووعظ الواعظ ، وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة . ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى .

ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة ، وكان قد قدم من هراة . وهو من الصلحاء الفضلاء . وزرت ببخارى قبر الامام العالم أبى عبد الله البخارى ، مصنف الجامع الصحيح ، شيخ المسلمين رضى الله عنه . وعليه مكتوب : هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى ، وقد صنف من الكتب كذا وكذا ... وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم . وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع منى فى جملة ما ضاع لى ، لما سلبنى كفار الهند فى البحر .

ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين ، وسنذكره ، فمررنا على نخشب ، البلدة التى ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبى ، وهى صغيرة تحف بها البساتين والمياه ، فنزلنا بخارجها بدار لأميرها .

وكان عندى جارية قد قاربت الولادة ، وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها . فاتفق أنها كانت فى المحمل ، فوضع المحمل على الجمل ، وسافر أصحابنا من الليل ، وهى معهم ، والزاد وغيره من أسبابى .

وأقمت أنا حتى أرتحل نهارا مع بعض من معى فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها . فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جعنا ، فنزلنا على بعد من السوق ،

واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعنا . وأعارنا بعض التجار خباء بتنا فيه تلك الليلة .

ومضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الأصحاب ، فوجدوهم عشيا وجاءوا بهم . وكان السلطان غائبا عن المحلة فى الصيد ، فاجتمعت بنائبه الأمير تقبغا ، فأنزلنى بقرب مسجده ، وأعطانى خرقة (خركاه) وهى شبه الخباء ، وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم .

فجعلت الجارية فى تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولودا أخبرونى أنه ولد ذكر ، ولم يكن كذلك . فلما كان بعد العقيقة أخبرنى بعض الأصحاب أن المولودة بنت . فاستحضرت الجوارى فسألتهن ، فأخبرتنى بذلك . وكانت هذه البنت مولودة فى طالع سعد ، فرأيت كل ما يسرنى ويرضينى منذ ولدت . وتوفيت بعد وصولى الى الهند بشهرين ، وسيذكر ذلك .

واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى ، ومعناها بالتركية الثائر ، وهو من أهل أطرار ، وبالشيخ حسن صهر السلطان .

ذكر سلطان ما وراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين ، وهو عظيم المقدار ، كثير الجيوش والعساكر ، ضخم المملكة ، شديد القوة ، عادل الحكم . وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار ، وهم : ملك الصين ، وملك الهند ، وملك العراق ، والملك أوزبك ، وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه .

وولى الملك بعد أخيه الجكطى ، وكان الجكطى هذا كافرا . وولى بعد أخيه الأكبر كبك ، وكان كبك هذا كافرا أيضا ، لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين ، يكرم المسلمين ويعظمهم .

حكاية

يذكر أن هذا الملك « كبك » تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميدانى ، فقال له : أنت تقول ان الله ذكر كل شىء فى كتابه العزيز ؟

قال : نعم .

فقال : أين اسمى فيه ؟

فقال : هو فى قوله تعالى « فى أى صورة ما شاء ركبك » . فأعجبه ذلك وقال : يخشى (ومعناه بالتركية جيد) ، فأكرمه اكراما كثيرا ، وزاد فى تعظيم المسلمين .

حكاية

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له أحد الأمراء ، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد ، وكان لها لبن تقوتهم بثمنه ، فاغتصبه ذلك الأمير وشربه . فقال لها : أنا أوسطه [1] فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله ، والا وسطتك بعده .

فقالت المرأة : قد حللته ، ولا أطلبه بشىء . فأمر به فوسط ، فخرج اللبن من بطنه .

السلطان طرمشيرين

ولنعد لذكر السلطان « طرمشيرين » . ولما أقمت بالمحلة — وهم يسمونها « الأردو » — أياما ، ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى . فلما صليت ذكر لى بعض الناس أن السلطان بالمسجد . فلما قام عن مصلاه ،

(١) وسطه : قطعه نصفين .

تقدمت للسلام عليه ، وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى ، وأعلماه بحالى وقدومى منذ أيام . فقال لى بالتركية ما معناه : فى عافية أنت ؟ مبارك قدومك .

وكان عليه فى ذلك الحين قباء قدسى أخضر ، وعلى رأسه « شاشية » مثله . ثم انصرف الى مجلسه راجلا ، والناس يتعرضون له بالشكايات ، فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى .

ثم بعث الى فوصلت اليه وهو فى خرقة [1] والناس فى خارجها ميمنة وميسرة ، والأمراء منهم على الكراسى ، وأصحابهم وقوف على رؤوسهم وبين أيديهم ، وسائر الجند قد جلسوا صفوفا ، وأمام كل واحد منهم سلاحه ، وهم أهل النوبة ، يقعدون هنالك الى العصر ، ويأتى آخرون فيقعدون الى آخر الليل .

وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها .

ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب ، وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب ، والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان ، بينه وبين رأسه قدر ذراع . والأمراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره ، وأولاد الملوك بأيديهم المذاب [2] بين يديه .

وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة . وقام الى أربعتهم حين دخولى ، ودخلوا معى ، فسلمت عليه وسألنى — وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه — عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، وعن دمشق ومصر والملك الناصر ، وعن العراقين وملكهما وبلاد الأعاجم .

ثم أذن المؤذن بالظهر ، فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات ، وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ، ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده ، وكذلك يفعلون فى صلاة العصر .

وكان اذا أتى بهدية من زبيب أو تمر (والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به) ، يعطى منها بيده كل من فى المسجد .

حكاية

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر ، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب ، حيث جرت عادته أن يصلى ، وقال للامام حسام الدين الياغى : ان مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ .

فقام الامام المذكور وقال ما معناه : الصلاة لله أو لطرمشيرين ؟ ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة .

وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان ، فصلى الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام وذلك فى الموضع الذى تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاته . وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك . وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه ، وأنا الى جانب الامام ، فقال لى : اذا مشيت الى بلادك

(١) شبه الخيمة كما تقدم .
(٢) جمع مذبة .

فحدث أن فقيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك !

وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ، ويأمر السلطان بالمعروف ، وينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويغلظ عليه القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى . وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا لبس من ثيابه .

وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين . وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به . وقد بلى وتمزق ، وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ، ولا عمامة عليه .

فقلت له فى بعض الأيام : ياسيدى ، ما هذا القباء الذى أنت لابسه ؟ انه ليس بجيد . فقال لى : ياولدى ليس هذا القباء لى ، وانما هو لابنتى !

فرغبت أن يأخذ بعض ثيابى ، فقال لى : عاهدت الله منذ خمسين سنة ألا أقبل من أحد شيئا ، ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك .

ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما ، أعطانى السلطان سبعمائة درهم ، وفروة سمور تساوى مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد ، ولما ذكرتها له ، آخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده ، تواضعا منه وفضلا وحسن خلق ، وأعطانى فرسين وجملين .

ولما أردت وداعه أدركته فى أثناء طريقه الى متصيده ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطانى يده وانصرفت .

وبعد سنتين من وصولى الى أرض الهند ، بلغنا الخبر أن الملأ من قومه وأمرائه ، اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهنالك معظم عساكره ، وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى ، وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى . وكان مسلما الا أنه فاسد الدين ، سيىء السيرة .

وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين ، الذى خرب بلاد الاسلام ،وقد تقدم ذكره .

كتاب تنكيز خان

وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه ، يسمى عندهم اليساق . وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب .

ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما فى السنة يسمونه «الطوى» ومعناه يوم الضيافة ، ويأتى أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد .

فان كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الأحكام يقوم اليه كبراؤهم ، فيقولون له : غيرت كذا وغيرت كذا ، وفعلت كذا ، وقد وجب خلعك . ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ، ويقعدون غيره من أبناء تنكيز .

وان كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبا فى بلاده ، حكموا عليه بما يستحقه . وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه . فأنكروه عليه أشد الانكار ، وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ، ولم يصل الى الجهة التى توالى الصين . والعادة أن الملك يقصد

تلك الجهة فى كل سنة ، فيختبر أحوالها وحال الجند بها ، لأن أصل ملكهم منها ، ودار الملك هى مدينة المالق .

فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم ، وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ، ولم يأمنهم . فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة ، وهى من عمالته ، وواليها كبير أمرائه وصاحب سره ، برنطيه . وهذا الأمير محب فى الاسلام والمسلمين ، قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية ، فيها الطعام للوارد والصادر ، وتحت يده العساكر العظيمة . ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه .

فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ ، رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك ، وكان السلطان طرمشيرين قتل أخاه كبك ، وبقى ابنه ينقى ببلخ . فلما أعلمه التركى بخبره قال : ما فر الا لأمر حدث عليه . فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه .

ووصل بوزن الى سمرقند وبخارى فبايعه الناس ، وجاءه ينقى بطرمشيرين . فيذكر أنه لما وصل الى نسف بخارج سمرقند ، قتل هنالك ودفن بها ، وقيل انه لم يقتل كما سنذكره .

ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى اغل (أغلى) وأخته وزوجها فيروز الى ملك الهند ، فعظمهم وأنزلهم منزلة علية ، بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ .

ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادعى أنه هو طرمشيرين ، واختلف الناس فيه . فسمع بذلك عماد الدين سرتيز ، غلام ملك الهند ، ووالى بلاد السند . فبعث اليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا اليه وأخبروه أنه هو طرمشيرين حقا . فأمر له بالسراجة [1] فضربت خارج المدينة ، ورتب له ما يرتب لمثله . وخرج لاستقباله ، وترجل له وسلم عليه ، ولم يشك أحد أنه هو .

وبعث الى ملك الهند يخبره ، فبعث اليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم ، وهو كبير الحكماء بالهند ، فقال للملك : أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره ، فانى كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقى أثره ، وبه أعرفه .

فأتى اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الأمراء ، ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده ، وأخذ يغمز رجليه ، ويكشف عن الأثر . فشتمه وقال له : تريد أن تنظر الى الدمل الذى عالجته ، ها هو ذا .

وأراه أثره ، فتحقق أنه هو ، وعاد الى ملك الهند فأعلمه بذلك .

ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس ، وكبير الأمراء قطلوخان ، معلم السلطان أيام صغره ، دخلا على ملك الهند وقالا له : ياخوند عالم [2] ، هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح أنه هو ، وهاهنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره ، أرأيت ان اجتمعوا عليه ما يكون العمل ؟

---

(1) نوع من الفساطيط ، كما يأتى ، وليست عربية بهذا المعنى .

(2) سيد العالم .

فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم ، وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلا ، فلما دخل عليه أمر بالخدمة [1] كسائر الواردين ، ولم يعظم . وقال له السلطان : يامازركانى (وهى شتمة قبيحة) ، كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين ، وطرمشيرين قد قتل ، وهذا خادم تربته عندنا ؟ والله لولا المعرة لقتلتك . ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار ، واذهبوا به الى دار بشاى أغلى وأخته (ولدى طرمشيرين) وقولوا لهما : ان هذا الكاذب يزعم أنه والدكما .

فدخل عليهما فعرفاه ، وبات عندهما والحراس يحرسونه ، وأخرج بالغد . وخافا أن يهلكا بسببه ، فأنكراه .

ونفى عن بلاد الهند والسند ، فسلك طريق كيج مكران ، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز ، فأكرمه سلطانها أبو اسحاق وأجرى له كفايته .

ولما دخلت عند وصولى من الهند الى مدينة شيراز ذكر لى أنه باق بها ، وأردت لقاءه ولم أفعل ، لأنه كان فى دار لا يدخل اليه أحد الا باذن من السلطان أبى اسحاق ، فخفت مما يتوقع بسبب ذلك . ثم ندمت على عدم لقائه .

بوزن ومعاملته للمسلمين

ونعود الى الحديث عن بوزن ، وذلك أنه لما ملك ضيق على المسلمين ، وظلم الرعية ، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم . فضج المسلمون من ذلك ، وتربصوا به الدوائر .

واتصل خبره بخليل ابن السلطان أليسور ، فقصد ملك هراة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى ، فأعلمه بما كان فى نفسه ، وسأله الاعانة بالعساكر والمال ، على أن يشاطره الملك اذا استقام له . فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما ، وبين هراة وترمذ تسعة أيام .

فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل ، تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو . وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوند زاده صاحب ترمذ ، وهو أمير كبير شريف حسينى النسب ، فأتاه فى أربعة آلاف من المسلمين ، فسر به وولاه وزارته ، وفوض اليه أمره ، وكان من الأبطال . وجاء الأمراء من كل ناحية ، واجتمعوا على خليل .

والتقى مع بوزن ، فمالت العساكر الى خليل ، وأسلموا بوزن ، وأتوا به أسيرا ، فقتله خنقا بأوتار القسى . وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا .

واستقام الملك لخليل ، وعرض عساكره بسمرقند ، فكانوا ثمانين ألفا ، عليهم وعلى خيلهم الدروع . فصرف العسكر الذى جاء به من هراة ، وقصد بلاد المالق . فقدم التتر على أنفسهم واحدا منهم ، ولقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من أطراز (طراز) .

وحمى القتال وصبر الفريقان ، فحمل الأمير خداوند زاده ووزيره فى عشرين ألفا من المسلمين ، حملة لم يثبت لها التتر ، فانهزموا ، واشتد فيهم القتل . وأقام خليل بالمالق ثلاثا ، وخرج من بقى من التتر فأذعنوا له بالطاعة .

---

(1) أداء التعظيم على طريقة الهند .

وجاز الى تخوم الخطا والصين ، وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ . وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح .

وعظم أمر خليل ، وهابته الملوك ، وأظهر العدل ، ورتب العساكر بالمالق ، وترك بها وزيره خداوند زاده ، وانصرف الى سمرقند وبخارى .

ثم ان الترك أرادوا الفتنة ، فسعوا الى خليل بوزيره المذكور ، وزعموا أنه يريد الثورة ، ويقول انه أحق بالملك لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته .

فبعث واليا الى المالق عوضا عنه ، وأمره أن يقدم عليه فى نفر يسير من أصحابه ، فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت ؛ فكان ذلك سبب خراب ملكه .

وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة ، الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال ... فكتب اليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا ، وأنف منه ، وأجابه بأقبح جواب . فتجهز خليل لقتاله ، فلم توافقه عساكر الاسلام ، ورأوه باغيا عليه .

وبلغ خبره الملك حسينا ، فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا ، والتقى الجمعان فانهزم خليل ، وأتى به الى الملك حسين أسيرا ، فمن عليه بالبقاء ، وجعله فى دار ، وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة ... وعلى هذه الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين ، عند خروجى من الهند . ولنعد الى ما كنا بسبيله .

سمرقند

ولما ودعت السلطان طرمشيرين ، سافرت الى مدينة سمرقند ، وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطىء واد يعرف بوادى القصارين ، عليه النواعير تسقى البساتين ، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها ، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات .

وكانت على شاطئه قصور عظيمة ، وعمارة تنبىء عن علو همم أهلها ، فدثر أكثر ذلك ... وكذلك المدينة خرب كثير منها ، ولا سور لها ولا أبواب عليها . وفى داخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ، ومحبة فى الغريب . وهم خير من أهل بخارى .

قبر قثم بن العباس

وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب ، رضى الله عن العباس وعن ابنه ، وهو المستشهد حين فتحها ، ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته . والتتر يأتون لزيارته ، وينذرون [1] له النذور العظيمة ، ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير ، فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ، ولخدام الزاوية والقبر المبارك .

وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، منها الخضر والسود والبيض والحمر . وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب ، وسقفها مصنوع بالرصاص . وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع ، مكسو الأركان بالفضة ، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة ، وفرش القبة

(1) مثل هذه النذور غير جائز شرعا ، كما قدمنا فى الحواشى .

بالصوف والقطن . وفى خارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك ، وعلى حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين . وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر .

ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئا من حال هذا الموضع المبارك ، بل كانوا يتبركون به ، لما يرون له من الآيات .

وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه ، حين نزولنا به ، الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى ، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق . وهو الآن عند ملك الهند ، وسيأتى ذكره .

ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان ، وهو من الفضلاء ذوى المكارم . وسافر الى بلاد الهند بعد سفرى اليها ، فأدركته منيته بمدينة ملتان ، قاعدة بلاد السند .

حكاية

لما مات هذا القاضى بملتان ، كتب صاحب الخبر بأمره الى ملك الهند ، وأنه قدم برسم بابه ، فاخترم [1] دون ذلك . فلما بلغ الخبر الملك أمر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير ، لا أذكره الآن ، وأمر أن يعطى أصحابه ما كانوا يعطون لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة .

ولملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر ، يكتب له بكل ما يجرى فى ذلك البلد من الأمور ، وبمن يرد عليه من الواردين . واذا أتى الوارد كتبوا من أى البلاد ورد ، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه ، وأصحابه وخيله وخدامه ، وهيئته من الجلوس والمآكل ، وجميع شئونه وتصرفاته ، وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها ... فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو عارف جميع حاله ، فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه .

وسافرنا من سمرقند ، فجزنا بلدة نسف ، واليها ينسب أبو حفص عمر النسفى ، مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة ، رضى الله عنهم .

مدينة ترمذ

ثم وصلنا الى مدينة ترمذ ، التى ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، مؤلف الجامع الكبير فى السنن .

وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق ، تخترقها الأنهار ، وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهى الطيب ، واللحوم بها كثيرة ، وكذلك الألبان .

وأهلها يغسلون رؤوسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطَّفَل ، ويكون عند كل صاحب حمام آوعية كبار مملوءة لبنا ، فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى اناء صغير فغسل رأسه . وهو يرطب الشعر ويصقله .

وأهل الهند يجعلون فى رؤوسهم زيت السمسم ، ويغسلون الشعر بعده بالطفل ، فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله ، وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم .

وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطىء جيحون ، فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر .

(1) مات .

وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان ، من كبار المشايخ وكرمائهم ، كثير المال والرباع والبساتين ، ينفق على الوارد والصادر من ماله .

واجتمعت قبل وصولي الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوند زاده ، وكتب لي اليها بالضيافة ، فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم .

ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين ، وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين ، وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند .

وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك ، ولأخويه : ضياء الدين وبرهان الدين بملتان ، وسفرنا جميعا الى الهند ، وذكر أخويه الآخرين : عماد الدين وسيف الدين ، ولقائي لهما بحضرة ملك الهند ، وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند ، بعد قتل أبيهما ، وتزوجهما بنتي الوزير خواجه جهان ، وما جرى في ذلك كله ، ان شاء الله تعالى .

مدينة بلخ

ثم اجتزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان ، وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ ، واجازة الوادي ، يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ .

وهي خاوية على عروشها غير عامرة ، ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها ، وكانت ضخمة فسيحة ، ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم الى الآن ، ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد .

والناس ينسبون اللازورد الى خراسان ، وانما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب اليها الياقوت البدخشي ، وسيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى .

وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين ، وهدم من مسجدها نحو الثلث ، بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه . وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها . ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه ، ومسجد بلخ أجمل منه في سوى ذلك .

حكاية

ذكر لي بعض أهل التاريخ ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس ، يسمى داود بن علي . فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه ، فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا . فلما بلغ بلخ ، أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد ، وهي زوج أميرهم ، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم .

فبعثت الى الأمير الذي قدم لتغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر ، قيمته أكثر مما أمر بتغريمه ، فقالت له : اذهب بهذا الثوب الى الخليفة ، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم .

فذهب الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه ، وقص عليه القصة ، فخجل الخليفة وقال : أتكون المرأة أكرم منا ؟

وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ ، وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها ، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة .

فعاد الأمير الى بلخ ، وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ، ورد عليها الثوب .

فقالت له : أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب ؟

فقال : نعم .

قالت : لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذى محرم منى .

وأمرت ببيعه فبنى منه المسجد والزاوية ، ورباط فى مقابلته مبنى بالكذان ، وهو عامر حتى الآن . وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه ، فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا ، ان احتيج اليه أخرج .

فأخبر تنكيز بهذه الحكاية ، فأمر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ، ولم يجد شيئا ، فترك الباقى على حاله [1]

قبر عكاشة

وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محصن الأسدى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى يدخل الجنة بلا حساب . وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا . وبخارجها بركة ماء عجيبة ، عليها شجرة جوز عظيمة ، ينزل الواردون فى الصيف تحت ظلالها .

وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد ، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة ، منها قبر حزقيل النبى عليه السلام ، وعليه قبة حسنة .

وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين ، لا أذكرها الآن . ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، وهى دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذى يشبه الكذان ، وكان زرع الزاوية مقترنا بها ، وقد سدت عليه فلم ندخلها ، وهى بمقربة من المسجد الجامع .

مدينة هراة

ثم سافرنا من مدينة بلخ ، فسرنا فى جبال قوه استان سبعة أيام . وهى قرى كثيرة عامرة ، بها المياه الجارية ، والأشجار المورقة ، وأكثرها شجر التين .

وبها زوايا كثيرة ، فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى . وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هراة وهى أكبر المدن العامرة بخراسان . ومدن خراسان العظيمة أربع : ثنتان عامرتان ، وهما هراة ونيسابور ، وثنتان خربتان ، وهما بلخ ومرو .

ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة . ولأهلها صلاح وعفاف وديانة ، وهم على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبلدهم طاهر من الفساد .

ذكر سلطان هراة

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى ، صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة . ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه العجب ، أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه ، وكان منتهى أمره وقوعه أسيرا فى يديه ، والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود ، سلطان الرافضة ، وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه . وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ ، وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين .

(1) يظهر أن هذه الحكاية مخترعة ، أو مبالغ فيها .

حكاية الرافضة

كان بخراسان رجلان : أحدهما يسمى بمسعود ، والآخر يسمى بمحمد . وكان لهما خمسة من الأصحاب ، وهم من الفتاك ، ويعرفون بالعراق بالشطار [1] . فاتفق سبعتهم على الفساد ، وقطع الطرق وسلب الأموال . وشاع خبرهم ، وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بيهق .

وكانوا يكمنون بالنهار ، ويخرجون بالليل والعشى ، فيضربون على القرى ، ويقطعون الطرق ، ويأخذون الأموال . وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد ، فكثر عددهم واشتدت شوكتهم ، وهابهم الناس .

وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ، ثم ملكوا سواها من المدن . واكتسبوا الأموال ، وجندوا الجنود ، وركبوا الخيل ، وتسمى مسعود بالسلطان .

وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه ، فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال ، وان ظهرت له شجاعة أمَّره على جماعة . فعظم جيشه ، واستفحل أمره .

وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض ، وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان ، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية .

وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقهم على ذلك ، وسموه بالخليفة . وأمرهم بالعدل فأظهروه ، حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد ، حتى يأتى ربها فيأخذها .

(1) الشاطر من اعيا اهله خبثا .

وغلبوا على نيسابور . وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموها ، ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه ، فهزموه وأسروه ومنوا عليه . ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر ، فهزموه .

وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس وزاوة وطوس ، وهى من أعظم بلاد خراسان . وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى . وتغلبوا على مدينة الجام ، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينهم مسيرة ست .

فلما بلغ ذلك الملك حسينا ، جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم : هل يقيمون حتى يأتى القوم ، أو يمضون اليهم فيناجزونهم ؟ فوقع اجماعهم على الخروج اليهم ، وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ، ويقال انهم منسوبون الى غور الشام ، وان أصلهم منها .

فتجهزوا أجمعون ، واجتمعوا من أطراف البلاد ، وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) ، وهى مسيرة أربع لا يزال عشبها أخضر ، ترعى منه ماشيتهم وخيلهم . وأكثر شجرها الفستق ، ومنها يحمل الى أرض العراق .

وعضدهم أهل مدينة سمان ، ونفروا جميعا الى الرافضة ، وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجالة وفرسان ، يقودهم الملك حسين .

واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان . وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج ، وصبر الفريقان معا . ثم كانت الدائرة على

الرافضة ، وفر سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل . وقتل أكثرهم ، وأسر منهم نحو أربعة آلاف .

وذكر لى بعض من حضر هذه الوقيعة أن ابتداء القتال كان فى وقت الضحا ، وكانت الهزيمة عند الزوال .

ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى ، وأتى بالطعام ، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون ، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى . وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم ، وقد نصر الله السنة على يديه ، وأطفأ نار الفتنة . وكانت هذه الوقيعة بعد خروجى من الهند عام ثمانية وأربعين .

ونشأ بهراة رجل من الزهاد الصلحاء الفضلاء ، واسمه نظام الدين مولانا . وكان أهل هراة يحبونه ويرجعون الى قوله ، وكان يعظهم ويذكرهم . فوافقوه على تغيير المنكر ، ومعهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا ، وهو ابن عم الملك حسين ، ومتزوج بزوجة والده — وهى من أحسن الناس صورة وسيرة — والملك يخافه على نفسه ، وسنذكر خبره . وكانوا متى علموا بمنكر ، ولو كان عند الملك ، غيروه .

حكاية

ذكر لى أنهم تعرفوا يوما أن بدار الملك حسين منكرا ، فاجتمعوا لتغييره ، وتحصن منهم بداخل داره ، فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل . فخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد ، وكان قد شرب الخمر ، فأقاموا عليه الحد بداخل قصره ، وانصرفوا عنه .

حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين

كان الأتراك المجاورون لمدينة هراة ، الساكنون بالصحراء ، وملكهم طغيتمور الذى مر ذكره ، وهم نحو خمسين ألفا ، يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويداريهم ، وذلك قبل هزيمته للرافضة ، وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم .

ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد الى مدينة هراة ، وربما شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران . فكان نظام الدين يحد [1] من وجد منهم سكران .

وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وباس . ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون ، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بأرض الهند بين الكفار ، فاذا خرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك . وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الأذن ، والكافرات آذانهن مثقوبات .

فاتفق مرة أن أميرا من أمراء الترك يسمى تمورالطى ، سبى امرأة وكلف بها كلفا شديدا ، فذكرت أنها مسلمة ، فانتزعها الفقيه من يده . فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما ، وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة ، وهى فى مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) ، واحتملوها فلم يتركوا لأهل هراة ما يركبون ، ولا ما يحلبون . وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه .

ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها . فبعث اليهم رسولا يطلب منهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ، ويذكرهم العهد

(1) يقيم عليهم الحد الشرعى .

الذى بينهم ، فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين .

فقال السلطان : لا سبيل الى هذا .

وكان الشيخ أبو أحمد الجستى حفيد الشيخ مودود الجستى له بخراسان شأن عظيم ، وقوله معتبر لديهم . فركب فى جماعة من أصحابه ومماليكه ، فقال : أنا أحمل الفقيه نظام الدين معى الى الترك ، ليرضوا بذلك ، ثم أرده .

فمال الناس الى قوله ، ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك ، فركب مع الشيخ أبى أحمد ، ووصل الى الترك ، فقام اليه الأمير تسورالطى وقال له : أنت أخذت امرأتى منى ، وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخر ميتا . فسقط فى يد الشيخ أبى أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ، ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية .

وبعد مدة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه الى مدينة هراة ، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فأقبلوا عليه كأنهم مسلمون ، وتحت ثيابهم السيوف ، فقتلوه وفر أصحابه .

ولما كان بعد هذا ، بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا ، الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر ، رسولا الى ملك سجستان . فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ، ولا يعود اليه .

فقصد بلاد الهند . ولاقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند .

وهو أحد الفضلاء ، وفى طبعه حب الرياسة والصيد ، والبزاة والخيل ، والمماليك والأصحاب ، واللباس الملوكى الفاخر .

ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بأرض الهند ... فكان من أمره أن ملك الهند ولاه بلدا صغيرا ، وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية .

وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله ، بسعى الملك حسين فى ذلك . ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند . بعد موت ملك ورنا ، وهاداه ملك الهند ، وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ، ومجباها خمسون ألفا من دنانير الذهب فى كل سنة .

*

ولنعد الى ما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من هراة الى مدينة الجام ، وهى متوسطة ، حسنة ، ذات بساتين وأشجار ، وعيون كثيرة وأنهار . وأكثر شجرها التوت ، والحرير بها كثير .

وهى تنسب الى الولى العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى ، وسنذكر حكايته . وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده ، الذى قتله ملك الهند . والمدينة الآن لأولاده ، وهى محررة من قبل السلطان ، ولهم بها نعمة وثروة .

وذكر لى من أثق به : أن السلطان أبا سعيد ملك العراق ، قدم خراسان مرة ، ونزل هذه المدينة ، وبها زاوية الشيخ ، فأضافه ضيافة عظيمة ، وأعطى كل خباء بمحلته رأس غنم [1] ، وكل أربعة رجال رأس غنم ، وكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة ، فلم يبق فى المحلة حيوان الا وصلته ضيافته .

---

(1) يريد شاة فيما يظهر .

حكاية الشيخ شهاب الدين
الذى تنسب اليه مدينة الجام

يذكر أنه كان صاحب راحة ، مكثرا من الشرب ، وكان له من الندماء نحو ستين . وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما فى منزل كل واحد منهم ، فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين .

وبقوا على ذلك مدة ، ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين ، فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه ، وقال فى نفسه : ان قلت لأصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ، ظنوا ذلك عجزا عن مئونتهم . فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر فى الزقاق .

وحضر أصحابه ، فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ، ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ، ثم ثالثا فوجدوه كذلك . فكلموا الشيخ فى ذلك ، فخرج لهم عن حقيقة أمره ، وصدقهم سن بكره ، وعرفهم بتوبته ، وقال لهم : والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم .

فتابوا جميعا الى الله تعالى ، وبنوا تلك الزاوية ، وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى . وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات .

مدينة طوس

ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس ، وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها ، بلد الامام الشهير أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وبها قبره .

ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضى ، وهو على بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين الشهيد ، ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهم . وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة ، كثيرة الفواكه والمياه ، والأرحاء (١) الطاحنة .

وكان بها الطاهر محمد شاه ، والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق ، وأهل الهند والسند وتركستان يقولون : السيد الأجل .

وكان أيضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين ، لقيته بأرض الهند ، والشريف على وولداه أمير هندو ودولة شاه . وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند ، وكانوا من الفضلاء .

والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية ، تجاورها مدرسة ومسجد . وجميعها مليح البناء ، مصنوع الحيطان بالقاشانى ، وعلى القبر دكان خشب ملبس بصفائح الفضة ، وعليه قناديل فضة معلقة ، وعتبة باب القبة فضة ، وعلى بابها ستر حرير مذهب ، وهى مبسوطة بأنواع البسط .

وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضى الله عنه . وعليه دكان يضعون عليه « الشمعدانات » . واذا دخل الرافضى للزيارة ، ضرب قبر الرشيد برجله ، وسلم على الرضى .

ثم سافرنا الى مدينة سرخس ، واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسى رضى الله عنه . ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهى مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر ، واليه

(١) الارحاء : جمع الرحى ، وهى الطاحونة .

تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء ، وهم الذين يجعلون حلق الحديد فى أيديهم وأعناقهم وآذانهم .

نيسابور

ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور ، وهى احدى المدن الأربع التى هى قواعد خراسان . ويقال لها دمشق الصغيرة ، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها . وتخترقها أربعة من الأنهار . وأسواقها حسنة متسعة ، ومسجدها بديع ، وهو فى وسط السوق ، ويليه أربع من المدارس ، يجرى بها الماء الغزير ، وفيها من الطلبة خلق كثير ، يقرأون القرآن والفقه ، وهى من حسان مدارس تلك البلاد .

ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر ، وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن ، فكلها تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ، المجاهد فى سبيل الله ، عالم الملوك ، واسطة عقد الخلفاء العادلين ، أبو عنان ، وصل الله سعده ونصر جنده . وهى التى عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى ... فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه .

ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخا وغيرها ، وتحمل منها الى الهند .

وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد ، قطب الدين النيسابورى ، أحد الوعاظ العلماء الصالحين ، نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة .

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا ، فرآه معى ، فقال لى : هذا الغلام لا يصلح لك فبعه .

فقلت له : نعم .

وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم . واشتراه بعض التجار . وودعت الشيخ وانصرفت .

فلما حللت بمدينة بسطام ، كتب الى بعض أصحابى من نيسابور ، وذكر أن الغلام قتل بعض أولاد الأتراك ، وقتل به . وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه .

مدينة بسطام

وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام ، التى ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامى الشهير رضى الله عنه ، وبهذه المدينة قبره .

ومعه فى قبة وحدة ، أحد أولاد جعفر الصادق رضى الله عنه .

وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولى أبى الحسن الحزقانى .

وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه .

ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان ، وهى قرى فيها مشايخ وصالحون ، وبها البساتين والأنهار . فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى شيرسياه (ومعنى ذلك الأسد الأسود) . وأضافنا بها والى تلك الأرض ، وهو من أهل الموصل ، وسكناه ببستان عظيم هنالك .

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعى الجمال والخيل ، وبها مراع طيبة وأعشاب كثيرة .

والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطيه . وقد قدمنا أن أحكام الترك فيمن سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله ، فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده ، فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة .

والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع ، بعد أن يسم كل واحد دوابه فى أفخاذها . وكذلك فعلنا فى هذه البلاد .

واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ، ففقدنا منها ثلاثة أفراس . ولما كان بعد نصف شهر ، جاءنا التتر بها الى منزلنا خوفا على أنفسهم من الأحكام .

وكنا نربط فى كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ، ففقدنا الفرسين ذات ليلة . وسافرنا من هنالك ، وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاءوا بهما الينا فى أثناء طريقنا .

وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج ، فان بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش ، ومعناه : قاتل الهنود ، لأن العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند ، يموت هنالك الكثير منهم ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج . وهو مسيرة يوم كامل ، وأقمنا حتى تمكن دخول الحر ، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل ، وسلكنا به جميع نهارنا الى الغروب . وكنا نضع اللبود بين أيدى الجمال تطأ عليها ، لئلا تغرق فى الثلج .

ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر . وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفا رسمها . ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ، ويسمى بمحمد المهروى ، ونزلنا عنده وأكرمنا . وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله .

وسافر معنا الى أن صعدنا جبل هندوكوش .

ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة ، فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت ، وتألمنا لذلك .

ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ، ومعنى « بنج » خمسة ، و « هير » الجبل ... فمعناه خمسة جبال .

وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ، ينزل من جبال بدخشان . وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش .

وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد .

وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى ، وهو معظم عندهم .

أبو الأولياء

ووصلنا الى جبل بشاى ، وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء . و « أطا » معناه بالتركية الأب ، وأولياء باللسان العربى ، فمعناه أبو الأولياء .

ويسمى أيضا سيصدصاله ، وسيصد معناه بالفارسية ثلاثمائة ، وصاله (ساله) معناه عام، وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخمسون عاما . ولهم فيه اعتقاد حسن ، ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ، ويقصده السلاطين والخواتين . وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر

عند زاويته . ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقني ، وجسمه رطب لم أر ألين منه . ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة . وذكر لى أنه فى كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان . وشككت فى حاله ، والله أعلم بصدقه .

ثم سافرنا الى برون وفيها لقيت الأمير برنطيه ، وأحسن الى وأكرمنى ، وكتب الى نوابه بمدينة غزنة فى اكرامى . وقد تقدم ذكره ، وذكر ما أعطى من البسطة فى الجسم .

قرية الجرخ

ثم سافرنا الى قرية الجرخ ، وهى كبيرة لها بساتين كثيرة ، وفواكهها طيبة . قدمناها فى أيام الصيف ، ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة ، وصلينا بها الجمعة . وأضافنا أميرها محمد الجرخى ، ولقيته بعد ذلك بالهند .

غزنة

ثم سافرنا الى مدينة غزنة ، وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير بالاسم . وكان من كبار السلاطين ، يلقب بيمين الدولة . وكان كثير الغزو لبلاد الهند ، وفتح بها المدائن والحصون . وقبره بهذه المدينة عليه زاوية .

وقد خرب معظم هذه البلدة ، ولم يبق منها الا يسير ، وكانت كبيرة . وهى شديدة البرد . والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار ، وهى كبيرة مخصبة ، ولم أدخلها ، وبينهما مسيرة ثلاث .

ونزلنا بخارج غزنة ، فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها . وأكرمنا أميرها مرذك أغا ، و « مرذك » معناه الصغير ، و « أغا » معناه الكبير الأصل .

كابل

ثم سافرنا الى كابل ، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة ، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان . ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية ، وأكثرهم قطاع الطريق .

وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان . ويذكر أن نبى الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل ، فنظر الى أرض الهند وهى مظلمة ، فرجع ولم يدخلها ، فسمى الجبل به . وفيه يسكن ملك الأفغان .

وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الأفغانى ، تلميذ الشيخ عباس ، من كبار الأولياء .

ومنها رحلنا الى كرماش ، وهى حصن بين جبلين تقطع [1] به الأفغان . وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ، ونرميهم بالنشاب ، فيفرون .

وكانت رفقتنا مخفة ، ومعهم نحو أربعة آلاف فرس ، وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لأجلها ، ومعى جماعة بعضهم من الأفغان . وطرحنا بعض الزاد ، وتركنا أحمال الجمال التى أعيت فى الطريق ، وعادت الينا خيلنا بالغد ، فاحتملتها .

ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة ، فبتنا بمنزل ششنغار وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك . ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى ، وهى مسيرة خمس عشرة ، لا تدخل الا فى فصل واحد ، وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك فى أوائل شهر يولية .

(1) أى يقطعون الطريق .

وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسوم ، حتى ان الرجل اذا مات تتفسخ أعضاؤه . وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضا فى البرية بين هرمز وشيراز .

وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده ، قاضي ترمذ ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة .

بنج آب

ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب ، وهو ماء السند و « بنج » معناه خمسة ، و « آب » معناه الماء ، فمعنى ذلك الأودية الخمسة . وهى تصب فى النهر الأعظم ، وتسقى تلك النواحى . وسنذكرها ان شاء الله تعالى .

وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة ، واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا الى أرض الهند ، وعرفوا ملكها أحوالنا . وها هنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر . والحمد لله رب العالمين .

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وصلنا الى وادى السند المعروف ببنج آب (ومعنى ذلك المياه الحسنة) . وهذا الوادى من أعظم أودية الدنيا . وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه ، كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل . وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند .

ولما وصلنا الى هذا النهر جاء الينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك . وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك أمير مدينة ملتان . وكان أمر أمراء السند على هذا العهد مملوكا للسلطان يسمى سرتيز ، وبين يديه تعرض عساكر السلطان . ومعنى اسمه الحاد الرأس ، لأن « سر » هو الرأس ، و « تيز » معناه الحاد . وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند . وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام .

وبين بلاد السند وحضرة السلطان ، مدينة دهلى ، مسيرة خمسين يوما . واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند ، يصل الكتاب اليه فى خمسة أيام بالبريد .

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان : فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق ، وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال . وأما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل ، الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة . والداوة هى ثلث ميل ، والميل عندهم يسمى الكروة .

وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدوا أوساطهم ، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس .

فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتد بمنتهى جهده . فاذ سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له . فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده ، وهو يحرك المقرعة ، حتى يصل الى الداوة الأخرى ...

ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه .

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل . وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان : يجعلونها فى الأطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان .

وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوى الجنايات : يجعلون الرجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رؤوسهم ، ويسيرون به شدا .

وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكنك الذى تحج الهنود اليه . وهو على مسيرة أربعين يوما منها .

واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده ، استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك ، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا ، وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه ، وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا يغادرون من ذلك كله شيئا . واذا وصل الوارد الى مدينة ملتان ، وهى قاعدة بلاد السند ، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة .

وانما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته ، اذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه .

ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة . ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء . ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء فى بلاده بالأعزة ، فصار لهم ذلك اسما علما .

ولابد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه ، فيكافئه السلطان عليها أضعافا مضاعفة . وسيمر من ذكر هدايا الغرباء اليه كثير .

ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون كل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ، ويجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ، ويخدمونه بأموالهم وأنفسهم ، ويقفون بين يديه كالحشم . فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل ، فقضى ديونهم ، ووفاهم حقوقهم . فنفقت تجارتهم ، وكثرت أرباحهم ، وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك . ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا ، وجملا عليه حمل من النشاب مما يهدى الى السلطان .

وذهب هذا التاجر الى خراسان ثم عاد الى الهند . وهنالك تقاضى منى ماله ، واستفاد بسببى فائدة عظيمة ، وعاد من كبار التجار . ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة ، وقد سلبنى الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيرا .

ذكر الكركدن

ولما اجتزنا نهر السند المعروف بنج آب ، دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه فى وسطها ، فخرج علينا الكركدن . وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم ، رأسه كبير

متفاوت الضخامة . ولذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن رأس بلا بدن .

وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وله قرن واحد بين عينيه ، طوله نحو ثلاثة أذرع ، وعرضه نحو شبر .

ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان فى طريقه ، فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصرعه ، وعاد الى الغيضة فلم تقدر عليه .

وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق ، بعد صلاة العصر ، وهو يرعى نبات الأرض ، فلما قصدناه هرب منا .

ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند : دخلنا غيضة قصب ، وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ، ودخلت الرجالة والفرسان ، فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة .

مدينة جنانى

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا الى مدينة جنانى ، مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند ، لها أسواق مليحة . وسكانها طائفة يقال لهم السامرة ، استوطنوها قديما ، واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف ، على ما أثبت المؤرخون فى فتح السند .

وأخبرنى الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ، ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ، ابن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشى (وهو أحد الثلاثة الذين أخبرنى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الاسكندرية أنى سألقاهم فى رحلتى ، فلقيتهم والحمد لله) ، أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشى ، وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام امارته على العراق ، وأقام بها وتكاثرت ذريته .

وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ، ولا ينظر اليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ، ولا يصاهرهم أحد . وكان لهم فى ذلك العهد أمير يسمى ونار ، وسنذكر خبره .

مدينة سيوستان

ثم سافرنا من مدينة جنانى الى أن وصلنا الى مدينة سيوستان ، وهى مدينة كبيرة . وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها الا شجر أم غيلان . ولا يزدرع على نهرها شىء ما عدا البطيخ . وطعامهم الذرة والجلبان ومنه يصنعون الخبز ، وهى كثيرة السمك والألبان الجاموسية .

وأهلها يأكلون السقنقور ، وهى دويبة شبيهة بأم حبين التى يسميها المغاربة حنيشة الجنة ، الا أنها لا ذنب لها . ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ، ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم . وهو عندهم عوض الزعفران .

ودخلنا هذه المدينة فى احتدام القيظ . وحرها شديد ، فكان أصحابى يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء ، فما يمضى اليسير حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى ... وهكذا أبدا .

ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيبانى ، وأرانى كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لجده الأعلى ، بخطابة هذه المدينة ، وهم يتوارثونها من ذلك العهد الى الآن .

ونص الكتاب : هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان . وتاريخه سنة تسع وتسعين . وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : الحمد لله وحده ... على ما أخبرنى الخطيب المذكور .

ولقيت بها أيضا الشيخ محمد البغدادى . وهو بالزاوية التى على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندى . وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه حضر قتل المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس رضى الله عنهم ، لما قتله الكافر هلاون [1] بن تنكيز التترى . وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجثة ، يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامرى الذى تقدم ذكره ، والأمير قيصر الرومى ، وهما فى خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس . وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن ، وهو من الحذاق فى الحساب والكتابة . فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء . فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند ، وولاه بتلك البلاد ، وأقطعه سيوستان وأعمالها ، وأعطاه المراتب وهى الأطبال والعلامات ، كما يعطى كبار الأمراء .

فلما وصل الى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر عليهم ، فأجمعوا

(1) هو « هولاكو » .

على قتله . فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج الى أحواز المدينة ، ليطلع على أمورها ، فخرج معهم .

فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وزعموا أن السبع ضرب عليها ، وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه ، وعادوا الى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان . وذلك اثنا عشر لكا واللك مائة ألف دينار . وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرف الدينار الهندى ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

وقدموا على أنفسهم ونار وسموه ملك فيروز . وقسم الأموال على العسكر ، ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته ، فخرج ومن معه من أقاربه وقصد قبيلته . وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومى .

واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان — وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان — فجمع العساكر وتجهز فى البر وفى نهر السند . وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام . وخرج اليه قيصر فتلاقيا . وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة . وتحصنوا بالمدينة ، فحصرهم ونصب المجانيق عليهم .

واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم ، فأعطاهم الأمان . فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم ... فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ، ويوسط [1] بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ، ويعلقها على السور .

(1) وسطه توسيطا : قطعه نصفين .

فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ، ترعب من ينظر اليها . وجمع رؤوسهم فى وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك .

ونزلت بتلك المدينة اثر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة . وكنت أنام على سطحها ، فاذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة ، فتشمئز النفس منها . ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت منها .

وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراسانى ، المعروف بفصيح الدين قاضى هراة ، فى متقدم التاريخ ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهرى وأعمالها من بلاد السند ، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر ، فعزمت على السفر معه الى مدينة لاهرى . وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها فى نهر السند تحمل أثقاله فسافرت .

ذكر السفر فى نهر السند
وترتيب ذلك

وكان للفقيه علاء الملك فى جملة مراكبه مركب يعرف بـ « الأهورة » وهى نوع من الطريدة عندنا . الا أنها أوسع منها وأقصر . وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج ، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير . ويجلس أصحابه بين يديه ، ويقف المماليك يمنة ويسرة ، والرجال يجدفون ، وهم نحو أربعين .

ويكون مع هذه الأهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها : اثنان منها فيهما مراتب الأمير ، وهى العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات ، والآخران فيهما أهل الطرب . فتضرب الطبول والأبواق نوبة ، ويغنى المعنون نوبة ، ولا يزالون كذلك من أول النهار الى وقت الغداء .

فاذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ، ووضعت بينهما الاصقالات [1] ، وأتى أهل الطرب الى أهورة الأمير ، فيغنون الى أن يفرغ من أكله ، ثم يأكلون . واذا انقضى الأكل عادوا الى مراكبهم ، وشرعوا أيضا فى المسير على ترتيبهم الى الليل .

واذا كان الليل ضربت المحلة على شاطىء النهر ، ونزل الأمير الى مضاربه ، ومد السماط وحضر الطعام معظم العسكر . فاذا صلوا العشاء الأخيرة ، سمر السمار بالليل نوبات .

فاذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم ، نادى مناد منهم بصوت عال : ياخوند ملك [2] ، قد مضى من الليل كذا من الساعات ، ثم يسمر أهل النوبة الأخرى . فاذا أتموها نادى مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات .

فاذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصليت صلاة الصبح ، وأتى بالطعام . فاذا فرغ الأكل أخذوا فى المسير .

فان أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب . وان أراد المسير فى البر ، ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه ، ثم تلاهم المشاءون بين يديه .

ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفرسان ، عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها ،

---

(1) لعله يقصد خشبة تصل بين المراكب ، وليس بعربى فيما نعلم .

(2) سيد الملوك .

وعند ثلاثة صرنايات . فاذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ، ضربوا تلك الأطبال والصرنايات ، ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه . ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبات . فاذا كان وقت الغداء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام . ووصلنا الى موضع ولايته ، وهو مدينة لاهرى ، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير . وبها يصب نهر السند فى البحر ، فيلتقى بها بحران .

ولها مرسى عظيم يأتى اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم . وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها . أخبرنى الأمير علاء الملك المذكور أن مجبى هذه المدينة ستون لكا فى السنة ، وقد ذكرنا مقدار اللك . وللأمير من ذلك نصف العشر . وعلى ذلك يعطى السلطان عماله البلاد ، يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيتها بخارج المدينة

وركبت يوما مع علاء الملك ، فانتهينا الى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بـ « تارنا » ، فرأيت هنالك ما لا يحصره العد من الحجارة ، على مثل صور الآدميين والبهائم . وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله ، فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما . ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس . وهنالك آثار سور وجدران دور .

ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد ، عليها صورة آدمى الا أن رأسه طويل ، وفمه فى جانب من وجهه ، ويداه خلف ظهره كالمكتوف .

وهناك مياه شديدة النتن ، وكتابة على بعض الجدران بالهندى .

وأخبرنى علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة ، أكثر أهلها الفساد ، فمسخوا حجارة . وأن ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها . وهى الى الآن تسمى دار الملك ، وأن الكتابة التى فى بعض الحيطان هنالك بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة . وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها .

مدينة بكار

وأقمت بهذه المدينة [1] مع علاء الملك خمسة أيام ، ثم أحسن فى الزاد . وانصرفت منه الى مدينة بكار . وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند ، وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر ، عمرها كشلوخان أيام ولايته على بلاد السند ، وسيقع ذكره .

ولقيت بهذه المدينة الفقيه الامام صدر الدين الحنفى . ولقيت بها قاضيها المسمى بأبى حنيفة . ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمدا الشيرازى ، وهو من المعمرين ، ذكر لى أن سنه تزيد على مائة وعشرين عاما .

مدينة أوجة

ثم سافرت من مدينة بكار ، فوصلت الى مدينة أوجة . وهى مدينة كبيرة على نهر السند

(1) يريد مدينة « لاهرى » *

لها آسواق حسنة ، وعمارة جيدة . وكان الأمير بها اذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجى ، أحد الشجعان الكرماء . وبهذه المدينة توفى بعد سقطة سقطها عن فرسه .

مكرمة لهذا الملك

ونشأت بينى وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة ، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضرة دهلى . فلما سافر السلطان الى دولة أباد — كما سنذكره — وأمرنى بالاقامة بالحضرة ، قال لى جلال الدين : انك تحتاج الى نفقة كبيرة ، والسلطان قد تطول غيبته ، فخذ قريتى واستغلها حتى أعود .

ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار ، جزاه الله أحسن جزائه .

ولقيت بمدينة أوجة الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدرا العلوى ، وألبسنى الخرقة . وهو من كبار الصالحين . ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معى الى أن سلبنى كفار الهنود فى البحر .

ملتان

ثم سافرت من أوجة الى مدينة ملتان ، وهى قاعدة بلاد السند ، ومسكن أمير أمرائه . وفى الطريق اليها على مسافة عشرة أميال منها الوادى المعروف بخسرو آباد ، وهو من الأودية الكبار ، لا يجاز الا فى المركب . وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث ، وتفتش رحالهم .

وكانت عادتهم فى حين وصولنا اليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما . ثم بعد وصولنا الهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم ، وأمر ألا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر لما بايع الخليفة أبا العباس العباسى .

ولما أخذنا فى اجازة هذا الوادى وفتشت الرحال ، عظم على تفتيش رحلى ، لأنه لم يكن فيه طائل ، وكان يظهر فى أعين الناس كبيرا ، فكنت أكره أن يطلع عليه . ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان ، فأمر ألا يعرض لى ببحث ولا تفتيش ، فكان كذلك . فحمدت الله على ما هيأه لى من لطائفه . وبتنا تلك الليلة على شاطىء الوادى . وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد ، واسمه دهقان ، وهو سمرقندى الأصل . وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها ، وما يحدث بها ، ومن يصل اليها . فتعرفت به ، ودخلت فى صحبته الى أمير ملتان .

ذكر أمير ملتان وترتيب حاله

وأمير ملتان هو قطب الملك ، من كبار الأمراء وفضلائهم ولما دخلت عليه قام لى وصافحنى وأجلسنى الى جانبه . وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز ، وهو من أعظم ما يهدى اليهم ، لأنه ليس ببلادهم وانما يجلب من خراسان .

وكان جلوس هذا الأمير على دكان كبير عليه البسط ، وعلى مقربة منه القاضى ، ويسمى سالار ، والخطيب لا أذكر اسمه . وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل

السلاح وقوفا على رأسه ، والعساكر تعرض بين يديه .

وهنالك قسي كثيرة ، فاذا آتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميا ، أعطي قوسا من تلك القسي ينزع فيها . وهى متفاوتة فى الشدة ، فعلى قدر نزعه يكون مرتبه .

ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمحه . وهنالك أيضا خاتم معلق فى حائط صغير ، فيجرى فرسه حتى يحاذيه ، فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم .

ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرى فرسه ويرميها .

وعلى قدر ما يظهر من الانسان فى ذلك من الاصابة يكون مرتبه .

ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرنا ، أمر بانزالنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره . وعادتهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه .

ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خداوند زاده قوام الدين قاضى ترمذ ، قدم بأهله وولده ، ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين .

ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند .

ومنهم أرن بغا أحد كبار بخارى .

ومنهم ملك زاد ابن أخت خداوند زاده .

ومنهم بدر الدين الفصال .

وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه .

ولما مضى من وصولنا الى ملتان شهران ، وصل أحد حجاب السلطان ، وهو شمس الدين البوشنجي [1] ، والملك محمد الهروى الكتوال [2] بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده . وقدم معهما ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان ، وهى أم السلطان ، لاستقبال زوجة خداوند زاده .

وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما ، ولتجهيز من قدم من الوفود . وأتوا جميعا الى وسألوني لماذا قدمت ، فأخبرتهم أني قدمت للاقامة فى خدمة خوند [3] عالم ، وهو السلطان ، وبهذا يدعى فى بلاده .

وكان أمر ألا يترك أحد ممن يأتى من خراسان يدخل بلاد الهند الا ان كان برسم الاقامة . فلما أعلمتهم أني قدمت للاقامة ، استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الاقامة من أصحابى ، وأبى بعضهم ذلك .

وتجهزنا للسفر الى الحضرة ، وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة . وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يحتاج اليه فى ضيافة قوام الدين . واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا .

وكان الحاجب يتقدم ليلا الى كل منزل فيجهز الطعام وسواه ، فما يصل خداوند زاده حتى يكون الطعام متيسرا . وينزل كل واحد

(١) نسبة الى بوشنج ، بليدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ فى واد كثير الشجر والفواكه ... « معجم البلدان لياقوت » .

(٢) رئيس الشرطة ، بلسانهم .

(٣) سيد العالم ، بلسانهم .

ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه ، وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوند زاده .

ولم أحضره أنا الا مرة واحـدة . وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز (وخبـزهم الرقاق وهو شبه الجراديق [1]) ، ويقطعـون اللحم المشوى قطعـا كبـارا ، بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا ، ويجعلون أمام كل رجل قطعة .

ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن ، تشبه الخبز « المشرّك » ببلادنا ، ويجعلـون فى وسطها الحلواء الصـابونية ، ويغطـون كل قرص منها برغيف حلواء مصنوع من الدقيق والسكر والسمن .

ويجعلون شيئا يسمونه سموسك ، وهـو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير ، موضوع فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن ، يضـعون أمام كل انسـان خمس قطع من ذلك أو أربعا .

ثم يجعلون الأرز المطبـوخ بالسمن وعليه الدجاج .

ثم يجعلون لقيمات القاضى ، ثم يجعـلون القاهرية .

ويقف الحاجب على السماط قبـل الأكل ، ويخدم الى الجهة التى فيها السلطان ، ويخدم جميع من حضر لخدمته . والخـدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع ، فاذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل .

ويؤتى بأقداح الذهب والفضـة والزجاج مملوءة بماء النبات ، وهو الجلاب [2] محلولا

(١) فى « القاموس » : الجردقة ، بالفتح ، الرغيف ... معرب .

(٢) ماء الورد ، كما فى « القاموس » .

فى الماء ، ويسـمونّ ذلك الشربة ، ويشربونه قبل الطعام . ثم يقول الحاجب : باسم الله ... فعند ذلك يشرعون فى الأكل .

فاذا أكلـوا أتوا بأكواز الفقـاع [1] ، فاذا شربوه أتوا بالتانبول والفوفل ، وقد تقـدم ذكرهما . فاذا أخذوهما قال الحاجب : باسم الله ... فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون .

وسافرنا من مدينة ملتان ، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه ، الى أن وصلنا الى بلاد الهند . وكان أول بلد دخلناه مدينة « أبوهر » . وهى أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمـارة ، ذات أنهـار وأشـجار . وليس هنـالك من أشجار بلادنا شىء ما عدا النبق . لكنه عندهم عظيم الجرم ، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص ، شديد الحلاوة . ولهم أشجار كثيرة ، ليس منها شىء ببلادنا ولا بسواها .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبة [2] وهى شجرة تشـبه أشجار النارنج ، الا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا . وظلها أكثر الظلال ، غير أنه ثقيـل فمن نام تحته توعك .

وثمرها على قدر الاجاص [3] الكبير . فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سـقط منه ، وجعلوا عليه الملح وصبروه كما يصبر

(١) شراب يعلوه زبد ، كما فى « القاموس » .

(٢) هى شـجرة المنجو كما يؤخـذ من الترجمـة الفرنسية . ولم نجد هذه الكلمة فى كتب اللغة . وفى « القاموس » : والانبج كأحمد ، وتكسر باؤه ، ثمرة شجرة هندية ، معرب أنب .

(٣) الاجاص (بكسر الهمزة ، وتشديد الجيم) ثمر يسهل الصفراء ، ويسكن العطش وحرارة القلب ، وأجوده الحلو الكبير ، والاجاص أيضا المشمش والكمثرى بلغة الشاميين ... ذكره فى « القاموس » .

الليم [1] والليمون ببلادنا ، وكذلك يصبرون الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل . ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات .

فاذا نضجت العنبة فى أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح . فبعضهم يقطعها بالسكين ، وبعضهم يمصها مصا . وهى حلوة ، يمازج حلاوتها يسير حموضة ، ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار ، كما تزرع نوى النارنج وغيرها .

ومنها « الشكى » و « البركى » ، وهى أشجار عادية [2] أوراقها كأوراق الجوز ، وثمرها يخرج من أصل الشجرة . فما اتصل منه بالأرض فهو البركى ، وحلاوته أشد ومطعمه أطيب . وما كان فوق ذلك فهو الشكى ، وثمره يشبه القرع الكبار ، وجلوده تشبه جلود البقر . فاذا اصفر فى أوان الخريف قطعوه وشقوه ، فيكون فى داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار ، بين كل حبة وحبة صفاق [3] أصفر اللون ، ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير . واذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول ، اذ ليس يوجد هنالك . ويدخرون هذه النوى فى التراب الأحمر فتبقى الى سنة أخرى ... وهذا الشكى والبركى خير فاكهة ببلاد الهند .

ومنها « التندو » ، وهو ثمر شجر الأبنوس . وحباته فى قدر حبات المشمش ولونها . وهو شديد الحلاوة .

(1) يظهر انه نوع من الليمون ، فقد قال فى «القاموس» ان نون الليمون قد تسقط .
(2) يراد به ما يطول عمرها جدا ، نسبة الى عاد .
(3) يراد به ما يشبه الجلدة .

ومنها « الجون » ، وأشجاره عادية ، ويشبه ثمرة الزيتون . وهو أسود اللون وله نواة واحدة كالزيتون .

ومنها النارنج الحلو [1] وهو عندهم كثير . وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود . ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض ، وثمره على قدر الليم . وهو طيب جدا ، وكنت يعجبنى أكله .

ومنها « المهوا » ، وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز ، الا أن فيها حمرة وصفرة ، وثمره مثل الاجاص الصغير ، شديد الحلاوة ، وفى أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة . وطعمها كطعم العنب ، الا أن الاكثار من أكلها يحدث فى الرأس صداعا .

ومن العجب أن هذه الحبوب اذا يبست فى الشمس كان مطعمها كمطعم التين . وكنت آكلها عوضا عن التين ، اذ لا يوجد ببلاد الهند .

وهم يسمون هذه الحبة « الأنكور » ، وتفسيره بلسانهم العنب . والعنب بأرض الهند عزيز جدا . ولا يكون بها الا فى مواضع بحضرة دهلى ، وببلاد أخر . ويثمر مرتين فى السنة .

ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به .

ومن فواكههم فاكهة يسمونها « كسيرا » ، يحفرون عليها الأرض ، وهى شديدة الحلاوة تشبه القسطل .

وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ، ويثمر مرتين فى السنة . ورأيته ببلاد جزائر

(1) البرتقال .

ذيبة المهل [1] لا ينقطع له ثمر . وهم يسمونه « أنار » . وأظن ذلك هو الأصل فى تسمية الجلنار ، فان « جل » بالفارسية الزهر ، و « نار » الرمان .

ذكر الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزدرعون مرتين فى السنة . فاذا نزل المطر عندهم فى أوان القيظ ، زرعوا الزرع الخريفى ، وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته . ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم « الكذرو » ، وهو نوع من الدخن . وهذا الكذرو أكثر الحبوب عندهم .

ومنها « القال » .

ومنها « الشاماخ » ، وهو أصغر حبا من القال . وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة ، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين ... يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة ، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره ، وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع ، فيسقط فى القفة ، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة .

وحب هذا الشاماخ صغير جدا . واذا جمع جعل فى الشمس ، ثم يدق فى مهاريس الخشب ، فيطير قشره ويبقى لبه أبيض . ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس ، وهى أطيب من خبزه . وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى .

ومنها الماش [2] ، وهو نوع من الجلبان .

ومنها « المنج » ، وهو نوع من الماش ، لا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة .

(1) جزائر مالديف .

(2) فى « القاموس » : الماش حبيب معروف .

ويطبخون المنج مع الأرز ، ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه « كشرى » ، وعليه يفطرون فى كل يوم . وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب .

ومنها اللوبياء وهى نوع من الفول .

ومنها « الموت » وهو مثل الكذرو ، الا أن حبوبه أصغر . وهو من علف الدواب عندهم ، وتسمن الدواب بأكله .

والشعير عندهم لا قوة له ، وانما علف الدواب من هذا « الموت » أو الحمص ، يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب . ويطعمونها عوضا عن القصيل [1] أوراق الماش ، بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام ، فى كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ، ولا تركب فى تلك الأيام . وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش ، كما ذكرنا ، شهرا أو نحوه .

وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية . واذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية ، وهى القمح والشعير والحمص والعدس . وتكون زراعتها فى الأرض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها . وبلادهم كريمة طيبة التربة .

وأما الأرز فانهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة . وهو من أكثر الحبوب عندهم .

ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها .

*

ولنعد الى ما كنا بسبيله فأقول : سافرنا من مدينة أبو هر فى صحراء مسيرة يوم ، فى أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار [2] الهنود . وربما قطعوا الطريق . وأهل بلاد الهند

(1) القصيل : ما قطع من الزرع أخضر .

(2) يراد بذلك أنهم عبدة أوثان .

أكثرهم كفار . فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق
وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر ، خرج الناس منها أول النهار ، وأقمت بها الى نصف النهار فى لمة [1] من أصحابى . ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا ، منهم عرب ومنهم أعاجم ، فخرج علينا فى تلك الصحراء ثلاثون رجلا من الكفار وفارسان .

وكان أصحابى ذوى نجدة وعتى ، فقاتلناهم أشد القتال ، فقتلنا أحد الفارسين منهم ، وغنمنا فرسه ، وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلا . وأصابتنى نشابة ، وأصابت فرسى نشابة ثانية ، ومن الله بالسلامة منها ، لأن نشابهم لا قوة لها .

وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا .

وأوصلنا تلك الرؤوس الى حصن أبى بكهر فعلقناها على سوره . وكان وصولنا اليه فى نصف الليل .

وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أجودهن ، مدينة صغيرة ، هى للشيخ الصالح فريد الدين البذاونى ، الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الأعرج بالاسكندرية أنى سألقاه ، فلقيته والحمد لله . وهو شيخ ملك الهند ، وأنعم عليه بهذه المدينة .

وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله ، فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه . واذا لصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه .

دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين ، فعجب وقال : أنا دون ذلك .

ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين (وهو أكبرهما ، ولما مات أبوه تولى الشيوخة بعده) ، وعلم الدين . وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاونى ، منسوبا الى مدينة بذاون [1] .

ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ، قال لى علم الدين : لابد لك من رؤية والدى فرأيته ، وهو فى أعلى سطح له ، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة ، وهى مائلة الى جانب . ودعا لى وبعث الى بسكر ونبات .

ذكر أهل الهند
الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا . فسألتهم ما الخبر ؟ فأخبرونى أن كافرا من الهنود مات وأججت النار لاحراقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه !

وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس

(1) قال فى « لسان العرب » : لمة الرجل أصحابه اذا أراد سفرا فأصاب من يصحبه فقد أصاب لمة . والواحد لمة والجمع لمة .

(1) بذاون ، بفتح الباء الموحدة والذال المعجم ، وضم الواو وآخرها نون ... كذا ضبطها ابن بطوطة .

يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود . واذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذنوا السلطان فى احراقها ، فيأذن لهم فيحرقونها .

ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم من سامرة السند . وعلى مقربة منها الكفار العصاة . فقطعوا الطريق يوما وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على احراق أنفسهن .

واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب . لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على احراق نفسها ...

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتى ذكرناهن على احراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، وتأتى اليهن النساء من كل جهة .

وفى صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها . والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار . وكل انسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى . وهى تقول نعم وتضحك لهم !

وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال . وبين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تخللها الشمس . ولما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به .

وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت الجلجلان [1] فزاد فى اشتعالها .

وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر اليها .

فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف ، وقالت لهم وهى تضحك : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة . ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك . وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج

(1) ثمر الكزبرة ، وحب السمسم ... « القاموس » .

ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي ، لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء ، فغسلوا وجهي وانصرفت .

وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق ، يغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك ، وهو الذي اليه يحجون ، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين ، وهم يقولون انه من الجنة .

واذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا ، أو لقلة مال ، انما قصدي التقرب الى كساى (وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم) . ثم يغرق نفسه ، فاذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور .

مدينة سرستى

ولنعد الى كلامنا الأول فنقول : سافرنا من مدينة « أجودهن » ، فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام الى مدينة سرستى ، مدينة كبيرة كثيرة الأرز . وأرزها طيب ، ومنها يحمل الى حضرة دهلى . ولها مجبى كثير جدا . أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته .

مدينة حانسى

ثم سافرنا منها الى مدينة حانسى ، وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة . ولها سور عظيم ، ذكروا أن بانيه رجل من كبار السلاطين الكفار يسمى تورة . وله عندهم حكايات وأخبار .

ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند ، وأخوه قطلوخان معلم السلطان ، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع الى الله وجاور بمكة حتى مات .

مدينة مسعود آباد

وسافرنا من حانسى فوصلنا بعد يومين الى مسعود أباد . وهي على عشرة أميال من حضرة دهلى ، وأقمنا بها ثلاثة أيام . وحانسى و « مسعود أباد » هما للملك المعظم هوشنج ابن الملك كمال كرك (وكرك معناه الذئب) ، وسيأتي ذكره .

وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج . وبينها وبين حضرة دهلى عشرة أيام . وكانت بالحضرة والدته ، وتدعى المخدومة جهان (وجهان اسم الدنيا) .

وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان ، المسمى بأحمد بن اياس ، الرومي الأصل . فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا . وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه ، فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازندراني ، وهو حاجب الغرباء ، والفقيه علاء الدين الملتاني المعروف بقنره . وكتب الى السلطان بخبرنا . وبعث الكتاب مع الداوة ، وهي بريد الرجالة على ماذكرناه . فوصل الى السلطان ، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد .

وبعد تلك الأيام خرج الى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء وهم يسمون الأمراء ملوكا . فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير ، يقولون هم : الملك . وخرج الى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني . وهو كبير المنزلة عند السلطان .

ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم . وهي للسيد الشريف ناصر

الدين مطهر الأوهرى ، أحد ندماء السلطان ، وممن له عنده الحظوة التامة

مدينــة دهلى

وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلى قاعدة بلاد الهند . وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصــانة . وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيـا نظير . وهى أعظـم مدن الهنــد ، بل مدن الاسلام كلها بالمشرق .

وصف المدينة

ومدينة دهلى كبيــرة الســاحة ، كثيــرة العمارة . وهى الآن أربع مدن متجــاورات متصلات :

احداها المسماة بهذا الاســم دهلى ، وهى القديمة ، من بناء الكفار ، وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

والثانية تسمى سيرى ، وتسمى أيضا دار الخلافة ، وهى التى أعطاها السلطان غيــاث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه . وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين ، وسنذكرهما .

والثالثــة تسمى تغلق أباد ، باسم بانيهــا السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه .

وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له : ياخوند عالم ، كان ينبغى أن تبنى هنا مدينة .

فقال له السلطان متهكما : اذا كنت سلطانا فابنها .

فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبنــاها وسماها باسمه

والرابعة تسمى « جهــان بنــاء » ، وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن ، الذى قدمنا عليه ، وهو الذى بناها .

وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد ، فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم فى بنائه .

ذكر سور دهلى وأبوابها

والســور المحيط بمدينــة دهلى ليس له نظيــر. وعرض حائطــه أحد عشر ذراعا . وفيه بيوت يســكنها الســمار [1] وحفــاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات [2] . ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة .

ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ، ولكن طعمه طيب . ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها . وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة .

ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الى آخرها . وفيه طيقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأســفل هذا السور مبنى بالحجارة ، وأعلاه بالآجر . وأبراجه كثيرة متقاربة .

ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا .

وهم يسمون الباب دروازة :

فمنها دروازة بذاون ، وهى الكبرى .

---

(١) الذين يسهرون على حفظ الســور ، تســمية اصطلاحية .

(٢) يقصد بها آلات رمى النار .

ودروازة المندوى ، وبها رحبة الزرع .

ودروازة جل ، وهى موضع البساتين .

ودروازة شاه ، اسم رجل .

ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها .

ودروازة نجيب ، اسم رجل .

ودروازة كمال كذلك .

ودروازة غزنة ، نسبة الى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان ، وبخارجها مصلى العيد ، وبعض المقابر .

ودروازة البجالصة ، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى ، وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ، ولابد عند كل قبر من محراب ، وان كان لا قبة له . ويزرعون بها الأشجار المزهرة ، مثل قل شنبه (كل شنبو) ، وريبول (راى بيل) ، والنسرين ، وسواها . والأزاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول .

ذكر جامع دهلى

وجامع دهلى كبير الساحة ، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ، ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ، ولا خشبة به أصلا . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضا من الحجر . وله أربعة من الصحون .

وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدرى من أى المعادن هو . ذكر لى بعض حكمائهم أنه يسمى « هفت جوش » ، ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف منها . وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة . ولذلك المجلو منه بريق عظيم . ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعا . وأدرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمانى أذرع .

وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس ، مطروحان بالأرض ، قد ألصقا بالحجارة . ويطؤهما كل داخل للمسجد أو خارج منه .

وكان موضع هذا المسجد بدخانة ، وهو بيت الأصنام . فلما افتتحت جعل مسجدا .

وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الاسلام . وهى مبنية بالحجارة الحمر ، خلافا لحجارة سائر المسجد فانها بيض . وحجارة الصومعة منقوشة . وهى سامية الارتفاع ، وفحلها [1] من الرخام الأبيض الناصع . وتفافيحها [2] من الذهب الخالص .

وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . حدثنى من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة الى أعلاها .

وهى من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن .

وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها . فبنى مقدار الثلث منها واخترم [3] دون تمامها . وأراد السلطان محمد اتمامها ، ثم ترك ذلك تشاؤما .

وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها ، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة . وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا أنها بالصحن الشمالى .

(١) المراد رأسها .
(٢) جمع تفاحة ، أى ما يشبه التفاح فى الاستدارة . ولم نر هذا الجمع فى المراجع التى بين أيدينا .
(٣) مات .

وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة . وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك ، لعظم جرمها وسعتها .

وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى أيضا مسجدا جامعا بـ « سيرى » المسماة دار الخلافة ، فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب . وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر . ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد .

وأراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه ، فزعموا أنه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكا ، فترك ذلك استكثارا له . وأخبرنى بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا ، لكنه تشاءم به ، لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه .

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب الى السلطان شمس الدين للمش ، ومنه يشرب أهل المدينة ، وهو بالقرب من مصلاها . وماؤه يجتمع من ماء المطر ، وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله .

والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة ، مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من بعض . وتحت كل دكان درج ينزل عليها الى الماء ، وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين .

وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة ، مجعولة طبقتين . فاذا كثر الماء فى الحوض لم يكن سبيل اليها الا فى القوارب ، فاذا قل الماء دخل اليها الناس . وفى داخلها مسجد . وفى أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون الى الله المتوكلون عليه .

واذا جف الماء فى جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر ، وهو شديد الحلاوة صغير الجرم .

وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاص [1] ، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين ، وعلى جوانبه نحو أربعين قبة .

ويسكن حوله أهل الطرب . وموضعهم يسمى طرب أباد . ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة . وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ، ويؤم بهن الأئمة ، وعددهن كثير ، وكذلك الرجال المغنون . ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب فى عرس الأمير سيف غدا بن مهنا ، ولكل واحد منهم مصلى تحت ركبته ، فاذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى .

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكى ، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم . وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى ، أنه كان اذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة ، أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به الى أزواجهن ، يعطى من أتاه

(1) فى الترجمة الفرنسية أن المقصود بحوض الخاص الحوض الملكى .

منهم كعكة من الذهب أو الفضة ، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله .

ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلاني .

ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرماني ، نسبة الى كرمان . وهو ظاهر البركة ساطع النور .

وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثيرة ، نفع الله تعالى بهم .

ذكر بعض علمائها وصلحائها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا ، وهو من كبار الصالحين . والناس يزعمون أنه ينفق من الكون [1] لأنه لا مال له ظاهرا . وهو يطعم الوارد والصادر ، ويعطي الذهب والدراهم والأثواب . وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها . رأيته مرات كثيرة وحصلت لي بركته .

ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي ، كأنه منسوب الى نيل مصر ، والله أعلم . كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البذاوني . وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة ، فيتوب كثير منهم بن يديه ، ويحلقون رءوسهم ، ويتواجدون [2] ويغشى على بعضهم ...

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارىء بين يديه : « يأيها الناس اتقوا ربكم ن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها ذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » . ثم كررها الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ، ووقع ميتا . وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته .

ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهراني ، وكان يصوم الدهر ويقوم الليل . وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها . ولباسه عباءة . ويزوره السلطان وأهل الدولة ، وربما احتجب عنهم . فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين ، فأبى ذلك . وزاره يوما وأتى اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها . وذكروا أنه لا يفطر الا بعد ثلاث ، وأنه قيل له في ذلك ، فقال : لا أفطر حتى أضطر فتحل لي الميتة .

ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع ، فريد دهره ووحيد عصره ، كمال الدين عبد الله الغاري ، نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلي ، بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني . زرته بهذا الغار ثلاث مرات .

كرامة له

كان لي غلام فأبق مني . وألفيته بيد رجل من الترك ، فذهبت الى انتزاعه من يده ، فقال لي الشيخ : ان هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه . وكان التركي راغبا في المصالحة ، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له . فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده ، وأتي به الى السلطان ، فأمر بتسليمه لأولاد سيده فقتلوه .

ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته وتركت الدنيا ، ووهبت

(١) يريدون بذلك أن الله يرزقه من حيث لايحتسب .
(٢) يظهرون الوجد ، وهو المحبة ، والمراد محبة الله .

بجميع ما كان عندي للفقراء والمساكين . وأقمت عنده مدة ، فكنت أراه يواصل[1] عشرة أيام وعشرين يوما ، ويقوم أكثر الليل . ولم أزل معه حتى بعث[2] عني السلطان ، ونشبت في الدنيا ثانية . والله تعالى يختم بالخير .

وسأذكر ذلك فيما بعد ، ان شاء الله تعالى ، وكيفية رجوعي الى الدنيا .

ذكر فتح دهلي
ومن تداولها من الملوك

حدثني الفقيه الامام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن برهان الغزنوي ، الملقب بصدر الجهان ، أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الأعظم بها .

وأخبرني أيضا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيبك ، وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ، ملك غزنة وخراسان ، المتغلب على ملك ابراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند .

وكان السلطان شهاب الدين بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ، ففتح الله عليه مدينة لاهور ، وسكنها وعظم شأنه . وسعى به الى السلطان ، وألقى اليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند ، وأنه قد عصى وخالف .

وبلغ هذا الخبر قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ، ودخل على السلطان ، ولا علم عند الذين وشوا به اليه .

فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد أيبك تحت السرير بحيث لا يظهر .

وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به . فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أيبك ، فذكروا له أنه عصى وخالف . وقالوا : قد صح عندنا أنه ادعى الملك لنفسه .

فضرب السلطان سريره برجله وصفق بيديه وقال : ياأيبك .

قال : لبيك ، وخرج عليهم ، فسقط في أيديهم ، وفزعوا الى تقبيل الأرض .

فقال لهم السلطان : قد غفرت لكم هذه الزلة ، واياكم والعودة الى الكلام في أيبك .

وأمره أن يعود الى بلاد الهند ، فعاد اليها وفتح مدينة دهلي وسواها . واستقر بها الاسلام الى هذا العهد ، وأقام قطب الدين بها الى أن توفي .

ذكر السلطان شمس الدين للمش

وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلا به . وكان قبل تملكه مملوكا للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائبا عنه . فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة . فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة اذ ذاك وجيه الدين الكاساني ، فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضي الى جانبه على العادة .

(١) يتابع الصوم .

(٢) يريد ارسل في طلبي . وهو تعبير درج المؤلف على استخدامه ، وقد اصلحناه في مواضع كثيرة .

وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه . فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا . واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة ، وكان عادلا صالحا فاضلا .

ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وانصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض . فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته ، وأنصفه ممن ظلمه .

ثم انه أعيا فى ذلك . فقال : ان بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل ، وأريد تعجيل انصافهم . فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام ، موضوعين على برجين هنالك ، وفى عنقيهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير . فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان ، وينظر فى أمره للحين وينصفه .

ولما توفى السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة ، وهم : ركن الدين الوالى بعد ، ومعز الدين ، وناصر الدين ، وبنتا تسمى رضية ، هى شقيقة معز الدين منهم . فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه .

ذكر السلطان ركن الدين
ابن السلطان شمس الدين

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه ، افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله . وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها . فلما كان فى بعض أيام الجمع ، خرج ركن الدين الى الصلاة ، فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمى « دولة خانة » ولبست عليها ثياب المظلومين ، وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : ان أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه . وذكرتهم بأيام أبيها ، وفعله الخير ، واحسانه اليهم .

فثاروا عند ذلك على السلطان ركن الدين وهو فى المسجد ، فقبضوا عليه وأتوا به اليها . فقالت لهم : القاتل يقتل . فقتلوه قصاصا بأخيه .

وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا ، فاتفق الناس على تولية رضية .

ذكر السلطانة رضية

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها . واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب بالقوس والتركش [1] والقربان [2] ، كما يركب الرجال ، ولا تستر وجهها .

ثم انها اتهمت بعبد لها من الحبشة . فاتفق الناس على خلعها وتزويجها ، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها . وولى الملك أخوها ناصر الدين .

ذكر السلطان ناصر الدين
ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة . ثم ان رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا فى مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتهيئا لقتاله . وخرج

(١) كلمة هندية فيما يظهر ، ومعناها كنانة السهام .
(٢) من معانى « القربان » : جليس الملك الخاص ؛ والمعنى عليه ظاهر .

ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن ، متولى الملك بعده ، فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية ، وفرت بنفسها . فأدركها الجوع وأجهدها الاعياء ، فقصدت حراثا رأته يحرث الأرض ، فطلبت منه ما تأكله . فأعطاها كسرة خبز فأكلتها ، وغلب عليها النوم ، وكانت فى زى الرجال .

فلما نامت نظر اليها الحراث وهى نائمة ، فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا ، فعلم أنها امرأة ، فقتلها وسلبها ، وطرد فرسها ودفنها فى فدانه [1] . وأخذ بعض ثيابها فذهب الى السوق لبيعها . فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم ، فضربه فأقر بقتلها ، ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها . ودفنت هنالك وبنى عليها قبة .

وقبرها الآن يزار ويتبرك به . وهو على شاطىء النهر الكبير المعروف بنهر الجون [2] ، على مسافة فرسخ واحد من المدينة .

واستقل ناصر الدين بالملك بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها . وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة .

ثم ان نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده . ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بلبن

ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة . وقد كان

(١) يريد الارض التى يزرعها . وهو غلط ، لان الفدان الثور او الثوران يقرن للحرث بينهما ، أو هو آلة الثورين .

(٢) نهر جمنا .

قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى . وكان من خيار السلاطين ، عادلا حليما فاضلا .

ومن مكارمه أنه بنى دارا وسماها دار الأمن : فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفا أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضا من يطلبه .

وبتلك الدار دفن لما مات . وقد زرت قبره .

حكايته الغريبة

يذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا ، وكان قصيرا حقيرا دميما ، فقال له : ياتركك (وهى لفظة تعرب عن الاحتقار) ، فقال له : لبيك ياخوند [1] .

فأعجبه كلامه ، فقال له : اشتر لى من هذا الرمان ، وأشار الى رمان يباع بالسوق .

فقال : نعم .

وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها ، واشترى له من ذلك الرمان .

فلما أخذها الفقير قال له : وهبنا لك ملك الهند .

فقبل بلبن يد نفسه ، وقال : قبلت ورضيت ، واستقر ذلك فى ضميره .

واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ ، فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن . فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم الا بلبن ، لما ذكرناه من دمامته ، فقال : لا أقبل هذا .

(١) ياسيدى .

فقال له بلبن : ياخوند عالم ، لمن اشتريت هؤلاء المماليك ؟

فضحك منه وقال : اشتريتهم لنفسى

فقال له : اشترنى أنا لله عز وجل .

فقال : نعم . وقبله وجعله فى جملة المماليك . فاحتقر شأنه وجعل فى السقائين .

وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين : ان أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ، ويستولى عليه . ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت الى أقوالهم ، لصلاحه وعدله ، الى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده ، فذكرت له ذلك وأثر فى نفسه . وبحث عن المنجمين ، فقال : أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى اذا رأيتموه ؟

فقالوا له : نعم ، عندنا علامة نعرفه بها .

فأمر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك . فعرضوا بين يديه طبقة طبقة ، والمنجمون ينظرون اليهم ويقولون : لم نره بعد . وحان وقت الزوال ، فقال السقاءون بعضهم لبعض : انا قد جعنا ، فلنجمع شيئا من الدراهم ونبعث أحدنا الى السوق نيشترى لنا ما نأكله .

فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن ، اذ لم يكن فيهم أحقر منه . فلم يجد بالسوق ما أرادوه ، فتوجه الى سوق أخرى وأبطأ . وجاءت نوبة السقائين فى العرض ، وهو لم يأت بعد . فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى ، وعرضوه على أنه بلبن . فلما نودى اسمه جاز الصبى بين أيديهم . وانقضى العرض ، ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها . وجاء بلبن بعد تمام العرض ، لما أراد الله من انفاذ قضائه .

ثم انه ظهر تنجابته فجعل أمير السقائين . ثم صار من جملة الأجناد ، ثم من الأمراء .

ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلى الملك .

فلما ولى الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة . ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى ، كما تقدم ذكر ذلك .

وكان للسلطان بلبن ولدان : أحدهما الخان الشهيد ولى عهده ، وكان واليا لأبيه ببلاد السند ، ساكنا بمدينة ملتان ، وقتل فى حرب له مع التتر ، وترك ولدين هما كى قباد وكى خسرو . وولد السلطان بلبن الثانى يسمى يسمى ناصر الدين ، وكان واليا لأبيه ببلاد اللكنوتى وبنجالة .

فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد الى ولده [1] كى خسرو ، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين .

وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دهلى مع جده ، يسمى معز الدين . وهو الذى تولك الملك بعد جده فى خبر عجيب نذكره ، وأبوه اذ ذاك حى كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلا ، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتى ، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كى خسرو ، على حسب ما قصصناه ، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكى خسرو ،

(1) أى ولد الخان الشهيد .

فأدار عليه حيلة تمت له ، وهي أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الأمراء الكبار ، بأنهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلبن ، ودخل على كي خسرو كالمتنصح له ، فقال له : ان الأمراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم .

فقال له كي خسرو : فما الحيلة ؟

قال : انج بنفسك هاربا الى بلاد السند .

فقال : وكيف الخروج والأبواب مسدودة ؟

فقال له : ان المفاتيح بيدى ، وأنا أفتح لك .

فشكره على ذلك وقبل يده .

فقال : اركب الآن .

فركب فى خاصته ومماليكه ، وفتح له الباب وأخرجه ، وسد فى اثره . واستأذن على معز الدين فبايعه . فقال : كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى ؟

فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه ، فشكره على ذلك . ومضى به الى دار الملك ، وبعث الى الأمراء والخواص فبايعوا ليلا .

فلما أصبح بايعه سائر الناس ، واستقام له الملك . وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتى فاتصل به الخبر . فقال : أنا وارث الملك ، وكيف يلى ابنى الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة ؟

فتجهز فى جيوشه قاصدا حضرة دهلى ، وتجهز ولده فى جيوشه أيضا قاصدا لمدافعته عنها . فتوافيا معا بمدينة كرا ، وهى على ساحل نهر الكنك الذى تحج الهنود اليه . فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلى كرا ، ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلى الجهة الأخرى ، والنهر بينهما ، وعزما على القتال .

ثم ان الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين ، فألقى فى قلب ناصر الدين الرحمة لابنه . وقال : اذا ملك ولدى فذلك شرف ، وأنا أحق أن أرغب فى ذلك . وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه ...

فركب كل واحد منهما فى مركب منفردا عن جيوشه ، والتقيا فى وسط النهر . فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له .

فقال له أبوه : قد وهبت لك ملكى وولايتك . وبايعه وأراد الرجوع لبلاده .

فقال له ابنه : لابد لك من الوصول الى بلادى .

فمضى معه الى دهلى ودخل القصر ، وأقعده أبوه على سرير الملك ، ووقف بين يديه .

وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعدين ، لما كان فيه من حقن الدماء ، وتواهب الملك ، والتجافى عن المنازعة . وأكثرت الشعراء فى ذلك .

وعاد ناصر الدين الى بلاده فمات بها بعد سنين ، وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق ، وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته .

واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك . وكانت كالأعياد ، رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها ، وجود معز الدين وكرمه .

وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى . ولا نظير لها فى البلاد .

وحكى لى بعض أهل الهند أن معز الدين أعثرته علة أعجز الأطباء دواؤها ، ويبس أحد شقيه ، فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجى .

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيه ، خالف عليه نائبه جلال الدين ، وخرج الى ظاهر المدينة ، فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشانى . فبعث معز الدين الأمراء لقتاله ، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته . ثم دخل المدينة وحصره فى القصر ثلاثة أيام .

وحدثنى من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع فى تلك الأيام ، فلم يجد ما يأكله ، فبعث اليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده . ودخل عليه القصر فقتل ، وولى بعده جلال الدين . وكان حليما فاضلا وحلمه أداه الى القتل ، كما سنذكره .

وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين ، زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها . وهى من أخصب بلاد الهند ، كثيرة القمح والأرز والسكر . وتصنع بها الثياب الرفيعة ، ومنها تجلب الى دهلى . وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما .

وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه ، فلا يزال يشكوها الى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها .

وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا ، وحب الملك ثابت فى نفسه ، الا أنه لم يكن له مال الا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار . فاتفق أنه ذهب مرة الى الغزو ببلاد الدويقير ، وتسمى بلاد الكتكة أيضا ، وسنذكرها (وهى كرسى بلاد المالوة والمرهتة ، وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار) ، فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر ، فسمع له طنينا . فأمر بالحفر هنالك ، فوجد تحته كنزا عظيما ، ففرقه فى أصحابه .

ووصل الى الدويقير ، فأذعن له سلطانها بالطاعة ، ومكنه من المدينة من غير حرب ، وأهدى له هدايا عظيمة . فرجع الى مدينة كرا ، ولم يبعث الى عمه شيئا من الغنائم .

فأغرى الناس عمه به ، فبعث اليه فامتنع من الوصول اليه . فقال السلطان جلال الدين : أنا أذهب اليه وآتى به ، فانه محل ولدى .

فتجهز فى عساكره ، وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا ، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج الى لقاء أبيه ناصر الدين . وركب النهر للوصول الى ابن أخيه ، وركب ابن أخيه أيضا فى مركب ثان ، عازما على الفتك به . وقال لأصحابه : اذا أنا عانقته فاقتلوه .

فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه ، وقتله أصحابه كما أمرهم ، واحتوى على ملكه وعساكره .

ذكر السلطان علاء الدين
محمد شاه الخلجى [1]

ولما قتل عمه استقل بالملك ، وفر اليه أكثر عساكر عمه . وعاد بعضهم الى دهلى واجتمعوا على ركن الدين ، وخرج الى دفاعه ، فهربوا جميعا الى السلطان علاء الدين ، وفر

(1) نسبة الى خلج، موضع قرب غزنة ... «ياقوت» .

ركن الدين الى السند ودخل علاء الدين دار الملك ، واستقام له الأمر عشرين سنة .

وكان من خيار السلاطين ، وأهل الهند يثنون عليه كثيرا . وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم ، ويحضر المحتسب (وهم يسمونه الرئيس) فى كل يوم لذلك .

ويذكر أنه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر . فأمر برفع ذلك ، وأمر باحضار التجار وأعطاهم الأموال ، وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها . ففعلوا ذلك .

وفعل مثل هذا فى الأثواب التى يؤتى بها من دولة آباد .

وكان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه . فامتنع الناس عن بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن [1] . وباع للناس ستة أشهر . فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا فى أن يؤذن لهم فى البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا من بيعه بها .

وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا لسواهما . وسبب ذلك أنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه ، وكان يحبه ويعظمه ، فركب يوما الى الصيد وهو معه ، وأضمر فى نفسه أن يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك .

فلما نزل للغداء رماه بنشابة فصرعه ، وغطاه بعض عبيده بترس ، وأتى ابن أخيه ليجهز عليه ، فقال له العبيد انه قد مات فصدقهم . وركب فدخل القصر على الحرم . وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته ، وركب واجتمعت العساكر عليه . وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به اليه فقتله . وكان بعد ذلك لا يركب .

وكان له من الأولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان ، وهو قطب الدين الذى ولى الملك ، وشهاب الدين .

وكان قطب الدين مهتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة . وأعطى جميع اخوته المراتب ، وهى الأعلام والأطبال ، ولم يعطه شيئا .

وقال له يوما : لابد أن أعطيك مثل ما أعطيت اخوتك .

فقال له : الله هو الذى يعطينى . فهال أباه هذا الكلام وفزع منه .

ثم ان السلطان أصابه المرض الذى مات منه . وكانت زوجته أم ولده خضر خان ، وتسمى ماء حق (والماء القمر بلسانهم) ، لها أخ يسمى سنجر ، فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان .

وعلم بذلك « ملك نائب » ، أكبر أمراء السلطان ، (وكان يسمى الألفى ، لأن السلطان اشتراه بألف تنكة ، وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب) ، فوشى الى السلطان بما اتفقوا عليه .

فقال لخواصه : اذا دخل على سنجر فانى معطيه ثوبا ، فاذا لبسه فأمسكوا بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه .

(1) بيت مال الدولة ، وقد استعمل المؤلف هذه الكلمة كثيرا للدلالة على هذا المعنى .

فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه .

وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت ، على مسيرة يوم من دهلى ، وقد توجه لزيارة شهداء مدفونين ، لنذر كان عليه أن يمشى تلك المسافة راجلا ، ويدعو لوالده بالراحة . فلما بلغه أن أباه قتل خاله ، حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه ، وتلك عادة لأهل الهند ، يفعلونها اذا مات لهم من يعز عليهم .

فبلغ والده ما فعله ، فكره ذلك . فلما دخل عليه عنفه ولامه ، وأمر به فقيدت يداه ورجلاه ، وسلمه لـ « ملك نائب » وأمره أن يذهب به الى حصن كاليور ، وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع ، على مسيرة عشرة من دهلى ، وقد سكنته آنا مدة .

فلما أوصله الى هذا الحصن سلمه للكتوال ، وهو أمير الحصن ، وللمفردين وهم الزماميون [1] . وقال لهم : لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه ، انما هو أعدى عدو له ، فاحفظوه كما يحفظ العدو

ثم ان المرض اشتد بالسلطان ، فقال لـ « ملك نائب » : ابعث من يأتى بابنى خضر خان لأوليه العهد

فقال له : نعم . وماطله بذلك ، فمتى سأله عنه قال : هو ذا يصل ، الى أن توفى السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه السلطان شهاب الدين

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد « ملك نائب » ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس . وتغلب « ملك نائب » عليه ، وسمل أعين أبى بكر خان وشادى خان ، وبعث بهما الى كاليور . وأمر بسمل عينى أخيهما خضر خان المسجون هنالك ، وسجنوا ، وسجن قطب الدين ، لكنه لم تسمل عيناه .

وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما بشير والآخر بمبشر ، فبعثت اليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين ، وهى بنت السلطان معز الدين ، فذكرتهما بنعمة مولاهما ، وقالت : ان هذا الفنى (نائب ملك) قد فعل فى أولادى ما تعلمانه ، وانه يريد أن يقتل قطب الدين .

فقالا لها : سترين ما نفعل .

وكانت عادتهما أن يبيتا عند « ملك نائب » ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو فى بيت من الخشب ، ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر . فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده اليه ، فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه ، واحتزا راسه ، وأتيا به الى محبس قطب الدين ، فرمياه بين يديه . وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له ، ثم عزم على خلعه فخلعه .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع اصبعه ، وبعث به الى كاليور فحبس مع اخوته ، واستقام الملك لقطب الدين .

ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى الى دولة آباد ، وهى على مسيرة أربعين يوما منها .

(1) الجند المقيدة اسماؤهم فى جرائد الجيش ، وهى تسمية اصطلاحية فيما يظهر .

والطريق بينهما تكنفه الأشجار من الصفصاف وسواه ، فكأن الماشي به في بستان . وفي كل ميل منه ثلاث « داوات » ، وهي البريد (وقد ذكرنا ترتيبه) ، وفي كل « داوة » جميع ما يحتاج المسافر اليه ، فكأنه يمشي في سوق مسيرة الأربعين يوما .

وكذلك يتصل الطريق الى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر . وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر ، فلا يفتقر الفقير الى حمل زاد في ذلك الطريق .

ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة ، اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه ، وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون ، وسنه نحو عشرة أعوام ، وكان مع السلطان .

فبلغ السلطان ذلك ، فأخذ ابن أخيه هذا وأمسك برجليه وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه .

وبعث أحد الأمراء ويسمى « ملك شاه » الى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه ، وأمره بقتلهم جميعا . فحدثني القاضي زين الدين مبارك ، قاضي هذا الحصن ، قال : قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم ، وكنت عند خضر خان بمحبسه ، فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه . ودخل عليه الأمير ، فقال له : فيم جئت ؟

قال : في حاجة خوند عالم .

فقال له : نفسي سالمة ؟

فقال : نعم .

وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن ، والمفردين وهم الزماميون ، وكانوا ثلاثمائة رجل ، وأرسل الى والي العدول ، واستظهر بأمر السلطان فقرأوه .

وأتوا الى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه ، وهو متثبت غير جزع . ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان . ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل . وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه .

وسحبوهم جميعا في حفرة بدون تكفين ولا غسل . وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم .

وعاشت أم خضر خان مدة . ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين .

وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر ، لا يحاذيه جبل . وبداخله جباب الماء ، ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار مضافة الى الحصن ، منصوبا عليها المجانيق والرعادات .

ويصعد الى الحصن في طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس . وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر ، وعليه صورة فيّال . واذا رآه الانسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة .

وفي أسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة ، مساجدها ودورها ، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب . وكذلك دار الملك بها ، والقباب والمجالس ، وأكثر سوقتها كفار . وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان ، لا يزالون في جهاد لأنها بين الكفار .

ولما قتل قطب الدين اخوته واستقل بالملك ، فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه ،

بعث الله تعالى عليه خاصته الحظى لديه ، أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنـــده ، ناصر الدين خسرو خان ، ففتك به وقتله واستقل بملكه .

الا أن مدته لم تطل فى الملك . فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه ، وهو السلطان تغلق ، كما نشرح ذلك كله مستوفى ان شاء الله تعالى اثر هذه السطور .

ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين

وكان خسرو خـــان من أكبـــر أمراء قطب الدين . وهو شجاع حسن الصورة . وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المعبـــر ، وهى من أخصب بلاد الهند ، وبينهما وبين دهلى مسيرة ستة أشهر .

وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره ، فجر ذلك حتفه على يديه .

وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضى خان صدر الجهان ، وهو أكبر أمرائه ، وكليت دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر . وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ، ومعه أهل النوبة ، وهم ألف رجل ، يبيتون مناوبة بين أربع ليال . ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر ، وسلاح كل واحد منهم بين يديه ، فلا يدخل أحد الا فيما بين سماطيهم . واذا تم الليل أتى أهل نوبة النهـــار . ولأهل النـــوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبـــون من غاب منهم أو حضر .

وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خسرو خان ، ويسوءه ما يراه من ايثاره لكفار الهنود وميله اليهم ، وأصله منهم . ولا يزال يلقى ذلك الى السلطان فلا يسمع منه ، ويقول له : دعه وما يريد ، لما أراد الله من قتله على يديه .

فلما كان فى بعض الأيام قال خسرو خـــان للسلطان : ان جماعة من الهنـــود يريدون أن يسلموا . ومن عادتهم بتلك البلاد أن الهندى اذا أراد الاسلام أدخل الى السلطان ، فيكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره .

فقال له السلطان : ائتنى بهم .

فقال : انهم يستحيون أن يدخلوا اليك نهارا لأجل أقربائهم وأهل ملتهم .

فقال له : ائتنى بهم ليلا .

فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم ، فيهم أخـــوه خان خانان ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينـــام فوق ســـطح القصر ، ولا يكون عنده فى ذلك الوقت الا بعض الفتيان .

فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شـــاكون فى الســـلاح ، ووصلوا الى البـــاب الخامس وعليه قاضى خان ، أنكر شأنهم وأحس الشر ، فمنعهم من الدخول ، وقال : لابد أن أسمع من خـــوند عالم بنفسى الاذن فى دخـــولهم ، وحينئذ يدخلون .

فلما منعهم من الدخـــول هجمـــوا عليـــه فقتلوه ، وعلت الضـــجة بالبـــاب . فقـــال السلطان : ما هذا ؟

فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليسلموا ، فمنعهم قاضى خان من الدخول .

وزاد الضجيج ، فخـــاف السلطان ، وقام يريد الدخول الى القصر ، وكان بابه مسدودا

والفتيان عنده . فقرع الباب ، واحتضنه خسرو خان من خلفه ، وكان السلطان أقوى منــه ، فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هو ذا فوقى فاقتلوه . فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر الى صحنه .

وأرسل خسرو خان من حينــه الى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفــق . فكلمــا أدخلت طائفــة وجــدوه عــلى سرير الملك فبايعوه .

ولما أصبح أعلن أمره ، وكتب المراسم وهى الأوامر الى جميع البلاد ، وبعث لــكل أمير خلعة . فأطاعوه جميعا وأذعنوا ، الا تغلق شاه والد السلطان محمــد شاه . وكان اذ ذاك أميرا بدبال بور من بلاد السند ، فلما وصلته خلعــة خسرو خان طرحهــا بالأرض وجلس فوقها . وبعث اليه أخاه خان خانان فهزمه ، ثم آل أمره الى أن قتله ، كمــا سنشرحه فى أخبار تغلق .

ولما ملك خسرو خان آثر الهنــود ، وأظهر أمورا منكرة ، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود ، فانهم لا يجيزون ذبحها . وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق . وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء اذا مرضوا . ويلطخــون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها .

وكان ذلك ممــا بغض خسرو خــان الى المسلمين ، وأمالهم الى تغلق . فلم تطل مــدة ولايتــه ، ولا امتــدت أيام ملكه ، كمــا سنذكره .

ذكر السلطان غيــاث الدين تغلق شاه

حدثنى الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ، ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبد الله ، ابن الولى الامام العــالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى الملتانى بزاويته منها ، أن السلطــان تغلــق كان من الأتراك المعروفين بالقرونة ، وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك .

وكان ضعيف الحال ، فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجــار ، وكان كلوانيــا له ، والكلوانى هو راعى الخيل [1] . وذلك فى أيام السلطان علاء الدين ، وأمير الســند اذ ذاك أخوه أولو خان . فخدمه تغلق وتعلق بجانبه ، فرتبه فى البيادة ، وهم الرجالة ، ثم ظهرت نجابته فأثبت فى الفرسان ، ثم كان من الأمراء الصغار ، وجعله أولو خان أمير خيله . ثم كان بعــد من الأمراء الــكبار ، وســمى بالملك الغازى .

ورأيت مكتوبا على مقصــورة الجــامع بملتان ، وهو الذى أمر بعملهــا : انى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم ، فحينئــذ سميت بالملك الغازى .

ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة « دبال بور » وعمالتها ، وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله . وكان يسمى جونة ، ولما ملك تسمى بمحمد شاه .

ثم لما قتل قطب الدين وولى خسرو خــان أبقــاه على امارة الخيــل ، فلما أراد تغلق الخلاف ، كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال .

وكتب الى كشلوخان وهو يومئذ بملتان ، وبينها وبين « دبال بور » ثلاثة أيام ، يطلب

(١) أى بلســانهم .

منه القيام بنصرته ، ويذكره نعمة قطب الدين ، ويحرضه على طلب ثأره .

وكان ولد كشلو خان بدهلى ، فكتب الى تغلق : انه لو كان ولدى عندى لأعنتك على ما تريد . فكتب تغلق الى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ، ويأمره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان .

فأدار ولده الحيلة على خسرو خان ، وتمت له كما أراد . فقال له : ان الخيل قد سمنت وبدنت ، وهى تحتاج الى التضمير ، فأذن له فى تضميرها .

فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث ، واستمر الى أربع ساعات ، الى أن غاب يوما الى وقت الزوال ، وذلك وقت طعامهم . فأمر السلطان بالركوب فى طلبه فلم يجد له خبرا . ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلوخان .

وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر ، وخرج معه كشلوخان فى أصحابه . وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما ، فهزماه شر هزيمة ، وفر عسكره اليهما . ورجع خان خانان الى أخيه ، وقتل أصحابه ، وأخذت خزائنه وأمواله .

وقصد تغلق حضرة دهلى ، وخرج اليه خسرو خان فى عساكره ، ونزل بخارج دهلى ، بموضع يعرف بأصيا أباد ، ومعنى ذلك رحى الريح . وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الأموال بالبدر لا بوزن ولا عد .

ووقع اللقاء بينه وبين تغلق ، وقاتلت الهنود أشد قتال .

وانهزمت عساكر تغلق ، ونهبت محلته ، وانفرد فى أصحابه الأقدمين الثلاثمائة . فقال لهم : الى أين الفرار ؟ حيثما أدركنا قتلنا !

واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل . فقصد تغلق وأصحابه موقفه [1] ، فحمى القتال بينهم وبين الهنود ، وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد . وهرب فنزل عن فرسه ، ورمى بثيابه وسلاحه ، وبقى فى قميص واحد . وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ، ودخل بستانا هنالك .

واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة ، فأتاه الكتوال بالمفاتيح ، ودخل القصر ونزل بناحية منه ، وقال لكشلوخان : أنت تكون السلطان .

فقال كشلوخان : بل أنت تكون السلطان .

وتنازعا فقال له كشلوخان : فان أبيت أن تكون سلطانا يتول ولدك .

فكره هذا وقبل حينئذ . وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام .

ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسرو خان ، وهو مختف بالبستان . فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما ، فلم يكن عنده ، فأعطاه خاتمه وقال . اذهب وارهنه فى طعام .

فلما ذهب بالخاتم الى السوق ، أنكر الناس أمره ، ورفعوه الى الشحنة ، وهو الحاكم ، فأدخله على السلطان تغلق فأعلمه بمن دفع اليه الخاتم ، فبعث ولده محمدا ليأتى به . فقبض عليه ، وأتاه به راكبا على « تتو » ، وهو البرذون .

(1) أى موقف خسرو خان .

فلما مثـل بين يديه ، قال له : انى جائع فائتني بالطعام ، فأمر له بالشربة [1] ، ثم بالطعام ثم بالفقاع ، ثم بالتانبول . فلما أكل قام قائما وقال : ياتغلق ، افعل معى فعـل الملوك ولا تفضحنى .

فقال له : لك ذلك .

وأمر به فضربت رقبتـه ، وذلك فى الموضع الذى قتل هو به قطب الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين . وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ، ودفن فى مقبرته .

واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام ، وكان عادلا فاضلا .

ذكر ما رامه ولده من القيام عليه
فلم يتم له ذلك

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتتح بلاد التلنك ، وهى على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلى . وبعث معه عسكرا عظيمـا فيه كبار الأمراء : مثل الملك تمور ، ومثل الملك تكين ، ومثل الملك كافور المهردار ، ومثـل الملك بيرم وسواهم .

فلما بلغ أرض التلنك أراد المخالفة . وكان له نديم من الفقهاء الشعراء ، يعرف بعبيد ، فأمره أن يلقى الى الناس أن السلطان تغلـق توفى ، وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين اذا سمعوا ذلك .

فلما ألقى ذلك الى الناس أنكره الأمراء ، وضرب كل واحد منهم طبله وخالف ، فلم يبق معه من أحد . وأرادوا قتله ، فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه . ففر الى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم « ياران موافق » ، ومعنـاه الأصحاب الموافقـون . فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعودة الى تلنك فعاد اليها .

وعلم أبوه بما كان أراد ، فقتـل الفقيـه عبيدا ، وأمر بالملك كافور المهردار فضرب له عمود فى الأرض محدود الطرف ، وركز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ، ورأسه الى أسفل ، وترك على تلك الحال .

وفر من بقى من الأمراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ، واستقروا عنده .

ذكر مسير تغلق الى بلاد اللكنوتى
وما اتصل بذلك الى وفاته

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين . ثم ان شمس الدين توفى ، وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيـه . ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور بورة ، ومعناه بالهندية الأسـود . واسـتولى على الملك ، وقتل أخاه قطلوخان وسائر اخوته .

وفر شهاب الدين وناصر الدين منهـم الى تغلق ، فتجهز معهما بنفسه لقتـال أخيهمـا ، وخلف ولده محمدا نائبا عنه فى ملكه . وأجد السير الى بلاد اللكنوتى فتغلب عليها ، وأسر سلطانها غياث الدين بهادور ، وقدم به أسيرا الى حضرته .

وكان بمدينـة دهلى الولى نظـام الدين البذاونى ، ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسـأله الدعاء . وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه . فقال ابن

(1) شراب حلو كما يفهم مما تقدم .

السلطان لخدامه : اذا كان الشيخ فى حاله التى تغلب عليه فأعلمونى بذلك . فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه . فلما رآه الشـيخ قال : وهبنا لك الملك .

ثم توفى الشيخ فى أيام غيبـة السلطان ، فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله ، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده . وكان قد رابتـه منه أمور . ونقم منه اسكثاره من شراء المماليك ، واجزاله العطايا ، واسـتجلابه قلوب الناس ، فزاد حنقه عليه .

وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دهلى بعد سفره ذلك . ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة ، أمر ولده أن يبنى له قصرا ، وهم يسمونه الكشك ، على واد هنالك يسمى أفغان بور . فبناه فى ثلاثة أيام ، وجعل أكثر بنائه بالخشب ، مرتفعا على الأرض ، قائمـا على سوارى خشب . وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان ، واسمه أحمد بن اياس ، كبير وزراء السلطان محمد .

وكانت الحكمة التى اخترعوها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهـة منـه وقـع ذلك القصر وسقط .

ونزل السلطـان بالقصر وأطعـم النـاس وتفرقوا . واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة ، فأذن له .

وحدثنى الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ، ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود . فجاء محمـد ابن السلطان فقـال للشـيخ : ياخوند ، هذا وقت العصر ، انزل فصل .

قال لى الشيخ : فنزلت . وأتى بالأفيال من جهة واحدة على ما دبروه . فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود .

قال الشيخ : فسمعت الضجة فعـدت ولم أصل ، فوجدت الكشك قد سقط . فأمر ابنه أن يؤتى بالفئوس والمساحى [1] للحفر عنـه ، وأشار بالابطاء ، فلم يؤت بهما الا وقد غربت الشمس . فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت .

وفزعـم بعضـهم أنه أخرج ميتـا . وزعم بعضهم أنه أخرج حيا ، فأجهز عليه ، وحمـل ليلا الى مقبرته التى بناها خارج البلدة المسماة باسمه تغلق آباد فدفن بها .

وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة . وبها كانت خزائن تغلق وقصـوره . وبهـا القصر الأعظم الذى جعل قراميده مذهبة ، فاذا طلعت الشمس كان لهـا نور عظيم وبصيص [2] يمنع البصر من ادامة النظر اليهـا ، واختزن بهـا الأموال الكثيرة .

ويذكر أنه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا ، فكان قطعة واحدة . فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولى .

وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان فى بناء الكشك الذى سقط على تغلق ، كانت حظوته عند ولده محمد شاه وايثـاره لديه ، فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم .

---

(١) المساحاة : المجرفة .

(٢) بريق .

ذكر السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ، ولا مخالف عليه ، وقد قدمنا أنه كان اسمه جونة . فلما ملك تسمى بمحمد ، واكتنى بأبى المجاهد .

وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته ، أو معظمه ، من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضى القضاة . وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده .

ذكر وصفه

وهذا الملك أحب الناس لاسداء العطايا واراقة الدماء ، فلا يخلو بابه عن فقير يغنى ، أو حى يقتل . وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة ، وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات .

وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم اظهارا للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها .

وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم ، وخرق المعتاد يمن نقيبتهم . ولكن الأغلب عليه الكرم .

وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا .

واعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسعه عقل كثير من الناس ، ويعدونه من قبيل المستحيل عادة . ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعنى الا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سرا ، ولها أبواب كثيرة . فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ، ويقعد به أهل الأنقار والأبواق والصرنايات . فاذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، ويقولون فى ضربهم : جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضا فى البابين الثانى والثالث .

وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس ، فان العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ، ويبقى هنالك ثلاثا .

وبين البابين الأول والثانى دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، ويقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الأبواب .

وأما الباب الثانى ، فيقعد عليه البوابون الموكلون به . وبينه وبين الباب الثالث دكان كبير يقعد عليه نقيب النقباء ، وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده . وعلى رأسه كلاة [1] من الذهب مجوهرة ، فى أعلاها ريش الطواويس . والنقباء بين يديه ، وعلى رأس كل واحد منهم شاشية [2] مذهبة ، وفى وسطه منطقة ، وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة . ويفضى هذا الباب الثانى الى « مشور » كبير متسع يقعد به الناس .

(١) ضرب من القلانس عندهم . والكلمة غير عربية .
(٢) غطاء للرأس من نسيج رقيق وهو ما يسمى بالشاش عندنا الآن .

وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب .

ومن عاداتهم ألا يدخل هذا الباب أحد الا من عينه السلطان لذلك .

ويعين لكل انسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه .

وكل من يأتى الى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلانا جاء فى الساعة الأولى أو الثانية أو ما بعدهما من الساعات الى آخر النهار . ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة .

ويكتبون أيضا كل ما يحدث بالباب من الأمور ، وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل ما يكتبونه الى السلطان .

ومن عادتهم أيضا أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر ، لا يدخل هذا الباب بعدها الا باذن من السلطان . فان كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يليق اهداؤه الى السلطان .

وكذلك أيضا القادمون من الأسفار : فالفقيه يهدى المصحف والكتاب ، وشبه الفقير يهدى المصلى والسبحة والمسواك ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح .

وهذا الباب الثالث يفضى الى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمى هزار أسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وهى سوار من خشب مدهونة ، عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش ، يجلس الناس تحتها . وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه للناس

وأكثر جلوسه بعد العصر ، وربما جلس أول النهار . وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض ، فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك .

وقعوده كجلوس الانسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فاذا جلس وقف أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب .

وكبير الحجاب هو « فيروز ملك » ابن عم السلطان ونائبه . وهو أدنى الحجاب الى السلطان . ثم يتلوه « خاص حاجب » ، ثم يتلوه « نائب خاص حاجب » ، ووكيل الدار ونائبه ، وشرف الحجاب ، وسيد الحجاب ، وجماعة تحت أيديهم .

ثم يتلوا الحجاب النقباء وهم نحو مائة .

وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم : باسم الله . ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير « قبولة » ، وبيده المذبة يشرد بها الذباب . ويقف مائة من السلحدارية [1] عن يمين السلطان ، ومثلهم عن يساره ، بأيديهم الدرق والسيوف والقسى . ويقف فى الميمنة والميسرة بطول « المشور » قاضى القضاة ، ويليه خطيب الخطباء ، ثم سائر القضاة ، ثم كبار الفقهاء ، ثم كبار الشرفاء المشايخ ، ثم اخوة السلطان وأصهاره ، ثم الأمراء الكبار ، ثم كبار الأعزة (وهم الغرباء) ، ثم القواد .

ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية . فمنها ما هو بشعار الخلافة ، وهى التى لجمها ودوائرها من الحرير

(1) جنود شاكون فى السلاح ، بلسانهم .

الأسود المذهب ، ومنها ما يكون ذلك فيها من الحرير الأبيض المذهب . ولا يركب بذلك غير السلطان . فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين ، والنصف عن الشمال ، بحيث يراها السلطان .

ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب ، مكسوة أنيابهـا بالحديد ، اعدادا لقتل أهل الجرائم ، وعلى عنق كل فيل فياله ، وبيده شبه الطبرزين [1] من الحديد يؤدبه به ، ويقومه لما يراد منه .

وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم ، يسع عشرين من المقاتلة ، وأكثـر من ذلك ودونه ، على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه . ويكون فى أركان ذلك الصندوق أربعـة أعلام مركوزة .

وتلك الفيلة معلمة أن تخدم للسلطان وتحط رؤوسها . فاذا خـدمت قال الحجاب : باسم الله ، بأصوات عالية . ويوقف أيضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشـمال ، خلف الرجال الواقفين .

وكل من يأتى من الناس المعينين للوقـوف فى الميمنـة أو الميسرة يخدم عنـد مـوقف الحجاب . ويقول الحجاب : باسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صـوت الذى يخدم ... فاذا خدم انصرف الى موقفـه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه أبدا .

ومن كان من كفار الهنود يخدم ، ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله .

ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم ، بأيديهم الترسة والسيوف ، فلا يمـكن أحدا

(١) آلة كالسـاطور ، غير عربية .

الدخول بينهم الا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان .

ذكر دخول الغرباء
وأصحاب الهدايا عليه

وان كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية ، دخل الحجـاب على السلطان عـلى ترتيبهم ، يقدمهم « أمير حاجب » ونائبه خلفه ، ثم « خاص حاجب » ونائبه خلفه ، ثم وكيـل الدار ونائبه خلفه ، ثم سيد الحجاب ، وشرف الحجاب .

ويخدمون فى ثلاثة مواضـع ، ويعلمـون السلطان بمن فى الباب . فاذا أمرهم أن يأتوا به ، جعلوا الهدية التى سـاقها بأيدى الرجال يقـومون بهـا أمام النـاس ، بحيث يراها السلطان .

ويستدعى صاحبها ، فيخدم قبل الوصول الى السلطـان ثلاث مرات ، ثم يخـدم عند موقف الحجاب .

فان كان رجلا كبيرا وقف فى صـف أمير حاجب ، والا وقف خلفه . ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ، ويرحب به .

وان كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعـانقه ، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه . فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده ، وأظهر استحسانا ، جبرا لخاطر مهديها ، وايناسا له ، ورفقا به . وخلع عليه ، وأمر له بمال لغسل رأسه [1] ، على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى .

ذكر دخول هدايا عماله عليـه

واذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابى البلاد ، صنعوا الأوانى من الذهب

(١) غسل الرأس هنا غير مراد ، والمراد التكريم .

والفضة مثل الطســوت والأباريق وسواها ، وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر ، يسمونها الخشت .

ويقف الفراشون وهم عبيد السلطان صــفا والهدية بأيديهم ، كل واحد منهــم ممســك قطعة .

ثم يقدم الفيلة ان كان فى الهدية شىء منها ، ثم الخيل المسرجة الملجمة ، ثم البغــال ، ثم الجمال وعليها الأموال .

ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم ، حين قدم السلطان من دولة أباد ، ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة . فأدخلت الهدية اليه على هذا الترتيب .

ورأيت فى جملتها صينية مملوءة بأحجــار الياقوت ، وصــينية مملوءة بأحجار الزمرد ، وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر .

وكان « حاجى كاون » ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك ، فأعطاه حظا منها . وسنذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعيــدين
وما يتصــل بذلك

واذا كانت ليلة العيد بعث السلطــان الى الملوك والخواص ، وأرباب الدولة والأعزة ، والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيــد وأهل الأخبار ، الخلع التى تعمهم جميعا .

فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلهــا بالحرير والجواهر . ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد ، وانما هى مختصة بركوب السلطان . ويرفع عليها ستة عشر شطرا [1] من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص . وعلى كل فيــل مرتبــة حرير مرصعة بالجواهر .

ويركب السلطان فيلا منهــا . وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشى بين يديه عبيــده ومماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب ، وعلى وسطه منطقــة ذهب . وبعضهم يرصعها بالجوهر . ويمشى بين يديه أيضا النقباء ، وهم نحو ثلاثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب ، وعلى وســطه منطقة ذهب ، وفى يده مقرعة نصابها ذهب .

ويركب قاضى القضاة صدر الجهان كمــال الدين الغزنوى ، وقاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى ، وسائر القضــاة ، وكبــار الأعزة من الخراســانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغــاربة ... كل واحد منهم على فيل . وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على الفيلة وهم يكبرون .

ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب ، والعساكر تنتظره ، كل أمير بفوجه على حدة ، ومعه طبــوله وأعلامه . فيقــدم السلطــان ، وأمامه من ذكرنا من المشــاة ، وأمامهــم القضــاة والمؤذنــون يذكرون الله تعالى .

وخلف السلطــان مراتبــه : وهى الأعلام والطبول والأبــواق والأنقــار والصرنايات ، وخلفهم جميع أهل دخلته [1] .

(1) يراد به المظلة بلسانهم ، وشطر معرب « جتــر » بالفارسية .

(1) بطانته .

ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره .

ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره .

ثم يليه ابن عمه الملك فيروز بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الملك مجبر بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره . وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال . أخبرنى صاحب ديوانه ، ثقة الملك علاء الدين على المصرى ، المعروف بابن الشرايشى ، أن نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكا فى السنة .

ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره .

ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره ...

وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لايفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب .

وجميع من يركب فى ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه ، وأكثرهم مماليك السلطان .

فاذا وصل السلطان الى باب المصلى وقف على بابه ، وأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة . ثم ينزل السلطان ، ويصلى الامام ويخطب . فان كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة ، بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم .

ثم يركب الفيل ويعود الى قصره .

ذكر جلوسه يوم العيد
وذكر السرير الأعظم
والمبخرة العظمى

ويفرش القصر يوم العيد ، ويزين بأبدع الزينة ، وتضرب الباركة على المشور كله ، وهى شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة . وتحف بها القباب من كل ناحية .

ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار . ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور . ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة .

وينصب السرير الأعظم فى صدر المشور وهو من الذهب الخالص ، كله مرصع القوائم بالجواهر . وطوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل . وكل قطعة يحملها جملة رجال لثقل الذهب . وتجعل فوقه المرتبة .

ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان .

وعندما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله ، ثم يتقدم الناس للسلام . فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ ، واخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ، ثم الأعزة ، ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المماليك ، ثم كبار الأجناد ... يسلم واحد اثر واحد ، من غير تزاحم ولا تدافع .

ومن عاداتهم فى يوم العيد أن كل من بيده قرية منعم بها عليه ، يأتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه ، فيلقيها فى طست ذهب هنالك ، فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان من شاء .

فاذا فرغ الناس من السلام ، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم .

وتنصب فى ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فاذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال .

وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القمارى [1] والقاقلى [2] والعنبر الأشهب والجاوى ، حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر ، يصبونه على الناس صبا .

وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان الا فى العيدين خاصة . ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك .

وتنصب « باركة » بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان فى داخلها . ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتيز ، وعلى الباب الثانى الملك نكبية ، وعلى الباب الثالث يوسف بغرة . ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية ، وعن اليسار كذلك . ويقف الناس على مراتبهم .

وشحنة [3] الباركة « الملك طغا » ، وبيده عصا ذهب ، وبيد نائبه عصا فضة ، يرتبان الناس ويسويان الصفوف . ويقف الوزير والكتاب خلفه ، ويقف الحجاب والنقباء .

ثم يأتى أهل الطرب : فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات فى تلك السنة ، فيغنين ويرقصن . ويهبهن السلطان للأمراء والأعزة . ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ، ويهبهن لاخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ...

ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر .

ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب . ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ، ويهبهن لأمراء المماليك .

وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم .

وفى اليوم الرابع يعتق العبيد .

وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى .

وفى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى .

وفى اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها .

ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره

واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا ، منها مزركش [1] ومنها مرصع ، وحملت أمامه الغاشية وهى الستار المرصعة بالجوهر النفيس .

وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات ، وتكسى بثياب الحرير . ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات ، عليهن أجمل لباس وأحسن حلية . ومنهن رواقص .

---

(1) نسبة الى قمار بلد بالهند . ويقول ياقوت : ان صحة الاسم قامرون لا قمار .

(2) القاقلة : ثمر نبات هندى من العطر ، كما فى « القاموس » .

(3) المراد به هنا القائم على حراسة الباركة .

(1) المزركش الحرير المنسوج بالذهب ، لانه مركب من « زر » أى ذهب ، ومن « كش » ومعناها ذو . ولم نعثر عليها فى المعجمات المتداولة .

ويجعل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود ، مملوء بماء الجلاب محلولا بالماء ، يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر ، وبلدى أو غريب . وكل من يشرب منه يعطى التانبول والفوفل .

ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطؤه مركب السلطان . وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ، ويمشى أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف . وتكون الأفواج والعساكر خلفه .

ورأيته فى بعض قدماته على الحضرة ، وقد نصبت ثلاثة أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ، ترمى بالدنانير والدراهم على الناس ، فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتى يصل الى قصره .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين : الطعام الخاص ، والطعام العام . فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منه . وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين .

ويحضر لذلك الأمراء الخواص و « أمير حاجب » ابن عم السلطان ، وعماد الملك سرتيز ، و « أمير مجلس » . ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معه .

وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فأخذ احدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ، وأعطاه اياها ، فيأخذها المعطى ويجعلها فى كفه اليسرى ، ويخدم بيده اليمنى الى الأرض .

وربما بعث من ذلك الطعام الى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنع الحاضر ، ويأكله مع من حضره .

وقد حضرت مرات هذا الطعام الخاص ، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : باسم الله ، ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ، ونائبه معه بيده عمود فضة . فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور أصواتهم ، قاموا قياما جميعا . ولا يبقى أحد قاعدا الا السلطان وحده .

فاذا وضع الطعام اصطفت النقباء صفا ، ووقف أميرهم أمامهم ، وتكلم بكلام يمدح فيه والسلطان ويثنى عليه ، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ، ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير .

وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك ، وقف ان كان ماشيا ، ولزم موقفه ان كان واقفا ، ولا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام .

ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم ، ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية ... وحينئذ يجلسون .

ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام ، وان كان السلطان قد علم بحضوره . ويحمل المكتوب صبى من أبناء الملوك موكل بذلك ، فيأتى به الى السلطان . فاذا قرأه

عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب النـاس واطعامهم .

وطعـامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجـاج والسمك . وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم .

وعادتهم أن يكون فى صدر سماط الطعـام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثم أقارب السلطان ، ثم الأمراء الـكبار ، ثم سائر الناس .

ولا يقعد أحد الا فى موضع معين له ، فلا يكون بينهم تزاحم ألبتـة . فاذا جلسوا أتى « الشربدارية » ، وهم السقاة وبأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج ، مملوءة بالنبات المحلول بالماء ، فيشربون ذلك قبـل الطعام . فاذا شربوا قال الحجاب : باسم الله .

ثم يشرعون فى الأكل ، ويجعـل أمام كل انسان من جميع ما يحتوى عليـه السماط ، يأكل منه وحده . ولا يأكل أحد مع أحد فى صحفة واحدة .

فاذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع فى أكواز القصدير . فاذا أخذوه ، قال الحجاب : باسم الله .

ثم يؤتى بأطباق التانبول والفوفل فيعطى كل انسان غرفة من الفوفل المهشوم ، وخمس عشرة ورقة من التانبول ، مجمـوعة مربوطة بخيط حرير أحمر .

فاذا أخذ النـاس التانبـول قال الحجاب : باسم الله ، فيقومون جميعا ويخدم الأمير المعين للاطعام ، ويخدمون لخدمته ، ثم ينصرفون .

وطعامهم مرتان فى اليوم ، احداهما قبـل الظهر ، والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره فى الجود والكرم

وانمـا أذكر منهـا ما حضرته وشـاهدته وعاينته . ويعلم الله تعالى صـدق ما أقول ، وكفى به شهيدا . مع أن الذى أحكيه مستفيض متواتر ، والبلاد التى تقرب من أرض الهنـد كاليمن وخراسان وفارس ، مملوءة بأخباره ، يعلمونها حقيقة ، ولا سيما جوده على الغرباء ؛ فانه يفضلهـم على أهل الهنـد ، ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ، ويسبغ عليهم الانعام ، ويوليهم الخطط الرفيعة ، ويوليـهم المواهب العظيمة .

ومن احسانه اليهم أن سـماهم الأعزة ، ومنع من أن يدعوا الغرباء . وقال : ان الانسان اذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغيرت حاله .

وسأذكر بعضا مما لا يحصى من عطـاياه الجزيلة ومواهبه ، ان شاء الله تعالى .

كان شهاب الدين هذا صديقا لملك التجار الكازرونى الملقب ببرويز . وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينـة كنبـاية ووعده أن يوليه الوزارة ، فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه ، فأتاه وأعد هدية للسلطان ، وهى سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب، وصيوان مما يناسبها ، وخباء ، وتابع ، وخباء راحة (كل ذلك من الملف المزين) ، بغـال كثيرة .

فلما قدم شهاب الدين بهذه الهـدية على صاحبه ملك التجار وجده آخذا فى القـدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابى بلاده وبهدية السلطان .

وعلم الوزير خــواجه جهــان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغــار من ذلك ، وقلق بسببه . وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة فى ولاية الوزير ، ولأهلها تعلق بجانبه ، وانقطاع اليه ، وتخدم له . وأكثرهم كفار ، وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبــال ... فدس الوزير اليهم أن يضربوا على ملك التجار اذا خرج الى الحضرة .

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شــهاب الدين بهديته ، نزلوا يوما عند الضحى عــلى عادتهم ، وتفرقت العســاكر ونام أكثــرهم ، فضرب عليهم الكفار فى جمع عظيم فقتلوا ملك التجــار ، وسلبــوا الأموال والخزائن وهدية شهاب الدين ، ونجا هو بنفسه .

وكتب المخبرون الى السلطان بذلك ، فأمر أن يعطى شهاب الدين من مجبى بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار ويعود الى بلاده . فعــرض عليه ذلك فأبى قبوله ، وقال : ما قصــدى الا رؤية السلطان وتقبيل الأرض بين يديه . فكتبوا الى السلطان بذلك ، فأعجبــه قوله وأمر بوصوله الى الحضرة مكرما .

وصــادف يوم دخوله عــلى السلطان يوم دخولنا نحن عليه ، فخلع علينا جميعا وأمــر بانزالنا ، وأعطى شهاب الدين عطاء جزلا . فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بســتة آلاف تنكة ، كما سنذكره .

وسأل فى ذلك اليوم عن شهاب الدين ، أين هو ؟

فقال بهاء الدين بن الفلكى : ياخوند غالم ، ما ندرى .

ثم قال له : سمعت أن به مرضا .

فقال له السلطان : امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا .

ففعل ذلك ، فأعطاه اياها . وأمر السلطان أن يشترى بها ما أحب من السلع الهندية ، ولا يشترى أحد من الناس شيئا حتى يتجهز هو . وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ، ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها . فســافر ونزل بجزيرة هرمز وبنى بها دارا عظيمة رأيتها بعد ذلك .

ورأيت أيضا شهاب الدين وقد فنى جميــع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا اســحاق ... وهــكذا مال هذه البــلاد الهندية ، قلما يخرج أحد به منها الا النادر ، واذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفنى ما بيده ، كمثل ما اتفــق لشهاب الدين هذا فانه أخذ له فى الفتنة التى كانت بين ملك هــرمز وابنى أخيــه جميــع ما عنده ، وخرج سليبا من ماله .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفــة بديار مصر أبى العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة [1] على بلاد الهنــد والســند اعتقادا منه فى الخلافة . فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه ، مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين .

فلما قدم عليه بالغ فى اكرامه وأعطاه عطاء جزيلا . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه

(1) يظهر أنه يريد أمر الولاية عليها ، وليس هــذا من معانى كلمة التقدمة .

ثم صرفه واعطاه اموالا طائلة . وفيما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها ، كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : اذا نزلت من البحر فأنعل أفراسك بها .

فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها الى بلاد اليمن ، فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمى . فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ ، وفر بنفسه مع ابن الكولمى الى السلطان . فلما رآه السلطان قال له ممازحا : اجمع خاطرك [1] ، فهاأنا سائر الى المخالفين وأعطيك أضعاف ما أخذوه .

وبلغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند آنه وفى له بما وعده ، وأخلف له جميع ما ضاع منه ، وأنه وصل بذلك الى ديار مصر .

ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت احسانه مدة عام ، ثم أحب الرجوع الى وطنه فأذن له فى ذلك . ولم يكن سمع كلامه ووعظه . فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر ، أحب سماعه قبل انصرافه ، فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض ، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب ، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم .

وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء ، مذهبة مرصعة بالجوهر ، وعمامة مثلها . ونصب له المنبر بداخل السراجة [2] . وقعد السلطان على سريره ، والخواص عن يمينه ويساره . وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم . فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر .

(1) يظهر أنه يريد : هون الامر على نفسك .
(2) شىء يشبه الفسطاط فيما يظهر . ولكن السراجة بهذا المعنى غير عربية فيما نعلم .

فلما نزل عن المنبر ، قام السلطان اليه وعانقه وأركبه على فيل . وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه ، وكنت فى جملتهم ، الى سراجة ضربت له فى مقابلة سراجة السلطان ، جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير ، وخباؤها أيضا كذلك . فجلس وجلسنا معه .

وكان بجانب من السراجة أوانى الذهب التى أعطاه السلطان اياها : وذلك تنور كبير بحيث يسع فى جوفه الرجل القاعد ، وقدران اثنتان ، وصحاف لا أذكر عددها ، وجملة أكواز ، وركوة [1] ، ومائدة لها أربع أرجل ، ومحمل للكتب ... كل ذلك من ذهب خالص .

ورفع عماد الدين السمنانى [2] وتدين من أوتاد السراجة ، أحدهما نحاس والآخر مقصدر ، يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة . ولم يكونا الا كما ذكرنا .

وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومئين من العبيد ، سرح بعضهم وحمل بعضهم .

ذكر عطائه لعبد العزيز الأردويلى

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا ، قرأ بدمشق على تقى الدين بن تيمية ، وبرهان الدين بن البركح ، وجمال الدين المزى ، وشمس الدين الذهبى وغيرهم . ثم قدم على السلطان فأحسن اليه وأكرمه .

واتفق يوما أنه سرد عليه أحاديث فى فضل العباس وابنه رضى الله عنهما ، وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه

(1) وعاء للماء .
(2) نسبة الى سمنان ، بلدة بين الرى ودامغان ... « ياقوت » .

لبني العباس ، وقبل قدمي الفقيه ، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة ، فصبها عليه بيده وقال : هي لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

ذكر عطائه لشمس الدين الأندكاني [1]

وكان الفقيه شمس الدين الأندكاني حكيما شاعرا مطبوعا . فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي ، عدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري

وكان عضد الدين فقيها اماما فاضلا كبير القدر ، عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره ، فبعث اليه ببلده شونكار عشرة آلاف دينار دراهم . ولم يره قط ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضي مجد الدين

ولما بلغه أيضا خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة ، مجد الدين قاضي شيراز ، الذي سطرنا أخباره فيما تقدم ، وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا ، بعث الى مدينة شيراز ، مع الشيخ زاده الدمشقي ، عشرة آلاف دينار دراهم .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي [2]

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة ، كثير الايثار ، باذلا لما يملكه ، حتى انه كثيرا ما يأخذ الديون ، ويؤثر على الناس [1] . فبلغ خبره السلطان فبعث اليه أربعين ألف دينار ، وطلب منه أن يصل الى حضرته . فقبل الدنانير ، وقضى دينه منها ، وتوجه الى بلاد الخطا [2] وأبى أن يصل اليه . وقال : لا أمضي الى سلطان يقف العلماء بين يديه .

ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق ، فوفد حاجي كاون على السلطان ، فأكرم مثواه ، وأعطاه العطاء الجزيل .

ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته ، وكان منها ثلاث صينيات ، احداها مملوءة يواقيت ، والأخرى مملوءة زمردا ، والأخرى مملوءة جواهر . وكان حاجي كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا ، ثم انه أعطاه أيضا مالا عريضا .

ومضى يريد العراق ، فوجد أخاه قد توفي ، وولي مكانه سليمان خان . فطلب ارث أخيه وادعى الملك ، وبايعه العساكر . وقصد بلاد فارس ، ونزل بمدينة شونكارة التي بها الامام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفا .

فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا . فقال لهم : ما منعكم عن تعجيل الخروج الى مبايعتنا ؟

فاعتذروا له فلم يقبل منهم . وقال لأهل سلاحه : جردوا السيوف . فجردوها وضربوا أعناقهم ، وكانوا جماعة كبيرة .

---

(1) نسبة الى اندكان من قرى فرغانة ... ذكره ياقوت

(2) نسبة الى صاغرج - بالغين المعجمة المفتوحة ، والراء الساكنة والجيم - قرية كبيرة من قرى الصغد ... ذكره ياقوت في معجمه .

(1) يريد انه يتحمل عن الناس ديونهم . وأما قوله : « ويؤثر على الناس » فغير مفهوم .

(2) موضع في شمال الصين .

فسمع من يجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله ، فغضبوا لذلك وكتبوا الى شمس الدين السمنانى ، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار ، فأعلموه بما جرى على أهل شونكارة وطلبوا منه الاعانة على قتاله . فتجرد فى عساكره ، واجتمع أهل البلاد طالبين ثأر من قتله حاجى كاون من المشايخ ، وضربوا على عسكره ليلا فهزموه .

وكان هو بقصره بالمدينة فأحاطوا به ، فاختفى فى بيت الطهارة . فعثروا عليه وقطعوا رأسه ، وبعثوا به الى سليمان خان ، وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه .

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادى ، قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قثم بن العباس رضى الله عنهما . واستوطنها أعواما .

ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه ، وبعث له برسولين ، أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشرف الحرباوى ، والثانى محمد الهمدانى [1] الصوفى ، فقدما على السلطان .

وكان ناصر الدين الترمذى الذى تقدم ذكره قد لقى غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه ، فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسولاه الى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار الى غياث الدين ، ليتزود بها اليه ، وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ، ويسأله القدوم عليه .

فلما وصله الكتاب رحل اليه . فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة .

ثم لما وصل الى سرستى ، بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغزنوى ، وجماعة من الفقهاء . ثم بعث الأمراء لاستقباله .

فلما نزل بمسعود أباد خارج الحضرة ، خرج السلطان بنفسه لاستقباله . فلما التقيا ترجل غياث الدين ، فترجل له السلطان ، وخدم فخدم له السلطان .

وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الأثواب وجعله على كتفه ، وخدم كما يفعل الناس معه .

ثم قدمت الخيل ، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له ، وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسايره « والشطر » يظلهما معا . وأخذ التانبول بيده وأعطاه اياه . وهذا أعظم ما أكرمه به ، فانه لا يفعله مع أحد .

وقال له : لولا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك .

فقال له غياث الدين : وأنا أيضا على تلك البيعة .

---

(1) قد يكون بسكون الميم ، نسبة الى همدان ، قبيلة باليمن ، وقد يكون بفتح الميم نسبة الى همدان التى هى همذان ، لان اعجام ذالها تعريبى ، كما فى « شرح الشفاء » للخفاجى .

وقال له غياث الدين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : « من أحيا أرضا مواتا فهى له » ، وأنت أحييتنا .

فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره .

ولما وصلا الى « السراجة » المعدة لنزول السلطان ، أنزله فيها وضرب للسلطان غيرها . وبات تلك الليلة بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخل الى دار الملك ، وأنزله بالمدينة المعروفة بسيرى ، وبدار الخلافة أيضا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخلجى وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمضوا معه اليه .

وأعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من أوانى الذهب والفضة ، حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب .

وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة .

وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى ، وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار .

وبعث له زيادة عليها عددا من الموائد بالطعام الخاص .

وأعطاه جميع مدينة سيرى اقطاعا ، وجميع ما احتوت عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن [1] وأرضه .

وأعطاه مائة قرية .

وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة الى دهلى .

وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن .

وأمره ألا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا فى موضع خاص ، لا يدخله أحد راكبا سوى السلطان .

وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموا له ، كما يخدمون للسلطان .

واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره . وان كان على الكرسى قام قائما ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه .

ويجلس مع السلطان على بساط واحد . واذا قام قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه .

واذا انصرف الى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف ...

يفعل هذا مرتين فى اليوم .

حكاية من تعظيمه اياه

وفى أثناء مقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بنجالة ، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا الى استقباله ، ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا ، وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان اذا قدم . وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان .

فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير : امض الى دار المخدوم زاده ، وبذلك يدعوه (ومعنى ذلك ابن المخدوم) .

فسار الوزير اليه ، وأهدى له ألفى تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة . وحضر الأمير قبولة وغيره من كبار الأمراء ، وحضرت أنا كذلك .

(1) يريد بيت مال الدولة كما تقدم .

حكاية نحوها

وقد على السلطان ملك غزنة المسمى ببهرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة . فأمر السلطان بانزاله ببعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة ، وأمر أن يبنى له بها دار .

فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ، ومضى الى دار السلطان فجلس على البساط الذى عادته الجلوس عليه ، وبعث الى الوزير فقال له : سلم على خوند عالم ، وقل له : ان جميع ما أعطانيه هو بمنزلى لم أتصرف فى شىء منه ، بل زاد عندى ونما ، وأنا لا أقيم معكم . وقام وانصرف .

فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة فى مدينة سيرى .

فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك . فركب من حينه فى عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن ونزل عن فرسه خارج القصر ، حيث ينزل الناس ، فتلقاه واعتذر له ، فقبل عذره .

وقال له السلطان : والله ما أعلم أنك راض على حتى تضع قدمك على عنقى .

فقال له : هذا ما لا أفعله ولو قتلت .

فقال له السلطان : وحق رأسى لابد لك من ذلك .

ثم وضع رأسه فى الأرض ، وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده ، فوضعها على عنق السلطان .

ثم قام وقال : الآن علمت أنك راض عنى ، وطاب قلبى .

وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك .

*

ولقد حضرته يوم عيد ، وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان ، وقد جعل مكان عقد الحرير التى تعلق بها حبات جوهر على قدر البندق الكبير . وقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره فكساه اياها . وقد أعطاه ما لا يحصره العد ولا يحيط به الحد .

وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى ، وله فى البخل أخبار عجيبة يعجب منها سامعها . وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم . ولنذكر بعض أخباره فى ذلك :

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بينى وبينه مودة ، وكنت كثير التردد الى منزله . وعنده تركت ولدا لى سميته أحمد ، لما سافرت ، ولا أدرى ما فعل الله بهما . فقلت له يوما : لم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام ؟

فقال لى : لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى !

فكان يأكل وحده ، ويعطى صاحبه محمد ابن أبى الشرفى من الطعام ليعطى منه من أحب ، ويتصرف فى باقيه .

وكنت أتردد اليه فأرى دهليز قصره الذى يسكن به مظلما لا سراج به .

ورأيته مرارا يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن . فكلمته فى ذلك ، فقال لى : يحتاج اليها !

وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه ، ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون!

وكان عليّ مرة دين فطولبت به ، فقال لي في بعض الأيام : والله لقد هممت أن أؤدي عنك دينك ، فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه!

حكاية

حدثني مرة قال : خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة ، أحدهم محمد بن أبي الشرفي صاحبي ، ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا . فنزلنا على عين ماء ببعض القرى ، فوجد أحدنا في العين درهما ، فقلنا : وما نصنع بدرهم ؟

فاتفقنا على أن نشتري به خبزا . فبعثنا أحدنا لشرائه ، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده ، وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط . فاشترى منه الخبز والتبن . فطرحنا التبن اذ لا دابة تأكله ، وقسمنا الخبز لقمة لقمة . وقد انتهى حالي اليوم الى ما تراه .

فقلت له : ينبغي لك أن تحمد الله على ما أولاك ، وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق .

فقال : لا أستطيع ذلك .

ولم أره قط يجود بشيء ، ولا يفعل معروفا . ونعوذ بالله من الشح .

حكاية

كنت يوما ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند ، وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية ، التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه . فرأيت شابا ضعيف الحال ، يشتد خلف رجل خارج من المدرسة . فقال لي بعض الطلبة : هذا الشاب الذي تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند .

فدعوته فقلت له : اني قدمت من بلاد الهند ، واني أعرفك خبر أبيك .

فقال : قد جاءني خبره في هذه الأيام . ومضى يشتد خلف الرجل .

فسألت عن الرجل ، فقيل لي : هو الناظر في الحبس [1] ، وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد ، وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم . وهو يطلب أجرته من الرجل .

فطال عجبي منه ، والله لو بعث اليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة اليه من السلطان ، لأغناه بها ، ونعوذ بالله من مثل هذه الحال .

ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين
غدا بن هبة الله بن مهنا
أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مثواه ، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين في داخل مدينة دهلي ، ويعرف بكشك ، ولعل معناه القصر الأحمر .

وهو قصر عظيم فيه « مشور » كبير جدا ، ودهليز هائل ، على بابه قبة تشرف على هذا « المشور » ، وعلى « المشور » الثاني الذي يدخل منه الى القصر . وكان السلطان جلال الدين يقعد بها ، وتلعب الكرة بين يديه في هذا « المشور » .

وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به ، فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها ،

(1) الحبس ، بوزن القفل ، ما وقف ... « مختار الصحاح » هـ

وذلك كله متمزق لا منتفع فيه . فان عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان اذا مات بجميع ما فيه ، لا يتعرضون له . ويبنى المتولى بعده قصرا لنفسه .

ولما دخلته طفت به وصعدت الى أعلاه ، فكانت لى فيه عِبرة نشأت عنها عَبرة . وكان معى الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربى الغرناطى الأصل ، البجائى [1] المولد ، مستوطن بلاد الهند ، قدمها مع أبيه وله بها أولاد . فأنشدنى عندما عايناه :

وسلاطينهم سل الطين عنهم

فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه [2] ، كما نذكره .

وكان السلطان شديد المحبة للعرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم . فلما وصله هذا الأمير أجزل له العطاء ، وأحسن اليه احسانا عظيما ، وأعطاه مرة ، وقد قدمت عليه هدية « أعظم ملك » البايزيدى من بلاد مانكبور ، أحد عشر فرسا من عتاق الخيل . وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة ، عليها اللجم المذهبة . ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خوندة .

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا ، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله ، المعروف بشونويس ، وعيننى لملازمة الأمير غدا فى تلك الأيام . فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها « المشورين » بالقصر

(1) نسبة الى بجاية ، مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ... « ياقوت » .

(2) أى عرس الامير سيف الدين •

الأحمر المذكور . وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدا . وفرش ذلك بالفرش الحسان .

وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص . وكلهن مملوكات السلطان . وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين [1] والشربدارية والتانبول داران [2] . وذبحت الأنعام والطيور . وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما . ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهارا .

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين ، جاءت الخواتين من دار السلطان ليلا الى هذا القصر فزينه وفرشنه بأحسن الفرش . واستحضر الأمير سيف الدين ، وكان عربيا غريبا لا قرابة له ، فحففن به ، وأجلسنه على مرتبة معينة له .

وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته ، وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأنه بين أهله .

ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء فى يديه ورجليه . وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن . وانصرفن الى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه .

وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته ، وجماعة يكونون من جهة الزوجة . وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها على

(1) نسبة الى الحلوان ، من مصادر حلا •

(2) من يعدون التانبول ، بلغة الهند •

زوجها . ويأتى الزوج بجماعته ، فلا يدخلون الا ان غلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم .

ولما كان بعد المغرب أتى اليه بخلعة حرير زرقاء ، مزركشة مرصعة ، قد غلبت الجواهر عليها ، فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر ، وبشاشية مثل ذلك . ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة . وقد رأيت ما خلعه السلطان على أصهاره ، مثل ملك الملوك عماد الدين السمنانى ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الاسلام ، وابن صدر جهان البخارى ، فلم يكن فيها مثل هذه .

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده وفى يد كل واحد منهم عصا قد أعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين ، وله رفرف يغطى وجه المتكلل به وصدره ، وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه ، فأبى ذلك . وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر . فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه .

وأتى باب الصرف [1] ، ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة ، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية ، وصرعوا كل من عارضهم فغلبوهم . ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله .

ودخل الى المشور ، وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، و « المشور » ملآن بالنساء والمطربات ، وقد أحضرن الآلات المطربة ، وكلهن واقفات على قدم اجلالا له وتعظيما .

فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وخدم عند أول درجة منه .

وقامت العروس قائمة حتى صعد فأعطته التانبول بيدها ، فأخذه وجلس تحت الدرجة التى وقفت بها . ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه . ولقطتها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب .

ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ونزل وهى تتبعه ، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط ، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه . وجعلت العروس فى محفة ، وحملها العبيد على أعناقهم الى قصره ، والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات .

واذا مروا بدار أمير أو كبير ، خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته ، حتى أوصلوها الى قصره . ولما كان بالغد بعثت العروس الى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم ، وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما ، وبدرة دراهم من ألف دينار الى مائتى دينار . وأعطى الملك فتح الله الخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر ، وكذلك أهل الطرب .

وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد أهل الطرب شيئا ، وانما يعطيهم صاحب العرس .

وأطعم الناس جميعا ذلك اليوم . وانقضى العرس .

وأمر السلطان أن يعطى الأمير غدا بلاد المالوة والجزرات وكنباية ونهروالة . وجعل فتح الله نائبا عنه عليها . وعظمه تعظيما شديدا .

(1) لعلهم يريدون به باب الانصراف .

وكان عربيا جافيا فلم يقدر قدر ذلك . وغلب عليه جفاء البادية . فأداه ذلك الى النكبة ، بعد عشرين ليلة من زفافه .

ذكر سجن الأمير غدا

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه ، اتفق أنه وصل الى دار السلطان ، فأراد الدخول ، فمنعه أمير « البرددارية » ، وهم الخواص من البوابين ، فلم يسمع منه ، وأراد الاقتحام . فأمسك البواب بدبوقته (وهى الضفيرة) ورده ، فضربه الأمير بعصا كانت هنالك حتى أدماه .

وكان هذا المضروب من كبار الأمراء ، يعرف أبوه بقاضى غزنة ، وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين . والسلطان يخاطبه بالأب ، ويخاطب ابنه هذا الأخ . فدخل على السلطان والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غدا . ففكر السلطان هنيهة ، ثم قال له : القاضى يفصلّ بينكما . وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه ، ولابد من الموت عليها ، وانما احتملها لغربته .

وكان القاضى كمال الدين بـ « المشور » فأمر السلطان الملك تتر أن يقف معهما عند القاضى . وكان تتر حاجا مجاورا ، يحسن العربية . فحضر معهما ، وقال للأمير : أنت ضربته ؟ أو قل : لا . يقصد أن يعلمه الحجة . وكان سيف الدين جاهلا مغترا ، فقال : نعم أنا ضربته . وأتى والد المضروب فرام الاصلاح بينهما ، فلم يقبل سيف الدين .

فأمر القاضى بسجنه تلك الليلة . فوالله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سألت عنه ، خوفا من السلطان .

وأردت زيارته بالسجن ، فلقينى بعض الأمراء ، وفهم عنى أنى أريد زيارته ، فقال لى أو نسيت ؟ وذكرنى بقصة اتفقت لى فى زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام ، وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك على ما نذكره ، فرجعت ولم أزره .

وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه ، فأظهر السلطان اهماله ، وأضرب عما كان أمر له بولايته ، وأراد نفيه .

وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك . وكانت أخت السلطان تشكوه لأخيها الى أن ماتت ، فذكرت جواريها أنها ماتت بسبب قهره لها . وكان فى نسبه مغمز ، فكتب السلطان بخطه : يجلى اللقيط ، يعنيه . ثم كتب : ويجلى « موش خوار » ، ومعناه : آكل الفيران ، يعنى بذلك الأمير غدا ، لأن عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفأر ، وأمر باخراجهما .

فجاءه النقباء ليخرجوه . فأراد دخول داره ووداع أهله . فترادف النقباء فى طلبه ، فخرج باكيا .

وتوجهت حين ذلك الى دار السلطان ، فبت بها . فسألنى عن مبيتى بعض الأمراء . فقلت له : جئت لأتكلم فى الأمير سيف الدين ، حتى يرد ولا ينفى ، فقال : لا يكون ذلك .

فقلت له : والله لأبيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتى مائة ليلة حتى يرد .

فبلغ ذلك السلطان فأمر برده ، وأمره أن يكون فى خدمة الأمير ملك قبولة اللاهورى . فأقام أربعة أعوام فى خدمته ، يركب لركوبه ويسافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب . ثم أعاده

السلطان الى ما كان عليه أولا . وأقطعه البلاد وقدمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره
من ابني خداوند زاده قوام الدين
الذي قدم معنا عليه

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاء جزيلا ، وأحسن اليه احسانا عظيما ، وبالغ في اكرامه . ثم زوج ولديه بنتي الوزير خواجه جهان .

وكان الوزير اذ ذاك غائبا ، فأتى السلطان الى داره ليلا ، وحضر عقد الزواج ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود .

وأخذ السلطان بيده الأثواب والبدر ، فجعلها بين يدي القاضي وولدي خداوند زاده .

وقام الأمراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه ، فأمرهم بالجلوس ، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه وانصرف .

حكاية في تواضع السلطان وانصافه

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ، ودعاه الى القاضي . فمضى على قدميه ولا سلاح معه ، الى مجلس القاضي ، فسلم وخدم . وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنه اذا جاءه الى مجلسه لا يقوم له ولا يتحرك ، فصعد الى المجلس ووقف بين يدي القاضي . فحكم عليه أن يرضي خصمه عن دم أخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أن قبله حقا ماليا ، فتخاصما في ذلك عند القاضي ، فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فأعطاه .

حكاية مثلها

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ، ورفعه الى القاضي . فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال ان قبل ذلك ، والا أمكنه من القصاص . فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسي لتضربني كما ضربتك ، فأخذ الصبي العصا وضربه بها احدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت « الكلا »[1] قد طارت عن رأسه .

ذكر اشتداده في اقامة الصلاة

وكان السلطان شديدا في اقامة الصلاة ، آمرا بملازمتها في الجماعات ، يعاقب على تركها أشد العقاب . ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها ، وكان أحدهم مغنيا .

كان يبعث الرجال الموكلين بذلك الى الأسواق ، فمن وجد بها عند اقامة الصلاة عوقب ، حتى انتهى الى عقاب الستائريين[2] الذين يمسكون دواب الخدام على باب « المشور » ، اذا ضيعوا الصلاة .

وأمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام . فكانوا يسألون عن ذلك ، فمن لم يحسنه عوقب . وصار الناس يتدارسون ذلك « بالمشور » والأسواق ويكتبونه .

---

(1) ضرب من القلانس .
(2) لا تعرف هذه التسمية في العربية .

ذكر اشتداده فى اقامة أحكام الشرع

وكان شديدا فى اقامة الشرع . ومما فعل فى ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده بـ « المشور » مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك ، مفروشة بالبسط وللقاضى بها مرتبة تحف بها المخاد ، كمرتبة السلطان ، ويقعد أخو السلطان عن يمينه ... فمن كان عليه حق من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه ، يحضره رجال أخى السلطان عند القاضى لينصف منه .

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين

ولما كان فى سنة احدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده ، وألا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة . وصار يجلس بنفسه للنظر فى المظالم فى كل يوم اثنين وخميس ، برحبة أمام « المشور » . ولا يقف بين يديه فى ذلك اليوم الا « أمير حاجب » و « خاص حاجب » وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير . ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه .

وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون فى الأبواب الأربعة من « المشور » ، لأخذ القصص من المشتكين . والرابع منهم ابن عمه « الملك فيروز » . فان أخذ صاحب الباب الرقع من الشاكى فحسن ، والا أخذه الثانى أو الثالث أو الرابع ، وان لم يأخذوه منه مضى به الى صدر الجهان قاضى المماليك . فإن أخذه منه والا شكا الى السلطان . فان صح عنده أنه مضى به الى أحد منهم فلم يأخذه منه أدبه . وكل ما يجتمع من القصص فى سائر الأيام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة .

ذكر اطعامه فى الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند ، واشتد الغلاء حتى بلغ من[1] القمح ستة دنانير ، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر من المخزن ، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل انسان فى اليوم ، صغير أو كبير حر أو عبد . وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمة[2] بأهل الحارات ، ويحضرون الناس . ويعطى كل واحد عولة[3] ستة أشهر يقتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة ، كثير التجاسر على اراقة الدماء ، لا يخلو بابه من مقتول الا فى النادر . وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك .

ولقد جئت يوما فنفر بى الفرس ، ونظرت الى قطعة بيضاء فى الأرض ، فقلت ما هذه ؟

فقال بعض أصحابى : هى صدر رجل قطع ثلاث قطع .

وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة . ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف[4] . وفى كل يوم يرد على « المشور » من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مئون .

---

(١) المن ، بفتح الميم وتشديد النون ، رطلان .
(٢) جمع زمام ، والمراد به احصاء الناس .
(٣) اسم مرة من قولهم عال عياله عولا ، اى كفاهم .
(٤) فى هذا القول منافاة لما سبق ، ولعله يقصد أنه لا يعفو عن زلاتهم رغم مكانتهم ومنزلتهم العلمية ، ويعاقبهم كغيرهم اذا أخطأوا .

فمن كان للقتل قتل ، أو للعذاب عذب ، أو للضرب ضرب .

وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من فى سجنه من الناس الى « المشور » ، ما عدا يوم الجمعة ، فانهم لا يخرجون فيه . وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون ، أعاذنا الله من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان ، وأمه بنت السلطان علاء الدين ، وكان من أجمل من رأيت فى الدنيا . فاتهمه بالقيام عليه ، وسأله عن ذلك فأقر خوفا من العذاب ، فانه من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب ، فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب . فأمر به فضربت عنقه فى وسط السوق ، وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم .

وكانت أم هذا المقتول قد رجمت فى ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين ، لاعترافها بالزنا فرجمها القاضى كمال الدين .

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة الى قتال الكفار ، ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلى . فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر ، وتخلف قوم منهم . فكتب يوسف الى السلطان يعلمه بذلك ، فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين . ففعل ذلك ، وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم . فأمر بقتلهم أجمعين ، فقتلوا .

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى ، الذى تنسب مدينة الجام بخراسان الى جده ، على ما قصصنا ذلك ، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء . وكان يواصل أربعة عشر يوما [1] . وكان السلطان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به .

فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته ، فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء ، محتجا أن الصدر الأول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون الا أهل العلم والصلاح . فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة . وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام ، فأظهر الاباء والامتناع .

فغضب السلطان من ذلك ، وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته . فأبى ضياء الدين ذلك ، وقال : لا أفعل هذا .

فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت ، ونفى ضياء الدين الى بلاد التلنك . ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل ، فمات بها . ونفى شهاب الدين الى دولة آباد ، فأقام بها سبعة أعوام ، ثم أرسل اليه فأكرمه وعظمه ، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ، ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه .

ولما انتقل السلطان الى السكنى على نهر الكنك ، وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار (ومعناه شبه الجنة) ، وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الاقامة بالحضرة ، فأذن له الى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلى .

(1) يتابع الصوم »

فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام . وجلب الماء من نهر « جون » ، وعمر تلك الأرض ، وجمع مالا كثيرا من مستغلها ، لأنها كانت سنين قاحطة .

وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان . وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ، ويسدونه على أنفسهم وأنعامهم ، خوف سراق الكفار ، لأنهم فى جبل منيع هنالك .

ولما عاد السلطان الى حضرته ، استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها . فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه ، وعاد الى غاره . ثم أرسل اليه بعد أيام فامتنع من اتيانه ، فبعث اليه مخلص الملك النذربارى ، وكان من كبراء الملوك ، فتلطف له بالقول ، وحذره بطش السلطان . فقال له : لا أخدم ظالما أبدا .

فعاد مخلص الملك الى السلطان فأخبره بذلك . فأمر أن يؤتى به فأتى به ، فقال له : أنت القائل انى ظالم ؟

فقال : نعم أنت ظالم ، ومن ظلمك كذا وكذا ... وعدد أمورا ، منها تخريبه لمدينة دهلى واخراجه أهلها .

فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال : يثبت هذا أنى ظالم ، وتقطع عنقى بهذا السيف .

فقال له شهاب الدين : ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ، ولكن أنت تعلم ظلم نفسك .

وأمر بتسليمه للملك نكبية رأس [1] الدويدارية ، فقيده بأربعة قيود ، وغل يديه .

(1) الناموس (السكرتير) .

وأقام كذلك أربعة عشر يوما مواصلا ، لا يأكل ولا يشرب . وفى كل يوم منها يؤتى به الى « المشور » ، ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له : ارجع عن قولك . فيقول : لا أرجع عنه ، وأريد أن أكون فى زمرة الشهداء .

فلما كان اليوم الرابع عشر ، بعث اليه السلطان بطعام مع مخلص الملك ، فأبى أن يأكل . وقال : قد رفع رزقى من الأرض ، ارجع بطعامك اليه .

فلما أخبر بذلك السلطان ، أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة ، وهى رطلان ونصف رطل من أرطال المغرب . فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور ، وهم طائفة من كفار الهنود ، فمدوه على ظهره ، وحلوا العذرة بالماء ، وفتحوا فمه بالكلبتين وسقوه ذلك .

وفى اليوم بعده أتى به الى دار القاضى صدر الجهان ، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة ، فوعظوه وطلبوا منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك . فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين الكاسانى [1] وفقيهين معه

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار فى خارج دار الملك ، وأن يزرع هنالك زرع ، وأعطى الناس البذر وما يلزم الزراعة من النفقة ، وكلفهم زرع ذلك للمخزن . فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين ، فقال : هذا الزرع لا يحصل المراد منه .

(1) نسبة الى كاسان ، بلد بما وراء النهر ... « القاموس المحيط »

فوشى به الى السلطان فسجنه ، وقال له : لأى شىء تدخل نفسك فى أمور الملك ؟

ثم انه سرحه بعد مدة فذهب الى داره . ولقيه فى طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء : فقالا له : الحمد لله على خلاصك .

فقال الفقيه : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين .

وتفرقوا ، فلم يصلوا الى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان . فأمر بهم ، فأحضر ثلاثتهم بين يديه ، فقال : اذهبوا بهذا (يعنى عفيف الدين) فاضربوا عنقه حمائل [1] (وهو أن يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر) ، واضربوا عنق الآخرين .

فقالا له : أما هو فيستحق العقاب بقوله ، وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا ؟

فقال لهما : انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه ، فكأنما وافقتما عليه .

فقتلوا جميعا ، رحمهم الله .

ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه ، الى بعض البلاد ، وقال لهما : انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به .

فقالا له : انما نكون كالشاهدين عليه ، ونبين له وجه الحق ليتبعه .

فقال لهما : انما قصدكما أن تأكلا أموالى وتضيعاها ، وتنسبا ذلك الى هذا التركى الذى لا معرفة له .

فقالا له : حاشا لله ياخوند عالم ، ما قصدنا هذا .

فقال لهما : لم تقصدا غير هذا . اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى ، وهو الموكل بالعذاب .

فذهب بهما اليه ، فقال لهما : السلطان يريد قتلكما ، فأقرا بما تقصدان ولا تعذبا أنفسكما .

فقالا : والله ما قصدنا الا ما ذكرنا .

فقال لزبانيته : ذوقوهما بعض شىء (يعنى من العذاب) .

فبطحا على أقفائهما ، وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة . ثم قلعت بعد هنيهة ، فذهبت بلحم صدريهما ، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا الا ما قاله السلطان ، وأنهما مجرمان ومستحقان للقتل ، فلا حق لهما ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى . وكتبا بخطهما ذلك ، واعترفا به عند القاضى .

فسجل على العقد ، وكتب فيه أن اعترافهما كان من غير اكراه ولا اجبار ، ولو قالا أكرهنا لعذبا أشد العذاب . فرأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم . فقتلا ، رحمهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده المسمى بهود ، حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين ابن أبى زكرياء الملتانى ، وجده الشيخ ركن الدين ، معظما عند السلطان . وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان ، وقتل يوم وقيعة كشلوخان ، وسنذكره .

(1) تعبير اصطلاحى .

ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان أخاه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته . فتوفى الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود .

ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين وقال : أنا أحق بميراث عمى .

فقدما على السلطان وهو بدولة آباد ، وبينها وبين ملتان ثمانون يوما . فأعطى السلطان هودا الشيوخة على ما أوصى له الشيخ (وكان كهلا ، وكان ابن أخى الشيخ فتى) ، وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه فى كل منزل يحله ، وأن يخرج الى لقائه أهل كل بلد يمر به الى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة .

فلما وصل الأمر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه وكنت فيمن خرج اليه فتلقيناه ، وهو راكب دولة [1] يحملها الرجال ، وخيله مجنوبة ، فسلمنا عليه .

وأنكرت أنا ما كان من فعله من ركوبه الدولة ، وقلت : انما كان ينبغى له أن يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ .

فبلغه كلامى فركب الفرس ، واعتذر بأن فعله أولا كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس .

ودخل الحضرة ، وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان كثير . وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة ، ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة .

ثم أعطيت الدراهم ، فأخذ كل على قدر استحقاقه . فأعطى قاضى القضاة خمسمائة دينار ، وأعطيت أنا مائتين وخمسين دينارا . وهذه عادة لهم فى الدعوة السلطانية .

ثم انصرف الشيخ هود الى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازى ، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك . واستقر بزاويته وأقام بها أعواما .

ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند ، كتب الى السلطان يذكر أن الشيخ وأقاربه يشتغلون بجمع الأموال وانفاقها فى الشهوات ، ولا يطعمون أحدا بالزاوية . فنفذ الأمر بمطالبتهم بالأموال ، فطالبهم عماد الملك بها ، وسجن بعضهم وضرب بعضا . وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام ، حتى استخلص ما كان عندهم . ووجد لهم كثير من الأموال والذخائر ، فمن جملتها نعلان مرصعتان بالجوهر والياقوت ، بيعتا بسبعة آلاف دينار ، قيل انهما كانتا لبنت الشيخ هود ، وقيل لسرية له .

فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه . وكتب عماد الملك بذلك الى السلطان ، فأمره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليه .

فلما وصلا اليه سرح الذى قبض عليه ، وقال للشيخ هود : أين أردت أن تفر ؟

فاعتذر بعذر .

فقال له السلطان : انما أردت أن تذهب الى الأتراك فتقول : أنا ابن الشيخ بهاء الدين

(1) يظهر أنها نوع كالمحفة ، ولم نجد هذا المعنى فى كتب اللغة .

زكريا ، وقد فعل السلطان معى كذا ، وتأتى بهم لقتالنا ، اضربوا عنقه .

فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين بن تاج العارفين ساكنا بمدينة كول ، منقطعا للعبادة ، كبير القدر . ودخل السلطان مدينة كول ، فأرسل اليه فلم يأته ، فذهب السلطان اليه ، ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره .

واتفق بعد ذلك أن أميرا من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات ، وبايعه الناس . فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه ، وقال انه يصلح للملك .

فبعث السلطان بعض الأمراء الى الشيخ ، فقيده وقيد أولاده وقيد قاضى كول ومحتسبها ، لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين للمجلس الذى أثنى فيه الشيخ على الأمير المخالف . وأمر بهم فسجنوا جميعا ، بعد أن سمل عينى القاضى وعينى المحتسب . ومات الشيخ بالسجن .

وكان القاضى والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ، ثم يردان الى السجن .

وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم . فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن ، وقال لهم : لا تعودوا الى ما كنتم تفعلون .

فقالوا له : وما فعلناه ؟

فاغتاظ من ذلك ، وأمر بقتلهم جميعا ، فقتلوا .

ثم استحضر القاضى ، فقال : أخبرنى بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا ، ويفعل مثل أفعالهم .

فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد ، فلما عرض ما أملاه على السلطان ، قال : هذا يحب أن يخرب البلد ، اضربوا عنقه .

فضربت عنقه ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ الحيدرى

وكان الشيخ على الحيدرى ساكنا بمدينة كنباية ، من ساحل الهند . وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة ، واذا قدموا بدءوا بالسلام عليه . وكان يكاشف [1] بأحوالهم . وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه ، فاذا أتى الشيخ للسلام عليه ، أعلمه بما قدر له وأمر بالوفاء به . واتفق له ذلك مرات واشتهر به [2] .

فلما خالف القاضى جلال الأفغانى وقبيلته بتلك الجهات ، بلغ السلطان أن الشيخ الحيدرى دعا للقاضى جلال الدين وأعطاه « شاشيته » من رأسه ، وذكر أيضا أنه بايعه .

فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضى جلال ، خلف السلطان شرف الملك الملك أمير بخت — أحد الوافدين معنا عليه — بكنباية ، وأمره بالبحث عن أهل

(١) يريد أن يكشف له من احوالهم كشف غيب . ولكن الله تعالى لا يطلع من عباده على بعض المغيبات الا من اختصه بذلك من رسله وانبيائه الكرام .

(٢) مبالغة من القصاص .

الخلاف ، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم . فاحضر الشيخ على الحيدرى بين يديه ، وثبت أنه أعطى القائم شاشيته ودعا له . فحكموا بقتله .

فلما ضربه السياف لم يفعل شيئا ، وعجب الناس لذلك وظنوا أنه يعفى عنه بسبب ذلك ، فأمر سيافا آخر بضرب عنقه فضربها ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله لطوغان وأخيه

وكان طوغان الفرغانى وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة . فوفدا على السلطان فأحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا ، وأقاما عنده مدة . فلما طال مقامهما أرادا الرجوع الى بلادهما وحاولا الفرار . فوشى بهما أحد أصحابهما الى السلطان ، فأمر بتوسيطهما فوسطا . وأعطى الذى وشى بهما جميع مالهما ... وكذلك عادتهم بتلك البلاد ، فاذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل ، أعطى ماله .

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا لا نبات بعارضيه . فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان ، كما سنذكره ، هزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه ، وكان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك ، فأمر بهما فعلقا من أيديهما فى خشب . وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا .

ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين : ذلك الشاب لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان . فقال : هلا قلت هذا قبل موته .

وأمر به فضرب مائتى مقرعة أو نحوها . وسجن وأعطى أمير السيافين جميع ماله .

فرأيته فى ثانى ذلك اليوم وقد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه ، فظننت أنه هو . وأقام بالسجن شهورا ، ثم سرحه ورده الى ما كان عليه . ثم غضب عليه ثانية ونفاه الى خراسان ، فاستقر بهراة ، وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه ما معناه . ان كنت تبت فارجع ، فرجع اليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر ، فاتفق أن جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشىء منها ، فأمر بضرب الخطيب حتى مات ، رحمه الله تعالى .

ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها

ومن أعظم ما كان ينقم من السلطان اجلاؤه لأهل دهلى عنها . وسبب [1] ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ، ويختمون عليها ويكتبون عليها : وحق رأس خوند عالم ما يقرؤها غيره . ويرمونها بـ « المشور » ليلا ، فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه .

فعزم على تخريب دهلى ، واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ، ودفع لهم ثمنها . وأمرهم بالانتقال عنها الى دولة آباد ، فأبوا ذلك . فنادى مناديه ألا يبقى بها أحد بعد ثلاث . فانتقل معظمهم ، واختفى بعضهم فى الدور . فأمر بالبحث عمن بقى بها ...

(1) هذا السبب غير كاف ، بل لابد انه كانت هناك اسباب أخرى عظيمة حملته على ما فعل .

فوجد عبيده بأزقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى ، فأتوا بهما ، فأمر بالمقعد فرمى في المنجنيق ، وأمر أن يجر الأعمى من دهلى الى دولة آباد (مسيرة أربعين يوما) ، فتمزق بالطريق ولم يصل منه الا رجله .

ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم ، وبقيت المدينة خاوية على عروشها .

فحدثني من أثق به قال : صعد السلطان ليلة الى سطح قصره ، فنظر الى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج . فقال : الآن طاب قلبى وتهدن [1] خاطرى . ثم كتب الى أهل البلاد أن ينتقلوا الى دهلى ليعمروها ، فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها ، وهى من أعظم مدن الدنيا . وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها الا قليل عمارة .

وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما تقم منه أيضا [2] . فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث فى أيامه .

ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته
من منّه على بهادور بورة

ولما ولى السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس ، أحضر السلطان غياث الدين بهادور بورة ، الذى كان أسره السلطان تغلق ، فمن عليه وفك قيوده ، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة ، وصرفه الى مملكته ، وبعث معه ابن أخيه ابراهيم خان . وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ، وتكتب

(١) ارتاحت نفسى وهدات .
(٢) آثرنا ان نثبت هنا ما تواتر عن هذا السلطان من ضروب القسوة وصنوف العذاب لنعرض على القارىء صورة (كما رواها المؤلف) لذلك العهد فى تلك البلاد .

أسماؤهما فى السكة [1] ، ويخطب لهما ، وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمدا المعروف ببرباط ، ليكون رهينة عند السلطان .

فانصرف غياث الدين الى مملكته والتزم ما شرط عليه ، الا أنه لم يبعث ابنه ، وادعى أنه امتنع ، وأساء الأدب فى كلامه . فبعث السلطان العساكر الى ابن أخيه ابراهيم خان وأميرهم دلجلى التترى ، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه ، وسلخوا جلده وحشى بالتبن ، وطيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين كشت اسب ، فجعله أميرا ببعض النواحى . فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه . وكان شجاعا بطلا . فبعث السلطان اليه العساكر وفيهم الأمراء الكبار . فالتقى الفرسان واشتد القتال ، وصبر كلا العسكرين . ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ، ففر بهاء الدين الى ملك من ملوك الكفار ، يعرف بالراى [2] كنبيلة . والراى عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن السلطان ، وكنبيلة اسم الاقليم الذى هو به .

وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة ، وهو من أكابر سلاطين الكفار . فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعته عساكر السلطان ، وحصروا تلك البلاد ، واشتد الأمر على الكافر ، ونفد ما عنده من الزرع ، وخاف أن يؤخذ باليد ، فقال لبهاء الدين : ان الحال قد بلغت ما تراه ، وأنا عازم على اهلاك نفسى وعيالى ومن

(١) المراد النقود . وأصل السكة قالب الحديد الذى تضرب عليه الدراهم .
(٢) الراى هو الراجا ، وهو الملك . والكلمتان هنديتان .

تبغي ، فاذهب أنت الى السلطان فلان (لسلطان من الكفار سماه له) فأقم عنده فانه سيمنعك . وبعث معه من أوصله اليه .

وأمر « راى كنبيلة » بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته . وقال لنسائه وبناته : انى أريد قتل نفسى ، فمن أرادت موافقتى فلتفعل .

فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل وتقبل الأرض بين يديه ، وترمى بنفسها فى النار ، حتى هلكن جميعا . وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ، ومن أراد من سائر النساء .

ثم اغتسل الراى وادهن بالصندل ولبس السلاح ما عدا الدرع . وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه . وخرجوا الى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا . ودخلت المدينة ، فأسر أهلها وأسر من أولاد « راى كنبيلة » أحد عشر ولدا ، فأتى بهم الى السلطان فأسلموا جميعا .

وجعلهم السلطان أمراء ، وعظمهم لأصالتهم ولفعل أبيهم . فرأيت عنده منهم نصرا وبختيار والمهردار ، وهو صاحب الخاتم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه ، وكنيته أبو مسلم ، وكانت بينى وبينه صحبة ومودة .

ولما قتل « راى كنبيلة » ، توجهت عساكر السلطان الى بلد الكفار الذى لجأ اليه بهاء الدين ، وأحاطوا به ، فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله « راى كنبيلة » ، فقبض على بهاء الدين وأسلمه الى عسكر السلطان ، فقيدوه وغلوه وأتوا به اليه .

فلما أتى به اليه ، أمر بادخاله الى قرابته من النساء ، فشتمنه وبصقن فى وجهه ، وأمر بسلخه وهو بقيد الحياة ، فسلخ وطبخ لحمه مع الأرز ، وبعث لأولاده وأهله ، وجعل باقيه فى صحفة وطرح للفيلة لتأكله ، فأبت أكله .

وأمر بجلده فحشى بالتبن ، وقرن بجلد بهادور بورة ، وطيف بهما على البلاد .

فلما وصلا الى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان ، صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ، ويخرج لاستقباله اذا وفد من بلاده ، أمر كشلوخان بدفن الجلدين . فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله ، وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كشلوخان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله فى دفن الجلدين أرسل اليه . وعلم كشلوخان أنه يريد عقابه ، فامتنع وخالف وأعطى الأموال ، وجمع العساكر . وبعث الى الترك والأفغان وأهل خراسان ، فأتاه منهم العدد الجم ، حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربى عليه كثرة .

وخرج السلطان بنفسه لقتاله . فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبو هر . وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت « الشطر » عوضا عنه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتانى (وهو [1] الذى حدثنى بهذا) ، وكان [2] شبيها به .

فلما حمى القتال انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كشلوخان

---

(1) اى الشيخ ركن الدين .
(2) اى الشيخ عماد الدين .

« الشطر » ، معتقدين أن السلطان تحتـه ، فقتلوا عماد الدين . وشاع في العسـكر أن السلطان قتل ، فاشـتغلت عساكر كشلوخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل .

فقصـده السلطـان بمن معـه فقتله وحز رأسه . وعلم بذلك جيشه ففروا .

ودخل السلطان مدينـة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين ، وأمر بسلخـه فسلخ ، وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه . وقـد رأيته معلقا لما وصلت الى ملتان .

وأعطى السلطان الشيخ ركن الدين أخـا عماد الدين ، وابنه صدر الدين مائة قرية ، انعاما عليهما ليأكلا منها ، ويطعما بزاويتهمـا المنسوبة لجدهما بهاء الدين زكريا .

وأمر السلطان وزيره خـواجه جهـان أن يذهب الى مدينة كمال بور ، وهى مدينـة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلهـا قـد خالفوا . فأخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير اياها ، قال : وأحضر بين يديه القاضى بها والخطيب ، فأمر بسلخ جلودهما . فقالا له : اقتلنا بغير ذلك .

فقال لهما : بم استوجبتما القتل ؟

فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان .

فقال لهما : فكيف أخالف أنا أمره ، وقـد أمرني أن أقتلكما بهذه القتلة ؟

وقال للمتولين لسلخهما : احفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها .

فانهم اذا سلخوا ، والعياذ بالله ، يطرحون على وجوههم .

ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند ، وعاد السلطان الى حضرته .

ذكر هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل [1]

وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر ، وبينه وبين دهلي مسيرة عشر . وسلطانه من أكبر سـلاطين الـكفار . وكان السلطان بعث الملك نكبيـة رأس الدويدارية الى حرب هذا الجبل ، ومعه مائة ألف فارس ، ورجالة سواهم كثير . فملك مدينـة جدية ، وهى في أسفل الجبل ، وملك ما يليها ، وسبى وخرب وأحرق . وفر الكفار الى أعلى الجبل ، وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم .

وللجبل طريق واحد ، وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل . فلا يجوزه الا فارس منفـرد خلفه آخر . فصعدت عسـاكر المسلمين على ذلك الطريق ، وتملكوا مدينة ورنـكل التى بأعلى الجبل واحتووا على ما فيها . وكتبوا الى السلطان بالفتـح ، فبعث اليهم قاضـيا وخطيبا ، وأمرهم بالاقامة .

فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا ، وماتت الخيـل وانحلت القسي . فـكتب الأمـراء الى السلطـان ، واستأذنوه في الخروج عن الجبل ، والنـزول الى أسفله ، حتى ينصرم فصل نزول المطـر فيعودوا . فأذن لهم في ذلك . فأخذ الأميـر نكبية الأموال التى استولى عليها من الخزائن والمعـادن ، وفرقهـا على الناس ليرفعـوها ويوصلوها الى أسفل الجبل .

فعندما علم الكفار بخروجهم قعـدوا لهم بتلك المهاوى ، وأخذوا عليهـم المضـيق ، وصـاروا يقطعون الأشـجار العادية [2] قطعا

(1) من سلسلة جبال هيمالايا .
(2) الكبيرة القديمة .

ويطرحونها من أعلى الجبل ، فلا تمر بأحد الا أهلكته . فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم . وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح ، ولم يفلت من العسكر الا ثلاثة من الأمراء : كبيرهم نكبية ، وبدر الدين الملك دولة شاه ، وثالث لهما لا أذكره .

وهذه الوقيعة أثرت فى جيش الهند أثرا كبيرا ، وأضعفته ضعفا بينا . وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه اليه ، لأن لهم البلاد فى أسفل الجبل ، ولا قدرة لهم على عمارتها الا باذنه .

ذكر ثورة الشريف جلال الدين بيلاد المعبر ، وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر ، وبينها وبين دهلى مسيرة ستة أشهر ، الشريف جلال الدين أحسن شاه . فخالف وادعى الملك لنفسه ، وقتل نواب السلطان وعماله ، وضرب الدنانير والدراهم باسمه . وكان يكتب فى احدى صفحتى الدينار : سلالة طه ويس ، أبو الفقراء والمساكين ، جلال الدنيا والدين . وفى الصفحة الأخرى : الواثق بتأييد الرحمن ، أحسن شاه السلطان .

وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له « كشك زر » ، ومعناه قصر الذهب ، وأقام به ثمانية أيام لقضاء حاجات الناس . وفى تلك الأيام أتى بابن أخت الوزير خواجه جهان ، وأربعة من الأمراء أو ثلاثة ، وهم مقيدون مغلولون .

وكان السلطان قد بعث وزيره هذا فى مقدمته ، فوصل الى مدينة ظهار ، وهى على مسيرة أربع وعشرين من دهلى ، وأقام بها أياما . وكان ابن أخته شجاعا بطلا ، فاتفق مع الأمراء الذين أتى بهم على قتل خاله ، والهرب بما عنده من الخزائن والأموال الى الشريف القائم ببلاد المعبر . وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه الى صلاة الجمعة .

فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم الى الوزير ، وكان يسمى الملك نصرة الحاجب ، وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم . فبحث الوزير عنهم فوجدهم كذلك ، فبعث بهم الى السلطان .

وكنت بين يديه حين وصولهم ، فرأيت أحدهم وكان طوالا ألحى [1] ، وهو يرعد ويتلو سورة يس . فأمر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة قتل الناس ، وأمر بابن أخت الوزير فرد الى خاله ليقتله فقتله .

وتلك الفيلة التى تقتل الناس تكسى أنيابها حدائد مسنونة شبه سكك الحرث ، ولها أطراف كالسكاكين . ويركب الفيال على الفيل ، فاذا رمى بالرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمى به الى الهواء ، ثم يتلقفه بنابيه ، ويطرحه بعد ذلك بين يديه ، ويجعل يده على صدره ، ويفعل به ما يأمره الفيال ، على حسب ما أمره السلطان . فان أمره بتقطيعه ، قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد . وان أمر بتركه تركه مطروحا فسلخ ... وكذلك فعل بهؤلاء .

وخرجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيت الكلاب تأكل لحومهم ، وقد ملئت جلودهم بالتبن ، والعياذ بالله .

---

(١) رجل طوال (بضم الطاء) طويل القامة . والالحى بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الحاء) ، وكذا اللحيانى (بكسر اللام وسكون الحاء) : طويل اللحية أو عظيمها ... ذكره الفيروزآبادى .

ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرني بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ، ومضى في سفره الى أن بلغ دولة آباد . فثار الأمير هلاجون ببلاده وخرج . وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضا بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر .

ذكر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان دولة آباد وبعد عن بلاده ، ثار الأمير هلاجون بمدينة لاهور وادعى الملك . وساعده الأمير قلجند على ذلك وصيره وزيرا له . واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلي فحشد الناس ، وجمع العساكر ، وجمع الخراسانيين ، وكل من كان مقيما من الخدام بدهلي ، وأخذ أصحابه وأخذ في الجملة أصحابي ، لأني كنت بها مقيما . وأعانه السلطان بأميرين كبيرين : أحدهما قيران ملك صفدار ، ومعناه مرتب العساكر ، والثاني الملك تمور الشربدار ، وهو الساقي .

وخرج هلاجون بعساكره . فكان اللقاء على ضفة أحد الأودية الكبار . فانهزم هلاجون وهرب ، وغرق كثير من عساكره في النهر . ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها ، وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل .

وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير ، وهو المعروف بأجدر ملك ، وكان ظالما قاسي القلب ، ويسميه السلطان أسد الأسواق . وربما عض أرباب الجنايات بأسنانه شرها وعدوانا .

وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور ، فسجن به . ورأيت بعضهن هنالك في السجن .

ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان

ولما وصل السلطان الى بلاد التلنك ، وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر ، نزل مدينة بدركوت ، وهي قاعدة بلاد التلنك ، وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر . ووقع الوباء اذ ذاك في عسكره فهلك معظمهم ، ومات العبيد والمماليك وكبار الأمراء مثل الملك دولة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم ، ومثل الأمير عبد الله الهروى (وقد قدمنا حكايته) ، وهو الذى أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال ، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها .

ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد . وخالفت البلاد وانتقضت الأطراف ، وكاد الملك يخرج عن يده ، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته .

ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان الى دولة آباد مرض في طريقه فأرجف الناس بموته . وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة . وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد . وكان بينه وبين السلطان عهد ألا يبايع غيره أبدا ، لا في حياته ولا بعد موته . فلما أرجف بموت السلطان هرب الى سلطان كافر يسمى بربرة ، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانة .

فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة ، فأجد السير الى دولة آباد ، واقتفى أثر هوشنج ، وحصره بالخيل ، وأرسل الى الكافر

أن يسلمه اليه . فأبى ، وقال : لا أسلم دخيلي .

وخاف هوشنج على نفسه ، فراسل السلطان وعاهده على أن يرحل السلطان الى دولة آباد ويبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان ، ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الأمان .

فرحل السلطان ونزل هوشنج الى قطلوخان ، وعاهده السلطان ألا يقتله ولايحط منزلته . وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان ، فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه .

وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه . ومنزلته عند السلطان علية ، وتعظيمه له شديد ، ومتى دخل عليه قام له اجلالا ، فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذى يدعوه ، لئلا يتعبه بالقيام له . وهو محب للصدقات كثير الايثار ، مولع بالاحسان للفقراء والمساكين .

ذكر ما هم به الشريف ابراهيم
من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار ، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان ، واليا على بلاد حانسى وسرستى ، لما تحرك السلطان الى بلاد المعبر ، وأبوه هو القائم ببلاد المعبر ، الشريف أحسن شاه . فلما أرجف بموت السلطان ، طمع ابراهيم فى السلطنة ، وكان شجاعا كريما حسن الصورة . وكنت متزوجا بأخته حور نسب . وكانت صالحة تتهجد بالليل ، ولها أوراد من ذكر الله عز وجل . وكانت تقرأ لكنها لا تكتب .

فلما هم ابراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند ، ومعه الأموال يحملها الى دهلى . فقال له ابراهيم : ان الطريق مخوف وفيه القطع ، فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك الى المأمن . وكان قصده أن يتحقق موت السلطان ، فيستولى على تلك الأموال . فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير ، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك .

ولما وصل السلطان الى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف سنة ، وصل الشريف ابراهيم اليه ، فوشى به بعض غلمانه ، وأعلم السلطان بما كان هم به . فأراد السلطان أن يعجل بقتله ، ثم تأنى لمحبته له .

فاتفق أن أتى يوما الى السلطان بغزال مذبوح ، فنظر الى ذبحته فقال : ليس بجيد الذكاة ، اطرحوه . فرآه ابراهيم فقال : ان ذكاته جيدة ، وأنا آكله .

فأخبر السلطان بقوله ، فأنكر ذلك ، وجعله ذريعة الى أخذه . فأمر به فقيد وغل ، ثم قرره على ما رمى به من أنه أراد أخذ الأموال التى مر بها ضياء الملك .

وعلم ابراهيم أنه انما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة . وخاف أن يعذب ، فرأى الموت خيرا له ، فأقر بذلك . فأمر به فوسط وترك هنالك .

وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا . فاذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك ، فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به . وهم يسكنون حول الخندق ، لئلا يأتى أهل المقتول فيرفعوه . وربما أعطى بعضهم هؤلاء

الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه . وكذلك فعل بالشريف ابراهيم ، رحمه الله تعالى .

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته ، وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك ، وهو من قدماء خواصه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بدركوت .

فبلغ خبره السلطان ، فبعث معلمه قطلوخان فى عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد ، هلك فيه أمم من الناس . واشتد الحصار على أهل بدركوت وهى منيعة ، وأخذ قطلوخان فى نقبها . فخرج اليه نصرة خان على الأمان فى نفسه فأمنه . وبعث به الى السلطان . وأمن أهل المدينة والعسكر .

ذكر انتقال السلطان الى نهر الكنك [1] وقيام عين الملك

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره الى نهر الكنك ، الذى تحج اليه الهنود ، على مسيرة عشرة من دهلى ، وأمر الناس بالبناء . وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الأرض ، فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذى الناس ، حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الأرض . فاذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب .

ووصلت أنا فى تلك الأيام الى محلة السلطان . وكانت البلاد التى بغربى النهر حيث السلطان شديدة القحط ، والبلاد التى بشرقيه خصبة ، وأميرها عين الملك بن ماهر ، ومنها مدينة عوض [1] ومدينة ظفر آباد ومدينة اللكنو وغيرها .

وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر خمسين ألف من [2] منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب . فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال الى الجهة الشرقية المخصبة لترعى هنالك ، وأوصى عين الملك بحفظها .

وكان لعين الملك أربعة اخوة : وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ، ولا أذكر اسم الآخر . فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ، ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان . وهرب اليهم عين الملك بالليل ، وكاد الأمر يتم لهم .

ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه جميع حاله . ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكن عيونا له على أمرائه ، ونسوة يسميهن الكناسات ، يدخلن الدور بلا استئذان ، ويخبرهن الجوارى بما عندهن ، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين ، فيخبرون بذلك السلطان .

ويذكرون أن بعض الأمراء كان فى فراشه مع زوجته فأراد مماستها ، فحلفته برأس السلطان ألا يفعل ، فلم يسمع منها . فأرسل اليه السلطان صباحا وأخبره بذلك ، وكان سبب هلاكه !

(1) نهر الكنج .

(1) قال ياقوت : اسم بلد بعيد عنا فى أواسط بلاد الهند ، تأتيه التجار بعد مشقة .

(2) المن رطلان .

وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك هذا ، فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر ، فسقط فى يده ، وظن أنها القاضية عليه ، لأن الخيل والفيلة والزرع ، كل ذلك عند عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقة . فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتى لقتاله ، وشاور أرباب الدولة فى ذلك .

وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم ، لأنه هندى وأهل الهند مبغضون للغرباء ، فكرهوا ما ظهر به ، وقالوا : ياخوند عالم ، ان فعلت ذلك بلغه الخبر ، فاشتد أمره ورتب العساكر ، وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن . والأولى معالجته قبل استحكام قوته .

وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهرى ، ووافقه جميعهم . فعمل السلطان باشارتهم . وكتب تلك الليلة الى من قرب منه من الأمراء والعساكر ، فأتوا من حينهم . وأدار فى ذلك حيلة حسنة : فكان اذا قدم على محلته مثلا مائة فارس ، بعث الآلاف من عنده القائهم ليلا ودخلوا معهم الى المحلة ، كأن جميعهم مدد له .

وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ، ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها ، وبينها وبين الموضع الذى كان به ثلاثة أيام .

فرحل أول مرحلة وقد عبأ جيشه للحرب ، وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم ، كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه الى جانبه ، ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود الى مجلسه . والمحلة الكبرى على بعد منهم . ولم يدخل السلطان فى تلك الأيام الثلاثة خباء ولا استظل بظل .

وكنت فى يوم منها بخبائى ، فصاح بى فتى من فتيانى اسمه سنبل واستعجلنى . وكان معى الجوارى فخرجت اليه ، فقال : ان السلطان آمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته ، فشفع عنده الأمراء ، فأمر ألا تبقى الساعة بالمحلة امرأة . وأن يحملن الى حصن هنالك على ثلاثة أميال . فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع السلطان . وبتنا تلك الليلة على تعبئة .

فلما كان فى اليوم الثانى رتب السلطان عساكره أفواجا ، وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة وعليها الأبراج وفوقها المقاتلة . وتدرع العسكر وتهيأوا للحرب ، وباتوا تلك الليلة على أهبة .

ولما كان اليوم الثالث شاع أن عين الملك الثائر أجاز النهر ، فخاف السلطان ذلك ، وتوقع أنه لم يفعله الا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع السلطان . فأمر فى الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه ، وبعث لى حظا منها .

وكان لى صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى » من الشجعان ، فأعطيته فرسا منها أشهب اللون . فلما حركه جمح به ، فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره ، فمات رحمه الله تعالى .

وجد السلطان ذلك اليوم فى مسيره فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج . وكان يخاف أن يسبقه القائم اليها . وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه . ووقف علينا ونحن فى المقدمة

مع ابن عمه « الملك فيروز » ، ومعنا الأمير غدا ابن مهنا ، والسيد ناصر الدين مطهر ، وأمراء خراسان . فأضافنا الى خواصه وقال : أنتم أعزة على ، وما ينبغى أن تفارقونى .

وكان فى عاقبة ذلك الخير ، فان القائم ضرب فى آخر الليل على المقدمة ، وفيها الوزير خواجه جهان ، فقامت ضجة فى الناس كبيرة . فحينئذ أمر السلطان ألا يبرح أحد مكانه ، ولا يقاتل الناس الا بالسيوف . فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا الى أصحابهم . وحمى القتال .

وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه : دهلى وغزنة . فاذا لقى أحدهم فارسا قال له : دهلى فان أجابه بغزنة علم أنه من أصحابه ، والا قاتله .

وكان القائم انما قصد أن يضرب على موضع السلطان ، فأخطأ به الدليل ، فقصد موضع الوزير . فضرب عنق الدليل .

وكان فى عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود ، فصدقوا القتال . وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر .

وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجى قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة ، وهى قريبة من بلاد عين الملك ، فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه . وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله ، فوافقاه أيضا ، وجعل داود صاحبه . وكان داود هذا لما ضربوا على محلة الوزير ، يجهر بسب السلطان ، ويشتمه أقبح شتم ، والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه .

فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التترى : ماذا ترى ياملك ابراهيم ؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النجدة منهم ، فهل لك أن ننجو بأنفسنا ؟

فقال ابراهيم لأصحابه بلسانهم : اذا أراد عين الملك أن يفر فانى سأقبض على دبوقته [1] . فاذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط الى الأرض فنقبض عليه ونأتى به السلطان ، ليكون ذلك كفارة لذنبى فى مخالفته ، وسببا لخلاصى .

فلما أراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم : الى أين ياسلطان علاء الدين ؟ وكان يسمى بذلك ، وأمسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه ، فسقط الى الأرض . ورمى ابراهيم بنفسه عليه ، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم ، وقال : لا أتركه حتى أوصله الى الوزير أو أموت دون ذلك . فتركوه فأوصله الى الوزير .

وكنت أنظر عند الصبح الى الفيلة والأعلام يؤتى بها الى السلطان . ثم جاءنى بعض العراقيين فقال : قد قبض على عين الملك وأتى به الى الوزير ، فلم أصدقه . فلم يمر الا يسير حتى جاءنى الملك تمور الشربدار ، فأخذ بيدى وقال : أبشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير .

فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك ، فنهبت العساكر ما فيها . واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا ، وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم . ونهبت الأموال والخيل والأمتعة .

(1) الشعر المضفور ، مولدة ... « القاموس » هـ

ونزل السلطان على المجاز . وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور ، وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل ، وباقيه في عنقه . فوقف على باب « السراجة » . وجاء أبناء الملوك الى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون في وجهه ، ويصفعون أصحابه .

وبعث اليه السلطان الملك الكبير ، فقال له : ماهذا الذى فعلت ؟

فلم يجد جوابا . فأمر به السلطان أن يكسى ثوبا من ثياب الزمالة [1] وقيد بأربعة كبول [2] ، وغلت يداه الى عنقه وسلم الى الوزير ليحفظه .

وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عوض ، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك : اخلصى بنفسك وبنيك معنا .

فقالت : أفلا أكون كنساء الكفار اللائى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ؟ فأنا أيضا أموت لموت زوجى وأعيش لعيشه ، فتركوها .

وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها ، وأدركته لها رقة .

وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولئك الأخوة فقتل وأتى السلطان برأسه .

وأتى بأم عين الملك وأخته وامرأته ، فسلمن الى الوزير وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك ، فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود الى محبسه .

ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة ، أمر السلطان بسراح لفيف الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به .

وأتى بالملك ابراهيم البنجى الذى ذكرناه ، فقال ملك العسكر : ياخوند عالم ، اقتل هذا فانه من المخالفين .

فقال الوزير : انه قد فدى نفسه بالقائم . فعفا عنه السلطان وسرحه الى بلاده .

ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب ، وأتى باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم ، وأتى بالفيلة فطرحوا بين أيديها . فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها ، وترمى بعضهم الى الهواء وتتلقفه ، والأبواق والأنقار والطبول تضرب عند ذلك ، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ، ويطرح منهم عليه . ثم أعيد الى محبسه .

وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب . وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة ، وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم ، وبعث الى بفيل منها أجزت عليه رحلى .

وقصد السلطان ونحن معه الى مدينة بهرايج ، وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السرو ، وهو واد كبير شديد الانحدار . وأجازه السلطان لزيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالارعود ، الذى فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة .

وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا ، حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس ،

(١) لم نعثر على معنى ملائم لهذه الكلمة في كتب اللغة ، ويراد بها هنا سائقو دواب الحمل .
(٢) جمع كبل ، وهو القيد .

لم ينج منهم الا عربى من أصحاب الأمير غدا . وكنا ركبنا فى مركب صغير فسلمنا الله تعالى .

وكان العربى الذى سلم من الغرق يسمى بسالم ، وذلك اتفاق عجيب . وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركب فى المركب الذى غرق . فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا ، فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس ، وتوهموا أنا غرقنا . ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا .

وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو فى قبة لم نجد سبيلا الى دخولها لكثرة الزحام . وفى تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب ، فخرج علينا منها الكركدن ، فقتل وأتى برأسه . وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته
ومخالفة على شاه كر

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا ، عاد الى حضرته بعد مغيب عامين ونصف ، وعفا عن عين الملك ، وعفا أيضا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك ، وجعلهما معا على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان . وكساهما وأركبهما ، وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم .

وحدث بعد ذلك أن أحد أصحاب قطلوخان ، وهو على شاه كر (ومعنى كر الأطرش) خالف على السلطان . وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة . فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه ، وخرجت العساكر اليه .

وأمر السلطان معلمه أن يخرج الى قتاله ، فخرج فى عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ، ونقبت أبراجها . واشتدت به الحال فطلب الأمان ، فأمنه قطلوخان ، وبعث به الى السلطان مقيدا . فعفا عنه ونفاه الى مدينة غزنة ، من طرف خراسان . فأقام بها مدة ، ثم اشتاق الى وطنه فأراد العودة اليه ، لما قضاه الله من حينه ، فقبض عليه ببلاد السند وأتى به السلطان ، فقال له : انما جئت لتثير الفساد ثانية ، وأمر به فضربت عنقه .

ذكر فرار أمير بخت وأخذه

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك ، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فحط مرتبه من أربعين ألفا الى ألف واحد . وبعثه فى خدمة الوزير الى دهلى .

واتفق أن مات أمير عبد الله الهروى فى التلنك ، وكان ماله عند أصحابه بدهلى ، فاتفقوا مع أمير بخت على الهرب .

فلما خرج الوزير من دهلى الى لقاء السلطان ، هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا الى أرض السند فى سبعة أيام ، وهو مسيرة أربعين يوما ، وكان معهم الخيل مجنوبة [1] . وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عوما ، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى معدية قصب يصنعونها .

وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير لذلك .

فلما وصلوا الى النهر خافوا عبوره بالعوم . فبعثوا رجلين منهم الى جلال الدين صاحب مدينة أوجة ، فقالا له : ان هاهنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر . وقد بعثوا اليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز .

(١) جاء فى « لسان العرب » : جنب الفرس والاسير : قاده الى جنبه .

فأنكر الأمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج ، وأمر بالقبض على الرجلين ، ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم نيام ، لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر ، فأخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا .

وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه ، فاعترف بقضية شرف الملك . فأمر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر وقصدوا نحوهم ، فوجدوهم قد ركبوا ، فاقتفوا آثرهم فأدركوهم ، فرموا العسكر بالنشاب . ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسهم فأثبته فى ذراعه .

وغلب عليهم ، فأتى بهم الى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم ، وكتب الى الوزير فى شأنهم . فأمره الوزير أن يبعثهم الى الحضرة . فبعثهم اليها وسجنوا بها . فمات طاهر فى السجن . فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مقرعة فى كل يوم . فبقى على ذلك مدة ، ثم عفا عنه وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجلة الى بلاد جنديرى فانتهت حاله الى أن كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه .

وأقام على ذلك مدة ، ثم وفد ذلك الأمير على السلطان وهو معه ، فجعله السلطان شاشنكير (جاشنكير) ، وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان ، ويمشى مع الطعام . ثم انه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره .

وانتهت حاله الى أن مرض فزاره السلطان ، وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك . وقد قدمنا هذه الحكاية . وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديرى التى كان بها يركب البقر فى خدمة الأمير نظام الدين . فسبحان مقلب القلوب ومحول الأحوال .

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند ، وقتل الأمير بها ، وكان يسمى « به زاد » ، وادعى السلطنة لنفسه . وتجهز السلطان لقتاله فعلم أنه لا يقاومه ، فهرب ولحق بقومه الأفغان ، وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها . فاغتاظ السلطان مما فعله ، وكتب الى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده . فكان ذلك سببا لخلاف القاضى جلال .

ذكر خلاف القاضى جلال

وكان القاضى جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلودرة . فلما كتب السلطان الى عماله بالقبض على الأفغانيين ، كتب الى « ملك مقبل » نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهروالة ، أن يحتال فى القبض على جلال ومن معه .

وكانت بلاد بلودرة اقطاعا لملك الحكماء . وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ، ولها بنت من تغلق ، هى التى تزوجها الأمير غدا . وملك الحكماء اذ ذاك فى صحبة مقبل ، لأن بلاده تحت نظره .

فلما وصلوا الى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتى بالقاضى جلال وأصحابه . فلما وصل ملك الحكماء الى بلاده ، حذرهم فى خفية لأنهم كانوا من أهل بلاده . وقال : ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه الا بالسلاح .

فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه ، وقالوا : لا ندخل الا جملة .

فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون ، وخافهم فأمرهم بالرجوع ، وأظهر تأمينهم .

فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ، ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس . ونهبوا مال ابن الكولمى التاجر ، وهو الذى عمر المدرسة الحسنة بالاسكندرية . وسنذكره اثر هذا .

وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة . وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان لقتالهم فى سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضا .

وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم . وادعى القاضى جلال السلطنة وبايعه أصحابه . وبعث السلطان اليه العساكر فهزمها . وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضا .

ذكر خلاف ابن الملك مل

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد فى جماعة من الأفغان . فكتب السلطان الى نائبه بها ، وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ، أن يقبض عليهم . وبعث اليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل . وبعث بخلع الشتاء .

وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خلعتين فى السنة ، خلعة الشتاء ، وخلعة الصيف . واذا جاءت الخلع يخرج الأمير والعسكر فى لقائها ، فاذا وصلوا الى الآتى بها نزلوا عن دوابهم ، وأخذ كل واحد خلعة وحملها على كتفه ، وخدم لجهة السلطان .

وكتب السلطان لنظام الدين : اذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك .

وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع الى الأفغان فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه ، فركب وركب الأفغان معه حتى اذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وعلى أصحابه . فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه . ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن الملك مل ، وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنباية

ولما بلغ السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد ، خرج بنفسه وعزم على أن يبدأ بكنباية ثم يعود الى دولة آباد .

وبعث « أعظم ملك » البايزيدى صهره ، فى أربعة آلاف مقدمة . فاستقبلته عساكر القاضى جلال ، وكان بينهما شيخ يسمى جلول ، وهو أحد الشجعان ، فلا يزال يفتك بالعساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته . واتفق يوما أنه دفع فرسه فكبا به فى حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بلوذرة ، وبعثوا يديه ورجليه الى البلاد .

ثم وصل السلطان بعساكره ، فلم يكن للقاضى جلال من ثبات ، ففر فى أصحابه

وتركوا أموالهـم وأولادهم فنهب ذلك كله . ودخلت المدينة ، وأقام بها السلطان أياما ، ثم رحل عنها ، وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت (وقد قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه ، وما جرى عليه من الذل ثم من العز) ، وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة جلال الدين . وترك معه الفقهـاء ليحـكم بأقوالهم ، فأدى ذلك الى قتل الشيخ عـلى الحيدرى على ما قدمناه .

ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ابن الملك مل بدولة آباد ودخل فى جملتـه . فأتى السلطان بنفسه اليهم ، واجتمعوا فى نحو أربعين ألفـا من الأفغـان والترك والهنـود والعبيـد ، وتحـالفوا على ألا يفروا ، وأن يقاتلوا السلطان . وأتى السلطان لقتالهم ، ولم يرفع « الشطر » [1] الذى هو علامة عليه . فلما استعر القتال رفع « الشطر » ، فلما عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة . ولجأ ابن الملك مل والقـاضى جلال فى نحـو أربعمـائة من خواصهما الى قلعة الدويقير ، وسـنذكرها ، وهى من أمنع قلاع الدنيا .

واسـتقر السلطـان بمدينـة دولة آباد ، والدويقير هى قلعتها . وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه ، فأبوا أن ينزلوا الا على الأمان ، فأبى السلطان أن يؤمنهم ، وبعث لهم الأطعمة تهاونا بهم ، وأقام هنالك . وعلى ذلك آخـر عهدى بهم .

ذكر قتال مقبل وابن الكولمى

وكان ذلك قبـل خـروج القـاضى جلال وخلافه ، وكان تاج الدين بن الكولمى من كبار التجار ، فوفد على السلطان من أرض التـرك بهدايا جليلة ، منها المماليك والجمال والمتـاع والسلاح والثياب . فأعجب السلطان فعـله وأعطاه اثنى عشر لـكا ، ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته الا لـكا واحدا . وولاه مدينـة كنباية ، وكانت لنظر الملك مقبل نائب الوزير . فوصل اليها وبعث المراكب الى بلاد المليبار [1] وجزيرة سـيلان وغيرها ، وجـاءته التحف والهدايا فى المراكب ، وضخمت حاله .

ولمـا لم يبعث أمـوال تلك الجهـات الى الحضرة ، بعث الملك مقبل الى ابن الكولمى أن يبعث ما عنده من الهدايا والأموال ، مع هدايا تلك الجهات على العادة ، فامتنع ابن الكولمى من ذلك وقال : أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى . ولا حكم لنائب الوزير على ، ولا للوزير . واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية .

فكتب مقبل الى الوزير بذلك ، فوقع له الوزير على ظهر كتـابه : ان كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع الينا .

فلما بلغه الجـواب ، تجهز فى عسـكره ومماليكه ، والتقيا بظاهر كنباية ، فانهزم ابن الكولمى ، وقتل جماعة من الفريقين ، واستخفى ابن الكولمى فى دار الناخداة [2] الياس ، أحد كبراء التجار .

ودخل مقبل المدينة ، فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمى ، وبعث له الأمان على أن يأخذ ماله المختص به ، ويترك مال السلطان وهديته ومجبى البلد . وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه الى السلطان . وكتب شاكيـا ابن

(1) المظلة ، غير عربية بهذا المعنى ، بل معـــربة عن « جتر » .

(1) المليبار .

(2) صاحب السفن أو وكيله ، معربة ... «القاموس» ، وقال الشارح : والمشهور عند اكثر المعربين اهمال دالها .

الكولمى ، وكتب ابن الكولمى شاكيا اياه . فبعث السلطان ملك الحكماء ليفصل بينهما . وبأثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين ، فنهب مال ابن الكولمى . وفر ابن الكولمى فى بعض ممالیکه ولحق بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفى مدة مغيب السلطان عن حضرته ، اذ خرج يقصد بلاد المعبر ، وقع الغلاء واشتد الأمر وانتهى المن الى ستين درهما ، ثم زاد على ذلك . وضاقت الأحوال وعظم الخطب .

ولقد خرجت مرة الى لقاء الوزير ، فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر يأكلنه . وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الأسواق . وكان الناس اذا ذبحت البقرة أخذوا دماءها فأكلوها .

وحدثنى بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى اكروهة ، بين حانسى وسرستى ، فوجدوها خالية ، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به ، فوجدوا فى بعض بيوتها رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمى ، وهو يشويها فى النار ويأكل منها ، والعياذ بالله .

ولما اشتد الحال ، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر ، فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ، ويكتبون الناس ويعطون كل أحد نفقة ستة أشهر ، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب فى اليوم لكل واحد .

وكنت فى تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذى أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين ، على ما يذكر ، فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه .

واذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان فى أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية ، فلنعد الى ما يخصنا من ذلك . ونذكر كيفية وصولنا أولا الى حضرته ، وتنقل الحال الى خروجنا عن الخدمة ، ثم خروجنا عن السلطان فى الرسالة الى الصين ، وعودنا منها الى بلادنا ، ان شاء الله تعالى .

ذكر وصولنا الى دار السلطان
عند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول ثم الثانى ثم الثالث ، ووجدنا عليه النقباء ، وقد تقدم ذكرهم . فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم الى « مشور » عظيم متسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا . فتقدم ضياء الدين خداوند زاده ، ثم تلاه أخوه قوام الدين ، ثم أخوهما عماد الدين ، ثم تلوتهم ، ثم تلانى أخوهم برهان الدين ، ثم الأمير مبارك السمرقندى ، ثم أرن بغا التركى ، ثم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده ، ثم بدر الدين الفصال .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا « المشور » الكبير المسمى هزار أسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان الجلوس العام . فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض . وخدمنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا الى الأرض ، وخدمتنا لناحية سرير السلطان ، وخدم جميع من معنا . فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية : باسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا الى دار أم السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان . وهى من أفضل النساء ، كثيرة الصدقات ، عمرت زوايا كثيرة ، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر .

وهى مكفوفة البصر ، وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين ، وبنات الملوك والأمراء فى أحسن زى ، وهى على سرير الذهب المرصع بالجوهر ، فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين . وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع .

وولدها أشد الناس برا بها ، ومن بره آنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة ، فلما قدمت خرج لاستقبالها ، وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهى فى المحفة بمرأى من الناس أجمعين .

ولنعد الى ما قصدناه فنقول : ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف ، وهم يسمونه باب الحرم ، وهنالك سكنى المخدومة جهان . فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله . ودخل معنا قاضى قضاة المماليك ، كمال الدين بن البرهان ، فخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا كخدمتهم . وكتب كاتب بابها هدايانا .

ثم خرج من الفتيان جماعة ، وتقدم كبارهم الى الوزير فكلموه سرا . ثم عادوا الى القصر ، ثم رجعوا الى الوزير ، ثم عادوا الى القصر ، ونحن وقوف . ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك .

ثم أتوا بالطعام ، وأتوا بقلال من الذهب مثل القدور . ولها مرافع من الذهب تجلس عليها . وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب . وجعلوا الطعام سماطين ، وعلى كل سماط صفان . ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين .

ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم . ثم أتوا بالشربة فشربنا . وقال الحجاب : باسم الله . ثم أكلنا ، وأتوا بالفقاع ثم بالتانبول ، ثم قال الحجاب : باسم الله ، فخدمنا جميعا .

ثم دعينا الى موضع هنالك ، فخلع علينا خلع الحرير المذهبة . ثم أتوا بنا الى باب القصر فخدمنا عنده ، وقال الحجاب : باسم الله . ووقف الوزير ووقفنا معه . ثم أخرج من داخل القصر تخت [1] ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن ، فأعطى كل واحد منا نصيبه منها . ثم أتوا بطيفور [2] ذهب فيه الفاكهة اليابسة ، وبطيفور مثله فيه الجلاب ، وطيفور ثالث فيه التانبول .

ومن عادتهم أن الذى يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ، ثم يخدم بيده الأخرى الى الأرض . فأخذ الوزير الطيفور بيده ليعلمنى كيف أفعل ، ايناسا منه وتواضعا ومبرة ، جزاه الله خيرا ، ففعلت كفعله . ثم انصرفنا الى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى ، وبعثت لنا الضيافة .

---

(١) التخت وعاء تصان فيه الثياب ... « القاموس » .
(٢) الطيفور طائر صغير ، كما فى « القاموس » ، ويراد به هنا وعاء على صورة هذا الطائر .

ذكر الضيافة

ولما وصلت الى الدار التى أعدت لنزولى ، وجدت فيها ما يحتــاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمــل السرير منها الرجــل الواحد . ولابد لــكل أحد أن يستصــحب السرير فى السفر ، يحمله غلامه على رأسه .

وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليهــا أربعة أعواد ، وتنســج عليهــا ضــفائر من الحرير أو القطن . فاذا نام الانسان عليــه لم يحتج الى ما يرطبــه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير « بمضربتين [1] » ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير .

وعادتهــم أن يجعلــوا للمضربات واللحف وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا ، فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقى ما فى داخلهــا مصونا .

وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى، والآخر الجزار ، ويسمونه القصــاب ، فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيــق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحــم ، لأوزان لا أذكرها الآن . وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق .

وهذا الذى ذكرناه ضــيافة أم السلطان ، وبعــد ذلك وصلتنــا ضــيافة السلطــان ، وسنذكرها .

ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا الى دار السلطــان ، وسلمنــا على الوزير ، فأعطانى بدرتين كل بدرة من ألف دينــار دراهــم . وأعطانى خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابى

(١) يقصد بالمضربة الحشية .

وخدامى وغلمانى فجعلوا أربعــة أصــناف : فالصنف الأول منها أعطى كل واحــد منهــم مائتى دينار ، والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا ، والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار ، والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا ، وكانوا نحو أربعين . وكان جملة ما أعطــوه أربعــة آلاف دينار ونيفا .

وبعد ذلك عينت ضــيافة السلطان ، وهى ألف رطل هدية من الدقيق ، ثلثها من الميرا ، وهى الدرمك [1] ، وثلثاها من الخشــكار [2] ، وألف رطل من اللحم ، ومن السكر والسمن والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها . وألف من ورق التانبول . والرطل الهنــدى عشرون رطلا من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر .

وكانت ضــيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيــق ، ومثلهــا من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه .

ذكر وفاة بنتى وما فعلــوا فى ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنــا ، توفيت بنت لى سنها دون السنة . فاتصــل خبر وفاتها بالوزير ، فأمر أن تدفن فى زاوية بناها فى خارج « دروازة بالم » ، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القــونوى ، فدفنــاها بها . وكتب بخبــرها الى السلطــان ، فأتاه الجواب فى عشى اليــوم التــالى . وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مســيرة عشرة أيام .

(١) الدرمك دقيق الحوارى (بضم الحاء وتشــديد الواو) ؛ وهو الدقيق الابيض لباب الدقيق .
(٢) كلمة فارسية معناها ماخشن من الطحين . ويسمى بالعربية القصرى على وزن بشرى .

وعادتهم أن يخرجوا الى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ، ويجعلون على القبر الأزاهير ، وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول . ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها . وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط . ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل .

ويجتمع الناس ، ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن . فاذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس . ثم يصب عليهم ماء الورد صبا . ويعطون التانبول وينصرفون .

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبح على العادة وأعددت ما تيسر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسراجة فضربت على القبر . وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي[1] الذي تلقانا بالسند ، والقاضي نظام الدين الكرواني [2] ، وجملة من كبار أهل المدينة .

ولم آت الا والقوم قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم ، وهم يقرأون القرآن . فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر . فلما فرغوا من القراءة ، قرأ القراء بأصوات حسان . ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان . وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا .

ودعا القاضي دعاء حسنا ، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ، ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات . ثم فرقوا عليهم التانبول . ثم أتى باحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي . ثم ركب الحاجب وركبنا معه الى دار السلطان ، فخدمنا للسرير على العادة ، وانصرفت الى منزلي .

فما وصلت حتى جاء من الطعام من دار المخدومة جهان ، ما ملأ الدار ودور أصحابي . وأكلوا جميعا وأكل المساكين . وفضلت الأقراص والحلواء والنبات ، فأقامت بقاياها أياما . وكان ذلك كله بأمر السلطان .

وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان « الدولة » وهي المحفة التي تحمل فيها النساء ، ويركبها الرجال أيضا . وهي شبه السرير : سطحها من ضفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود معوج من القصب الهندي ، يحملها ثمانية رجال في نوبتين ، يستريح أربعة ويحمل أربعة .

وهذه « الدول » بالهند كالحمير بديار مصر ، عليها يحمل أكثر الناس ، فمن كان له عبيد حملوه ، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الأسواق ، وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكراء .

وتكون « دول » النساء مغشاة بغشاء حرير ، وكذلك كانت هذه « الدولة » التي أتى بها الفتيان من دار أم السلطان ، فحملوا فيها جاريتي التي هي أم البنت المتوفاة . وبعثت أنا معها هدية جارية تركية .

فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت في اليوم الثاني ، وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا [1] من الذهب مرصعا أيضا ، وقميص كتان

---

(١) نسبة الى فوشنج ، وهي بوشنج المتقدم ذكرها .
(٢) لعله نسبة الى كروان ، قرية بطوس .

(١) نوع من القلائد ، وهي غير عربية بهذا المعنى فيما نعلم .

مزرركشا بالذهب ، وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب .

ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابى والتجار الذين لهم علىّ الدين ، محافظة على نفسى وصونا لعرضى ، لأن المخبرين يكتبون الى السلطان بجميع أحوالى .

ذكر احسان السلطان والوزير الى
فى أيام غيبة السلطان عن الحضرة

وفى أثناء مقامى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما يكون فائده [1] خمسة آلاف دينار فى السنة . فعينها لى الوزير وأهل الديوان ، وخرجت اليها . وهذه القرى على مسافة ستة عشر « كروها » وهو الميل ، بصدى يعرف بصدى هندبت .

والصدى عندهم مجموع مائة قرية . وأحواز المدينة مقسومة أصداء ، كل صدى له « جوطرى » ، وهو شيخ من كفار تلك البلاد ، ومتصرف ، وهو الذى يضم مجابيها .

وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبى من الكفار ، فبعث الوزير الى عشر جوار منه .

فأعطيت للذى جاء بهن واحدة منهن ، فما رضى بذلك . وأخذ أصحابى ثلاثا صغارا منهن ، وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن .

والكفار ببلاد الهند فى بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين . والمسلمون غالبون عليهم . وانما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ، ولهم غيضات من القصب . وقصبهم غير مجوف ، ويعظم ويلتف بعضه على بعض ، ولا تؤثر فيه النار ، وله قوة عظيمة . فيسكنون تلك الغياض ، وهى لهم مثل السور .

وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر ، فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، ويقطعون ذلك القصب بآلات معدة لذلك .

ذكر العيد الذى شهدته
أيام غيبة السلطان

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد الى الحضرة . فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل ، وقد مهد له على ظهره شبه السرير . وركزت أربعة أعلام فى أركانه الأربعة . ولبس الخطيب ثياب السواد . وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه . وركب فقهاء المدينة وقضاتها ، وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج الى المصلى .

ونصب على المصلى « صيوان » قطن ، وفرش ببسط . واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى . ثم صلى بهم الخطيب وخطب ، وانصرف الناس الى منازلهم ، وانصرفنا الى دار السلطان . وجعل الطعام ، فحضره الملوك والأمراء والأعزة — وهم الغرباء — وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولما كان فى رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبت ، على مسافة سبعة أميال من الحضرة . فأمرنا الوزير بالخروج اليه فخرجنا ، ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال ، والفواكه الخراسانية ، والسيوف المصرية ، والمماليك ، والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك .

(1) قوله : « ما يكون فائده خمسة آلاف دينار » أى ما يكون مستغلها كذلك .

فوصلنا الى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين ، فكانوا يدخلون الى السلطان على قدر مراتبهم ، ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب . . .

ولما وصلت النوبة الى ، دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسى ، فظننته أحد الحجاب ، حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى ، وكنت عرفته أيام غيبة السلطان . فخدم الحاجب فخدمت .

واستقبلنى « أمير حاجب » ، وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز ، وخدمت ثانية لخدمته . ثم قال لى ملك الندماء : باسم الله ، مولانا بدر الدين ، وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين . وكل من كان من أهل الطلب انما يقال له مولانا .

فقربت من السلطان ، حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدى ، وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب ، ويقول لى باللسان الفارسى : حلت البركة ، قدومك مبارك ، اجمع خاطرك [1] ، أعمل معك من المراحم ، وأعطيك من الانعام ما لم يسمع به أهل بلادك فيأتون اليك .

ثم سألنى عن بلادى ، فقلت له : بلاد المغرب .

فقال لى : بلاد عبد المؤمن ؟

فقلت له : نعم .

وكان كلما قال لى كلاما جيدا قبلت يده ، حتى قبلتها سبع مرات . وخلع على وانصرفت .

واجتمع الواردون ، فمد لهم سماط ، ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى ، وكان من كبار الفقهاء ، وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى ، وعماد الملك ، والملك جلال الدين الكيجى ، وجماعة من الحجاب والأمراء .

(١) تعبير غريب ، ويبدو انه يريد : كن مطمئنا الى الاقامة بيننا .

وحضر لذلك خداوند زاده غياث الدين ، ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضى ترمذ الذى قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ ، وتردد اليه مرارا من بلاده .

والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك اليوم هم خداوند زاده قوام الدين ، واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين . وابن أخته أمير بخت ابن السيد تاج الدين ، وكان جده وجيه الدين وزير خراسان ، وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا . والأمير هبة الله ابن الفلكى التبريزى ، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق ، وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتبريز ، وملك كراى من أولاد بهرام جور صاحب كسرى ، وهو من أهل جبل بدخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد . والأمير مبارك شاه السمرقندى ، وأرن بغا البخارى ، وملك زاده الترمذى ، وشهاب الدين الكازرونى [1] التاجر الذى قدم من تبريز بالهدية الى السلطان ، فسلب فى طريقه .

ذكر دخول السلطان حضرته
وما أمر لنا به من المراكب

وفى الغد من يوم خروجنا الى السلطان ، أعطى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان ، عليه سرج ولجام محليان . وركب السلطان

(١) نسبة الى كازرون ، مدينة بفارس بين البحرين وشيراز ... « ياقوت » .

لدخول حضرته ، وركبنا في مقدمته مع صدر الجهاز . وزينت الفيلة أمام السلطان ، وجعلت عليها الأعلام ، ورفع عليها ستة عشر «شطرا» ، منها مزركشة ومنها مرصعة ، ورفع فوق رأس السلطان « شطر » منها . وحملت أمامه الغاشية وهى ستارة مرصعة ، وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار .

فلما وصل السلطان الى قرب المدينة ، رمى فى تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة ، والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك . ولم يزالوا ينثرونها الى أن وصلوا الى القصر .

وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام .

وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير ، وفيها المغنيات ، على ما ذكرنا ذلك .

ذكر دخولنا عليه
وما أنعم به من الاحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان ، أتينا باب « المشور » فجلسنا فى سقائف الباب الثالث ، ولم يكن قد أذن لنا بالدخول . وخرج الحاجب شمس الدين القوشنجى ، فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا ، وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا .

وعين للدخول معى ثمانية ، فدخلنا ودخلوا معنا .

ثم جاءوا بالبدر والقبان وهو الميزان . وقعد قاضى القضاة والكتاب ، ودعوا من بالباب من الأعزة وهم الغرباء ، فعينوا لكل انسان نصيبه من تلك البدر . فكان لى منها خمسة آلاف دينار . وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ، تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها . وانصرفنا ذلك اليوم .

وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام . ولقد قال لنا فى بعض الأيام : أنتم شرفتمونا بقدومكم ، فما نقدر على مكافأتكم : فالكبير منكم فى مقام والدى ، والكهل فى مقام أخى ، والصغير فى مقام ولدى ، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم اياها . فشكرناه ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات ، فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل : احداهما قرية جوزة ، والثانية قرية ملك بور .

وفى بعض الأيام بعث لنا خداوندزاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند ، فقالا لنا ان خوند عالم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك .

فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف الى بلادهم . وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذى تقدم ذكره فقال : أما الوزارة فميراثى وأما الكتابة فشغلى وغير ذلك لا أعرفه . وتكلم هبة الله ابن الفلكى فقال مثل ذلك .

وقال لى خداوندزاده بالعربى : ما تقول أنت ياسيدى (وأهل تلك البلاد ما يدعون العربى الا بالتسويد ، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب) ؟

فقلت له : أما الوزارة والكتابة فليستا شغلى ، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل

آبائي ، وأما الامارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت الا بأسياف العرب .

فلما بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامي . وكان « بهزار أسطون » يأكل الطعام ، فبعث الينا فأكلنا بين يديه وهو يأكل . ثم انصرفنا الى خارج « هزار أسطون » ، فقعد أصحابي ، وانصرفت بسبب دمل كان يمنعني الجلوس . فاستدعانا السلطان ثانية ، فحضر أصحابي واعتذروا له عني .

وجئت بعد صلاة العصر فصليت «بالمشور» المغرب والعشاء الآخرة . ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين ، وهو أكبر الاخوة المذكورين ، فجعله السلطان « أمير داد » ، وهو من الأمراء الكبار .

فجلس بمجلس القاضي ، فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه . وجعل مرتبه على هذه الخطة [1] خمسين ألف دينار في السنة . وعين له مجاشر [2] فائدها ذلك المقدار ، وأمر له بخمسين ألفا عن يد ، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ، ومعناه صورة السبع ، لأنه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع . وأمر له بفرس من الجنس الأول . والخيل عندهم أربعة أجناس ، وسروجهم كسروج أهل مصر ، ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة .

ثم دخل أمير بخت ، فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده ، ويقف على محاسبات الدواوين ، وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة ، وأعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك

(1) المقصود بالخطة العمل الذى يتولاه وهو القضاء .
(2) يراد بها هنا المراعى ، جمع مجشر . وقوله « فائدها ذلك المقدار » اى مستغلها ذلك كما سبق .

وأعطى أربعين ألفا عن يد . وأعطى فرسا مجهزا ، وخلع عليه كخلعة الذى قبله ، ولقب شرف الملك .

ثم دخل هبة الله ابن الفلكي فجعله « رسول دار » ، ومعناه حاجب الارسال . وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة ، وأعطى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعة وعشرين ألفا عن يد . وأعطى فرسا مجهزا وخلعة ، وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا الى السرير ، والوزير خواجه جهان بين يديه ، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه . فلما سلمت عليه قال لي الملك الكبير : اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار في السنة ، وعين لك مجاشر بمقدارها ، وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا ، تأخذها من الخزانة غدا ان شاء الله ، وأعطاك فرسا بسرجه ولجامه ، وأمر لك بخلعة محرابية (وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب) ، فخدمت .

وأخذ بيدي فتقدم بي الى السلطان ، فقال لي السلطان : لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا .

وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه . وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه . فقلت له : يامولانا ، أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان .

فقال لي : قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود ، وأنت عندنا بمقام الوالد .

فقلت له : بل عبدكم وخادمكم .

فقال لى باللسان العربى : بل أنت سيدنا ومخدومنا ، تواضعا منه وفضلا وايناسا .

ثم قال لشرف الملك أميسر بخت : ان كان الذى رتب له لا يكفيه ، لأنه كثير الاتفاق ، فأنا أعطيه زاوية ، ان قدر على اقامة حال الفقراء .

وقال : قل له هذا بالعربى .

وكان يظن أنه يحسن العربى ، ولم يكن كذلك . وفهم السلطان ذلك ، فقال له : امشيا الليلة فارقدا فى موضع واحد ، وفهمه هذه الحكاية . فاذا كان الغد ان شاء الله تجىء الى وتعلمنى بكلامه .

فانصرفنا ، وذلك فى ثلث الليل ، وقد ضربت النوبة . والعادة عندهم اذا ضربت أنه لا يخرج أحد . فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه . ووجدنا أبواب دهلى مسدودة ، فبتنا عند السيد أبى الحسن العبادى العراقى ، بزقاق يعرف بسرابورخان . وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ، ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان .

ولما كان الغد بعث الينا فقبضنا الأموال والخيل والخلع . وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال ، فجعلها على كاهله . ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا بالأفراس فقبلنا حوافرها ، بعد أن جعلت عليها الخرق . وقدناها بأنفسنا الى باب دار السلطان ، فركبناها — وذلك كله عادة عندهم — ثم انصرفنا ، وأمر السلطان لأصحابى بألفى دينار وعشر خلع ، ولم يعط أصحاب أحد سواى شيئا . وكان أصحابى لهم رواء ومنظر ، فأعجبوا السلطان ، وخدموا بين يديه وشكرهم .

ذكر عطاء ثان أمر لى به ، وتوقفه مدة

وكنت يوما « بالمشور » بعد أيام من توليتى القضاء والاحسان الى ، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك ، الى جانب مولانا ناصر الدين الترمذى العالم الواعظ ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين ، فدخل الى السلطان فخلع عليه ، وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر . ثم أتانى بعض الحجاب فقال : أعطنى شيئا فآخذ لك « خط خرد » [1] باثنى عشر ألفا ، أمر لك بها خوند عالم .

فلم أصدقه ، وظننته يريد الحيلة على ، وهو جاد فى كلامه . فقال بعض الأصحاب أنا أعطيه ، فأعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء « بخط خرد » ، ومعناه الخط الأصغر ، مكتوبا بتعريف الحاجب . ومعناه : أمر خوند عالم أن يعطى فلان من الخزانة الموفورة كذا ، بتبليغ فلان أى بتعريفه .

ويكتب المبلغ اسمه ، ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء : وهم الخان الأعظم قطلوخان ، معلم السلطان ، والخريطة دار ، وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام ، والأميرنكبية «الدواة دار» ، صاحب الدواة .

فاذا كتب كل واحد منهم خطه ، يذهب بالبراءة الى ديوان الوزارة ، فينسخها كتاب الديوان عندهم ، ثم تثبت فى ديوان الاشراف ، ثم تثبت فى ديوان النظر ، ثم تكتب

(١) يمكن أن يفسر بما يعرف « بإذن الصرف » فى الاصطلاح المالى الآن .

« البروانة » ، وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ، ثم يثبتها الخازن فى ديوانه .

ويكتب تلخيصا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان من المال ويعرضه عليه .

فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ، ومن أراد التأجيل أجل له ، ولكن لا بد من عطاء ذلك ، ولو طالت المدة . فقد أجلت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ، ثم أخذتها مع غيرها على ما يأتى .

وعادتهم اذا أمر السلطان باحسان لأحد أن يحط منه العشر . فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطى تسعين ألفا ، أو بعشرة آلاف أعطى تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء مالهم قبلى
ومدحى السلطان وأمره
بخلاص دينى وتوقف
ذلك مدة

وكنت على ما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته فى طريقى ، وما صنعت به الهدية للسلطان ، وما أنفقته فى اقامتى . فلما أرادوا السفر الى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم . فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

اليك أمير المؤمنين المبجلا
أتينا نجد السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا
ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة
لكنت لأعلاها اماما مؤهلا
فأنت الامام الماجد الأوحد الذى
سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى
قضاها وقصدى عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم
فان حياكم ذكره كان أجملا
فعجل لمن وافى محلك زائرا
قضا دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسى ، فجعلها على ركبته ، وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثانى بيدى . وكنت اذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى: بين معناه لخوند عالم ، فيبينه ، ويعجب السلطان ، وهم يحبون الشعر العربى .

فلما بلغت قولى « فعجل لمن وافى ... البيت » ، قال : مرحمة (ومعناه ترحمت عليك) .

فأخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى الى موقفهم ، وأخدم على العادة .

فقال السلطان : اتركوه حتى يكملها فأكملتها وخدمت ، وهنأنى الناس بذلك .

وأقمت مدة وكتبت رفعا ، وهم يسمونه « عرض داشت » ، فدفعته الى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان . فقال له : نعم .

وأبطأ أياما ، وأمره السلطان فى خلالها بالسفر الى دولة آباد . وفى أثناء ذلك خرج السلطان الى الصيد ، وسافر الوزير ، فلم آخذ شيئا الا بعد مدة .

والسبب الذى توقف به العطاء أذكره مستوفى : وهو أنه لما عزم الذين كان لهم على دين على السفر ، قلت لهم : اذا أنا أتيت دار

السلطان « فدرهونى » [1] ، على العـادة فى تلك البلاد ، لعلمى أن السلطان متى علم بذلك خلصهم .

وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصـه ، وقف له بباب دار السلطان . فاذا أراد الدخول قال له : « دروهى » [2] السلطان ، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصنى .

فلا يمكنه أن يبرح مكانه حتى يخلصه أو يرغب اليه فى تأخيره .

فاتفق يوما أن خرج السلطان الى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك . فقلت لهم : هـذا وقتكم . فلما أردت الدخـول وقفوا لى بباب القصر ، فقالوا لى : « دروهى » السلطان ، ما تدخل حتى تخلصنا .

وكتب كتاب الباب بذلك الى السـلطان . فخرج « حاجب قصة » شمس الدين ، وكان من كبـار الفقهـاء ، فسـألهم لأى شيء « درهتموه » ؟

فقالوا : لنا عليه الدين .

فرجع الى السلطان فأعلمه بذلك . فقال له : اسألهم كم مبلغ الدين ؟

فسألهم ، فقالوا له : خمسة وخمسون ألف دينار .

فعاد اليـه فأعلمه ، فأمره أن يعـود اليهم ويقول : ان خوند عالم يقول لكم : المال عندى وأنا أنصفكم منه ، فلا تطالبوه به .

وأمر عماد الدين السمنانى وخداوند زاده غياث الدين أن يقعـدا « بهزار أسطون » ، ويأتى أهل الدين بعقـودهم ، وينظـر اليها ويتحققاهـا . ففعـلا ذلك . وأتى الغـرماء بعقودهم ، فدخلا على السلطان وأعلماه بثبوت العقود . فضحك وقال ممازحا : أنا أعلم أنه قاض جهز شغله فيها .

ثم أمر خداوند زاده أن يعطينى ذلك من الخزانة ، فطمع فى الرشوة على ذلك ، وامتنع أن يكتب « خط خرد » ، فبعثت اليه مائتى تنكة . فردها ولم يأخذها . وقال لى عنه بعض خدامه : انه طلب خمسمائة تنكة . فامتنعت من ذلك ، وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمنانى بذلك ، فأعلم به أباه ، وعلمه الوزير. وكانت بينه وبين خداوند زاده عداوة ، فأعلم السلطان بذلك ، وذكر له كثيرا من أفعـال خداوند زاده ، فغير خاطر السلطان عليه ، فأمر بحبسه فى المدينة . وقال : لأى شيء أعطاه فلان ما أعطاه ؟ قفوا ذلك حتى يعلم هل يعـطى خداوند زاده شيئا اذا منعته ، أو يمنعـه اذا أعطيته .

فبهذا السبب توقف عطاء دينى .

ذكر خروج السلطان الى الصيد
وخروجى معه وما صنعت
فى ذلك

ولما خرج السلطان الى الصيد خرجت معه من غير تربص . وكنت قد أعددت ما يحتـاج اليه ، وعملت ترتيب أهل الهند : فاشـتريت « سراجة » ، وضربها هنالك مباح ، ولابد منها لكبار الناس . وتمتاز سراجة السلطان بكونها

---

(1) درهونى : أى اهجموا على وقـولوا لى « دروهى السلطان» ، كما سيأتى بعد . وقد اشتق المؤلف «درهونى» من « دروهى » كما هو ظاهر .
(2) دروهى السلطان : أى ياعدو السلطان ، بلسانهم .

حمراء ، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق . واشتريت « الصيوان » وهو الذى يظلل به داخل « السراجة » ، ويرفع على عمودين كبيرين . ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم « الكيوانية » .

والعادة هنالك أن يكترى المسافر « الكيوانية » وقد ذكرناهم . ويكترى من يسوق له العشب لعلف الدواب ، لأنهم لا يطعمونها التبن . ويكترى « الكهارين » ، وهم الذين يحملون أوانى المطبخ . ويكترى من يحمله فى « الدولة » — وقد ذكرناها — ويحملها فارغة . ويكترى الفراشين ، وهم الذين يضربون « السراجة » ويفرشونها ، ويرفعون الأحمال على الجمال . ويكترى « الدوادوية » ، وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل .

فاكتريت أنا جميع من احتجت اليهم منهم ، وأظهرت القوة والهمة . وخرجت يوم خروج السلطان ، وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة .

فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل ، وقصده أن يطلع على أحوال الناس ، ويعرف من سارع الى الخروج ومن أبطأ . وجلس خارج « السراجة » على كرسى ، فجئت وسلمت ، ووقفت فى موقفى بالميمنة ، فبعث الى الملك الكبير قبولة ، فأمرنى بالجلوس عناية بى ، ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائى .

ثم أتى بالفيل وألصق به سلم فركب عليه ، ورفع « الشطر » فوق رأسه ، وركب معه الخواص ، وجال ساعة ، ثم عادا الى السراجة .

وعادته اذا ركب أن يركب الأمراء أفواجا ، كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرناياته . ويسمون ذلك المراتب . ولايركب أمام السلطان الا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار ، والذين يضربون الصرنايات .

ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا ، وعن يساره مثل ذلك ، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة . وكنت أنا من أهل ميمنته .

ويكون بين يديه المشاءون والأدلاء ، ويكون خلفه علاماته ، وهى من الحرير المذهب ، والأطبال على الجمال ، وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته [1] ، وخلفهم الأمراء وجميع الناس .

ولا يعلم أحد أين يكون النزول ، فاذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول .

ولا تضرب « سراجة » أحد حتى تضرب « سراجته » . ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله .

وفى خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار ، وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد .

ويحضر أبناء الملوك وفى يد كل واحد منهم سفود [2] ، ويوقدون النار ويشتوون ذلك .

---

(١) بطانته ، مثلثة الدال .

(٢) السفود الحديدة التى يشوى بها اللحم .

ويـؤتى « بسراجـة » صـغيرة فتضرب للسلطان ، ويجلس من معه من الخواص فى خارجها ، ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه .

وكان فى بعض تلك الأيام وهـو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها ، فقال له السيد ناصر الدين مطهر الأوهرى أحد ندمائه : ثم فلان المغربى ، وهو متغير .

فقال : لماذا ؟

فقال : بسبب الدين الذى عليه وغـرماؤه يلحون فى الطلب ، وكان خوند عالم قـد أمر الوزير [1] باعطائه فسافر قبـل ذلك . فان أمر مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير ، أو أمر بانصافهم .

وحـضر لهـذا الملك دولة شـاة ، وكان السلطان يخاطبه بانعم ، فقال : ياخوند عالم ، كل يوم هـو يكلمنى بالعربيـة ولا أدرى ما يقول ، ياسيدى ناصر الدين ماذا ؟

فقال : يتكلم لأجل الدين الذى عليه .

فقال السلطان : اذا دخلنا دار الملك فامض أنت ياأومار (ومعناه ياعم) الى الخزانة فأعطه ذلك المال .

وكان خداوند زاده حاضرا فقال : ياخوند عالم ، انه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين .

وبعد هذا الـكلام استحضرنى السـلطان للطعام ولا علم عندى بما جرى . فلما خرجت ، قال لى السيد ناصر الدين : اشكر للملك دولة شـاه . وقال لى الملك دولة شـاه : اشـكر لخداوند زاده .

(١) اى خواجه جهان .

وفى بعض تلك الأيام ونحن مع السلطان فى الصيد ، ركب فى المحلة ، وكان طريقه عـلى منزلى ، وأنا معه فى الميمنة ، وأصـحابى فى الساقة . وكان لى خباء عند « السراجة » . فوقف أصحابى عندها وسلموا على السلطان . فبعث عماد الملك والملك دولة شاه ليسألا : لمن تلك الأخبية والسراجة ؟ فقيل لهما : لفلان ، فأخبراه بذلك فتبسم .

فلما كان الغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهرى وابن قاضى مصر والملك صبيح الى البـلد ، فخلع علينا وعـدنا الى الحضرة .

ذكر الجمل الذى أهديته الى السلطان

وكان السلطان فى تلك الأيام سـألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل ؟ فقلت له : نعم يركب المهارى [1] فى أيام الحج ، فيسـير الى مـكة من مصر فى عشرة أيام . ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد . وأخبرته أن عندى جملا منها .

فلمـا عدت الى الحضرة بحثت عن بعض عرب مصر ، فصور لى صورة الكور [2] الذى تركب المهارى به من القير [3] ، وأريتها بعض النجارين ، فعمل الكور وأتقنه ، وكسـوته « بالملف » ، وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام [4] حرير . وكان عنـدى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء ، فصـنع منها ما يشبه التمر وغيره .

(١) نوع جيد من الابل ، جمع مهرية ، نسبة الى حى من العرب .
(٢) الكور : الرحل بأداته .
(٣) الزفت .
(٤) ما يقتاد به البعير .

وبعثت الجمل والحلواء الى السلطان . وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد الملك دولة شاه . وبعثت له بفرس وجملين .

فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال : ياخوند عالم ، رأيت العجب !

قال : وما ذلك ؟

قال : فلان بعث جملا عليه سرج .

فقال : ائتوا به .

فأدخل الجمل فى داخل « السراجة » ، وأعجب به السلطان ، وقال لرجلى : اركبه .

فركبه ومشاه بين يديه ، وأمر له بمائتى دينار دراهم وخلعة . وعاد الرجل الى فأعلمنى، فسرنى ذلك . وأهديت اليه جملين بعد عودته الى الحضرة .

ذكر الجملين اللذين أهديتهما اليه والحلواء وأمره بخلاص دينى وما تعلق بذلك

ولما عاد الىّ رجلى الذى بعثته بالجمل ، فأخبرنى بما كان من شأنه ، صنعت كورين اثنين ، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة ، وكسوتهما « بالملف » وصنعت رسنا [1] مصفحا بصفائح الفضة وجعلت لهما جلين [2] من زردخانة [3] مبطنين بالكمخا [4] . وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة . وصنعت أحد عشر طيفورا وملأتها بالحلواء ، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير .

فلما قدم السلطان من الصيد ، وقعد ثانى يوم قدومه بموضع جلوسه العام ، غدوت عليه بالجملين . فأمر بهما فحركا بين يديه وهرولا ، فطار خلخال أحدهما . فقال لبهاء الدين ابن الفلكى : ارفع الخلخال ، فرفعه .

ثم نظر الى الطيافير فقال : ما معك فى تلك الصحاف ، حلواء هى ؟

فقلت لهم نعم .

فقال للفقيه ناصر الدين الترمذى الواعظ : ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التى بعثها الينا ونحن بالمعسكر .

ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه الخاص ، فرفعت . وقام الى مجلسه واستدعانى، وأمر بالطعام فأكلت . ثم سألنى عن نوع من الحلواء بعثت له قبل ، فقلت له : ياخوند عالم، تلك الحلواء أنواعها كثيرة ، ولا أدرى عن أى نوع تسألون منها ؟

فقال : ائتوا بتلك الأطباق (وهم يسمون الطيفور طبقا) .

فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها . فقال : عن هذا سألتك . وأخذ الصحفة التى هى فيها .

فقلت له : هذه يقال لها المقرصة .

ثم أخذ نوعا آخر فقال : وما اسم هذه ؟ فقلت له : هى لقيمات القاضى .

وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامرى ، وينتسب الى آل العباس ، رضى الله تعالى عنه . وهو كثير المال ، ويقول له السلطان والدى. فحسدنى وأراد أن يخجلنى . فقال : ليست هذه لقيمات القاضى ، بل هى هذه . وأخذ قطعة من التى تسمى جلد الفرس .

---

(١) الرسن : الحبل .

(٢) الجل (بالضم والفتح) ما تلبسه الدابة لتصان به .

(٣) نسيج من حرير رقيق ، غير عربية .

(٤) نسيج ذو نقوش بارزة ، بلسانهم .

وكان بازائه ملك الندماء ، ناصر الدين الكافى الهروى ، وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان ، فقال له : ياخواجة، أنت تكذب والقاضى يقول الحق .

فقال له السلطان : وكيف ذلك ؟

فقال : ياخوند عالم ، هو القاضى وهى لقيماته ، فانه أتى بها .

فضحك السلطان وقال : صدقت .

فلما فرغنا من الطعام أكلنا الحلواء ثم شربنا الفقاع بعد ذلك . وأخذنا التانبول وانصرفنا . فلم يكن غير هنيهة حتى أتانى الخازن فقال : ابعث أصحابك يقبضون المال . فبعثتهم .

وعدت الى دارى بعد المغرب ، فوجدت المال بها . وهو ثلاث بدر ، فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة . وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التى هى دين على ، وصرف الاثنى عشر ألفا التى أمر لى بها فيما تقدم ، بعد حط العشر على عادتهم . وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لى بالاقامة بالحضرة

وفى تاسع جمادى الأولى ، خرج السلطان يقصد بلاد المعبر وقتال القائم بها . وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية [1] ، وقد تقدم ذكرهم . فخرج الأمر باقامتى فى جملة ناس ، وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له . وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ .

وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم ، وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف ، وكذلك كل من أقام من الأعزة . وأما البلديون فلم يعطوا شيئا .

وأمرنى السلطان أن أتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين الذى تقدم ذكره .

وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خادما له . ولقد رأيته اذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبلها ويجعلها فوق رأسه . وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأ . وكان اذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته .

وكان يعظم زوجته ويدعوها بالأخت ، وجعلها مع حرمه ، وزوجها بعد ذلك لابن قاضى مصر ، واعتنى به من أجلها . وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة .

ولما خرج السلطان أرسل الينا للوداع ، فقام ابن قاضى مصر فقال : أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم .

فكان له فى ذلك الخير . فقال له السلطان : امض فتجهز للسفر .

وقدمت بعده للوداع . وكنت أحب الاقامة ، ولم تكن عاقبتها محمودة . فقال : مالك من حاجة ؟

فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل ، فقال لى: تكلم بلسانك . فقلت له : ان خوند عالم أمر لى بالقضاء ، وما قعدت لذلك بعد . وليس مرادى من القضاء الا حرمته . فأمرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معى .

(1) سبق شرح هذه الكلمات .

ثم قال لى : ايه ؟

فقلت : وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيها ، فانى رتبت فيها أربعمائة وستين شخصا ، ومحصول أوقافها لا يفى بمرتباتهم وطعامنا ؟

فقال للوزير : بنجاه هزار ، ومعناه خمسون ألفا ، ثم قال : أعطه مائة ألف مـن من القمح والأرز ينفقها فى هذه السنة ، حتى تأتى غلة الروضة .

ثم قال لى : وماذا أيضا ؟

فقلت : ان أصحابى سجنوا بسبب القرى التى أعطيتمونى ، فانى عوضتها بغيرها ، فطلب أهل الديوان ما وصلنى منها ، أو الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفع عنى ذلك .

فقال : كم وصلك منها ؟

فقلت : خمسة آلاف دينار .

فقال : هى انعام عليك .

فقلت له : ودارى التى أمرتم لى بها مفتقرة الى البناء .

فقال للوزير : عمروها .

ثم قال لى : هل بقى لك كلام ؟

فقلت : لا . فقال لى : أوصيك ألا تأخذ الدين ، لئلا تطلب فلا تجد من يبلغنى خبرك . أنفق على قدر ما أعطيتك . قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

فأردت أن أقبل قدمه ، فمنعنى وأمسك رأسى بيده فقبلتها . وانصرفت وعدت الى الحضرة فاشتغلت بعمارة دارى ، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار ، أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار ، وزدت عليها الباقى ، وبنيت بازائها مسجدا ، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين .

وكان السلطان قد أمر أن تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع ، بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق . وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها ، وجعلها بيدى ، على أن يكون لى العشر من فائدها على العادة .

ذكر مافعلته فى ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة ، ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهى مزينة . فرتبت أنا فى هذه التربة بحسب ذلك . ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين ، وهم يسمونهم الختميين ، ورتبت من الطلبة ثمانين ، ومن المعيدين ، ويسمونهم المكررين ، ثمانية . ورتبت لها مدرسا ، ورتبت من الصوفية ثمانين . ورتبت الامام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان ، والمداحين [1] وكتاب الغيبة [2] والمعرفين [3] ، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب .

ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية ، وهم الفراشون والطباخون والأبدارية ، وهم

---

(1) من يلقون خطبا مدحية .

(2) الذين يحصون الغائبين .

(3) الذين يعرفون الناس ، فيقولون ، هذا فلان ، وهذا فلان .

السقاءون ، والشربدارية ، الذين يسقون الشربة ، والتانبول دارية ، الذين يعطون التانبول ، والسلحدارية والنيزدارية [1] والشطردارية [2] والطشت دارية [3] والحجاب والنقباء ...

فكان جميعهم أربعمائة وستين .

وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثنى عشر مناً من الدقيق ، ومثلها من اللحم . فرأيت أن ذلك قليل ، والزرع الذى أمر به كثير . فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم ، مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات [4] والسمن والتانبول . وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد .

وكان الغلاء شديدا ، فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره . وسافر الملك صبيح الى السلطان بدولة آباد ، فسأله عن حال الناس ، فقال له : لو كان بدهلى اثنان مثل فلان لما شكوا الجهد . فأعجب ذلك السلطان ، وبعث الى بخلعة من ثيابه .

وكنت أصنع فى المواسم (وهى : العيدان ، والمولد الكريم ، ويوم عاشوراء ، وليلةالنصف من شعبان ، ويوم وفاة السلطان قطب الدين) مائة من الدقيق ومثلها لحما . فيأكل منها الفقراء والمساكين . وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل انسان منهم ما يخصه . ولنذكر عادتهم فى ذلك .

(1) حاملوا الرماح .
(2) حاملوا المظلات .
(3) حاملوا الطسوت .
(4) يريد به سكر النبات .

ذكر عادتهم فى اطعام الناس فى الولائم

وعادتهم ببلاد الهند وبلاد السرا ، أنه اذا فرغ من أكل الطعام فى الوليمة جعل أمام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد ، له أربع قوائم ، منسوج سطحه من الخوص . وجعل عليه الرقاق ورأس شاة مشوى ، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية ، ومغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر ، وطبق صغير مصنوع من الجلد فيه الحلواء والسموسك [1] ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد .

ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس شاة ، ومقدار النصف مما ذكرناه . ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك .

ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه . وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا ، حضرة السلطان أوزبك ، فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك ، اذ لم يكن لى به عهد

وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولائم .

ذكر خروجى الى هزار أمروها

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف من ، ونفذ لى الباقى فى هزار أمروها . وكان والى الخراج بها عزيزا الخمار ، وأميرها شمس الدين البذخشانى . فبعثت رجالى فأخذوا بعض الاحالة ، وشكوا تعسف عزيز الخمار .

(1) شىء مصنوع من اللحم والافاويه .

فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك ، وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام ، وكان ذلك أوان نزول المطر . فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى ، واستصحبت معى أخوين من المغنين المحسنين ، يغنيان لى فى الطريق . فوصلنا الى بلدة بجنور ، فوجدت بها أيضا ثلاثة اخوة من المغنين فاستصحبتهم ، فكانوا يغنون لى نوبة ، والآخران نوبة .

ثم وصلنا الى أمروها ، وهى بلدة صغيرة حسنة ، فخرج عمالها للقائى . وجاء قاضيها الشريف أمير على ، وشيخ زاويتها ، وأضافانى معا ضيافة حسنة .

وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أفغان بور على نهر السرو . وبيننا وبينه النهر ولا « معدية » فيه . فأخذنا الأثقال فى « معدية » صنعناها من الخشب والنبات . وجزنا فى اليوم الثانى . وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا « سراجة » . ثم جاء أخوه الوالى وكان معروفا بالظلم . وكانت القرى التى فى عمالته ألفا وخمسمائة قرية . ومجباها ستون « لكا » فى السنة ، له فيها نصف العشر .

ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر ، ولا تسقى منه دابة . ولقد أقمنا عليه ثلاثا فماغرف منه أحد غرفة ، ولا كدنا نقرب منه ، لأنه ينزل من جبال قراجيل التى بها معادن الذهب ، ويمر على الخشاش [1] المسمومة ، فمن شرب منه مات .

وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر . وينزل منه الى بلاد تبت حيث غزلان المسك . وقد ذكرنا ما اتفق لجيش المسلمين بهذا الجبل .

وبهذا الموضع جاء الى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماح [1] وأوقدوا النيران ، فدخلوها ولم تضرهم ، وقد ذكرنا ذلك .

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشانى وبين واليها عزيز الخمار منازعة . وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنع منه بداره . وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلى ، فبعث الىَّ الوزير والى الملك شاه أمير المماليك بأمروها ، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، والى شهاب الدين الرومى ، أن ننظر فى قضيتهما ، فمن كان على الباطل بعثناه الى الحضرة .

فاجتمعوا جميعا بمنزلى ، وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى : منها أن خادما له يعرف بالرضا الملتانى نزل بدار خازن عزيز ، فشرب بها الخمر ، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن . فاستفهمت الرضا عن ذلك ، فقال لى : ما شربت الخمر منذ خروجى من ملتان ، وذلك ثمانية أعوام .

فقلت له : أو شربتها بملتان ؟

قال نعم .

فأمرت بجلده ثمانين ، وسجنته بسبب الدعوى للوث [2] ظهر عليه . وانصرفت عن

---

(1) الخشاش ، بفتح الخاء وكسرها ، الحشرات .

(2) لعله المعروف الآن بالذكر .

(3) اللوث هنا الشر .

أمروها ، فكانت غيبتي نحو شهرين . وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة .

وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز ، وحمله عليه [1] . فوزع على أهل القرى التي تحت نظره ، ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة .

وأهل الهند لا يحملون الا على البقر ، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار . وركوب الحمير عندهم عيب كبير ، وحميرهم صغار الأجرام ، واذا أرادوا تشهير أحد بعد ضربه أركبوه الحمار .

ذكر مكرمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأوهري قد ترك عندي لما سافر ألفا وستين تنكة ، فتصرفت فيها . فلما عدت الى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداوند زاده قوام الدين ، وكان قد قدم نائبا عن الوزير . فاستقبحت أن أقول له : تصرفت في المال ، فأعطيته نحو ثلثه ، وأقمت بداري أياما ، وشاع أني مرضت . فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي ، فلما رآني قال : ما أرى بك مرضا .

فقلت له : اني مريض القلب .

فقال لي : عرفني ذلك .

فقلت له : ابعث اليَّ نائبك شيخ الاسلام أعرفه .

فبعثه الى فأعلمته ، فعاد اليه فأعلمه . فبعث الى بألف دينار دراهم ، وكان له عندي قبل ذلك ألف ثان .

ثم طلب مني بقية المال ، فقلت في نفسي : ما يخلصني منه الا صدر الجهان ، لأنه كثير المال . فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار ، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار ، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار ، وبتركش فضة ، وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة . وقلت له : انظر قيمة الجميع وابعث الى ذلك .

فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار ، فبعث الى ألفا واقتطع الألفين . فتغير خاطري ، ومرضت بالحمى . وقلت في نفسي أن شكوته الى الوزير افتضحت . فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين ، وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني ، وهو فتى السن . فرد على ذلك ، وبعث الى مائتي تنكة وأغزر . وخلصت من ذلك المال . فشتان بين فعل محمد ومحمد !

ذكر خروجي الى محلة السلطان

وكان السلطان لما توجه الى بلاد المعبر وصل الى التلنك ، ووقع الوباء بعسكره ، فعاد الى دولة آباد ، ثم وصل الى نهر الكنك فنزل عليه ، وأمر الناس بالبناء . وخرجت في تلك الأيام الى محلته . واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك .

ولازمت السلطان في تلك الأيام ، وأعطاني من عتاق الخيل ، لما قسمها على خواصه ، وجعلني فيهم . وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه . وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالارعود مسعود ، وقد استوفيت ذلك كله . وعدت معه الى حضرة دهلي لما عاد اليها .

---

(1) أي ويكون حمل هذا الزرع مفروضا عليه . والضمير في « وزع » يرجع الى عزيز .

ذكر ما هم به السلطان من عقابي وما تداركني من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام ، بالغار الذى احتفره خارج دهلى ، وكان قصدى رؤية ذلك الغار . فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره ، فذكروا أناسا أنا من جملتهم . فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى « بالمشور » . وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد فقلما يتخلص .

فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة . فألهمنى الله تعالى تلاوة قوله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة .

وبت « بالمشور » وواصلت [1] الى خمسة أيام ، فى كل يوم منها أختم القرآن ، وأفطر على الماء خاصة . ثم أفطرت بعد خمس ، وواصلت أربعا . وتخلصت بعد قتل الشيخ ، والحمد لله تعالى .

ذكر انقباضى عن الخدمة وخروجى عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ، ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع ، فريد الدهر ، ووحيد العصر ، كمال الدين عبد الله الغارى . وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة ، قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه . وانقطعت الى خدمة هذا الشيخ . ووهبت ما عندى للفقراء والمساكين .

وكان الشيخ يواصل عشرة أيام ، وربما واصل عشرين . فكنت أحب أن أواصل ، فكان ينهانى ، ويأمرنى بالرفق بنفسى فى العبادة . ويقول لى : ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى ، فخرجت عن جميع ما عندى ، من قليل وكثير . وأعطيت فقيرا ثياب ظهرى [1] ولبست ثيابه . ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان اذ ذاك غائب ببلاد السند .

ذكر بعث السلطان الى ، وابائى الرجوع الى الخدمة ، واجتهادى فى العبادة

ولما بلغ السلطان خبر خروجى عن الدنيا استدعانى ، وهو يومئذ بسيوستان ، فدخلت عليه فى زى الفقراء ، فكلمنى أحسن كلام وألطفه ، وأراد منى الرجوع الى الخدمة فأبيت ، وطلبت منه الاذن فى السفر الى الحجاز ، فأذن لى فيه ، وانصرفت عنه .

ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة الى الملك بشير . وذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة اثنتين وأربعين . فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان . وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام ، وأفطرت بعدها على قليل أرز دون ادام . وكنت أقرأ القرآن كل يوم ، وأتهجد بما شاء الله . وكنت اذا أكلت الطعام آذانى ، فاذا طرحته وجدت الراحة .

وأقمت كذلك أربعين يوما ، ثم بعث الى ثانية .

---

(1) صمتها متتابعة .

(1) يقصد الثياب التى كانت على جسمه فعلا .

ذكر ما أمرني به من التوجه الى الصين في الرسالة

ولما كمل لى أربعون يوما ، بعث الى السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة . فلبست ثيابه وقصدته . وكانت لى جبة قطن زرقاء مبطنة ، لبستها أيام اعتكافى . فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسى ، وكنت متى نظرت الى تلك الجبة أجد نورا فى باطنى . ولم تزل عندى الى أن سلبنى الكفار فى البحر .

ولما وصلت الى السلطان زاد فى اكرامى على ما كنت أعهده ، وقال لى : انما بعثت اليك لتتوجه عنى رسولا الى ملك الصين ، فانى أعلم حبك للأسفار والجولان .

فجهزنى بما أحتاج اليه ، وعين للسفر معى من يذكر بعد .

ذكر سبب ارساله بالهدية الى الصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية

وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية ، وخمسمائة ثوب من « الكمخا » ، منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا ، وخمسة أمنان من المسك ، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر ، وخمسة من « التراكش » مزركشة ، وخمسة سيوف . وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره . ويعرف الموضع الذى هو به بسمهل ، واليه يحج أهل الصين . وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوه وسلبوه .

فلما وصلت هذه الهدية الى السلطان ، كتب اليه أن هذا المطلب لا يجوز فى ملة الاسلام اسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين الا لمن يعطى الجزية ، فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءها . والسلام على من اتبع الهدى .

وكافأه عن هديته بخير منها : وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ، ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند ، مغنيات ورواقص ، ومائة ثوب بيرمية ، وهى من القطن ، ولا نظير لها فى الحسن ، قيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شقة من ثياب الحرير التى يكون حريرها مصبوغا بخمسة ألوان ، وأربعمائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ، ومائة ثوب من الشيرين باث ، ومائة ثوب من الشان باث ، وخمسمائة ثوب من المرعز ، مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ، ومائة شقة من الكتان الرومى ، ومائة فضلة من « الملف » ، وسراجة ، وست من القباب ، وأربع حسك [1] من ذهب ، وست حسك من فضة منيلة [2] ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها ، وستة طسوت من الفضة ، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة ، وعشر شواش [3] من لباسه ، احداها مرصعة بالجوهر ، وعشرة « تراكش » مزركشة ، أحدها مرصع بالجوهر ، وعشرة من

---

(١) يراد بها الشمعدانات ، ولم نجد لها أصلا عربيا .

(٢) يريد مطلية بالزرقة التى أصلها من النيلج ، وهو من النيل وهو المظلم .

(٣) جمع شاشية ، ثياب رفيعة ، والكلمة غير عربية ، ومنها يطلق المصريون لفظ « الشاش » على النسيج الرفيع المعروف .

السيوف ، أحدها مرصع الغمد بالجوهر ، وقفاز مرصع بالجوهر ، وخمسة عشر من الفتيان .

وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني[1] ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتى كافورا (الشربدار) ، واليه سلمت الهدية . وبعث معنا الأمير محمد الهروي في ألف فارس ، ليوصلنا الى الموضع الذي نركب منه البحر . وتوجه في صحبتنا رسل ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا ، يسمى كبيرهم ترسي ، وخدامهم نحو مائة رجل . وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة . وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده .

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين[2] وهو اليوم الذي اختاروه للسفر ، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين . فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت ، على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي .

ورحلنا منه الى منزل « أو » . ورحلنا منه الى منزل « هيلو » . ورحلنا منه الى مدينة بيانة ، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدها الجامع من أبدع المساجد ، وحيطانه وسقفه حجارة . والأمير بها مظفر ابن الداية ، وأمه هي داية للسلطان .

(١) نسبة الى زنجان ، بلد بأذربيجان .. «القاموس» .

(٢) قوله « سنة ثلاث وأربعين » ... هكذا هو فيما بين أيدينا من نسخ الاصول ، فلعله قال « سنة ثلاث أربعين وسبعمائة » وسقطت لفظة « سبعمائة » من النسخ التي بين أيدينا ، أو لعله قال « سنة ثلاث وأربعين » وكان يريد بها سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ... كما تقول سنة ست وستين ونقصد بها سنة ست وستين وتسعمائة وألف ، وهو الارجح .

« كتاب التحرير »

وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار الملوك ، وقد تقدم ذكره ، وهو ينتسب في قريش . وفيه تجبر وله ظلم كثير ، قتل من أهل هذه المدينة جملة ، ومثل بكثير منهم . ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في أسطوان[1] منزله ، وهو مقطوع اليدين والرجلين .

وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فشكا الناس الملك مجيرا ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، وجعلت في عنقه الجامعة[2] . وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير ، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم . فأمره السلطان بارضائهم فأرضاهم بالأموال ، ثم قتله بعد ذلك .

ومن كبار أهل المدينة الامام العالم عز الدين الزبيري ، من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء . لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف بأعظم ملك .

ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الى مدينة كول ، مدينة حسنة ذات بساتين ، وأكثر أشجارها العنبا . ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح . ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين . وهو مكفوف البصر معمر . وبعد ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه . وقد ذكرنا حديثه .

ذكر غزوة شهدناها بكول

ولما بلغنا مدينة كول بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي وأحاطوا بها . وهي على مسافة سبعة من كول . فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف.

(١) دهليز ، وليست كلمة « أسطوان » عربية بهذا المعنى .

(٢) الغل ، وهو هنا سلسلة من حديد .

ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم ، وهم فى نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . فقتلناهم عن آخرهم ، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم .

واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا ، وخمسة وخمسون راجلا . واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده ، فكتبنا الى السلطان بخبره ، وأقمنا فى انتظار الجواب .

وكان الكفار فى أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع ، فيغيرون على نواحي بلدة الجلالى . وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

ذكر محنتى بالأسر ، وخلاصى منه ، وخلاصى من شدة بعده على يد ولى من أولياء الله تعالى

وفى بعض تلك الأيام ركبت فى جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نقيل فيه ، وذلك فصل القيظ . فسمعنا الصياح فركبنا ، ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالى . فأتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابى فى طلبهم ، وانفردت فى خمسة من أصحابنا . فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ، ففررنا منهم لكثرتهم ، وأتبعنى نحو عشرة منهم ، ثم انقطعوا عنى الا ثلاثة منهم ، ولا طريق بين يدى .

وتلك الأرض كثيرة الحجارة ، فنشبت يد فرسى بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت الى ركوبه .

والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان ، أحدهما معلق بالسرج ويسمى الركابى ، والآخر فى « التركش » . فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حليته ذهبا . فنزلت فأخذته وتقلدته ، وركبت وهم فى اثرى . ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه ، فكان آخر عهدى بهم .

ثم خرجت الى واد فى وسط شعراء [1] ملتفة فى وسطها طريق ، فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه . فبينا أنا فى ذلك خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسى ، فأحدقوا بى . وخفت أن يرمونى رمية رجل واحد ان فررت منهم ، وكنت غير متدرع ، فألقيت بنفسى الى الأرض واستأسرت [2] ، وهم لا يقتلون من فعل ذلك .

فأخذونى وسلبونى جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ، ودخلوا بى الى تلك الغابة فانتهوا بى الى موضع جلوسهم منها ، على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتونى بخبز ماش وهو الجلبان ، فأكلت منه وشربت من الماء .

وكان معهم مسلمان كلمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى ، فأخبرتهما ببعضه ، وكتمتهما أنى من جهة السلطان .

فقالا لى : لابد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ، ولكن هذا مقدمهم ، وأشاروا الى رجل منهم . فكلمته بترجمة المسلمين [3] ، وتلطفت له ، فوكل بى ثلاثة منهم ، أحدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث . وكلمنى أولئك الثلاثة ،

---

(1) أرض كثيرة الشجر والنبات .
(2) طلبت أن يأسرونى .
(3) اى ان المسلمين كانا يترجمان كلامى له .

ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلى . واحتملونى عشى النهار الى كهف .

وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة ، فوضع رجليه على ، ونام الشيخ وابنه . فلما أصبحنا تكلموا فيما بينهم ، وأشاروا الى بالنزول معهم الى الحوض . وفهمت أنهم يريدون قتلى ، فكلمت الشيخ وتلطفت له فرق لى ، وقطعت كمى قميصى وأعطيته اياهما لكى لا يأخذه أصحابه فىَّ ان فررت .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا الى بالنزول معهم ، فنزلنا ووجدنا قوما آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فأبوا .

وجلس ثلاثتهم أمامى وأنا مواجه لهم ، ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض وأنا أنظر اليهم ، وأقول فى نفسى : بهذا الحبل يربطوننى عند القتل .

وأقمت كذلك ساعة ، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى فتكلموا معهم ، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأى شىء ما قتلتموه ؟ فأشار الشيخ الى الأسود كأنه اعتذر بمرضه .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى : أتريد أن أسرحك ؟

فقلت : نعم .

فقال : اذهب .

فأخذت الجبة التى كانت على فأعطيته اياها . وأعطانى منيرة [1] بالية عنده وأرانى الطريق . فذهبت ، وخفت أن يبدو لهم فيدركونى ، فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها الى أن غابت الشمس . ثم خرجت وسلكت الطريق التى أرانيها الشاب . فأفضت بى الى ماء ، فشربت منه وسرت الى ثلث الليل ، فوصلت الى جبل فنمت تحته .

فلما أصبحت سلكت الطريق ، فوصلت ضحا الى جبل من الصخر عال ، فيه شجر أم غيلان [1] والسدر ، فكنت أجنى النبق فآكله ، حتى أثر الشوك فى ذراعى آثارا هى باقية به حتى الآن .

ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزدرعة قطنا ، وبها أشجار الخروع . وهنالك بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة ، لها درج ينزل عليها الى ورد الماء . وبعضها يكون فى وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس . ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها فى الطرقات التى لا ماء بها . وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد .

ولما وصلنا الى البئر شربت منها ووجدت عليها شيئا من عساليج [2] الخردل ، قد سقطت ممن غسلها . فأكلت منها وادخرت باقيها ، ونمت تحت شجرة خروع .

فبينما أنا كذلك اذ ورد نحو أربعين فارسا مدرعين ، فدخل بعضهم المزرعة ثم ذهبوا . وطمس الله أبصارهم دونى . ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا الى البئر . وأتى أحدهم الى شجرة ازاء الشجرة التى كنت تحتها ، فلم يشعر بى .

ودخلت اذ ذاك فى مزرعة القطن وبقيت بها بقية نهارى . وأقاموا على البئر يغسلون ثيابهم

---

(1) مخططة .

(1) من اشجار الطلح ، وهى اشجار عظام .
(2) جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من الاغصان .

ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصـواتهم فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا ، فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت الى بئر أخرى عليها قبة . فنزلت اليها وشربت من مائها وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي .

ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير . فنمت بهـا وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب ، أظنه حية ، فلا أباليها لما بي من الجهد .

فلما أصبحت سلكت طريقـا واسعة تفضى الى قرية خربة ، وسلكت سـواها فـكانت كمثلهـا ، وأقمت كذلك أياما . وفي بعضـها وصلت الى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وفي داخلها شبه بيت ، وعلى جـوانب الحـوض نبات الأرض كالنجيل وغيره . فأردت أن أقعد هنـالك حتى يبـعث الله من يوصـلنى الى العمارة .

ثم انى وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجـدت ثورا عليـه بردعة ومنجل ، فاذا تلك الطـريق تفضى الى قرى الكفار ، فاتبعت طريقا أخرى ، فأفضت بي الى قرية خربة ، ورأيت بهـا أسـودين عـريانين فخفتهمـا ، وأقمت تحت أشـجار هنالك .

فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع ، وفي أسـفلها نقب يسـع الرجل . فدخلتها ووجدت داخلهـا مفروشـا بالتبن ، وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت . وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل ،

(١) جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من الاغصان .

وأظنه كان يخاف ، فاجتمعنا خائفين . وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت .

وفي السابع منها وصلت الى قرية للـكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ، ومنـابت خضر ، فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطـونى ، فوجدت حول بئر بها أوراق فجـل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جمـاعة كفار لهم طليعـة [1] ، فدعاني طليعتهم فلم أجبـه ، وقعـدت على الأرض . فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعـه ليضربنى به ، فلم ألتفت اليه لعظم ما بي من الجهد . ففتشنى فلم يجد عندى شيئا ، فأخذ القميص الذى كنت أعطيت الشيخ الموكل بي كميه .

ولما كان في اليوم الثامن ، اشتد بي العطش وعدمت الماء ، ووصلت الى قرية خراب فـلم أجد بها حوضـا . وعادتهـم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر ، فيشربوا منه جميع السنة . فاتبعت طريقا ، فأفضت بي الى بئر غير مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فيه آنية يستقى بها . فربطت خرقة كانت عـلى رأسى في الحبـل ، وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يرونى ، فربطت خفى ، واسـتقيت به فلـم يرونى ، فاستقيت به ثانيا ، فانقطع الحبل ، ووقع الخف في البئـر فربطت الخف الآخـر وشربت حتى رويت . ثم قطعتـه فربطت أعلاه على رجلى بحبل البئر ، وبخرق وجدتها هنالك .

فبينا أنا أربطها وأفكر في حالى ، اذ لاح لى شخص فنظرت اليه ، فاذا رجل أسود اللون

(١) طليعة الجيش : من يبعث ليطلع طلع العدو ، للواحد والجمع .

بيده ابريق وعكاز ، وعلى كاهله جراب ، فقال لي : سلام عليكم .

فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فقال لي بالفارسية : جيكس ، ومعناه : من أنت ؟

فقلت له : أنا تائه .

فقال لي : وأنا كذلك .

ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى فأردت أن أشرب فقال لي : اصبر . ثم فتح جرابه ، فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت . وتوضأ وصلى ركعتين ، وتوضأت أنا وصليت . وسألني عن اسمي فقلت : محمد ، وسألته عن اسمه ، فقال لي : القلب الفارح .

فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لي : باسم الله ترافقني ؟

فقلت : نعم .

فمشيت معه قليلا ، ثم وجدت فتورا في أعضائي ، ولم أستطع النهوض ، فقعدت .

فقال : ما شأنك ؟

فقلت له : كنت قادرا على المشي قبل أن ألقاك ، فلما لقيتك عجزت .

فقال : سبحان الله ، اركب فوق عنقي .

فقلت له : انك ضعيف ولا تستطيع ذلك .

فقال : يقويني الله ، لابد لك من ذلك .

فركبت على عنقه ، وقال لي : أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل .

فأكثرت من ذلك وغلبتني عيني . فلم أفق الا لسقوطي على الأرض ، فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا ، واذا أنا في قرية عامرة ، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود ، وحاكمها من المسلمين . فأعلموه بي ، فجاء الي فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟

فقال لي : تاج بورة . وبينها وبين مدينة كول (حيث أصحابنا) فرسخان .

وحملني ذلك الحاكم الى بيته فأطعمني طعاما سخنا ، واغتسلت . وقال لي : عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري ، من أهل المحلة التي بكول .

فقلت له : هاتهما ألبسهما ، الى أن أصل الى المحلة .

فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي ، وكنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول ، فطال تعجبي من ذلك . وأفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه . فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي ، اذ قال لي : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ، ويخلصك من شدة تقع فيها . وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه ، فقال : القلب الفارح ، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه ، وأنه من الأولياء . ولم يحصل لي من صحبته الا المقدار الذي ذكر [1] .

وأتيت تلك الليلة الى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي ، فجاءوا الي بفرس وثياب واستبشروا بي ، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم . وقد بعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار ، عوضا عن كافور المستشهد ، وأمرنا أن تمادى في سفرنا . ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري ، وتشاءموا

(1) حكاية هذا الولي من الغرائب التي يحار منها العقل والعهدة فيها على ابن بطوطة .

بهذه السفرة ، لما جرى فيها على وعلى كافور ، وهم يريدون أن يرجعوا .

فلما رأيت تأكيد السلطان فى السفر ، آكدت عليهم ، وقوى عزمى . فقالوا : ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة ؟ والسلطان يعذرك فلنرجع اليه ، أو لنقم حتى يصل جوابه .

فقلت لهم : لا يمكن المقام ، وحيثما كنا أدركنا الجواب .

فرحلنا من كول ونزلنا برج بورة ، وبه زاوية حسنة ، وفيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان ، لأنه لا يلبس الا ثوبا من سرته الى أسفل ، وباقى جسده مكشوف . وهو تلميذ الصالح الولى محمد العريان ، القاطن بقرافة مصر ، نفع الله به .

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى ، قائما على قدم التجرد ، يلبس « تنورة » ، وهو ثوب يستر من سرته الى أسفل . ويذكر أنه كان اذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بالزاوية من طعام وادام وماء ، وفرق ذلك على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج ، وأصبح على غير معلوم .

وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا ، فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته ، فيأخذ منهم مقدار ما يكفى الفقراء .

ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر الى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر الى مدافعته ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب ، والملك الناصر اذ ذاك حديث السن ، لم يعهد الوقائع ، وكان الشيخ العريان فى صحبته [1] نزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر ، لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه ، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين . فثبت الملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء ، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير ، بما أرسل عليهم من المياه . ولم يعد التتر الى قصد بلاد الاسلام بعدها .

وأخبرنى الشيخ محمد العريان تلميذ هذا الشيخ ، أنه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن [2] .

ورحلنا من برج بورة ونزلنا على الماء المعروف « بآب سياه » . ثم رحلنا الى مدينة قنوج ، مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة ، رخيصة الأسعار ، كثيرة السكر ، ومنها يحمل الى دهلى ، وعليها سور عظيم ، وقد تقدم ذكرها . وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزى ، وقد أضافنا بها . وأميرها فيروز البذخشانى ، من ذرية بهرام جور صاحب كسرى . ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق ، يعرفون بأولاد شرف جهان ، وكان جدهم قاضى القضاة بدولة آباد . وهو من المحسنين المتصدقين . وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه .

حكاية له

يذكر أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء ، فادعى أحدهم عند القاضى الذى ولى بعده ، أن له عشرة آلاف دينار قبله ، ولم تكن له بينة . وكان قصده أن يحلفه .

---

(1) جواب لما .
(1) يبدو أن هذه الحكاية أبدعها خيال القصاص .

فبعث القاضي له ، فقال لرسوله : بم ادعى على ؟

فقال : بعشرة آلاف دينار .

فبعث الى مجلس القاضي عشرة آلاف ، وسلمت للمدعى .

وبلغ خبره السلطان علاء الدين ، وصح عنده بطلان تلك الدعوى ، فأعاده الى القضاء ، وأعطاه عشرة آلاف .

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، ووصلنا فيها جواب السلطان فى شأنى ، بأنه ان لم يظهر لفلان أثر ، يتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا عنه .

ثم رحلنا عن هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ، ثم بمنزل « وزير بور » ، ثم بمنزل البجالصة .

ثم وصلنا الى مدينة مورى ، وهى صغيرة ، ولها أسواق حسنة . ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين ، المسمى بحيدر الفرغانى ، وكان بحال مرض ، فدعا لى وزودنى رغيف شعير . وأخبرنى أن عمره ينيف على مائة وخمسين .

وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ، ويكثر الاعتكاف . وربما أقام فى خلوته أربعين يوما ، يقتات فيها بأربعين تمرة ، فى كل يوم واحدة .

وقد رأيت بدهلى الشيخ المسمى رجب البرقعى ، دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ، ثم خرج ، وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة .

ثم رحلنا ووصلنا الى مدينة « مرة » وهى مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة .

وهى حصينة ، وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها .

ومنها يحمل الى دهلى ، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ، ولم أر قمحا مثله الا بأرض الصين .

وتنسب هذه المدينة الى المالوة ، وهى قبيلة من قبائل الهنود ، ضخام الأجسام عظام الخلق حسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق .

ثم سافرنا الى مدينة علابور ، مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة . وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم ، وهو سلطان جنبيل الذى حاصر مدينة كيالير ، وقتل بعد ذلك .

حكايته

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابرى ، وهى على نهر الجون ، كثيرة القرى والمزارع . وكان أميرها خطابا الأفغانى ، وهو أحد الشجعان .

واستعان السلطان بسلطان كافر مثله يسمى رجو ، وبلده يسمى « سلطان بور » ، وحاصر مدينة رابرى ، فبعث خطاب الى السلطان يطلب منه الاعانة ، فأبطأ عليه المدد ، وهو على مسيرة أربعين من الحضرة . فخاف أن يتغلب الكفار عليه ، فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك ، ونحو أربعمائة من سائر الناس . وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم ، وهى عادة أهل الهند ، اذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى .

وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس . وفتحوا الباب عند الصبح ، وحملوا على الكفار حملة واحدة ، وكانوا نحو خمسة عشر

ألفا . فهزموهم باذن الله ، وقتلوا سلطانيهم ، قتم ورجو ، وبعثوا برأسيهما الى السلطان . ولم ينج من الكفار الا الشريد .

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان ، وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال . وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه ، فيقتل ويسبى حتى شاع خبره واشتهر أمره ، وهابه الكفار .

وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة . وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه ، على عادة الحبشة ببلادهم .

وكان له ابن يدانيه في الشجاعة . فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار ، فوقع به الفرس في مطمورة [1] . واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة ، والقتارة حديدة شبه سكة الحرث ، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ، ويفضل منها مقدار ذراعين . وضربتها لا تبقى . فقتله بتلك الضربة ومات فيها . وقاتل عبيده أشد القتال ، فتغلبوا على القرية وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأتوا به ولده .

فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه الى دهلى ، فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل ، وعاد الفرس الى أصحابه فدفعوه الى أهله ، فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا .

(١) الحفيرة تحت الارض .

ثم سافرنا الى مدينة كاليور ، وهى مدينة كبيرة لها حصن منيع ، منقطع في رأس شاهق ، على بابه صورة فيل وفيّال من الحجارة ، وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين .

وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان ، فاضل كان يكرمنى أيام اقامتى عنده قبل هذه السفرة . ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار ، فقلت له : بالله لا تفعل ذلك ، فانى مارأيت أحدا قط يقتل بمحضرى ، فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه .

ثم رحلنا من مدينة كاليور الى مدينة برون ، مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركى الأصل .

والسباع بها كثيرة . وذكر لى بعض أهلها أن السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس ، حتى قتل من أهلها كثيرا . وكانوا يعجبون من شأن دخوله .

وأخبرنى محمد التوفيزى من أهلها ، وكان جارا لى بها ، أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير .

وأخبرنى غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس ، فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد ، فخرج أصحابه في طلبه ، فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ، ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس .

ومن العجب أن بعض الناس أخبرنى أن الذى يفعل ذلك ليس بسبع ، وانما هو آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور في صورة سبع . ولما أخبرت بذلك أنكرته ، وأخبرنى به جماعة . ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

ذكر السحرة الجوكية

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب . منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب . وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم ، فلا يترك للواحد الا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور ، وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة .

ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم ، قد رفعت له طبلة [1] وأقام بأعلاها ، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما . وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدى .

والناس يذكرون أنهم يركبون حبوبا ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر ، فلا يحتاجون فى تلك المدة الى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم .

ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون . والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها .

ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته ، وتقول العامة : انه اذا قتل انسان بالنظر ، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب . ويقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا فى النساء . والمرأة التى تفعل ذلك تسمى « كفتار » .

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان ببلاد التلنك ، نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلى ما يقوتهم ، بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم . فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا اطعامهم ، فكان عندى خمسمائة نفس . فعمرت لهم سقائف فى دارى وأسكنتهم بها . وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام فخمسة أيام .

فلما كان فى بعض الأيام أتونى بمرأة منهم وقالوا انها « كفتار » ، وقد أكلت قلب صبى كان الى جانبها ، وأتوا بالصبى ميتا . فأمرتهم أن يذهبوا بها الى نائب السلطان ، فأمر باختبارها ، وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها فى نهر الجون فلم تغرق ، فعلم أنها « كفتار » ، ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار . فأمر باحراقها بالنار . وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر « كفتار » .

حكاية

بعث الى السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الجوكية ، وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون رؤوسهم ، لأنهم ينتفونها بالرماد ، فأمرنى بالجلوس فجلست فقال لهما : ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره .

فقالا : نعم .

فتربع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا . فعجبت منه وأدركنى الخوف فسقطت الى الأرض .

(1) يقصد شيئا كالمنصة ، وليس لهذه الكلمة هذا المعنى فى العربية .

فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت ، وقعدت وهو على حاله متربع .

فأخذ صاحبه نعلا له من شنكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ . فصعدت الى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا .

فقال لى السلطان : ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل .

ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت .

فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ومرضت حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى [1] .

*

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة برون الى منزل آموارى ، ثم الى منزل كجرا . وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائس فيها الأصنام وقد مثل بها المسلمون ، وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق ، وعلى أركانه الأربعة أربع قباب .

ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ، وقد لبدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم . وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة .

وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم . ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام ، يأوى اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى . وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ، ملك تركستان ، وكانوا نحو الخمسين ، فحفر لهم غار تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن [1] يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة . وشأنهم كله عجيب .

ثم سافرنا الى مدينة جنديرى ، مدينة عظيمة لها أسواق حافلة ، يسكنها أمير أمراء تلك البلاد ، عز الدين البنتانى ، وهو المدعو بـ « أعظم ملك » ، وكان خيرا فاضلا يجالس أهل العلم . وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيرى ، والفقيه العالم وجيه الدين البيانى ، نسبة الى مدينة بيانة التى تقدم ذكرها ، والفقيه القاضى المعروف بقاضى خاصة ، وامامهم شمس الدين .

وكان النائب عنه على أمور المخزن ، يسمى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكى من كبار الشجعان ، وبين يديه تعرض العساكر .

و « أعظم ملك » لا يظهر الا فى يوم الجمعة ، وفى غيرها نادرا .

ثم سرنا من جنديرى الى مدينة ظهار ، وهى مدينة المالوة ، أكبر عمالة بتلك البلاد . وزرعها كثير خصوصا القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التانبول الى دهلى ، وبينهما أربعة وعشرون يوما ، وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين . فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه ، وما بقى له الى المنزل أو الى المدينة التى يقصدها ، قرأ النقش الذى فى الأعمدة فيعرفه .

(١) العهدة فى أمثال هذه الحكايات على ابن بطوطة .

(١) يراد به البوق .

ومدينة ظهار اقطاع للشيخ ابراهيم الذى من أهل ذيبة المهل [1] .

حكاية

كان هذا الشيخ ابراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ، فأحيا أرضا مواتا هنالك ، وصار يزدرعها بطيخا ، فأتى فى غاية من الحلاوة ، وليس بتلك الأرض مثله . ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله . وكان يطعم الفقراء والمساكين .

فلما قصد السلطان الى بلاد المعبر أهدى اليه هذا الشيخ بطيخا فقبله منه واستطابه ، وأقطعه مدينة ظهار ، وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها ، فعمرها أحسن عمارة . وكان يطعم بها الوارد والصادر .

وأقام على ذلك أعواما ، ثم قدم على السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر « لكا » ، فقال : هذا فضل مما كنت أطعمه للناس ، وبيت المال أحق به .

فقبضه منه ، ولم يعجب السلطان فعله ، لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى اطعام الطعام .

*

وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير الخواجه جهان أن يفتك بخاله ، ويستولى على أمواله ، ويسيرَ الى القائم ببلاد المعبر . فنمى خبره الى خاله ، فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء ، وبعثهم الى السلطان فقتل الأمراء ، ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير .

حكاية

ولما رد ابن أخت الوزير اليه أمر به أن يقتل ، كما قتل أصحابه ، وكانت له جارية يحبها ، فاستحضرها وأطعمها التانبول وعانقها مودعا . ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملىء تبنا .

فلما كان من الليل ، خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه ، فوجدت ميتة من الغد . فأخرجت ودفن لحمه معها فى قبر واحد ، وسمى ذلك قبر العاشقين .

ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة آجين ، مدينة حسنة كثيرة العمارة . وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك ، وهو من الفضلاء الكرماء العلماء ، استشهد بجزيرة سندابور حين افتتحها . وقد زرت قبره هنالك ، وسنذكره . وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربى الغرناطى الأصل .

ثم سافرنا من مدينة أجين الى مدينة دولة آباد ، وهى المدينة الضخمة العظيمة الشأن ، الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها .

وهى منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد ، وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره . والقسم الثانى يسمى الكتكة . والقسم الثالث قلعتها التى لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة ، وتسمى الدويقير .

وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان . وهو أميرها ، والنائب عن السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف الى ذلك . وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلها ، ونوابه فيها .

وقلعة الدويقير التى ذكرناها هى قطعة حجر فى بسيط من الأرض قد نحتت ، وبنى

(1) جزائر مالديف

بأعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ، ويرفع ليلا . ويسكن بها الزماميون [1] بأولادهم . وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة فى جبوب [2] وبها فيران ضخام أعظم من القطوط [3] . والقطوط تهرب منها ، ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها . ولا تصاد الا بحيل تدار عليها . وقد رأيتها هنالك فعجبت منها .

حكاية

أخبرنى الملك خطاب الأفغانى أنه سجن مرة فى جب بهذه القلعة ، يسمى جب الفيران ، قال : فكانت تجتمع على ليلا لتأكلنى ، فأقاتلها ، وألقى من ذلك جهدا . ثم انى رأيت فى النوم قائلا يقول لى : اقرأ سورة الاخلاص مائة ألف مرة ، فيفرج الله عنك .

قال : فقرأتها فلما أتممتها خرجت . وكان سبب خروجى أن الملك « مل » كان مسجونا فى جب يجاورنى ، فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات . فبلغ ذلك السلطان فقال : أخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك .

والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين ابن الملك « مل » هذا ، والقاضى جلال حين هزمهما السلطان .

*

وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن ، وخصوصا فى الأنوف والحواجب . وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات ، وأكثر تجاراتهم فى الجوهر ، وأموالهم طائلة . وبدولة آباد العنب والرمان ، ويثمران مرتين فى السنة . وهى من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا ، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا ، وهى كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر ، بسبعة عشر كرورا ، والكرور مائة لك ، واللك مائة ألف دينار . ولكنه لم يف بذلك فبقى عليه بقية ، فأخذ ماله وسلخ جلده .

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات ، يسمى سوق طرب آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة ، كل دكان له باب يفضى الى دار صاحبه ، وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفى وسطه شكل مهد كبير ، تجلس فيه المغنية أو ترقد ، وهى متزينه بأنواع الحلى ، وجواريها يحركن مهدها .

وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس ، وبين يديه خدامه ومماليكه . وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى ، فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف .

وفى تلك السوق المساجد للصلاة . ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ، وتغنى المغنيات بين يديه . وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا .

ثم سافرنا الى مدينة نذربار ، مدينة صغيرة يسكنها المرهتة ، وهم أهل الاتقان فى

---

(1) الحراس المقيدة اسماؤهم فى جرائد الجيش ، تسمية اصطلاحية .

(2) جمع جب ، ولكن الجموع فى الكتب التى بأيدينا هى : أجباب وجباب وجببة .

(3) جمع قط . وهذا الجمع غريب ، والذى فى « القاموس » : قطاط وقططة .

الصناعات ، والأطباء والمنجمون . وشرفاء المرهتة هم البراهمة . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون تعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل . ولا يتزوجون فى أقاربهم الا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد . ولا يشربون الخمر ، وهى عندهم أعظم المعايب ، وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين . ومن شربها من مسلم حد ثمانين جلدة ، وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة صاغر ، وهى مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها ، وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر .

وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة . وأحوالهم كلها مرضية . ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر . وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها ، ويجعل النظر فيه لأولاده ، فان انقرضوا أعاد النظر للقضاة . والعمارة بها كثيرة . والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ، ولكونها محررة من المغارم والوظائف[1] .

ثم سافرنا من صاغر الى مدينة كنباية ، وهى على خور من البحر ، وهو شبه الوادى تدخله المراكب ، وبه المد والجزر ، وعاينت المراكب به مرساة فى الوحل حين الجزر . فاذا كان المد عامت فى الماء .

وهذه المدينة من أحسن المدن فى اتقان البناء وعمارة المساجد . وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون فى ذلك .

ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرى الذى اتفقت لى معه قضية الحلواء ، وكذبه ملك الندماء .

ولم أر قط أضخم من الخشب الذى رأيته بهذه الدار . وبابها كأنه باب مدينة . والى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه .

ومنها دار ملك التجار الكازرونى ، والى جانبها مسجده .

ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز .

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الأفغانى ، أراد شمس الدين والناخداه الياس ، وكان من كفار أهل هذه المدينة ، وملك الحكماء الذى تقدم ذكره ، أن يمتنعوا منه بهذه المدينة . وشرعوا فى حفر خندق عليها ، اذ لا سور لها . فتغلب عليهم ودخلها .

واختفى الثلاثة فى دار واحدة ، وخافوا أن يطلع عليهم ، فاتفقوا أن يقتلوا أنفسهم ، فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة — وقد ذكرنا صفتها — فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء .



وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلانى . وكان حسن الصورة كثير المال . وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا . ثم أرسل السلطان اليه وأمره عليها وأعطاه المراتب . فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله .

وكان أمير كنباية حين وصلنا اليها مقبل التلنكى ، وهو كبير المنزلة عند السلطان .

(1) المكوس والجبايات .

وكان في صحبته الشيخ زاده الأصبهانى نائبا عنه في جميع أموره .

وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ، ولا يزال يبعث الأموال الى بلاده ويتحيل فى الفرار . وبلغ خبره السلطان ، وذكر عنه أنه يروم الهرب . فكتب الى مقبل أن يبعثه ، فبعثه على البريد ، وأحضر بين يدي السلطان ووكل به .

والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو . فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه اياه ، وهربا جميعا .

وذكر لى أحد الثقات أنه رآه فى ركن مسجد بمدينة قلهات ، وأنه وصل بعد ذلك الى بلاده ، فحصل على أمواله وأمن ما كان يخافه .

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره ، فكان من النادر أن جلس قاضى المدينة وهو أعور العين اليمنى ، وفى مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به فى صورته وعوره ، الا أنه أعور اليسرى . فجعل الشريف ينظر الى القاضى ويضحك ، فزجره القاضى ، فقال له : لا تزجرنى فانى أحسن منك .

قال : كيف ذلك ؟

قال : لأنك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى .

فضحك الأمير والحاضرون ، وخجل القاضى ولم يستطع أن يرد عليه ، لأن الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم .

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر ، وسكناه بقبة من قباب الجامع . دخلنا عليه وأكلنا من طعامه . واتفق انه لما دخل القاضى جلال مدينة كنباية حين خلافه أنه أتاه وذكر للسلطان أنه دعا له ، فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى .

وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجه اسحاق . وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر ، وينفق على الفقراء والمساكين . وماله على هذا ينمى ويزيد كثرة .

وسافرنا من هذه المدينة الى بلدة كاوى . وهى على خور فيه المد والجزر من بلاد الراى جالنسى ، وسنذكره .

وسافرنا الى مدينة قندهار . وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

ذكر سلطانها

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسى . وهو تحت حكم الاسلام ، يعطى ملك الهند هدية كل عام .

ولما وصلنا الى قندهار خرج الى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم ، وخرج عن قصره فأنزلنا به . وجاء الينا من عنده من كبار المسلمين ، كأولاد خواجه بهرة ، ومنهم الناخداة ابراهيم ، وله ست من المراكب .

ومن هذه المدينة ركبنا البحر .

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا فى مركب لابراهيم هذا يسمى الجاكر ، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا ، فى مركب لأخى ابراهيم . وأعطانا جالنسى مركبا

جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف . وبعث معنا ولده فى مركب يسمى العكبرى ، وهو شبه الغراب [1] الا أنه أوسع منه . وفيه ستون مجذافا . ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهام ولا الحجارة .

وكان ركوبي أنا فى الجاكر . وكان فيه خمسون راميا ، وخمسون من المقاتلة الحبشان ، وهم زعماء هذا البحر . واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم .

ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بيرم . وهى خالية ، وبينها وبين البر أربعة أميال ، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها . وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد . وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها ، وجعل بها المجانيق ، وأسكن بها بعض المسلمين .

ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى الى مدينة قوقة ، وهى مدينة كبيرة عظيمة الأسواق ، أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر .

ونزلت فى عشارى [2] مع بعض أصحابى حين الجزر لأدخلها ، فوحل العشارى فى الطين ، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل . فكنت لما نزلنا فى الوحل أتوكأ على رجلين من أصحابى . وخوفنى الناس وصول المد قبل وصولى اليها وأنا لا أحسن السباحة .

(١) نوع من السفن عندهم .
(٢) نوع آخر يظهر انه صغير كالزورق . والتسمية ليست بعربية فيما نعلم ، ولا ندرى كيف تضبط الكلمة .

ثم وصلت اليها وطفت بأسواقها . ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم . ثم عدت الى المركب .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يسمى دنكول . وكان يظهر الطاعة لملك الهند . وهو فى الحقيقة عاص . ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام الى جزيرة سندابور ، وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية ، ويدور بها خور . واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب ، واذا كان المد فهو ملح أجاج .

وفى وسطها مدينتان احداهما قديمة من بناء الكفار ، والثانية بناها المسلمون ، عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول .

وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد ، عمره الناخداة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنورى . وسيأتى ذكره وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ، ان شاء الله .

وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر ، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء . ووجدنا بها أحد الجوكية .

حكاية هذا الجوكى

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى ، وجدنا بها جوكيا مستندا الى حائط بدخانة (وهى بيت الأصنام) وهو فيما بين صنمين منها ، وعليه أثر المجاهدة . فكلمناه فلم يتكلم ،

ونظرنا هل معه طعام ، فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ، ودفعها لنا . فعجبنا من ذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها ، وأتيناه بزاد فرده .

وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى ، فدفعها الى . وكانت بيدى سبحة فقلبها فى يدى فأعطيته اياها ، ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار الى السماء ، ثم الى سمت القبلة ، فلم يفهم أصحابى اشارته ، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفى اسلامه عن أهل تلك الجزيرة ، ويتعيش من ذلك الجوز .

ولما ودعناه قبلت يده فأنكر أصحابى ذلك . ففهم انكارهم ، فأخذ يدى وقبلها وتبسم ، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا . وكنت آخر أصحابى خروجا ، فجذب ثوبى فرددت رأسى اليه فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى : لم جذبك ؟

فقلت لهم : أعطانى هذه الدنانير . وأعطيت ظهير الدين ثلاثة منها ، وسنبلا ثلاثة . وقلت لهما : الرجل مسلم ، ألا ترون كيف أشار الى السماء يشير الى أنه يعرف الله تعالى ، وأشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام ؟ وأخذه السبحة يصدق ذلك .

فرجعا لما قلت لهما ذلك فلم يجداه .

وسافرنا تلك الساعة ، وبالغد وصلنا الى مدينة هنور ، وهى على خور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفى أيام المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه الا للتصيد فيه .

وفى يوم وصولنا اليها جاءنى أحد الجوكية من الهنود فى خلوة ، وأعطانى ستة دنانير ، وقال لى : البرهمن بعثها اليك ، يعنى الجوكى الذى أعطيته السبحة ، وأعطانى الدنانير فأخذتها منه ، وأعطيته دينارا منها فلم يقبله ، وانصرف .

وأخبرت صاحبى بالقضية ، وقلت لهما : ان شئتما فخذا نصيبكما منها ، فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه . وقالا لى : ان الدنانير الستة التى أعطيتنا اياها جعلنا مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه .

فطال عجبى من أمره . واحتفظت بتلك الدنانير التى أعطانيها .

*

وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد فى الحرب وقوة . وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور ، وسنذكر ذلك .

ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمدا الناقورى ، وأضافنى بزاويته ، وكان يطبخ الطعام بيده ، استقذارا للجارية والغلام .

ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى ، وهو ورع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضى بها نور الدين عليا .

ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط ، وانما يلبسن ثيابا غير مخيطة ، تحتزم احداهن بأحد طرفى الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدرها .

ولهن جمال وعفاف . وتجعل احداهن خرص[1] ذهب فى أنفها .

ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن العظيم . ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد . ولم أر ذلك فى سواها .

ومعاش أهلها من التجارة فى البحر . ولا زرع لهم . وأهل بلاد المليبار يعطون السلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما ، خوفا منه لقوته فى البحر . وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة .

ذكر سلطان هنور

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وكبارهم . وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سنذكره . والسلطان جمال الدين مواظب على الصلاة فى الجماعة . وعادته أن يأتى الى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر ، فيصلى أول الوقت ثم يركب الى خارج المدينة ، ويأتى عند الضحا فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ، ثم يدخل الى قصره .

وهو يصوم الأيام البيض . وكان أيام اقامتى عنده يدعونى للافطار معه ، فأحضر لذلك ، ويحضر الفقيه علي والفقيه اسماعيل . فتوضع أربعة كراسى صغار على الأرض ، فيقعد على أحدها ويقعد كل واحد منا على كرسى .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس ، ويجعل عليها صحفة نحاس يسمونها « الطالم » وتأتى جارية حسناء ملتحفة بثوب حرير ، فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعها مغرفة نحاس كبيرة ، فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة ، وتجعلها فى «الطالم» ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح ، والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا . فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح .

فاذا ما تمت الغرفة التى جعلتها فى « الطالم » ، غرفت غرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سكرجة ، فيؤكل بها الأرز أيضا .

فاذا تمت الغرفة الثانية ، غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به . فاذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضا . فاذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان ، فيأكلون بها الأرز .

فاذا فرغ ذلك كله أتوا باللبن الرائب ، وبه يختمون طعامهم ، فاذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده . ثم يشربون على ذلك الماء الساخن ، لأن الماء البارد يضر بهم فى فصل نزول المطر .

ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كرة أخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا ، وانما طعامهم الأرز . وبقيت أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الا الأرز ، حتى كنت لا أستسيغه الا بالماء .

ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق ، يشد فى وسطه

(1) الخرص ، بفتح الخاء وكسرها ، حلقة من الذهب او الفضة .

ويلتحف بملحفتين احداهما فوق الأخرى ، ويمقص[1] شعره ويلف عليه عمامة صغيرة . واذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه . وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال . وكانت اقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة أيام . وزودنا وسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا الى بلاد المليبار ، وهى بلاد الفلفل . وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور الى كولم . والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار .

وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين ، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر . وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ، ورجل كافر موكل بها . فمن كان كافرا سقاه فى الأوانى ، ومن كان مسلما سقاه فى يديه ، ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف .

وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى آوانيهم . فان طعم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين . واذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز ، وصبوا عليه الادام . وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير .

وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون ، فيبيعون منهم[2] جميع ما يحتاجون اليه ، ويطبخون لهم الطعام ، ولولاهم لما سافر فيه مسلم .

وهذا الطريق الذى ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل انسان بستانه على حدة وداره فى وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب .

والطريق يمر فى البساتين ، فاذا انتهى الى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ، ودرج أخرى ينزل عليها الى البستان الآخر ... هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بداية ، ولا تكون الخيل الا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها فى « دولة » على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يركب « دولة » مشى على قدميه كائنا من كان .

ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها ، اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته ، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد[1] ، وفى أعلاه محطاف حديد . فاذا أعيا ولم يجد دكانة يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض وعلق حمله عليه . فاذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به .

ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق . وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فاذا سقط شىء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه .

وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة ، وبلغ خبره الحاكم ، فأمر بعود فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى ، وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ، ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره . وترك عبرة

(١) عقص الشعر تضفيره وليه على الراس .
(٢) باعه الشىء وباعه منه ... « الاساس » .

(١) الزج : الحديدة التى فى أسفل الرمح .

للنـاظرين . ومن هذه العيـدان على هـذه الصـورة بتلك الطرق كثير ، ليراها النـاس فيتعظوا .

ولقد كنا نلقى الـكفار بالليـل فى هـذه الطريق ، فاذا رأونا تنحـوا عن الطريق حتى نجوز . والمسلمون أعز الناس بها ، غير أنهم كمـا ذكـرنا لا يؤاكلونهـم ولا يدخلونهم دورهم .

وفى بلاد المليبـار اثنـا عشر سلطـانا من الكفار ، منهم القـوى الذى يبلغ عسـكره خمسين ألفا ، ومنهم الضعيف الذى عسـكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم ألبتة . ولا تطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف .

وبين بلاد أحدهم وصاحبـه باب خشـب منقوش فيه اسم الذى هو مبـدأ عمالتـه ، ويسمونه باب أمان فلان .

واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر ، أمن عـلى نفسه ، ولم يستطع الذى هرب عنه أخـذه ، وان كان القوى صاحب العدد والجيوش .

وسلاطين تلك البـلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . واذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء ، أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشترى ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفلفل

وشجرات الفلفل شـبيهة بدوالى العنب . وهم يغرسونها ازاء النارجيـل ، فتصعد فيها كصعود الدوالى . وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل [1] ، وبعضها يشـبه أوراق العليـق [2] وثمر عناقيد صغارا .

واذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشـوه على الحصر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب عند تزبيبه . ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ، ثم يبيعونه من التجار .

والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التـكريش . وليس كذلك ، وانما يحدث ذلك فيه بالشمس .

ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للـكيل كالذرة ببلادنا .

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبى سرور ، وهى صغيرة على خـور كبير ، كثيرة أشجار النارجيل . وكبير المسلمين بهـا الشيخ جمعة ، أحد الكرماء ، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت .

وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور ، مدينة كبيرة على خور ، بهـا قصب السكر الكثير الطيب ، الذى لا مثل له بتلك البلاد .

وبها جماعة من المسـلمين يسـمى كبيرهم بحسين السلاط . وبها قاض وخطيب . وعمر بها حسين مسجدا لاقامة الجمعة .

ذكر سلطانها

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسـدو . و[له] نحو ثلاثين مركبا حربيا قائدها مسلم يسمى لولا . وكان من المفسدين يقطع البحر ويسلب التجار . ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده ، فأقام بالمركب كالرهينة . ونزلنا

(1) الخيل ، بالكسر وبفتح ، السذاب .
(2) نوع من النبت يتعلق بالشجر .

اليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة ، تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ، ورغبة فيما يستفيده من التجارة مع أهل مراكبنا .

ومن عاداتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلابد من ارسائه بها ، واعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر [1] ، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا ، وضاعفوا عليه المغرم ، ومنعوه عن السفر ما شاءوا .

وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور . مدينة كبيرة على خور يسمى خور الذنب ، وهو أكبر خور ببلاد المليبار . وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن . والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا .

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو ، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا [2] بناحية المدينة . وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار .

وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب ، يسمى بدر الدين المعبري ، وهو يقرىء العلم . صعد الينا في المركب ، ورغب منا في النزول الى بلده ، فقلنا : حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب .

فقال : انما فعل ذلك سلطان فاكنور ، لأنه لا قوة للمسلمين في بلده ، أما نحن فالسلطان يخافنا .

(1) البندر المرسى ... « القاموس » .
(2) ربض المدينة ما حولها .

فأبينا عليه الا ان يبعث السلطان ولده . فبعث ولده كما فعل الآخر . ونزلنا اليهم وأكرمونا اكراما عظيما ، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام .

ثم سافرنا الى مدينة هيلي ، فوصلناها بعد يومين . وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار . والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ، ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط .

ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع ، فانه عظيم البركة مشرق النور . وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة . وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ، ولهم مرتبات من مال المسجد. وله مطبخة [1] يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ، ولاطعام الفقراء من المسلمين بها .

ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو [2] يسمى سعيدا ، حسن اللقاء والخلق . وذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ، ومثلها بالمدينة ، وسافر في بلاد الهند والصين .

ثم سافرنا من هيلي الى مدينة جرفتن . وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ . ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري ، نسبة الى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكوفة ، واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب . وكان له أخ

(1) الصحيح مطبخ لا مطبخة .
(2) مدينة في اول بلاد الزنج في جنوب اليمن... « ياقوت »

بهذه المدينة كثير المال ، له أولاد صغار أوصى اليه بهم ، وتركته آخذا فى حملهم الى بغداد .

وعادة أهل الهند كعادة السودان ، لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف ، وانما يبقى ماله بيد كبير المسلمين ، حتى يأخذه مستحقه شرعا .

ذكر سلطانها

وهو يسمى بكويل ، وهو من أكبر سلاطين المليبار . وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن .

وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن ، وهى مدينة كبيرة على خور ، كثيرة البساتين . وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتانبول . وبها القلقاس الكثير ، ويطبخون به اللحم . وأما الموز فلم أر فى البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمنا

وفيها البائن [1] الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر ، فى كل قبة أربع مجالس من الحجر ، وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة ، وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات . فى كل طبقة أربعة مجالس . وذكر لى أن والد هذا السلطان كويل هو الذى عمر هذا البائن .

وبازائه مسجد جامع للمسلمين . وله درج ينزل منها اليه ، فيتوضأ منه الناس ويغتسلون .

وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد و « البائن » أيضا هو أحد أجداد كويل ، وأنه كان مسلما ولاسلامه خبر عجيب نذكره .

(1) معناه الحوض ، بلسانهم .

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التى بازاء الجامع

ورأيت أنا بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين الا أنها لينة ، وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم « درخت الشهادة » .

وأخبرت هنالك أنه اذا كان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا اله الا الله محمد رسول الله .

وأخبرنى الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذى فيها وأخبرنى أنه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها فى خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها للمرضى .

وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جد كويل الذى عمر المسجد والبائن . فانه كان يقرأ الخط العربى . فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن اسلامه . وحكايته عندهم متواترة .

وحدثنى الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر . ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه . وهلك الكافر سريعا .

*

ثم سافرنا الى مدينة بدفتن . وهى مدينة كبيرة على خور كبير . وبخارجها مسجد قريب

من البحر ، يأوى اليه غرباء المسلمين ، لأنه لا مسلم بهذه المدينة . ومرساها من أحسن المراسى ، وماؤها عذب . والفوفل بها كثير ، ومنها يحمل الى الهند والصين . وأكثر أهلها براهمة ، وهم معظمون عند الكفار ، مبغضون فى المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم .

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد ، وعدم هدمهم له ، أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته ، فاشتعلت النار فى بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه . فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير .

*

ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا ، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبها للمسلمين ثلاث محلات فى كل محلة مسجد . والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر . وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين .

ثم سافرنا منها الى مدينة قالقوط ، وهى احدى البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل ، وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يعرف بالسامرى ، شيخ مسن يحلق لحيته ، كما يفعل طائفة من الروم ، رأيته بها ، وسنذكره ان شاء الله . وأمير التجار بها ابراهيم شاه بندر ، من أهل البحرين ، فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون فى سماطه . وقاضيها فخر الدين عثمان ، فاضل كريم . وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى ، وهو يأخذ النذور التى ينذرها أهل الهند والصين للشيخ أبى اسحاق الكازرونى ، نفع الله به .

وبهذه المدينة « الناخداة » مثقال الشهير الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة ، لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس .

ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر ، والقاضى ، والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج ، ومعهم الأطبال والأنقار والأبواق والأعلام فى مراكبهم . ودخلنا المرسى فى بروز [1] عظيم ، ما رأيت مثله بتلك البلاد . فكانت فرحة تتبعها ترحة .

وأقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين . ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا فى دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر الى الصين ثلاثة أشهر ، ونحن فى ضيافة الكافر .

وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ، ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى « الجنوك » ، واحدها « جنك » ،

(١) يقصد فى أبهة ، لان الابهة من شأنها البروز اى الظهور .

والمتوسطة تسمى « الزو » ، والصغار يسمى أحدها الككم [1] .

ويكون فى المركب الكبيرة منها اثنا عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة . وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر ، لا تحط أبدا ، ويديرونها بحسب دوران الريح . واذا أرسوا تركوها واقفة فى مهب الريح .

ويخدم فى المركب منها ألف رجل . منهم البحرية ستمائة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة ، وأصحاب الدرق ، والذين يرمون بالنفط . ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفى والثلثى والربعى .

ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلان ، وهى صين الصين . وكيفية انشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا ، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاث أذرع . فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ، ودفعوهما فى البحر ، وأتموا العمل .

وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم . وهى كبار كالصوارى . يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون وقوفا على أقدامهم .

ويجعلون للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت [2] والمصارى [3] ، والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس [4] وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد .

والبحرية يسكنون فيها أولادهم . ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل فى أحواض خشب .

ووكيل المركب كأنه أمير كبير . واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشان بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه . واذا وصل الى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبى بابه ... ولا يزالون كذلك مدة اقامته .

ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه الى البلاد . وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين .

ذكر أخذنا فى السفر الى الصين ومنتهى ذلك

ولما حان وقت السفر الى الصين جهز لنا السلطان السامرى جنكا من الجنوك الثلاثة عشر التى بمرسى قالقوط . وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدى الشامى ، وبينى وبينه معرفة . فقلت له : أريد « مصرية » لا يشاركنى فيها أحد ، لأجل الجوارى . ومن عادتى ألا أسافر الا بهن .

فقال لى : ان تجار الصين قد اكتروا المصارى ذاهبين وراجعين . ولصهرى مصرية أعطيكها ، لكنها لا « سنداس » فيها ، وعسى أن تمكن معاوضتها .

(1) هذه الاسماء غير عربية ولا معربة .
(2) المصرية حجرة النوم وما يتبعها من مرحاض وغيره . والتسمية عرفية ، وكذلك جمعها على مصارى .
(3) الغرف .
(4) المرحاض ، غير عربى .

فأمرت أصحابى فأوسقوا ما عندى من المتاع ، وصعد العبيد والجوارى الى « الجنك » ، وذلك فى يوم الخميس . وأقمت لأصلى الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية .

ثم ان فتى لى يسمى هلالا أتانى غدوة الجمعة ، فقال : ان « المصرية » التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح . فذكرت ذلك للناخداة ، فقال : ليست فى ذلك حيلة . فان أحببت أن تكون فى « الككم » ففيه المصارى على اختيارك .

فقلت : نعم . وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع الى « الككم » . واستقروا به قبل صلاة الجمعة .

وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه .

وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها الا الذى فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا ، وهذا الككم . فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود الى الككم ، ولا يستطيع من فيه النزول الينا . ولم يكن بقى معى الا بساط أفترشه .

وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى . ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فندرينا ، فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم . وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه ، فرغب فى اعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها ، وكانت قد لزمت خشبة فى مؤخر الجنك . فانتدب [1] لذلك بعض البحرية الهرمزيين فأخرجها ، وأبى أن يأخذ الدنانير . وقال : انما فعلت ذلك لله تعالى .

ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية ، فمات جميع من فيه . ونظرنا عند الصباح الى مصارعهم ، ورأيت ظهير الدين وقد انشق رأسه وتناثر دماغه ، والملك سنبلا وقد ضرب مسمار فى أحد صدغيه ونفذ من الآخر . وصلينا عليهما ودفناهما .

ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفى وسطه شقة [1] بيضاء كبيرة ، قد لفها من سرته الى ركبته وفى رأسه عمامة صغيرة ، وهو حافى القدمين . والشطر بيد غلام فوق رأسه ، والنار توقد بين يديه فى الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمى البحر .

وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا فى هذا البلد خاصة ، فان ذلك يأخذه أربابه ، ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها .

ولما رأى أهل « الككم » ما حدث « للجنك » ، رفعوا أقلعتهم وذهبوا ، ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارى ، وبقيت منفردا على الساحل ، وليس معى الا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حل بى ذهب عنى . ولم يبق عندى الا الدنانير العشرة التى أعطانيها الجوكى ، والبساط الذى كنت أفترشه .

وأخبرنى الناس أن ذلك الككم لابد له أن يدخل مرسى كولم ، فعزمت على السفر اليها ، وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر أيضا لمن أراد ذلك . فسافرت فى النهر ، واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لى البساط .

(١) ندبه للامر دعاه .

(١) بفتح الشين وكسرها .

وعادتهم اذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى فيبيتوا بالقرى التى على حافتيه ، ثم يعودوا الى المركب بالغدو . فكنا نفعل ذلك .

ولم يكن بالمركب مسلم الا الذى اكتريته . وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد على ، فيزيد تغير خاطرى .

ووصلنا فى اليوم الخامس من سفرنا الى كنجى كرى . وهى بأعلى جبل هنالك ، يسكنها اليهود ولهم أمير منهم . ويؤدون الجزية لسلطان كولم .

ذكر القرفة والبقم

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القرفة والبقم ، وهى حطبهم هنالك ، ومنها كنا نوقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق .

وفى اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم ، وهى من أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان . وتجارها يعرفون بالصوليين ، لهم أموال عريضة ، يشترى أحدهم المركب بما فيه ، ويوسقه من داره بالسلع .

وبها من التجار المسلمين جماعة ، كبيرهم علاء الدين الأوجى ، من أهل أوه [1] من بلاد العراق وهو رافضى . ومعه أصحاب له على مذهبه ، وهم يظهرون ذلك .

وقاضيها فاضل من أهل قزوين . وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر ، وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين . والمسجد الجامع بها عجيب ، عمره التاجر خواجه مهذب .

(1) قال ياقوت : اوه بفتحتين قرية بين زنجان وهمدان .

وهذه المدينة أول ما يوالى الصين من بلاد المليبار ، واليها يسافر أكثرهم . والمسلمون بها أعزة محترمون .

ذكر سلطانها

وهو كافر يعرف بالتيرورى ، وهو معظم للمسلمين ، وله أحكام شديدة على السراق والدعار .

حكاية

ومما شاهدت بكولم أن بعض الرماة العراقيين قتل أحدهم آخر منهم ، وفر الى دار الأوجى ، وكان له مال كثير . وأراد المسلمون دفن المقتول ، فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به . وتركوه فى تابوته على باب الأوجى حتى أنتن وتغير . فمكنهم الأوجى من القاتل . ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا ، فأبوا ذلك وقتلوه . وحينئذ دفن المقتول .

حكاية

أخبرت أن سلطان كولم ركب يوما الى خارجها . وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوج بنته ، وهو من أبناء الملوك . فأخذ حبة واحدة من العنب سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر اليه ، فأمر عند ذلك فوسط (أى قسم نصفين) ، وصلب نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره . وقسمت العنبة نصفين ، فوضع على كل نصف منه نصف منها . وترك هنالك عبرة للناظرين !

حكاية

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط ، أن ابن أخى النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين ، فشكا بذلك الى عمه ، فوعده بالنظر فى أمره . وقعد على باب داره ، فاذا بابن أخيه متقلدا ذلك السيف ، فدعاه فقال : هذا سيف المسلم ؟

*

قال : نعم .

قال : اشتريته منه ؟

قال : لا .

فقال لأعوانه : أمسكوه . ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف .

*

وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرونى شيخ زاوية قالقوط ، فلم أتعرف للككم خبرا . وفى أثناء مقامى بها دخلها رسل ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا مع احدى تلك الجنوك فانكسرت أيضا ، فكساهم تجار الصين وعادوا الى بلادهم . ولقيتهم بها بعد .

وأردت أن أعود من كولم الى السلطان لأعلمه بما اتفق للهدية . ثم خفت أن يتعقب فعلى ويقول : لم فارقت الهدية ؟ فعزمت على العودة الى السلطان جمال الدين الهنورى ، والاقامة عنده حتى أتعرف خبر « الككم » . فعدت الى قالقوط ، ووجدت بها بعض مراكب السلطان ، وقد بعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن ، وهو من خواص البوابين ، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز [1] والقطيف [2] لمحبته للعرب .

فتوجهت الى هذا الأمير ، ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط ، وحينئذ يسافر الى بلاد العرب . فشاورته فى العودة الى السلطان فلم يوافق على ذلك . فسافرت بالبحر من قالقوط ، وذلك آخر فصل السفر فيه . فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو الى الغد .

ولقينا فى طريقنا أربع « أجفان » غزوية فخفناها ، ولكنهم لم يتعرضوا لنا بشر .

ووصلنا الى مدينة هنور ، فنزلت الى السلطان وسلمت عليه ، فأنزلنى بدار ، ولم يكن لى خادم ، وطلب منى أن أصلى معه الصلوات ، فكان أكثر جلوسى فى مسجده .

وكنت أختم القرآن كل يوم . ثم كنت أختم مرتين فى اليوم : أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح ، فأختم عند الزوال ، وأجدد الوضوء وأبتدىء القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب . ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر ، واعتكفت فيها أربعين يوما .

ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا لغزو سندابور . وكان قد وقع بين سلطانها وولده خلاف ، فكتب ولده الى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ، ويسلم الولد ، ويزوجه السلطان أخته .

فلما تجهزت المراكب ظهر لى أن أتوجه فيها الى الجهاد ، ففتحت المصحف أنظر فيه ، فكان أول الصفحة « يذكر فيها اسم الله كثيرا ،

(١) فرضة كرمان ، على بر فارس ... « ياقوت » .
(٢) مدينة بالبحرين .

ولينصرنّ الله من ينصره » ، فاستبشرت بذلك .

وأتى السلطان الى صلاة العصر فقلت له : انى أريد السفر ، فقال : فأنت اذن تكون أميرهم . فأخبرته بما خرج لى أول الصفحة ، فأعجبه ذلك . وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل . فركب مركبا منها وأنا معه ، وذلك فى يوم السبت ، فوصلنا عشى الاثنين الى سندابور . ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب ، وقد نصبوا المجانيق ، فبتنا عليها تلك الليلة .

فلما أصبحنا ضربت الطبول والأنقار والأبواق ، وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق . فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان . ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبأيديهم الترسة والسيوف . وأنزل النصر على المسلمين ، فدخلنا بالسيف .

ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها ، فرمينا النار فيه ، فخرجوا وقبضنا عليهم . ثم ان السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأموالهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف ، وأسكنهم بربض المدينة .

وسكن السلطان القصر ، وأعطى أهل دولته الديار بالقرب منه . وكسانى فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر .

وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها ، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى ، الى منتصف شعبان . وطلبت منه الاذن فى السفر ، فأخذ على العهد فى العودة اليه .

وسافرت فى البحر الى هنور ثم الى فاكنور ، ثم الى منجرور ثم الى هيلى ، ثم الى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط . وقد تقدم ذكرها جميعا . ثم الى مدينة الشاليات ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها .

وأقمت بها فطال مقامى ، فعدت الى قالقوط . ووصل اليها غلامان كانا لى « بالكم » ، فأخبرانى أن جاريتى توفيت ، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى ، واستونت الأيدى على المتاع ، وتفرق أصحابى الى الصين والجاوة وبنجالة .

فعدت لما تعرفت هذا الى هنور ، ثم الى سندابور فوصلتها فى آخر المحرم ، وأقمت بها الى الثانى من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانها الكافر الذى دخلناها عليه [1] لأخذها ، وهرب اليه الكفار كلهم . وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا . وحصرنا الكفار وضيقوا علينا . ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة ، وعدت الى قالقوط .

وعزمت على السفر الى ذيبة المهل [2] . وكنت أسمع بأخبارها . فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل . وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا . وهى نحو ألفى جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه .

واذا وصل المركب الى احداها فلابد له دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر

---

(1) اى عند الغزوة كما سبق .

(2) جزائر مالديف كما تقدم فى الحواشى .

وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الأخرى . فان أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها ، وحملته الريح الى المعبر أو سيلان .

وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة أقاليم ، على كل اقليم وال .

وهذه الجزائر كلها لا زرع بها ، الا أن في اقليم السويد منها زرعا ، ويجلب منه الى المهل . وانما أكل أهلها سمك يسمونه قلب الماس ، ولحمه أحمر ولا ذفر له ، وانما ريحه كريح لحم الأنعام . واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ، ثم جعلوه في مكاتل [1] من سعف النخل ، وعلقوه للدخان . فاذا استحكم يبسه أكلوه . ويحمل منها الى الهند والصين واليمن .

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل ، وهو من أقواتهم مع السمك ، وقد تقدم ذكره . وأشجار النارجيل ذات شأن عجيب ، وتثمر النخلة منها اثنى عشر عذقا [2] في السنة ، يخرج في كل شهر عذق ، فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا ، وبعضها يابسا وبعضها أخضر ، هكذا أبدا . ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل . ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . وأقمت بها سنة ونصف أخرى . ومن أشجارها الأترج والليمون والقلقاس .

(1) جمع مكتل وهو الزنبيل .
(2) العذق : الكباسة ، وهو من التمر كالعنقود من العنب .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم وذكر مساكنهم

أهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة . واذا رأى الانسان أحدهم قال له : الله ربي ومحمد نبيي . وأبدانهم ضعيفة ، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة . ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها ، فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس .

ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم . واذا أتت « أجفان » العدو الى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء . وان أخذ أحد الكفار ولو ليمونة ، عاقبه أمير الكفار ، وضربه الضرب المبرح .

وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة . وأكثر عمارتهم بالخشب . وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها . ويتلطخون بالغالية [1] المجلوبة من مقدشو .

ومن عادتهم أنهم اذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها أو ابنها بالمكحلة ، وبماء الورد ودهن الغالية ، فتصقل بشرته ، وتزيل الشحوب عن وجهه .

ولباسهم فوط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل . ويجعلون على ظهورهم ثيابا كالمحرمين . وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا عنها .

(1) نوع من الطيب .

واذا لقى أحدهم القاضى أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ، ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله .

ومن عاداتهم أنه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته ، بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت ، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله . وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره . فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه .

وان كانت المرأة هى التى تأتى الى منزل الرجل ، بسطت [1] داره وجعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه .

وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لابد من ثوب يرمى عند ذلك ، وسنذكره .

وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات ، لأن أرضهم ندية .

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبة فى ذلك . ويبنون فى « أسطوان » الدار بيتا يسمونه « المالم » ، يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما الى جهة « الأسطوان » يدخل منه الناس ، والآخر الى جهة الدار ، يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ، ولها مستقى من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب طوله ذراعان .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشى بها كأنه فى بستان . ومع ذلك لابد لكل داخل الى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية ، ويمسحهما بحصير غليظ من الليف هنالك ، ثم يدخل بيته . وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد .

ومن عاداتهم اذا قدم عليهم مركب أن تخرج اليه القوارب الصغار ، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التانبول وجوز النارجيل الأخضر ، فيعطى الانسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب ، ويكون نزيله ، ويحمل أمتعته الى داره كأنه بعض أقربائه .

ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج ، فاذا حان سفره طلق المرأة ، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن . ومن لم يتزوج فالمرأة التى ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه ، وتزوده اذا سافر ، وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شىء من الاحسان .

وفائدة المخزن (ويسمونه البندر) أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم ، سواء أكانت السلعة تساوى ذلك أم كانت تساوى أكثر منه . ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب ، يجمع به الوالى جميع سلعه ويبيع ويشترى .

وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست .

(1) اى بسطت فيها الثياب ونحوها . وفى التعبير تجوز .

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه ، وجوز النارجيل والفوط والعمائم ، وهى من القطن . ويحملون منها أوانى النحاس فانها عندهم كثيرة ، ويحملون الودع .

ويحملون القنبر [1] وهو ليف جوز النارجيل . وهم يدبغونه ثم تغزله النساء ، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتحمل الى الصين والهند واليمن . وهو خير من القنب .

وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن ، لأن ذلك البحر كثير الحجارة . فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر . واذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر .

وصرف أهل هذه الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه فى حفر هنالك ، فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض . ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز .

وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة . ويبيعونه من أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم .

وهذا الودع أيضا صرف السودان فى بلادهم ، رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبى .

ذكر نسائها

ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطانتهم تغطى رأسها . ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها الى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترهن من السرة الى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل الى منهن امرأة فى خصومة الا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لى عليه قدرة .

ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة . وقمصهن قصار الأكمام عراضها . وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلى ، يغطين رؤوسهن ، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن ، اذ لم يتعودنه .

وحليهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق ، وهى من الفضة ، ولا يجعل أساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه . ولهن الخلاخيل وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن .

ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها . وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرين ذلك عيبا . ويفعله أكثر بناتهم ، فتجد فى دار الانسان الغنى منهن العشرة والعشرين .

وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . واذا أرادت الخروج من دار الى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج اليها العدد الذى هى مرتهنة فيه ، فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين . وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل « القنبر » .

(1) ضبطه المؤلف بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء . ولم نجد هذا اللفظ لهذا المعنى فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق ، وحسن معاشرة النساء . وأكثر الناس لا يسمى صداقا ، وانما تقع الشهادة ، وتعطى صداق مثلها . واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فاذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا .

ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن . ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء .

ومن عاداتهن ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة .

ذكر السبب فى اسلام أهل هذه الجزائر
وذكر العفريت من الجن
الذى يضربها فى كل شهر

حدثنى الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمنى والفقيه المعلم على والقاضى عبد الله وجماعة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن ، يأتى من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل . وكانت عادتهم أنهم اذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها ، وأدخلوها « بدخانة » ، وهى بيت الأصنام ، وكان مبنيا على ضفة البحر ، وله طاق ينظر اليه منه ، ويتركونها هنالك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ... ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته .

ثم انه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرى ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن فى مأتم ، فاستفهمهن عن شأنهن ، فلم يفهمنه . فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضا عن بنتك بالليل .

وكان لا لحية له . فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه « بدخانة » وهو متوضىء ، وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة . فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر ، وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله .

فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ، ليستخرجوا « البنت » على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربى يتلو ، فمضوا به الى ملكهم ، وأعلموه بخبره ، فعجب منه .

وعرض المغربى عليه الاسلام ورغبه فيه ، فقال له : أقم عندنا الى الشهر الآخر ، فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت .

فأقام عندهم ، وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته . ثم حمل المغربى لما دخل الشهر الى « بدخانة » ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح . وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام ، وهدموا « بدخانة » . وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها .

وأقام المغربى عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، مذهب الامام مالك رضى الله عنه .

وهم الى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه . وبنى مسجدا معروفا باسمه . وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا فى الخشب : أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبى البركات البربرى المغربى .

وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، اذ كان اسلامه بسببهم .

وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام . ولما دخلناها لم يكن لى علم بشأنه ، فبينا أنا ليلة فى بعض شأنى اذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ، والنساء يضربن فى الطسوت وأوانى النحاس . فعجبت من فعلهم وقلت : ما شأنكم ؟

فقالوا : ألا تنظر الى البحر ؟

فنظرت فاذا مثل المركب الكبير ، وكأنه مملوء سرجا ومشاعل .

فقالوا : ذلك العفريت ، وعادته أن يظهر مرة فى الشهر ، فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا .

*

ذكر سلطانة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ، وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى . وكان الملك لجدها ثم لأبيها فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين وهو صغير السن ، فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى أمه وغلب عليه . وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة ، بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين ، كما سنذكره .

فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال ، أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد .

وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين هذا أمور شائنة ، فخلعوه لذلك ونفوه ، وبعثوا من قتله . ولم يكن بقى من بيت الملك الا أخواته : خديجة الكبرى ومريم وفاطمة ، فقدموا خديجة سلطانة ، وكانت متزوجة بخطيبهم جمال الدين ، فصار وزيرا وغالبا على الأمر . وقدم ولده محمدا للخطابة عوضا عنه ، ولكن الأوامر انما تنفذ باسم خديجة .

وهم يكتبون الأوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين . ولا يكتبون فى الكاغد الا المصاحف وكتب العلم . ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيره ، فيقول : اللهم انصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة [1] المسلمين ، ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين .

ومن عادتهم اذا قدم الغريب عليهم ، ومضى الى « المشور » ، وهم يسمونه الدار ، أنه يستصحب ثوبين ، فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمى بأحدهما ، ثم يخدم لوزيرها ، وهو زوجها جمال الدين ، ويرمى بالثانى .

وعسكرها نحو ألف انسان من الغرباء ، وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم الى الدار

(1) استعمال كلمة « كافة » على هذا النحو غلط ، والصواب أن يقال : وجعلتها رحمة للمسلمين كافة .

فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر فى كل شهر . فاذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا ، وقالوا للوزير : بلغ عنا الخدمة ، واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا ، فيؤمر لهم به عند ذلك .

ويأتى أيضا الى الدار كل يوم القاضى والوزراء فيخدمون ، ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون .

والوزير الأكبر هو النائب عن السلطان عندهم .

وأحكامهم كلها راجعة الى القاضى . وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين ، وأمره ممتثل كأمر السلطان وأشد . ويجلس على بساط الدار ، وله ثلاث جزائر يأخذ مجباها لنفسه ، عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة .

ولديهم الخطيب ، وصاحب الديوان ، وصاحب الأشغال ، والحاكم ، وقائد البحر ... وكل من هؤلاء يسمى وزيرا .

ولا سجن عندهم بتلك الجزائر ، انما يحبس أرباب الجرائم فى بيوت خشب معدة لأمتعة التجار . ويجعل أحدهم فى خشبة ، كما يفعل عندنا بأسرى الروم .

ذكر وصولى الى هذه الجزائر وتنقل حالى بها

ولما وصلت اليها نزلت منها بجزيرة كنلوس ، وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ، ونزلت بدار رجل من صلحائها ، وأضافنى بها الفقيه على ، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم .

ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظفار [1] الحموض ، فأضافنى وقال لى : ان دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها ، فانهم لا قاضى عندهم .

وكان غرضى أن أسافر منها الى المعبر وسرنديب وبنجالة ، ثم الى الصين . وكان قدومى عليها فى مركب « الناخداة » عمر الهنورى ، وهو من الحجاج الفضلاء .

ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ، ثم اكترى « كندرة » يسافر فيها الى المهل بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه . فقال : لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك ، فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك .

فأبيت ذلك . وسافر فلعبت به الريح ، وعاد الينا بعد أربعة أيام ، وقد لقى شدائد . فاعتذر لى ، وعزم على فى السفر معه بأصحابى ، فكنا نرحل غدوة فننزل فى وسط النهار بعض الجزائر ، ونرحل فنبيت بأخرى .

ووصلنا بعد أربعة أيام الى اقليم التيم . وكان الكردوى [2] بها يسمى هلالا . فسلم على وأضافنى ، وجاء الى ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان عودا على أكتافهما ، وعلقا منه أربع دجاجات . وجعل الآخران عودا مثله ، وعلقا منه نحو عشرة من جوز النارجيل . فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير ، فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال .

ورحلنا عنهم ، فنزلنا فى اليوم السادس بجزيرة عثمان . وهو رجل فاضل من خيار الناس ، فأكرمنا وأضافنا .

---

(1) ظفار بلد باليمن . ولم نجدها مضافة الى « الحموض » فى الكتب التى بأيدينا .
(2) الحاكم أو المحافظ ، بلسانهم .

وفى اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمذى .

وفى اليوم العاشر وصلنا الى جزيرة المهل ، حيث السلطانة وزوجها . وأرسينا بمرساها . وعادتهم ألا ينزل أحد عن المرسى الا باذنهم ، فأذنوا لنا بالنزول . وأردت التوجه الى بعض المساجد ، فمنعنى الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لابد من الدخول على الوزير .

وكنت أوصيت « الناخداة » أن يقول اذا سئل عنى : لا أعرفه ، خوفا من امساكهم اياى ، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبرى ، وأنى كنت قاضيا بدهلى .

فلما وصلنا الى الدار ، نزلنا فى سقائف على الباب الثالث منها . وجاء القاضى عيسى اليمنى فسلم على ، وسلمت على الوزير ، وجاء « الناخداة » ابراهيم بعشرة أثواب ، فخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ، ورمى بثوب آخر كذلك ، ورمى بجميعها . وسئل عنى فقال : لا أعرفه .

ثم أخرجوا التانبول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم .

وأنزلنا بدار ، وبعث الينا الطعام ، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز . وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك .

ولما كان بالغد مضيت مع « الناخداة » والقاضى عيسى اليمنى ، لزيارة زاوية فى طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلا .

وبعث الوزير الى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه . وأتوا بمائة ألف ودعة للنفقة .

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوننى فعرفوا خدام الوزير بأمرى ، فزاد اغتباطا بى ، وأرسل الى عند استهلال رمضان ، فوجدت الأمراء والوزراء وأحضر الطعام فى موائد ، يجتمع على المائدة طائفة . فأجلسنى الوزير الى جانبه ومعه القاضى عيسى والوزير الفاملدارى [1] والوزير عمر دهرد ، ومعناه مقدم العسكر . وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ . ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالأفاويه ، وهو يهضم الطعام .

وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته . فردها أبوها لداره وأعطانى دارها ، وهى من أجمل الدور . واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم [2] ، فأذن لى فى ذلك وبعث الى خمسا من الغنم ، وهى عزيزة عندهم ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير [3] ، فبعثت ذلك كله الى دار الوزير عطبخ لى بها . وبعث الفرش وأوانى النحاس . وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير .

واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لى : وأنا أحضر أيضا . فشكرته وانصرفت الى دارى ، فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة ، فجلس فى قبة خشب مرتفعة ، وكان كل من يأتى من

---

(١) مدير المالية ، بلسانهم .
(٢) قدم آدم عليه السلام ، كما سيأتى .
(٣) التوابل .

الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ، ويرمى بثوب غير مخيط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ، فأخذها الفقراء .

وقدم الطعام فأكلوا ، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان . ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعدت النار ، فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ، ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء الى أن خمدت .

ذكر بعض احسان الوزير الى

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمحزن . فقال لى الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمر لك فيه دارا لسكناك ، فشكرت فعله ودعوت له .

ولما كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير الى بعد العشاء الآخرة فى نفر من أصحابه ، فدخل الدار ومعه غلامان صغيران . فسلمت عليه ، وسألنى عن حالى فدعوت له وشكرته . فألقى أحد الغلامين بين يديه « بقشة » [1] ، أخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر ، فأعطانى ذلك . فدعوت له وشكرته . وكان أهلا للشكر ، رحمه الله .

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامى بعد ذلك

وكان الوزير سليمان قد بعث الى أن أتزوج بنته ، فبعثت الى الوزير جمال الدين مستأذنا فى ذلك . فعاد الى الرسول وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوجك بنته اذا انقضت

(1) يظهر ان هذه الكلمة ماخوذة من البقط وهو حزم المتاع . ويراد بالبقشة قطعة من النسيج تصان فيها الثياب . واللفظة غير عربية .

عدتها . فأبيت ذلك وخفت من شؤمها ، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول .

وأصابتنى فى أثناء ذلك حمى مرضت بها . ولابد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحم . فقوى عزمى على الرحلة عنها ، فبعت بعض الحلى بالودع . واكتريت مركبا أسافر فيه الى بنجالة . فلما ذهبت لوداع الوزير ، خرج الى القاضى فقال : الوزير يقول لك : ان شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر .

فقلت له : ان بعض الحلى اشتريت به الودع ، فشأنكم واياه .

فعاد الى فقال : يقول انما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع .

فقلت له : أنا أبيعه وآتيكم بالذهب .

فبعثت الى التجار ليشتروه منى ، فأمرهم الوزير ألا يفعلوا . وقصده بذلك كله ألا أسافر عنه . ثم بعث الى أحد خواصه ، فقال : أقم عندنا ، ولك كل ما أحببت .

فقلت فى نفسى : أنا تحت حكمهم ، وان لم أقم مختارا أقمت مضطرا ، فالاقامة باختيارى أولى .

فقلت لرسوله : نعم أنا أقيم معه .

فعاد اليه ففرح بذلك واستدعانى فلما دخلت اليه قام الى وعانقنى . وقال : نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا ؟

فاعتذرت له ، فقبل عذرى . وقلت له : ان أردتم مقامى فأنا أشترط عليكم شروطا .

فقال : نقبلها ، فاشترط .

فقلت له : أنا لا أستطيع المشى على قدمى .

ومن عادتهم ألا يركب أحد هنالك الا الوزير . ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته ، يتبعني الناس رجالا وصبيانا ، يعجبون مني حتى شكوت له . فضربت الدنقرة [1] ويرح [2] في الناس ألا يتبعني أحد . والدنقرة شبه الطست من النحاس ، تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد . فاذا ضربوها حينئذ « يرح » في الناس بما يراد .

فقال لي الوزير : ان أردت أن تركب « الدولة » ، والا فعندنا حصان ورمكة [3] ، فاختر أيهما شئت .

فاخترت الرمكة ، فأتوني بها في تلك الساعة ، وأتوني بكسوة . فقلت له : وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته ؟

فقال : ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة .

فقلت له : على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك .

فقال : نعم .

فبعثت حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان ، وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا ، فاتفق أن هال [4] البحر ، فرموا بكل ما عندهم ، حتى الزاد والماء والصاري والقربة ، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان [5] ولا غيرهما ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد . وقدم على صاحبي أبو محمد بعد سنة .

ذكر العيد الذي شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الي بكسوة وخرجنا الى المصلى ، وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره الى المصلى ، وفرشت الثياب فيها . وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار ، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز . ومد من شجرة الى أخرى شرائط ، وعلق منها الجوز الأخضر .

ويقف صاحب الدار عند بابها ، فاذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن ، فيأخذه عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضا . والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة ، وهو متقلد فوطة حرير ، وفوق رأسه أربعة « شطور » ، وفي رجليه النعل ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه ، والعساكر أمامه خلفه . وجميعهم يكبرون ، حتى أتوا بالمصلى ، فخطب ولده بعد الصلاة .

ثم أتي بمحفة فركبها الوزير . وخدم له الأمراء والوزراء ، ورموا بالثياب على العادة . ولم يكن ركب المحفة قبل ذلك ، لأن ذلك لا يفعله الا الملوك . ثم رفعه الرجال ، وركبت فرسي ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء . ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي .

ثم أتي بالطعام ثم الفوفل والتانبول . ثم أتي بصحفة صغيرة فيها الصندل ، فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل .

---

(١) غير عربية . والضبط لابن بطوطة .

(٢) يقصد نودي في الناس . ولم نجد هذا المعنى في الكتب التي بأيدينا .

(٣) الرمكة : الفرس تتخذ للنسل لكمال خلقها .

(٤) لعله محرف من هاج .

(٥) ذنب السفينة الذي توجه به .

ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من « السردين » مملوحا غير مطبوخ ، أهدى لهم من كولم ، وهو فى بلاد المليبار كثير . فأخذ الوزير « سردينة » وجعل يأكلها ، وقال لى : كل منه فانه ليس ببلادنا .

فقلت : كيف آكله وهو غير مطبوخ ؟

فقال : انه مطبوخ .

فقلت : أنا أعرف به فانه ببلادى كثير .

ذكر تزوجى وولايتى القضاء

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان على تزوج بنته ، فبعثت الى الوزير جمال الدين أن يكون العقد بين يديه بالقصر . فأجاب الى ذلك . وأحضر التانبول على العادة والصندل . وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان ، فاستدعى فلم يأت ، ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت .

فقال لى الوزير سرا : ان بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها ، والناس قد اجتمعوا ، فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها ، وهى التى ولده متزوج بنتها ؟

فقلت له : نعم .

فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة . ودفع الوزير الصداق .

ولما تزوجتها أكرهنى الوزير على القضاء ، وسبب ذلك اعتراضى على القاضى لكونه كان يأخذ العشر من التركات ، اذا قسمها على أربابها . فقلت له : انما لك أجرة تتفق بها مع الورثة .

ولم يكن يحسن شيئا . فلما وليت اجتهدت جهدى فى اقامة رسوم الشرع . وليست هنالك خصومات كما هى ببلادنا .

فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين . وكانت احداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره . فحسمت علة ذلك . وأتى الى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعلوا ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم .

ثم اشتددت فى اقامة الصلوات . وأمرت الرجال بالمبادرة الى الأزقة والأسواق اثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله . وكتبت الى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت أن أكسو النساء ، فلم أقدر على ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى الذى نفاه السلطان شهاب الدين الى السويد وما وقع بينى وبينه

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته ، ولما بعث اليه الوزير ورده الى جزيرة المهل ، بعثت اليه التحف ، وتلقيته ومضيت معه الى القصر ، فسلم على الوزير ، وأنزله فى دار جيدة ، فكنت أزوره بها .

واتفق أن اعتكفت فى رمضان فزارنى جميع الناس الا اياه . وزارنى الوزير جمال الدين ، فدخل هو معه بحكم الموافقة . فوقعت بيننا الوحشة .

فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى أخوال زوجتى ربيبته ، أولاد الوزير جمال الدين السنجرى : فان أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله ، وان مالهم باق بيده ، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع ، وطلبوا احضاره بمجلس الحكم .

وكانت عادتى اذا بعثت الى خصم من الخصوم أن أبعث له قطعة كاغد مكتوبة ، فعندما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعى ، والا عاقبته . فبعثت اليه على العادة فأغضبه ذلك ، وحقد على وأضمر عداوتى ، ووكل من يتكلم عنه . وبلغنى عنه كلام قبيح .

وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين . وخدمتهم أن يوصلوا السبابة الى الأرض ، ثم يقبلوها ويضعوها على رؤوسهم . فأمرت المنادى فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد ، أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير ، لزمه العقاب الشديد ، فزادت عداوته .

وتزوجت أيضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازه . ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين . وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير ، وكانت الرابعة ، وهى ربيبة الوزير عبد الله ، تسكن فى دارها وهى أحبهن الى .

فلما صاهرت من ذكرته هابنى الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا منى لأجل ضعفهم ، وسعوا بينى وبين الوزير بالنمائم . وتولى الوزير عبد الله تهويل ذلك حتى تمكنت الوحشة .

ذكر انفصالى عنهم وسبب ذلك

واتفق لى فى بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير ، وأعلمته انه عند سرية من سرارى السلطان يزنى بها . فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد فحبسوهما .

فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت الى « المشور » وجلست فى موضع جلوسى ، ولم أتكلم فى شىء من أمرها .

فخرج الى بعض الخواص فقال : يقول لك الوزير : ألك حاجة ؟

وكان قصده أن أتكلم فى شأن السرية والغلام ، اذ كانت عادتى ألا تقع قضية الا حكمت فيها ، فلما وقع التغير والوحشة قصرت فى ذلك .

فانصرفت الى دارى بعد ذلك وجلست بموضع الأحكام ، فاذا ببعض الوزراء ، فقال لى : الوزير يقول لك انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام ، فاحكم فيهما بالشرع .

فقلت : هذه قضية لا ينبغى أن يكون الحكم فيها الا بدار السلطان .

فعدت اليها واجتمع الناس ، وأحضرت السرية والغلام فأمرت بضربهما للخلوة ، وأطلقت سراح المرأة وحبست الغلام .

وانصرفت الى دارى ، فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريح الغلام ، فقلت لهم : أتشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاه ، وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له .

وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران ، وهى أشد وقعا من السياط ، وشهرته بالجزيرة وفى عنقه حبل .

فذهبوا الى الوزير فأعلموه ، فقام وقعد واستشاط غضبا ، وجمع الوزراء ووجوه العسكر وأرسل الى . فجئته .

وكانت عادتى أن أخدم له ، فلم أخدم وقلت : سلام عليكم . ثم قلت للحاضرين : اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه .

فكلمنى الوزير فصعدت وجلست بموضع أقابله فيه ، وجاوبته أغلظ جواب . وأذن المؤذن للمغرب فدخل الى داره وهو يقول : ويقولون انى سلطان ، وهاأنا ذا طلبته لأغضب عليه فغضب على !

وانما كان اعتزازى عليهم بسبب سلطان الهند ، لأنهم تحققوا مكانتى عنده ، وان كانوا على بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن .

فلما دخل الى داره بعث الى القاضى المعزول ، وكان جرىء اللسان ، فقال لى : ان مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد ولم تخدم له ؟

فقلت له : انما كنت أخدم له حين كان قلبى طيبا عليه ، فلما وقع التغير تركت ذلك . وتحية المسلمين انما هى السلام ، وقد سلمت .

فبعثه الى ثانية فقال : انما غرضك السفر عنه ، فاعط صداقات النساء وديون الناس وانصرف اذا شئت .

فخدمت له على هذا القول ، وذهبت الى دارى فخلصت مما على من الدين ، وكان قد أعطانى فى تلك الأيام فرش دار وجهازها من أوانى نحاس وسواها ، وكان يعطينى كل ما أطلبه ويحبنى ويكرمنى ، ولكنه غير خاطره وخوف منى . فلما عرف أنى قد خلصت الدين وعزمت على السفر ، ندم على ما فاته وتلكأ فى الاذن لى فى السفر .

فحلفت بالأيمان المغلظة أن لابد من سفرى ، ونقلت ما عندى الى مسجد على البحر ، وطلقت احدى الزوجات ، وكانت احداهن حاملا فجعلت لها أجلا تسعة أشهر ان عدت فيها ، والا فأمرها بيدها . وحملت معى زوجتى التى كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك ، وزوجتى الأولى التى بنتها أخت السلطانة . وتوافقت مع الوزير عمر دهرد ، والوزير حسن قائد البحر ، على أن أمضى الى بلاد المعبر — وكان ملكها سلفى — فآتى بالعساكر لترجع الجزائر الى حكمه وأنوب أنا عنه فيها . وجعلت بينى وبينهم علامة رفع أعلام بيض فى المراكب ، فاذا رأوها ثاروا فى البر .

ولم أكن حدثت نفسى بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير ، وكان الوزير خائفا منى يقول للناس : لابد لهذا أن يأخذ الوزارة اما فى حياتى أو بعد مماتى . ويكثر السؤال عن حالى ويقول : سمعت أن ملك الهند بعث اليه الأموال ليثور بها على . وكان يخاف من من سفرى لئلا آتى بالجيوش من بلاد المعبر ، فبعث الى أن أقيم حتى يجهز لى مركبا ، فأبيت . وشكت أخت السلطانة اليها بسفر أمها معى ، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك . فلما رأت عزمها على السفر قالت لها : ان جميع ما عندك من الحلى هو من مال البندر ، فان كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه

لك ، والا فرده . وكان حليا له خطر فردته اليهم .

وأتاني الوزير والوجوه وأنا بالمسجد ، وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم : لولا أني حلفت لعدت .

فقالوا : تذهب الى بعض الجزائر ليبر قسمك وتعود .

فقلت لهم : نعم ، أرضاه لهم .

فلما كانت الليلة التي سافرت فيها ، أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي ، وبات تلك الليلة يحرس الجزيرة بنفسه خوفا أن يثور عليه أصهاري وأصحابي . ثم سافرت ووصلت الى جزيرة الوزير على ، فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة وأحبت الرجوع ، فطلقتها وتركتها هنالك ، وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل ، وأرسلت الى جارية كنت أحبها وسرنا في تلك الجزائر من اقليم الى اقليم .

ذكر النساء ذوات الثدي الواحد

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ، ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدي واحد ، والأخرى ذات ثديين ، الا أن أحدهما كبير فيه اللبن ، والآخر صغير لا لبن فيه . فعجبت من شأنهن .

ووصلنا الى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة، ليس بها الا دار واحدة ، فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونخيلات نارجيل ، وقارب صغير يصطاد فيه السمك ، ويسير به الى حيث أراد من الجزائر . وفي الجزيرة أيضا شجيرات موز. ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين ، خرجا الينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا . فغبطت والله ذلك الرجل ، ووددت لو كانت تلك الجزيرة لي ، فانقطعت فيها الى أن يأتيني اليقين .

ثم وصلت الى جزيرة ملوك ، حيث المركب الذي للناخداة ابراهيم ، وهو الذي عزمت على السفر فيه الى المعبر . فجاء الي ومعه أصحابه وأضافوني ضيافة حسنة .

وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما . وهي من أحسن الجزائر خضرة نضرة . رأيت من عجائبها أن الغصن يقتطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط ، فيورق ويصير شجرة . ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر طول السنة .

وخاف أهل الجزيرة « الناخداة » ابراهيم أن ينهبهم عند سفره ، فأرادوا امساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره . فوقعت المشاجرة بسبب ذلك . وعدنا الى المهل ولم ندخلها

وعدنا الى ملوك ، وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين . وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله .

وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف ، ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام ، فسرنا نحو تسعة أيام .

وفي التاسع منها خرجنا الى جزيرة سيلان ، ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا في السماء ، كأنه عمود دخان .

ولما وصلناها قال البحرية : ان هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار الى

ببلاده آمنين . وانما هذا مرسى لعتاة المفسدين ، ولهم مراكب تقطع في البحر .

فخفنا أن تنزل بمرساة . ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت « للناخداة » : أنزلني الى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من السلطان . ففعل ذلك ، وأنزلني بالساحل ، فأتانا الكفار فقالوا : ما أنتم ؟

فأخبرتهم بأني سلف [1] سلطان المعبر وصاحبه ، وقد جئت لزيارته ، وأن الذي في المركب هدية له .

فذهبوا الى سلطانهم فأعلموه بذلك ، فاستدعاني فذهبت له الى مدينة « بطالة » ، وهي حضرته ، مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب . وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة ، تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي . ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن ، الا أنهم يهدون السلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه . وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة وبها أيضا من خشب البقم كثير ، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي .

ذكر سلطان سيلان

واسمه شكروتي ، وهو سلطان قوى في البحر . رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار ، وصلت الى هنالك ، وكان بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان للسفر الى اليمن . فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية « أجفانه » . فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : انما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا الى اليمن .

(1) السلف من الرجل زوج أخت امرأته .

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر ، قام الى وأجلسني الى جانبه ، وكلمني بأحسن كلام . وقال : ينزل أصحابك على الأمان ، ويكونون في ضيافتي الى أن يسافروا ، فان سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة . ثم أمر بانزالي . فأقمت عنده ثلاثة أيام في اكرام عظيم متزايد في كل يوم .

وكان يفهم اللسان الفارسي ، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد . ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة ، أتى بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده ، وأصحابه يميزون منها النفيس من غيره ، فقال لي : هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها ؟

فقلت له : نعم رأيته بجزيرة قيس .

ثم أخذ حبات منه فقال : أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه ؟

فقلت له : رأيت ما هو دونها .

فأعجبه ذلك ، وقال : هي لك .

وقال لي : لا تستحي ، واطلب منى ما شئت .

فقلت له : ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة ، الا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام . وهم يسمونه « بابا » ، ويسمون حواء « ماما » .

فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك .

فقلت : ذلك أريد .

ثم قلت له : وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا الى المعبر ، واذا عدت أنا بعثتني في مراكبك ؟

فقال : نعم .

فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب ، قال لى : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك .

فأخبرت السلطان بذلك ، فقال : يقيم فى ضيافتى حتى تعود .

فأعطانى « دولة » يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام لزيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد . وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير .

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى « معدية » مصنوعة من قصب الخيزران . ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلى ، مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان . أضافنا أهلها ضيافة حسنة . وضيافتهم عجول الجواميس ، يصطادونها بغابة هنالك ، ويأتون بها أحياء . ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن . ولم أر فى المدينة مسلما غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا .

ورحلنا الى « بندر سلاوات » ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها فى أوعار كثيرة المياه . وبها الفيلة الكثيرة ، الا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء .

ثم وصلنا بعد ذلك الى مدينة كنكار ، وهى حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد . وبناؤها فى خندق بين جبلين على خور كبير ، يسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به .

وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى . وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه ، وقد كان الدليل الى القدم . فلما قطعت يده ورجله صار الأدلاء أولاده وغلمانه . وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل فى جلدها وأحرق . وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله . وأعطوه مجبى بعض الأسواق .

ذكر سلطانها

وهو يعرف بالكنار . وعنده الفيل الأبيض ، ولم أر فى الدنيا فيلا أبيض سواه ، يركبه فى الأعياد ، ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة . واتفق له أن قام عليه أهل دولته وسملوا عينيه ، وولوا ولده ، وهو هنالك أعمى .

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البهرمان [1] انما يكون بهذه البلدة . فمنه ما يخرج من الخور ، وهو عزيز عندهم ، ومنه ما يحفر عنه . وجزيرة سيلان يوجد الياقوت فى جميع مواضعها .

وهى متملكة ، فيشترى الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت ، فيجد أحجارا بيضاء مشعبة ، وهى التى يتكون الياقوت فى أجوافها ، فيعطيها الحكاكين فيحكونها ، حتى تنفلق عن أحجار الياقوت . فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق .

وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت مائة « فنم » فهو للسلطان ، يعطى ثمنه ويأخذه . وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه . وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب .

---

(1) البهرمان العصفر . ولعله سمى بذلك لشبهه به فى اللون .

وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ، يجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا عن الأسورة والخلاخيل . وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن .

ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاج . ورأيت عند السلطان شكروتي سكرجة [1] على مقدار الكف من الياقوت ، فيها دهن العود . فجعلت أعجب منها ، فقال : ان عندنا ما هو أضخم من ذلك .

ثم سافرنا من كنكار ، فنزلنا بمغارة تعرف باسم آسطا محمود اللوري ، وكان من الصالحين ، واحتفر تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك . ثم رحلنا عنها ، ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنة ، وبوزنة هي القرود .

ذكر القرود

والقرود بتلك البلاد كثيرة جدا . وهي سود الألوان ، لها أذناب طوال . ولذكورها لحى كما هي للآدميين .

وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان ، يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصي بأيديها .

واذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه ، وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم . وتأتي القرود فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها . ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة .

وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدمها ، وهي تضرب بعض القرود بالعصي ، ثم تنتف وبره بعد ضربه .

ثم كان رحيلنا الى خور الخيزران ثم رحلنا الى موضع يعرف ببيت العجوز ، وهو آخر العمارة . ثم رحلنا الى مغارة بابا طاهر ، وكان من الصالحين . ثم رحلنا الى مغارة السبيك . وكان السبيك من سلاطين الكفار ، وانقطع للعبادة هنالك .

ذكر العلق الطيار

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار . ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء . فاذا قرب الانسان منه وثب عليه ، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير .

والناس يعدون له الليمون ، يعصرونه عليه فيسقط عنهم . ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معد لذلك .

ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق ، فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون ، فنزف دمه ومات .

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع . ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله . وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف .

(1) الصحفة تكفي الرجل .

وفى الجبل طريقان الى القدم أحدهما يعرف بطريق «بابا» والآخر بطريق «ماما» ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام .

فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى .

وفى أسفل الجبل مغارة تنسب للاسكندر ، وعين ماء .

ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها السلاسل ، ليتمسك بها من يصعده .

وهى عشر سلاسل ، ثنتان فى أسفل الجبل حيث الدروازة ، وسبع متواليات بعدها ، والعاشرة هى سلسلة الشهادة ، لأن الانسان اذا وصل اليها ونظر الى أسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط . ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا .

ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر [1] سبعة أميال . وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه أيضا ، ملأى بالحيتان ، ولا يصطادها أحد . وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبتى الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين الى أعلى الجبل حيث القدم .

ذكر القدم

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا . وطولها أحد عشر شبرا . وأتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون ، يقصدونه من أقصى البلاد .

وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر . ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل .

والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام ، يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا ، وكذلك فعلنا . ولما تمت الأيام الثلاثة ، عدنا على طريق « ماما » فنزلنا بمغارة « شيم » ، وهو شيث بن آدم عليهما السلام . ثم ذهبنا الى خور السمك ، ثم الى قرية كرملة .

وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت . وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار ، وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة ، فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود . ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن . والمدينة ومجابيها وقف على الصنم . وكل من بالكنيسة ومن يردها يأكلون من ذلك .

والصنم من ذهب على قدر الآدمى ، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين .

---

(١) الخضر (ككبد ، بفتح الكاف وكسر الباء ، وكبد ، بكسر الكاف وسكون الباء) : ابو العباس النبى عليه السلام ... « القاموس المحيط » .

ثم رحلنا الى مدينة قالى . وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور . وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخداة ابراهيم ، أضافنا بموضعه

ورحلنا الى مدينة كلنبو [1] وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها ، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستى ، ومعه نحو خمسمائة من الحبشان .

ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى بطالة ، وقد تقدم ذكرها . ودخلنا على سلطانها الذى تقدم ذكره ، ووجدت الناخداة ابراهيم فى انتظارى ، فسافرنا بقصد بلاد المعبر .

وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب ، ولم يكن لنا رئيس عارف . ثم وصلنا الى حجارة كاد المركب ينكسر فيها . ثم دخلنا بحرا قصيرا فيجلس المركب [2] ورأينا الموت عيانا ، ورمى الناس بما معهم ، وقطعنا صارى المركب فرمينا به . وصنع البحرية « معدية » من الخشب .

وكان بيننا وبين البر فرسخان . فأردت أن أنزل فى « المعدية » . وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى ، فقالا : أتنزل وتتركنا ؟ فآثرتهما على نفسى . وقلت : انزلا أنتما والجارية .

فنزل رفيقاى ، وأحدهما محمد بن فرحان التوزرى ، والآخر رجل مصرى ، وجارية معهما ، والأخرى تسبح . وربط البحرية فى « المعدية » حبالا وسبحوا بها . وجعلت معهم ما عز على من المتاع والجواهر والعنبر . فوصلوا الى البر سالمين ، لأن الريح كانت تساعدهم .

(١) هى مدينة كلمبو .
(٢) فيجلس المركب اى يستقر على الارض ، وهو تعبير غريب . وقد آثرنا أن نتركه كما هو .

وأقمت بالمركب ، ونزل صاحبه الى البر . وشرع البحرية فى عمل أربع من « المعادى » فجاء الليل قبل تمامها ، ودخل معنا الماء . فصعدت الى المؤخر ، وأقمت به حتى الصباح .

وحينئذ جاء الينا نفر من الكفار فى قارب لهم ، ونزلنا معهم الى الساحل ببلاد المعبر ، فأعلمناهم أنّا من أصحاب سلطانهم . وهم تحت دمته . فكتبوا اليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغزو ، وكتبت أنا اليه أعلمه بما اتفق لى .

وأدخلنا أولئك الكفار الى غيضة عظيمة ، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ بثمرها شجر المقل [1] . وفى داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ، ويصنعون منها حلواء تشبه السكر ، وأتوا بسمك طيب .

وأقمنا ثلاثة أيام ، ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين ، معه جماعة فرسان ورجال ، وجاءوا « بالدولة » وبعشرة أفراس . فركبت وركب أصحابى وصاحب المركب واحدى الجاريتين ، وحملت الأخرى فى « الدولة » .

ووصلنا الى حصن هركاتو وبتنا به . وتركت فيه الجاريتين وبعض الغلمان والأصحاب ، ووصلنا فى اليوم التالى محلة السلطان .

ذكر سلطان بلاد المعبر

هو غياث الدين الدامغانى [2] . وكان فى أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبى

(١) المقل صمغ شجرة كما فى « القاموس » .
(٢) نسبة الى دامغان ، بلد كبير بين الرى ونيسابور « وهو قصبة قومس .... « ياقوت » »

الرجا ، أحد خدام السلطان محمد . ثم خدم الأمير حاجى ابن السيد السلطان جلال الدين ، ثم ولى الملك . وكان يدعى سراج الدين قبله ، فلما ولى تسمى غياث الدين .

وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى . ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وملك بها خمسة أعوام . ثم قتل وولى أحد أمرائه وهــو علاء الدين أديجى ، فملك سنة . ثم خرج الى غزو الكفار فأخذ منهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة ، وعاد الى بلاده . وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفــر [1] عن رأسه ليشرب ، فأصابه سهم فمات من حينه . فولوا صــهره قطب الدين . ثم لم يحمــدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما . وولى بعــده السلطان غياث الدين ، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين ، التى كنت متزوجا أختها بدهلى .

ذكر وصولى الى السلطان غيــاث الدين

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا ، وكان قاعدا فى برج خشب . وعادتهم بالهنــد كلهــا ألا يدخل أحد عــلى السلطان دون خف . ولم يكن عندى خف ، فأعطانى بعض الكفار خفا .

ودخلت عــلى السلطان فأمرنى بالجلوس . ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين ، وأنزلنى فى جــواره فى ثلاثة أخبيــة ، وهــم يسمونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم ، وهو الأرز واللحم .

وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا .

ثم اجتمعت به بعــد ذلك ، وألقيت [1] اليه أمر جزائر ذيبــة المهــل ، وأن يبعث الجيش اليها . فأخذ فى ذلك بالعزم ، وعين المراكب لذلك ، وعين الهدية لسلطانها ، والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم . وأمر بإيســاق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر . وقال لى : يكون رجوعك بعد خمسة أيام .

فقال له قائد البحر خواجه سرلك : لا يمكن الســفر الى الجزائر الا بعــد ثلاثة أشهر من الآن .

فقال لى السلطان : أما اذا كان الأمر هكذا فامض الى فتن ، حتى نقضي هذه الحركة [2] . ونعــود الى حضرتنــا مترة ، ومنهــا تكون الحركة [3] . فأقمت معه بخلال [4] ما بعثت الى الجاريتين والأصحاب .

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التى نسلكها غيضــة واحدة من الأشــجار والقصب ، بحيث لا يسلكهــا أحد . فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قدوم لقطــع ذلك . فاذا نزلت المحلة ، ركب الى الغــابة

---

(١) حلق يتقنع بها المتسلح .

(١) أى أخبرته بما عليــه كثير من أهلهــا من الفقــر والحاجة .

(٢) أى حركة الغزو المسطورة فيما يلى .

(٣) أى سفر الجيش بالهدايا والصدقات الى جــزائر ذيبة المهل ، وفى العبارة من اول قوله : « وألقيت » شىء من الابهام والاضطراب .

(٤) يقصد ريثما بعثت ، وهو تعبير غريب .

والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار الى الزوال . ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس ، طائفة بعد أخرى . ثم يعودون الى قطع الأشجار الى العشى .

وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه ، وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه ، يحملها ومعه امرأته وأولاده ، ويؤتى بهم الى المحلة .

وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر الأكبر ، مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ، ويوقدون عليها النار بالليل . ويبيت عندها العبيد والمشاءون ، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب .

فاذا أتى الكفار ليضربوا على المحلة ليلا ، أوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده ، فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء ، وخرجت الفرسان فى اتباع الكفار . فاذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام ، وأتى الى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم ، فركزت الخشب التى كانوا يحملونها بالأمس ، ثم ركزوا فيها حتى تنفذ فيهم . ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشبات ، ويذبح الأولاد الصغار فى حجورهن ، ويتركون هنالك . ثم يشتغلون بقطع غيضة أخرى ، ويصنعون بمن أسروه كذلك . وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك .

ولقد رأيته يوما والقاضى عن يمينه وأنا عن شماله ، وهو يأكل معنا ، وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع ، فأشار الى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه . ثم قال لهم : وابنه وزوجته .

فقطعت رقابهم . وصرفت بصرى عنهم . فلما قمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض .

وحضرت عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار ، فتكلم بما لم أفهمه ، فاذا بجماعة من الزبانية [1] قد استلوا سكاكينهم . فبادرت الى القيام ، فقال لى : الى أين ؟

فقلت : أصلى العصر . ففهم عنى وضحك ، وأمر بقطع يديه ورجليه . فلما عدت وجدته متشحطا [2] فى دمائه .

ذكر هزيمته للكفار
وهى من أعظم فتوحات الاسلام

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو ، وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيد عسكره على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوى الجنايات ، والعبيد الفارين ، فطمع فى الاستيلاء على بلاد المعبر .

وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد ، والنصف الثانى لا خير فيهم ولا غناء عندهم . فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ، وحاصرها عشرة شهور ، ولم يبق لهم من الطعام الا قوت أربعة عشر يوما .

فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ويتركوا له البلد . فقالوا له : لابد من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم الى اتمام أربعة عشر يوما . فكتبوا الى السلطان غياث الدين

(1) الزبنية متمرد الجن والانس ، والشديد ، والشرطى ، وجمعه زبانية ... « القاموس » .
(2) مضطربا .

بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا لله ، فان الكافر ان أخذ تلك المدينة انتقل الى حصارنا ، فالموت تحت السيوف أولى بنا .

فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤوسهم ، وجعلوها فى أعناق الخيل ، وهى علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوى النجدة والأبطال منهم فى المقدمة — وكانوا ثلاثمائة — وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور ، وكان فقيها ورعا شجاعا ، وعلى الميسرة الملك محمدا السلحدار.

وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة [1] لهم ، وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسى . وقصدوا محلة الكافر عند القائلة ، وأهلها على غرة وخيلهم فى المرعى ، فأغاروا عليها . وظن الكفار أنهم سراق ، فخرجوا اليهم على غير تعبئة وقاتلوهم ، فانهزم الكفار شر هزيمة .

وأراد سلطانهم أن يركب ، وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ، ابن أخى السلطان الذى ولى الملك بعده ، فأراد قتله ولم يعرفه . فقال له أحد غلمانه : هو السلطان . فأسره وحمله الى عمه ، فأكرمه فى الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة والخيل ، وكان يعده السراح . فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن . فعلق على سور مترة ، ورأيته بها معلقا .

ولنعد الى كلامنا فنقول : ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينة فتن ، وهى كبيرة حسنة على الساحل . ومرساها عجيب ، قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة ، قائمة على الخشب الضخام ، يصعد اليها على طريق خشب مسقوف . فاذا جاء العدو ضموا اليها « الأجفان » التى تكون بالمرسى ، وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة .

وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة . وبها العنب الكثير والرمان الطيب .

ولقيت بها الشيخ الصالح محمدا النيسابورى . أحد الفقراء المتولهين [1] الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم ، ومعه سبع رباه ، يأكل مع الفقراء ويقعد معهم . وكان معه نحو ثلاثين فقيرا ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد فى موضع واحد فلا يعرض لها .

ثم وصل السلطان الى مدينة فتن ، فخرجت للقائه . ولما استقر بها أرسل الى قائد البحر خواجه سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر .

وأقام بفتن نصف شهر ، ثم رحل الى حضرته مترة . وأقمت بعده نصف شهر .

ثم رحلت الى مدينة مترة ، مدينة كبيرة متسعة الشوارع . وأول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وجعلها شبيهة بدهلى وأحسن بناءها .

ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا . فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه أو ثالثه ، وان أبطأ موته فالى الرابع . فكنت اذا خرجت لا أرى الا مريضا أو ميتا ، واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت فى يوم آخر .

(1) ساقة الجيش مؤخرة .

(1) المتولهون : الذاهبو العقل .

ولقد جاءت الى فى بعض الأيام امرأة ، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام ، نبيل كيس فطن . فشكت ضعف حالها فأعطيتها نفقة ، وهما صحيحان سويان . فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها هذا كفنا ، واذا به قد توفى من حينه .

وكنت أرى «بمشور» السلطان حين مات ، المئين من الخادمات اللاتى أتى بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس .

ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى ، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام ، ثم خرج الى نهر على فرسخ منها ، كانت عليه كنيسة للكفار .

وخرجت اليه فى يوم خميس ، فأمر بانزالى الى جانب القاضى . فلما ضربت لى الأخبية ، رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم فى بعض ، فمن قائل ان السلطان مات ، ومن قائل ان ولده هو الميت . ثم تحقق ذلك ، فكان الولد هو الميت . ولم يكن له سواه ، فكان موته مما زاد فى مرضه . وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان .

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين . وشعرت بذلك فبادرت الى الدخول الى المدينة خوف الفتنة . ولقيت ناصر الدين ابن أخيه ، الوالى بعده ، خارجا الى المحلة ، وقد وجه [1] عنه ، اذ ليس للسلطان ولد . فطلب الى الرجوع معه فأبيت ، وأثر ذلك فى قلبه .

وكان ناصر الدين هذا خادما بدهلى قبل أن يملك عمه . فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء اليه ، فكان من القدر ملكه بعده .

ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء . وأول من قام منشدا القاضى صدر الزمان ، فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ، ثم الوزير المسمى بالقاضى ، فأعطاه ألفى دينار دراهم ، وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخلعة . وبث الصدقات فى الفقراء والمساكين .

ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه ، نثرت عليه الدنانير والدراهم فى صحاف الذهب والفضة . وعمل عزاء السلطان غياث الدين ، فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ، ثم يقرأ العشارون [2] ، ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ، ثم يعطون الدراهم ، كل انسان على قدره . وأقاموا على ذلك أربعين يوما . ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة .

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطالبه بالأموال . وولى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه الى وأنا بفتن ليتلقانى ، فتوفى سريعا . فولى الوزارة خواجة سرور قائد البحر . وأمر أن يخاطب بخواجه جهان كما يخاطب الوزير بدهلى . ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة .

ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ، وتزوجها

(١) يريد طلب للحضور الى المعسكر ، والتعبير فيه معهود .
(٢) يريد بالعشارين من يقراون القرآن ، والتعبير فيه عربى .

بعده . وبلغه أن الملك مسعودا زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا ، وقتل الملك بهادور ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء .

وأمر لي بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر .

ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها الناضية . وألهمني الله استعمال التمر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته . وعافاني الله من مرضي . فكرهت تلك المدينة وطلبت الاذن في السفر ، فقال لي السلطان : كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر الى الجزائر غير شهر واحد ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم . فأبيت . وكتب لي الى فتن لأسافر في أي مركب أردت .

وعدت الى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن . فسافرت في احداها . ولقينا أربعة « أجفان » فقاتلتنا يسيرا ، ثم انصرفت .

ووصلنا الى كولم وكان في بقية مرض ، فأقمت بها ثلاثة أشهر . ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري . فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور .

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا الى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور ، خرج علينا الكفار في اثنى عشر مركبا حربيا ، وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا . فأخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابي والزوادات[1] التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء . ولم يتركوا لي ساترا خلا السراويل . وأخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل .

فرجعت الى قالقوط ، فدخلت بعض المساجد ، فبعث الى أحد الفقهاء بثوب ، وبعث القاضي بعمامة ، وبعث بعض التجار بثوب آخر . وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل . ونزلت منها بكنلوس ، فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي ، وأضافني وجهز لي « كندرة » .

ووصلت بعد ذلك الى هللي ، وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة واخوتها اليها للتفرج والسياحة ، ويلعبون في المراكب ، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها ووجدت بها أخت السلطانة ، وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين ، وأمها التي كانت زوجتي . فجاء الخطيب الي وأتوا بالطعام .

ومر بعض أهل الجزيرة على الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي ، فسأل عن حالي وعمن قدم معي . وأخبر أني جئت لحمل ولدي ، وكانت سنه نحو عامين ، وأتته أمه تشكو ذلك فقال لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده .

وصادرني في دخول الجزيرة ، وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليطلع على حالي . وبعث الي بكسوة كاملة ، وبالتانبول وماء الورد على عادتهم . وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير الى

---

(1) جمع زوادة ، وهي ما يحمله المسافر من الزاد أو غيره . ولم نر هذا في كتب اللغة .

ذلك اليوم . وأتى الى بولدى فظهر لى أن اقامته معهم خير له ، فرددته اليهم

وأقمت خمسة أيام ، وظهر لى أن تعجيل السفر أولى . فطلبت الاذن فى دلك . فاستدعانى الوزير ودحلت عليه ، وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما منى ، فرميتهما عند السلام على العادة . وأجلسنى الى جانبه وسألنى عن حالى ، وأكلت معه الطعام ، وغسلت يدى معه فى الطست . وذلك شيء لا يفعله مع أحد . وأتوا بالتانبول وانصرفت . وبعث الى بأثواب ، وأحسن أفعاله وأجمل .

وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة . ثم وصلنا الى بلاد بنجالة ، وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز . ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارا منها ، لكنها مظلمة . رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضى ، والدينار الفضى هو ثمانية دراهم ، والرطل الدهلى عشرون رطلا مغربيا

وسمعتهم يقولون ان ذلك غلاء عندهم .

وحدثنى محمد المصمودى المغربى ، وكان من الصالحين ، وسكن هذا البلد قديما ، ومات عندى بدهلى ، أنه كانت له زوجة وخادم ، فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشترى الأرز فى قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فاذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية ، وهى عشرة قناطير .

ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة ، وبقرهم الجواميس

ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد . وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم .

ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين . ورطل السكر بأربعة دراهم ، وهو رطل دهلى ، ورطل السمن عندهم بأربعة دراهم .

ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين .

ورأيت الجارية تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى . واشتريت بنحو هذه القيمة جارية . واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ ، بدينارين من الذهب .

وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان . وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم . ويجتمع بها نهر الكنك الذى يحج اليه الهنود ، ونهر الجون ، ويصبان فى البحر . ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتى .

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين ، سلطان فاضل محب للغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ، وهو الذى ولى ولده معز الدين الملك بدهلى ، فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر ، وسمى لقاؤهما لقاء السعدين .

وقد ذكرنا ذلك ، وأنه ترك الملك لولده وعاد الى بنجالة ، فأقام بها الى أن توفى ، وولى ابنه شمس الدين الى أن توفى ، فولى ابنه شهاب الدين الى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور ، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره ، وأخذ

بهادور بور أسيرا . ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه فقاتله حتى قتله ، وولى على هذه البلاد صهرا له ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها على شاه وهو اذ ذاك ببلاد اللكنوتي .

فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم ، خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة ، واستقل بالملك . واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه . فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه ، واذا عادت الأيام التي لا مطر فيها ، أغار على شاه على بنجالة في البر لقوته فيه .

حكاية

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين ، الى أن جعل أحدهم نائبا عنه في الملك بسدكاوان ، وكان يسمى شيدا . وخرج الى قتال عدو له ، فخالف عليه شيدا ، وأراد الاستبداد بالملك ، وقتل ولد السلطان فخر الدين ، ولم يكن له ولد غيره .

فعلم بذلك فكر عائدا الى حضرته ، ففر شيدا ومن اتبعه الى مدينة سنركوان وهي منيعة . فبعث السلطان بالعساكر الى حصاره ، فخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شيدا وبعثوه الى عسكر السلطان ، فكتبوا اليه بأمره . فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ، وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء .

ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته ، لأنه مخالف على ملك الهند ، فخفت عاقبة ذلك . وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو ، وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر . وهي جبال متسعة متصلة بالصين ، وتتصل أيضا ببلاد التبت ، حيث غزلان المسك .

وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، ولهم قوة على الخدمة . والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم . وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به .

وكان قصدي بالمسير الى هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي .

ذكر الشيخ جلال الدين

وهذا الشيخ من كبار الأولياء ، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة ، وهو من المعمرين . أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد ، وكان بها حين قتله .

وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين ، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم [1] ولا يفطر الا بعد مواصلة عشر . وكانت له بقرة يفطر على حليبها ، ويقوم الليل كله .

وكان نحيف الجسم طوالا ، خفيف العارضين . وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم : اني أسافر عنكم غدا ان شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا اله الا هو . فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة

(1) يواصله ؟

منها ، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا ، عليه الكفن والحنوط . فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه به . رحمه الله .

كرامة له أيضا

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ . ولم يكن عنده علم بشيء من أمري ، وانما كوشف به [1] .

وسرت معهم الى الشيخ ، فوصلت الى زاويته خارج الغار ، ولا عمارة عندها .

وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر ، كما قدمناه .

ولما دخلت عليه قام الى وعانقني ، وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته .

فقال لي : أنت مسافر العرب ؟

فقال له من حضر من أصحابه : والعجم ياسيدنا .

فقال : والعجم ، فأكرموه .

فاحتملوني الى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولي على الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتني ، وقلت في نفسي : ليت

(1) اطلعه الله عليه .

الشيخ يعطينيها . فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار ، وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية [1] من رأسه ، ولبس مرقعة . فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وانما لبسها عند قدومي ، وأنه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصاغرجي ، وهي له وبرسمه كانت .

فلما أخبرني الفقراء بذلك ، قلت لهم : قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه .

وانصرفت عن الشيخ . فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين ، وانتهيت الى مدينة الخنسا ، فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام ، وكانت الفرجية علي . فبينا أنا في بعض الطريق اذ بالوزير في موكب عظيم ، فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه .

فأردت الانفصال ، فمنعني وأدخلني على السلطان ، فسألني عن سلاطين الاسلام فأجبته . ونظر الى الفرجية فاستحسنها . فقال لي الوزير : جردها ، فلم يمكني خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهزا ونفقة .

وتغير خاطري لذلك . ثم تذكرت قول الشيخ : انه يأخذها سلطان كافر ، فطال عجبي من ذلك .

ولما كان في السنة الأخرى ، دخلت دار ملك الصين بخان بالق [2] فقصدت زاوية الشيخ

(1) يراد بها نوع من القلانس ، وهي غير عربية بهذا المعنى .
(2) بكين .

برهان الدين الصاغرجي ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي .

فقال لي : لم تقلبها وأنت تعرفها ؟

فقلت له : نعم ، هي التي أخذها مني سلطان الخنسا .

فقال لي : هذه الفرجية صنعها آخي جلال الدين برسمي ، وكتب الى أن الفرجية تصلك على يد فلان . ثم أخرج لي الكتاب فقرأته ، وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية . فقال لي : أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله ، وقد انتقل الى رحمة الله .

ثم قال لي : بلغني أنه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة ، وأنه يحج كل عام ، لأنه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد ، فلا يعرف أين ذهب .

ولما ودعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حبنق ، وهي من أكبر المدن وأحسنها ، يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو ، ويسمى النهر الأزرق . ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتي . وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة ، كما هي على نيل مصر . وأهلها كفار تحت الذمة . يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ، ووظائف [1] سوى ذلك .

وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين ، فكأنما نمشي في سوق من الأسواق . وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة ، وفي كل مركب منها طبل . فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله ، وسلّم بعضهم على بعض . وأمر السلطان فخر الدين أن يعطى من لا زاد له زادا . واذا وصل الفقير الى مدينة أعطى نصف دينار .

وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه ، وصلنا الى مدينة سنركاوان ، فوجدنا بها « جنكا » يريد السفر الى بلاد الجاوة — وبينهما أربعون يوما — فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب .

وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين الهنود ولا الى غيره . وسكناهم في بيوت قصب ، مسقوفة بحشيش الأرض على شاطىء البحر . وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتانبول كثير .

ورجالهم على مثل صورتنا الا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع . ورجالهم لا يستترون ، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر .

ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ، ساكنون في حارة على حدة . وانما يبايعون الناس ويشاورونهم على الساحل ، ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل .

والفيلة كثيرة عندهم . ولهم كلام غريب لا يفقهه الا من ساكنهم وأكثر التردد اليهم . ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا في قوارب صغار ، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة . وجاءوا بالموز والأرز والتانبول والفوفل والسمك .

(1) مكوس »

ذكر سلطانهم

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود . ولباس السلطان ثوب من جلود المعز ، وقد جعل الوبر الى خارج . وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات . وفى يده حربة من القصب . ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا اليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحيتان التى تكون بجزائر ذيبة المهل ، وأثوابا بنجالية . وهم لا يلبسونها ، وانما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم .

ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك ، وثياب لكسوة الفيل ، وحلى ذهب تجعله زوجته فى محزمها وأصابع رجليها . ومن لم يعط هذه الوظيفة ، صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك .

ثم سافرنا عن هؤلاء . وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا الى جزيرة الجاوة ، وهى التى ينسب اليها اللبان الجاوى . رأيناها على مسيرة نصف يوم . وهى خضرة نضرة . وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندى والنارنج الحلو [1] وقصب الكافور والعنبة . وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير ، وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك .

والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار انما هو منها . وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك . ولما وصلنا المرسى خرج الينا أهلها فى مراكب صغار ، ومعهم جوز النارجيل والموز والسمك . وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار ، فيكافئهم كل انسان على قدره .

وصعد الينا نائب صاحب البحر ، وشاهد من معنا من التجار ، وأذن لنا فى النزول الى البر . فنزلنا الى البندر ، وهى قرية كبيرة على ساحل البحر ، وبينها وبين البلد أربعة أميال . ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر الى السلطان فعرفه بقدومى ، فأمر الأمير دولسة بنقائى ، والقاضى الشريف أمير سيد الشيرازى وتاج الدين الأصبهانى ، وسواهم من الفقهاء . فخرجوا لذلك ، وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه . فركبت وركب أصحابى ودخلنا حضرة السلطان ، وهى مدينة سمطرة ، مدينة حسنة كبيرة ، عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر ، من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعى المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير الجهاد والغزو متواضع ، يأتى الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه . وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد ، يخرجون معه طوعا . وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخولنا داره واحسانه الينا

ولما قصدنا الى دار السلطان وجدنا بالقرب منها رماحا مركوزة على جانبى الطريق ، وهى علامة على نزول الناس ، فلا يتجاوزها من كان راكبا . فنزلنا عندها ودخلنا « المشور » ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمى عمدة

(1) البرتقال .

الملك ، فقام الينا وسلم علينا — وسلامهم بالمصافحة — وقعدنا معه .

وكتب بطاقة الى السلطان يعلمه بذلك ، وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فأتاه الجواب على ظهرها .

ثم جاء رجل « ببقشة » فأخذها النائب بيده ، وأخذ بيدى وأدخلنى الى دويرة ، وهى موضع راحته بالنهار ، فان العادة أن يأتى السلطان الى « المشور » بعد الصبح ، ولا ينصرف الا بعد العشاء الآخرة . وكذلك الوزراء والأمراء الكبار .

وأخرج من « البقشة » ثلاث فوط ، احداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، وأخرى حرير وكتان . وأخرج ثلاثة أثواب من جنس الفوط . وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس ، وأخرج ثلاثة أثواب من « الأرمك » [1] أحدها أبيض ، وأخرج ثلاث عمائم . فلبست فوطة منها وثوبا من كل جنس ، وأخذ أصحابى ما بقى منها .

ثم جاءوا بالطعام وأكثره الأرز . ثم أتوا بنوع من الفقاع ، ثم أتوا بالتانبول ، وهو علامة الانصراف . فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا .

وخرجنا من « المشور » فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا الى بستان عليه حائط خشب ، وفى وسطه دار بناؤها بالخشب ، مفروشة بقطائف قطن ، منها مصبوغ وغير مصبوغ . وفى البيت أسرة من الخيزران ، فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ، ومخاد .

فجلسنا بالدار ومعنا النائب ، ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لى : يقول لك السلطان : هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد .

ثم خرج النائب ، وبقى الأمير دولسة عندى . وكانت بينى وبينه معرفة ، لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلى ، فقلت له : متى تكون رؤية السلطان ؟

فقال لى : ان العادة عندنا ألا يسلم القادم على السلطان الا بعد ثلاثة ، ليذهب عنه تعب السفر ، ويثوب اليه ذهنه .

فأقمنا ثلاثة أيام يأتى الينا الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتانى الأمير دولسة فقال لى : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة .

فأتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه . ثم دخلت على السلطان فصافحنى وسلمت عليه ، وسألنى عن السلطان محمد وعن أسفارى ، فأجبته . وعاد الى المذاكرة فى الفقه على مذهب الشافعى .

ولم يزل كذلك الى صلاة العصر . فلما صلاها دخل بيتا هنالك ، فنزع الثياب التى كانت عليه وهى ثياب الفقهاء . وبها يأتى المسجد ماشيا . ثم لبس ثياب الملك ، وهى الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه . والعادة عندهم أنه اذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل . واذا ركب

(1) الكتان ، بلغتهم .

الفرس ركبوا الفيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل ، وسرنا معه الى « المشور » فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكبا ، وقد اصطف فى « المشور » الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا .

فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، ووزراؤه أربعة . فسلموا عليه وانصرفوا الى موضع وقوفهم . ثم صف الأمراء ، فسلموا ومضوا الى مواقفهم . وكذلك تفعل كل طائفة . ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمماليك .

ووقف السلطان على فيله ازاء قبة الجلوس، ورفع فوق رأسه « شطر » مرصع . وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة ، وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضا مائة فرس ، وعن شماله مثلها . ووقف بين يديه خواص الحجاب . ثم أتى أهل الطرب فغنوا بين يديه .

وأتى بخيل مجللة بالحرير ، لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها . وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان الى داره ، وانصرف الناس الى منازلهم .

وكانت اقامتى عنده بسمطرة خمسة عشر يوما . ثم طلبت منه السفر ، فجهز لنا «جنكا» وزودنا وأحسن وأجمل ، جزاه الله خيرا .

وسافرنا بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ، ثم وصلنا الى مل جاوة ، وهى من بلاد الكفار ، وطولها مسيرة شهرين ، بها الأفاويه العطرة . ولنذكر ما شاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه وحققناه .

ذكر اللبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف [1] وأوراقها صغار رقاق . وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة . واللبان صمغية تكون فى أغصانها .

ذكر الكافور [2]

وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، الا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ . ويكون الكافور فى داخل الأنابيب ، فاذا كسرت القصبة وجد فى داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور .

ذكر العود الهندى

وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط ، الا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له ، وشجرته لا تعظم كل العظم . وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة . وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها .

وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك ، وأما الذى فى بلاد الكفار فأكثره غير متملك . والمتملك منه ما كان بقاقلة [2] ، وهو أطيب العود . وكذلك القمارى [3] ، وهو أطيب أنواع العود . ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب .

---

(١) لعله ما يسمى بالخرشوف الآن . ولم نقف على كلمة الخرشف فيما لدينا من المراجع .

(٢) قال فى « القاموس » : « القاقلة ثمر نبات هندى من العطر والافاويه » . ولعله سمى باسم البلد .

(٣) نسبة الى قمار بلد بالهند مشهور به .

ذكر القرنفل

وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام . وليست بمتمكلة لكثرتها . والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان . والذى يسميه أهل بلادنا نور القرنفل هو الذى يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارنج . وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ... رأيت ذلك كله وشاهدته .

ووصلنا الى مرسى قاقلة ، فوجدنا به جملة من « الجنوك » معدة للسرقة ، ولمن يستعصى عليهم من « الجنوك » ، فان لهم على كل « جنك » وظيفة .

ثم نزلنا من « الجنك » الى مدينة قاقلة ، وهى مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة .

وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندى ، يوقدونه فى بيوتهم . وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا . هذا اذا ابتاعوه فيما بينهم ، وأما التجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن ، وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير .

والفيلة بها كثيرة جدا ، عليها يركبون ويحملون . وكل انسان يربط فيلته على بابه ، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده ، ويركبه الى داره . وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب .

ذكر سلطان مل جاوة

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ، وليس بينه وبين الأرض بساط . ومعه أرباب دولته . والعساكر يعرضون عليه مشاة . ولا خيل هنالك الا عند السلطان ، وانما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون . فعرف شأنى فاستدعانى ، فجئت وقلت : السلام على من اتبع الهدى . فلم يفقهوا الا لفظ السلام . فرحب بى ، وأمر أن يفرش لى ثوب أقعد عليه .

فقلت للترجمان : كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض ؟

فقال : هكذا عادته ، يقعد على الأرض تواضعا ، وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير ، فيجب اكرامك .

فجلست ، وسألنى عن السلطان فأوجز فى سؤاله . وقال لى : تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين ، قد وضعه على رقبة نفسه ، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معا ، وقطع عنق نفسه ، فوقع رأسه لحدة السكين ، وشدة امساكه بالأرض . فعجبت من شأنه .

وقال لى السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم ؟

فقلت له : ما رأيت هذا قط .

فضحك وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا .

وأمر به فرفع وأحرق ، وخرج لاحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا . وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله واخوانه ، وعظموا لأجل فعله .

وأخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به كان تقريرا لمحبته للسلطان ، وأنه يقتل نفسه فى حبه ، كما قتل أبوه نفسه فى حب أبيه ، وجده نفسه فى حب جده .

وانصرفت عن المجلس ، وبعث الى بضيافة ثلاثة أيام .

وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل[1] ، وهو الراكد . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل هذا البحر تتبع كل « جنك » من « جنوك » الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه ، تجذف به فتجره .

ويكون فى « الجنك » مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصوارى ، يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوهم ، ويقومون قياما صفين ، كل صف يقابل الآخر . وفى المجذاف حبلان عظيمان ، فتجذف احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه ، وتجذف الطائفة الأخرى ، وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان .

وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما ، وعجبت البحرية من التسهيل فيه ، فانهم يقيمون فيه خمسين يوما الى أربعين ، وهى أنهى ما يكون التيسير عليهم . ثم وصلنا الى بلاد طوالسى[2] وهى بلاد عريضة ، وملكها يضاهى ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين ، حتى يصالحوه على شىء .

وأهل هذه البلاد عبدة أوثان ، حسان الصور ، أشبه الناس بالترك فى صورهم . والغالب على ألوانهم الحمرة ، ولهم شجاعة ونجدة . ونساؤهم يركبن الخيل ، ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكرى ، وهى من أحسن مدنهم وأكبرها .

وكان يسكن بها ابن ملكهم . فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل « الناخداة » اليهم ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم عنه فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم ، وولى بنته بتلك المدينة واسمها أردجا .

ذكر هذه الملكة

ولما كان اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كيلوكرى ، استدعت هذه الملكة «الناخداة» صاحب المركب ، والكاتب والتجار والرؤساء ومقدم الرجال ومقدم الرماة ، لضيافة صنعتها لهم على عادتها . ورغب « الناخداة » منى أن أحضر معهم ، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم .

وأخبرنى « الناخداة » أن هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخوادم وجوار يقاتلن كالرجال ، وأنها تخرج فى العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ، وتشاهد القتال وتبارز الأبطال .

وأخبرنى أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد ، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها ، وخرقت الجيوش ، حتى وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله ، فطعنته طعنة كان فيها حتفه ، فمات وانهزمت

(١) ليس الكاهل بمعنى الراكد فيما بين ايدينا من المراجع .
(٢) طوالسى هو اسم ملك هذه البلاد .

عساكره . وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير .

فلما عادت الى أبيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد أخيها . وأخبرنى أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج الا من يبارزنى فيغلبنى ، فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم .

ثم سافرنا عن بلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه ، الى بلاد الصين .

واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ، لا يضاهيه فى ذلك اقليم من أقاليم الأرض . ويخترقه النهر المعروف « بآب حياة » ومعنى ذلك ماء الحياة . ومنبعه من جبال تسمى « كوه بوزنة » ، ومعناه جبل القرود . ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر ، الى أن ينتهى الى صين الصين . وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، الا أن هذا أكثر عمارة ، وعليه النواعير الكثيرة .

وببلاد الصين السكر الكثير ، مما يضاهى المصرى بل يفضله ، والأعناب والاجاص .

وكنت أظن أن الاجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له ، حتى رأيت الاجاص الذى بالصين .

وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان .

وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله وأحسن منه . والقمح بها كثير جدا ، ولم أر قمحا أطيب منه . وكذلك العدس والحمص .

ذكر الفخار الصينى

وأما الفخار الصينى فلا يصنع منها الا بمدينة الزيتون ، وبصين كلان . وهو من تراب جبال هنالك ، تقد فيه النار كالفحم ، وسنذكر ذلك . ويضيفون اليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء ، فيعود الجميع ترابا . ثم يخمرونه ، فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ، ولا يزاد على ذلك ، والدون ما خمر عشرة أيام .

وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا . ويحمل الى الهند وسائر الأقاليم ، حتى يصل الى بلادنا بالمغرب ، وهو أبدع أنواع الفخار .

ذكر دجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا ، أضخم من الأوز عندنا . وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا . وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها . ولقد اشترينا دجاجة أردنا طبخها ، فلم يسع لحمها برمة واحدة ، فجعلناها فى برمتين .

ويكون الديك بها على قدر النعامة . وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه . فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرنى به من ذلك .

ذكر بعض أحوال أهل الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان . وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم . ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون .

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها فى أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، الا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة .

وجميع أهل الصين انما يحتفلون بأوانى الذهب والفضة . ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج الى كثير مؤونة ، ولذلك كثر . وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير .

وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه . ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه « الستى » ، وهو بمعنى « الكارمى » [1] بمصر .

ذكر دراهم الكاغد [2]
التى بها يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه . وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جددا ودفع تلك . ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان . وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء . واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت اليه .

ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخطا انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا . ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيتقد كالفحم . وهو أشد حرارة من نار الفحم . واذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية . ولا يزالون يفعلون به كذلك الى أن ينتهى .

ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ، ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه .

ذكر ما خصوا به من احكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم ، فان لهم فيه اقتدارا عظيما .

ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة

(١) فئة من أغنياء التجار فى ذلك العهد ، والكلمة غير عربية .
(٢) من ذلك يظهر أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد فى العالم .

فى الحبطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق .

ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ، ونحن على زى العراقيين . فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط . فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيئا من شبهه . وذكر لى أن السلطان يأمرهم بذلك ، وأنهم أتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك .

وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم ، وأنهم أتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا . ونحن لم نشعر بذلك .

وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم . وتنتهى حالهم فى ذلك الى أن الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ [1] .

***

قال ابن جزى : هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذى الأكتاف ملك الفرس ، حين دخل بلاد الروم متنكرا ، وحضر وليمة صنعها ملكهم . وكانت صورته على بعض الأوانى ، فنظر اليها بعض خدام قيصر ، فانطبقت على صورة سابور ، فقال لملكه : ان هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا

(١) هذا مثل ما يعمل فى أرقى البلاد تمدينا الآن .

المجلس . فكان الأمر على ما قاله . وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب [1] .

ذكر عادتهم فى تقييد ما فى المراكب

وعادة أهل الصين اذا أراد « جنك » من « جنوكهم » السفر ، أن يصعد اليه صاحب البحر وكتابه ، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية . وحينئذ يباح لهم السفر . فاذا عاد « الجنك » الى الصين صعدوا اليه أيضا ، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس . فاذا فقدوا أحدا ممن قيدوه طالبوا صاحب « الجنك » به ، فاما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، والا أخذ فيه .

فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها .

ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم . فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد « الجنك » بجميع ما فيه مالا للمخزن . وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين ، اللهم الا أنه كان بالهند ما يقرب منه : وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب [2] على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما . ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين ، خير فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين ، أو فى الفندق . فان أحب النزول عند التاجر ، حصر ماله وضمنه التاجر

(١) انتهى كلام ابن جزى .
(٢) يريد تسبب فى ألا يؤخذ عليها مغرم . وهو تعبير غريب .

المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فاذا أراد السفر بحث عن ماله ، فان وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه .

وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه . وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه . وأما انفاق ماله فى الفساد فشيء لا سبيل له اليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا .

ذكر حفظهم للمسافرين فى الطريق

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا ، عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال . فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة ، جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه ، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم .

فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كل انسان باسمه ، وكتب بها تفصيلا ، وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل التالى له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه . وان لم يفعل طالبه بهم ...

وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم ، من صين الصين الى خان بالق [1] .

وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الأزواد ، وخصوصا الدجاج والاوز . أما الغنم فهى قليلة عندهم .

(1) بكين .

ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند ، ولكنه اسم وضع عليها . وهى مدينة عظيمة كبيرة ، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس ، وتعرف بالنسبة اليها .

ومرساها من أعظم مراسى الدنيا ، أو هو أعظمها ، رأيت به نحو مائة « جنك » كبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم .

وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض ، وداره فى وسطها ، كمثل ما فى بلدة سجلماسة [1] ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم .

والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة .

وفى يوم وصولى اليها رأيت بها الأمير الذى توجه الى الهند رسولا بالهدية ، ومضى فى صحبتنا وغرق به « الجنك » . فسلم على وعرف صاحب الديوان بى ، فأنزلنى فى منزل حسن .

وجاء الى قاضى المسلمين تاج الدين الأردويلى ، وهو من الأفاضل الكرماء ، وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الأصفهانى ، وهو من الصلحاء .

وجاء الى كبار التجار ، وفيهم شرف الدين التبريزى ، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند ، وأحسنهم معاملة ، حافظ للقرآن مكثر للتلاوة .

(1) مدينة فى جنوب المغرب فى طرف بلاد السودان ... « ياقوت » . وستمر بك فيما بعد .

وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا : جاء من أرض الاسلام . وهم يعطونه زكاة أموالهم ، فيعود غنيا كواحد منهم .

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازرونى ، وله زاوية فى خارج البلد ، واليه يدفع التجار النذور التى ينذرونها للشيخ أبى اسحاق الكازرونى . ولما عرف صاحب الديوان أخبارى ، كتب الى « القان » وهو ملكهم الأعظم ، يخبره بقدومى من جهة ملك الهند .

فطلبت منه أن يبعث معى من يوصلنى الى بلاد الصين (صين الصين) . وهم يسمونها صين كلان ، لأشاهد تلك البلاد . وهى فى عمالته ، بخلال [1] ما يعود جواب القان . فأجاب الى ذلك ، وبعث معى من أصحابه من يوصلنى .

وركبت النهر فى مركب يشبه « أجفان » بلادنا الغزوية ، الا أن الجذافين يجذفون فيه قياما ، وجميعهم فى وسط المركب ، والركاب فى المقدم والمؤخر . ويظللون على المركب ثيابا تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به ، وهو أرق من القنب .

وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما . وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج اليه ونصلى الظهر ، ثم ننزل بالعشى الى أخرى ... هكذا الى أن وصلنا الى مدينة صين كلان ، وهى مدينة صين الصين . وبها يصنع الفخار ، وبالزيتون أيضا . وهنالك يصب نهر « آب حياة » فى البحر ، ويسمونه مجمع البحرين .

(١) يقصد ريثما يعود .

وهى من أكبر المدن وأحسنها أسواقا . ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ، ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن .

وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب ، فى داخل كل باب « أسطوان » ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها . وبين البابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات [1] ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة ... وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفى داخلها المارستان [2] للمرضى ، والمطبخة لطبخ الأغذية . وفيها الأطباء والخدام .

وذكر لى أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا حال [3] لهم .

وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم ، وجعل هذه المدينة وما وليها من القرى والبساتين وقفا عليها . وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة . وهم يعبدونها .

وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ، ولهم قاض وشيخ . ولابد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه ، وقاض يقضى بينهم .

وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى [4] وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوى الأموال الطائلة . وأقمت عنده أربعة عشر يوما ،

(١) جمع زمانة ، وهى العاهة .
(٢) دار المرضى ، معرب .
(٣) يعنى الفقراء . وهو تعبير غريب .
(٤) نسبة الى سنجار ، بلد مشهور على ثلاثة ايام من الموصل ... « القاموس »

وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي . وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالمغنين .

وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين .

حكاية عجيبة

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة ، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ، مع قوته التامة ، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه . فتوجهت الى الغار فرأيته على بابه . وهو نحيف شديد الحمرة ، عليه أثر العبادة ، ولا لحية له . فسلمت عليه ، فأمسك يدي وشمها ، وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر .

ثم قال لي : لقد رأيت عجبا ، أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الأصنام ، وقد أعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟

فقلت : نعم .

فقال : أنا هو .

فقبلت يده . وفكر ساعة ، ثم دخل الغار فلم يخرج الينا . وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به ، فهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت [1] من الكاغد ، فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا .

فقلنا له : ننتظر الرجل .

فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فان عادته اذا اطلع أحد على سر من أسراره ألا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك ، بل هو معك .

فعجبت من ذلك وانصرفت ، فأعلمت القاضي وشيخ الاسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته ، فقالوا : كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء . ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان . والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو .

وأخبروني أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ، ثم قدم عليها منذ سنة .

وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم . ويأتيه الفقراء كل يوم ، فيعطي كل أحد على قدره ، وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر .

وانه يحدث عن السنين الماضية ، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : لو كنت معه لنصرته . ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب بأحسن الذكر ، ويثني عليهما . ويلعن يزيد بن معاوية . ويقع [1] في معاوية .

وحدثوني عنه بأمور كثيرة . وأخبرني أوحد السنجاري قال : دخلت عليه بالغار فأخذ بيدي ، فخيل لي أني في قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائف الحسان ، والفواكه تتساقط في أنهار هنالك . وتخيلت أني أخذت تفاحة لآكلها ، فاذا أنا بالغار بين يديه وهو يضحك مني . وأصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم أعد اليه . وأهل تلك البلاد

---

(1) ورق من الكاغد يتعامل بها كالنقد ، غير عربية

(1) يذمه .

يعتقدون أنه مسلم ، لكن لم يره أحد يصلى . وأما الصيام فهو صائم أبدا .

وقال لى القاضى : ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام فقال لى : أتدرى أنت ما أصنع ؟ ان صلاتى غير صلاتك .

وأخباره كلها غريبة .

وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا الى مدينة الزيتون . وبعد وصولى اليها بأيام جاء أمر القان بوصولى الى حضرته على البر والكرامة ، ان شئت فى النهر والا ففى البر . فاجتزت السفر فى النهر ، فجهزوا لى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء . وبعث الأمير معنا أصحابه ، ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة .

وسرنا فى الضيافة تتغدى بقرية وتتعشى بأخرى . فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو ، مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح ، والبساتين محدقة بها . فكأنها غوطة [1] دمشق .

وعند وصولنا خرج الينا القاضى وشيخ الاسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب . وأتوا بالخيل فركبنا ، ومشوا بين أيدينا ، ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ . وخرج أمير البلد وخدامه . وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم .

ودخلنا المدينة . ولها أربعة أسوار : يسكن ما بين السور الأول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها [2] . ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المركبون [1] ، والأمير الحاكم على البلد . ويسكن فى داخل السور الثالث المسلمون ، وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلانى . ويسكن فى داخل السور الرابع الصينيون ، وهى أعظم المدن الأربع . ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل انسان — كما ذكرناه — بستانه وداره وأرضه .

وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبنى ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفار عليها ، فمتى خرجت عن منزلى رأيت المناكير [2] الكثيرة . فأقلقنى ذلك ، حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج الا لضرورة . وكنت اذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربى .

ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشرى أن سافر معى لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام ، حتى وصلت الى مدينة بيوم قطلو ، مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقه ، وليس بها للمسلمين الا أربع من الدور ، أهلها من جهة هذا الفقيه ، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم ودعت الفقيه وانصرفت ، فركبت النهر على العادة ، تتغدى بقرية وتتعشى بأخرى ، الى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها الى الخنسا . واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ، ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى .

وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض . طولها مسيرة ثلاثة أيام ، يرحل

(١) احدى جنان الدنيا الاربع . وكانت من أنزه بلاد الله حسنا ومنظرا .
(٢) حراس الليل ، تسمية اصطلاحية .

(١) يظهر أنه يريد الركبان .
(٢) المعاصى والمفاسد .

المسافر فيها وينزل . وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين ، كل أحد له بستانه وداره . وهى منقسمة ست مدن سنذكرها .

وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها فخر الدين ، وشيخ الاسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصرى . وهم كبراء المسلمين بها ، ومعهم علم أبيض والأطبال والأنقار والأبواق . وخرج أميرها فى موكبه ، ودخلنا المدينة . وهى ست مدن على كل مدينة سور ، ويحدق الجميع سور واحد .

فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثنى القاضى وسواه أنهم اثنا عشر ألفا فى زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم .

وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ، ويسكن بها اليهود والنصارى ، والترك عبدة الشمس ، وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين . وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمون . ومدينتهم حسنة وأسواقها مرتبة كترتيبها فى بلاد الاسلام . وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى . وكان أحد التجار الكبار ، وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة اليه ، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة .

وهم على ما كان عليه أبوهم من الايثار للفقراء والاعانة للمحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالعثمانية ، حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة .

وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت اقامتنا عندهم خمسة عشر يوما . فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون فى أطعمتهم ، ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة .

وركبوا معى يوما ، فدخلنا المدينة الرابعة ، وهى دار الامارة ، وبها سكنى الأمير قرطى . ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابى ولقينى الوزير ، وذهب بى الى دار الأمير الكبير قرطى ، فكان من أخذه الفرجية التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ، ما قد ذكرته .

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه . وهى من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم ، وتأتى فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد . وفيه السفن للنزهة .

« والمشور » فى وسط هذه المدينة ، وهو كبير جدا ، ودار الامارة فى وسطه ، وهو يحف بها من جميع الجهات . وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . أخبرنى الأمير قرطى أن عددهم ألف وستمائة معلم ، كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين .

وهم أجمعون عبيد القان ، وفى أرجلهم القيود . ومساكنهم فى خارج القصر . ويباح لهم الخروج الى أسواق المدينة دون الخروج من بابها . ويعرضون كل يوم على الأمير ، مائة مائة ، فان نقص أحدهم طولب به أميره .

وعادتهم أنه اذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده . وكان يخير فى النظرين : اما أن يقيم فى الخدمة غير مقيد ، واما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . واذا بلغت سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه . وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم .

ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبى ، فلم تجر عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ، ويسمى أحدهم « آطا » ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قرطى

وهو أمير أمراء الصين . آضافنا بداره وصنع الدعوة ، وحضرها كبار المدينة ، وأتى بالطباخين المسلمين ، فذبحوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم بيده . وأقمنا فى ضيافته ثلاثة أيام . وبعث ولده معنا الى الخليج ، فركبنا فى سفينة تشبه الحراقة ، وركب ابن الأمير فى أخرى ، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقا .

وكانوا يغنون بالصينى وبالعربى وبالفارسى. وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسى . فغنوا شعرا منه ، وأمرهم بتكريره مرارا ، حتىحفظته من أفواههم . وله تلحين عجيب .

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير . وسفنهم منقوشة أبدع نقش . وجعلوايتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون . وعدنا بالعشىالى دار الأمير فبتنا بها ، وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

وفى غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهى من أكبر المدن . يسكنها عامة الناس ، وأسواقها حسان ، وبها الحذاق فى الصناعات ، وبها تصنع الثياب الخنساوية .

ومن عجيب ما يصنعون بها صحاف من القصب ، وقد ألصقت قطعه أبدع الصاق ، ودهنت بصبغ أحمر مشرق . وتكون هذه الصحاف عشرا ، واحدة فى جوف أخرى ، تظهر لرائيها كأنها صفحة واحدة ، ويصنعون غطاء يغطى جميعها .

ويصنعون من هذا القصب صحافا من عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر . ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صبغها ولا يحول . وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة فى ضيافة أميرها . وبالغد دخلنا الى المدينة السادسة ، ويسكنها البحرية والصيادون والنجارون والرماة والرجالة . وجميعهم عبيد السلطان ، لا يسكن معهم سواهم ، وعددهم كثير .

وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم ، بتنا بها ليلة فى ضيافة أميرها . وجهز لنا الأمير قرطى مركبا بما يحتاج اليه من زاد وسواه .

وسافرنا من هذه المدينة ، وهى آخر أعمال الصين ، ودخلنا الى بلاد الخطا . وهى أحسن بلاد الدنيا عمارة . ولا يكون فى جميعها موضع غير معمور ، فانه ان بقى موضع غير معمور ، طولب أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبى هذا النهر ، من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق ، وذلك مسيرة أربعة وستين يوما .

وليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مقام ، وليس بها مدينة مجتمعة ، وانما هى قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر .

ولم أر فى الدنيا مثلها ، غير مسيرة أربعه أيام من الأنبار الى عانة . وكنا كل ليلة تنزل بالقرى لأجل الضيافة ، حتى وصلنا الى مدينة خان بالق . وهى حضرة القان . والقان هو سلطانهم الأعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطا .

ولما وصلنا اليها أرسينا على عشرة أميال على العادة عندهم . وكتب الى أمراء البحر بخبرنا ، فأذنوا لنا فى دخول مرساها . فدخلناه . ثم نزلنا الى المدينة وهى من أعظم مدن الدنيا . وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين فى داخلها ، وانما هى كسائر البلاد ، والبساتين بخارجها . ومدينة السلطان فى وسطها كالقصبة ، على ما نذكره .

ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجى . وهو الذى بعث اليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه ، فأخذ الدنانير وقضى بها دينه ، وأبى أن يسير اليه . وقدم على بلاد الصين ، فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده ، وخاطبه بصدر الجهان .

ذكر سلطان الصين
والخطا الملقب بالقان

والقان عندهم سمة لكل من يلى الملك ، ملك الأقطار . وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته .

ذكر قصره

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه . وأكثر عمارته بالخشب المنقوش ، وله ترتيب عجيب . وله سبعة أبواب : فالباب الأول منها يجلس به الكتوال ، وهو أمير البوابين . وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره ، فيها المماليك حفاظ باب القصر ، وعددهم خمسمائة رجل . وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل .

والباب الثانى يجلس عليه الرماة ، وعددهم خمسمائة .

والباب الثالث يجلس عليه أصحاب الرماح عددهم خمسمائة .

والباب الرابع يجلس عليه أصحاب السيوف الترسة .

والباب الخامس فيه ديوان الوزارة ، وبه سقائف كثيرة : فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ، وبين يديه دواة عظيمة من الذهب . وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر . وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل . وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الأشغال .

وتقابل هذه السقائف سقائف أربع : احداها تسمى ديوان الاشراف ، يقعد بها المشرف . والثانية سقيفة ديوان المستخرج . وأميرها من كبار الأمراء . والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من اقطاعاتهم . والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب ، فمن لحقه مظلمة استغاث بهم . والرابعة ديوان البريد ، يجلس فيها أمير الاخباريين .

والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم .

والباب السابع يجلس عليه الفتيان ، ولهم ثلاث سقائف : احداها سقيفة الحبشان منهم ،

والثانية سقيفة الهنود ، والثالثة سقيفة الصينيين . ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين .

ذكر خروج القان
لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق ، وجدنا القان غائبا عنها اذ ذاك . وقد خرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ ، من بلاد الخطا ، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة .

وأخبرنى صدر الجهان برهان الدين الصاغرجى ، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود ، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس . وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفا ، زائدا الى ذلك . وكان الرجالة خمسمائة ألف .

ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعه ، لأنه كان قد غير الأحكام التى وضعها تنكيز خان ، جدهم الذى خرب بلاد الاسلام . فمضوا الى ابن عمه القائم ، وكتبوا الى القان أن يخلع نفسه ، وتكون مدينة الخنسا اقطاعا له . فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل .

وبعد أيام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك ، فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنقار وعكفوا على اللعب والطرب مدة شهر .

ثم جىء بالقان المقتول ، وبنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه ، فحفر للقان ناووس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض، وفرش بأحسن الفرش ، وجعل فيه القان بسلاحه ، وجعل معه ما كان فى داره من أوانى الذهب والفضة ، وجعل معه أربع من الجوارى وستة من خواص المماليك ، ومعهم أوانى الشرب . وبنى باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم .

ثم جاءوا بأربع أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه . وجعل أقارب القان المذكورون فى نواويس ، ومعهم سلاحهم وأوانى دورهم . وصلبوا على قبور كبارهم — وكانوا عشرة — ثلاثة من الخيل على كل قبر ، وعلى قبور الباقين فرسا فرسا .

وكان هذا اليوم يوما مشهودا ، لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء ، المسلمين والكفار . وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء ، وهى الطيالسة البيض للكفار ، والثياب البيض للمسلمين . وأقامت خواتين القان وخواصه فى الأخبية على قبره أربعين يوما ، وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة . وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون اليه من طعام وسواه .

وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم فى هذا العصر . فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم ، وسواهم من الأمم يدفنون الميت ، ولا يجعلون معه أحداً . لكن أخبرنى الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه ، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم ، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم . ويجعلون معهم أوانى الشراب .

ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك ، اختار أن تكون

حضرته مدينة قراقرم ، لقربها من بلاد بنى عمه ، ملوك تركستان وما وراء النهر ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان ، وقطعوا الطريق وعظمت الفتن .

ذكر رجوعى الى الصين
ثم الى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن ، أشار على الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود الى الصين قبل تمكن الفتن ، ووقفوا [1] معى الى نائب السلطان فيروز . فبعث لى ثلاثة من أصحابه ، وكتب لى بالضيافة .

وسرنا منحدرين فى النهر الى الخنسا ثم الى قنجنفو ثم الى الزيتون . فلما وصلتها وجدت « الجنوك » على أهبة السفر ، الى الهند ، وفى جملتها « جنك » للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون . وعرفنى وكيله وسر بقدومى .

وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام . فلما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح ، وأظلم الجو وكثر المطر . وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحرا لا نعرفه ، وخاف أهل «الجنك» ، فأرادوا الرجوع الى الصين ، فلم يمكن ذلك . وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف فى أى البحار نحن .

ذكر الرخ

ولما كان اليوم الثالث والأربعون ، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا الى صوبه . فعجب البحرية وقالوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يعهد فى البحر جبل . وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا . فلجأ الناس الى التضرع والاخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا الى الله بالدعاء . ونذر التجار التصدقات الكثيرة ، وكتبتها لهم فى زمام [1] بخطى .

وسكنت الريح بعض سكون . ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء ، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا ، فقلت : ما شأنكم ؟

فقالوا : ان الذى تخيلناه جبلا هو الرخ ، وان رآنا أهلكنا .

وبيننا اذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال ، ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته .

*

وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ، ونزلنا الى سمطرة ، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قدم من غزاة له ، وجاء بسبى كثير ، فبعث لى جاريتين وغلامين ، وأنزلنى على العادة . وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه .

ذكر أعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجلوة ، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط « المشور » منبرا كبيرا ، وكسوه بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه . وكلهن باديات الوجوه ، ينظر اليهن كل من حضر ، من رفيع أو وضيع ، وليست تلك بعادة لهن الا فى الأعراس خاصة .

(1) لعله يريد : والتمسوا لى الاذن منه فى السفر .

(1) دفتر ، والكلام على التشبيه .

وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويغنون .

ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة ، والتاج على رأسه ، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا البياض ، وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رؤوسهم « الشواشى » المرصعة . وهم أتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية .

ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله ، وصعد المنبر الى العروس ، فقامت اليه وقبلت يده وجلس الى جانبها ، والخواتين يروحن عليها .

وجاءوا بالفوفل والتانبول ، فأخذ الزوج بيده وجعل منه فى فمها ، ثم أخذت هى بيديها وجعلت فى فمه . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر . وأكل الناس وانصرفوا .

ثم لما كان من الغد ، جمع الناس ، وأجرى له أبوه ولاية العهد . وبايعه الناس ، وأعطاهم الجزل من الثياب والذهب .

وأقمت بهذه الجزيرة شهرين . ثم ركبت فى بعض «الجنوك» ، وأعطانى السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل . وسافرت عنه ، فوصلت بعد أربعين يوما الى كولم ، فنزلت بها فى جوار القزوينى قاضى المسلمين ، وذلك فى رمضان .

وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع . وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا ، فلا يزالون يذكرون الله الى الصبح ، ثم يذكرون الى حين صلاة العيد . ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون .

ثم سافرنا من كولم الى قالقوط وأقمنا بها أياما . وأردت العودة الى دهلى ، ثم خفت ذلك ، فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار — وذلك فى المحرم سنة ثمان وأربعين — ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

ذكر سلطانها

ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث ، الذى كان ملكا بها حين وصولى اليها فيما تقدم . ونائبه سيف الدين عمر ، التركى الأصل ، وأنزلنى هذا السلطان وأكرمنى .

ثم ركبت البحر فوصلت الى مسقط وهى بلدة صغيرة ، بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس .

ثم سافرنا الى مرسى القريات . ثم سافرنا الى مرسى شبة . ثم الى مرسى كلبة . ثم الى قلهات ، وقد تقدم ذكرها ...

وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز ، وهى محسوبة من بلاد عمان .

ثم سافرنا الى هرمز وأقمنا بها ثلاثا . وسافرنا فى البر الى كورستان . ثم الى اللار . ثم الى خنج بال . وقد تقدم ذكر جميعها .

ثم سافرنا الى كارزى وأقمنا بها ثلاثا . ثم سافرنا الى جمكان . ثم سافرنا منها الى ميمن .

ثم سافرنا الى بسا ، ثم الى مدينة شيراز . فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على ملكه ، الا أنه كان غائبا عنها . ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضى القضاة ، وقد كف بصره . ثم سافرت الى مائين [1] ، ثم الى يزد

(1) بلد من أعمال فارس من نواحى شيراز ... «ياقوت» . وقد ضبطها ابن بطوطة هكذا : « مايين » .

خاص ، ثم الى كليل ، ثم الى كشك زر ، ثم الى أصبهان ، ثم الى تستر ، ثم الى الحويز ، ثم الى البصرة . وقد تقدم ذكر جميعها .

وزرت بالبصرة القبور الكريمة التى بها ، وهى قبر الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وحليمة السعدية ، وأبى بكر ، وأنس بن مالك ، والحسن البصرى ، وثابت البنانى ، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن واسع ، وحبيب العجمى ، وسهل ابن عبد الله التسترى . رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ثم سافرنا من البصرة ، فوصلنا الى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه . ثم توجهنا الى الكوفة ، فزرنا مسجدها المبارك . ثم الى الحلة ، حيث مشهد صاحب الزمان . ثم سافرت الى صرصر ، ثم الى مدينة بغداد ، ووصلتها فى شوال سنة ثمان وأربعين .

ذكر سلطانها

وكان سلطان بغداد والعراق ، فى عهد دخولى اليها فى هذا التاريخ ، الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد رحمه الله . ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته . وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد فى هذه المدة ، متوجها لقتال السلطان أتابك أفراسياب ، صاحب بلاد اللور [1] .

ثم رحلت من بغداد فوصلت الى مدينة الأنبار ، ثم الى هيت [2] ، ثم الى الحديثة ، ثم الى عانة . وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثير العمارة ، كأن الماشى بها فى سوق من الأسواق . وقد ذكرنا أنا لم نر ما يشبه البلاد التى على نهر الصين الا هذه البلاد .

ثم وصلت الى مدينة الرحبة ، وهى التى تنسب الى مالك بن طوق . ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام .

ثم سافرنا منها الى السخنة ، وهى بلدة حسنة أكثر سكانها من النصارى . وانما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء ، يستحمون فيها ، ويستقون الماء ليلا ويجعلونه فى السطوح ليبرد .

ثم سافرنا الى تدمر ، مدينة نبى الله سليمان عليه السلام .

ثم سافرنا الى مدينة دمشق الشام . وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة . وأقمت بها بقية السنة ، والغلاء شديد . وكان قاضى قضاة المالكية اذ ذاك جمال الدين المسلاتى [1] ، وقاضى قضاة الشافعية تقى الدين ابن السبكى ، وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه .

ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماة ثم المعرة ثم سرمين ثم الى حلب . وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رغطى .

وفى أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين ، بلغنى الخبر فى حلب أن الوباء وقع بغزة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الألف فى يوم واحد .

---

(1) اللور كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان ... قاله ياقوت .

(2) بلدة على الفرات ، من نواحى بغداد ، فوق الانبار .

(1) نسبة الى مسلاتة ، مدينة ساحلية بين طرابلس الغرب ومصر .

فســافرت الى حمص فوجــدت الوباء قد وقع بها . ومات يوم دخولى اليها نحو ثلاثمائة انسان .

ثم ســـافرت الى دمشق ووصــلتها يوم الخميس . وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام ، وخرجوا يوم الجمعة الى مسجد الأقدام [1] ، فخفف الله الوباء عنهم . فقد انتهى عدد الموتى عندهم الى ألفين وأربعمائة فى اليوم .

ثم ســـافرت الى عجـلون ثم الى البيت المقدس ، ووجدت الوباء قد ارتفـع عنــه . ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة بن عز الدين قاضى القضــاة بمصر ، وهــو من الفضــلاء الكرماء ، ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر .

ووجدت من كنت أعهدهم من جميع الأشياخ بالقدس قــد انتقلوا الى جــوار الله تعالى ، رحمهم الله ، فلم يبق منهم الا القليل : مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى ، ومثل الصالح شرف الدين الخشى ، شيخ زاوية المسجد الأقصى . ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى فأضافنى .

ثم سافرت عن القدس ، ورافقنى الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني [1] ، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبــد الوادى ، فوصــلنا الى مــدينة الخليل عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبيــاء عليهم السلام .

ثم سرنا الى غزة ، فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء . وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع ، وأن عدد الموتى بها انتهى الى ألف ومائة فى اليوم .

ثم سافرنا فى البر فوصلت الى دميــاط ، ولقيت بها قطب الدين النفشــوانى ، وهــو صائم الدهر . ورافقنى منها الى فارســكور وسمنــود ثم الى أبى صير . ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين بها .

ثم سافرت الى المحلة الـكبيرة ، ثم الى نحرارية ، ثم الى أبيار ، ثم الى دمنهور ، ثم الى الاسكندرية ، فوجدت الوباء قــد خف بها بعد أن بلــغ عدد المــوتى ألفا وثمانين فى اليوم .

ثم سافرت الى القاهرة . وبلغنى أن عــدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها الى أحد وعشرين ألفا فى اليوم . ووجدت جميع من كانوا بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا ، رحمهم الله .

ذكر سلطانها

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون . وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح . ولما وصلت القاهرة وجــدت قاضى القضــاة عز الدين ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، قد توجه الى مكة فى ركب عظيــم يسمونه الرجبى لسفرهم فى شهر رجب . وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة [1] فارتفع عنهم .

ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد ، وقد تقدم ذكرها ، الى عيذاب ، وركبت منها

(1) أقدام مصورة فى حجر هنالك ، يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام .

(1) نسبة الى مليانة ، مدينة فى آخر افريقية ، بينهـا وبين تونس أربعة أيام ... « ياقوت » .

(1) بلد بين ينبع ومصر ... « القاموس » .

البحر فوصلت الى جدة . ثم سافرت منها الى مكة شرفها الله تعالى وكرمها ، فوصلتها فى الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين .

ونزلت فى جوار امام المالكية الصالح الولى الفاضل ، أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل . فصمت شهر رمضان بمكة ، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعى .

ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفى ، وشهاب الدين الطبرى ، وأبا محمد اليافعى ، ونجم الدين الأصفونى [1] ، وحججت فى تلك السنة .

ثم سافرت مع الركب الشامى الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزرت قبره المكرم الطيب ، زاده الله طيبا وتشريفا ، وصليت فى المسجد الكريم ، طهره الله وزاده تعظيما . وزرت من بالبقيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون .

ثم سافرنا من المدينة الشريفة الى العلاء وتبوك ، ثم الى بيت المقدس ، ثم الى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ، ثم الى غزة ثم منازل الرمل — وقد تقدم ذكر ذلك كله — ثم الى القاهرة .

وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، أبا عنان ، أيده الله تعالى ، قد ضم الله به نشر الدولة المرينية ، وشفى ببركته ، بعد اشفائها ، البلاد المغربية ، وأفاض الاحسان على الخاص والعام ، وغمر جميع الناس بسابغ الانعام .

(١) أصفون ، بضم الفاء وسكون الواو ، قرية بالصعيد الاعلى على شاطىء غربى النيل ... « ياقوت » .

فتشوفت النفوس الى المثول ببابه ، وأملت لثم ركابه . فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية ، مع ما شفنى من تذكار الأوطان ، والحنين الى الأهل والخلان ، والمحبة لبلادى التى لها الفضل عندى على البلدان .

بلاد بها نيطت علىَّ تمائمى
وأول أرض مس جلدى ترابها

فركبت البحر فى قرقور [1] لبعض التونسيين صغير — وذلك فى صفر سنة خمسين — وسرت حتى نزلت بجربة . وسافر المركب الى تونس ، فاستولى العدو عليه .

ثم سافرت فى مركب صغيرة الى قابس ، فنزلت فى ضيافة الأخوين الفاضلين أبى مروان وأبى العباس ابنى مكى ، أميرى جربة وقابس . وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ركبت فى مركب الى صفاقس . ثم توجهت فى البحر الى بليانة ، ومنها سرت فى البر مع العرب ، فوصلت بعد مشقات الى مدينة تونس ، والعرب محاصرون اليها .

ذكر سلطانها

وكانت تونس فى ايالة مولانا أمير المسلمين ، وناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، علم الأعلام ، وأوحد الملوك الكرام ، أسد الآساد ، وجواد الأجواد ، القانت الأواب ، الخاشع العادل ، أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ناصر دين الاسلام ، الذى سارت الأمثال بجوده ، وشاع فى الأقطار أثر كرمه وفضله ، ذى المناقب والمفاخر ، والفضائل والمآثر ، الملك العادل

(١) السفينة أو الطويلة أو العظيمة ... «القاموس» .

الفاضل ، أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين ، وناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ناصر الايمان ، الشديد السطوة فى ذات الرحمن ، العابد الزاهد ، الراكع الساجد ، الخاشع الصالح ، أبى يوسف بن عبد الحق ، رضى الله عنهم أجمعين ، وأبقى الملك فى عقبهم الى يوم الدين .

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أباالحسن الناميسى ، لما بينى وبينه من مودات القرابة والبلدية . فأنزلنى بداره ، وتوجه معى الى « المشور » . فدخلت « المشور » الكريم ، وقبلت يد مولانا أبى الحسن رضى الله عنه .

وأمرنى بالقعود فقعدت ، وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبت . وسألنى عن ابن نيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه ، وارادتهم قتله بالاسكندرية ، وما لقى من أذيتهم ، انتصارا منهم لمولانا أبى الحسن رضى الله عنه .

وكان فى مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله السطى [1] ، والامام أبو عبد الله محمد ابن الصباغ ، ومن أهل تونس قاضيها أبوعلى عمر بن عبد الرفيع ، وأبو عبد الله بن هرون .

وانصرفت عن المجلس الكريم . فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ، ومعه الشيوخ الجلة . فسألنى عن ملك الهند فأجبته عما سأل . ولم أزل أتردد الى مجلسه الكريم أيام اقامتى بتونس ، وكانت ستة وثلاثين يوما .

ولقيت بتونس اذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم ، أبا عبد الله الأبلى ، وكان فى فراش المرض . وباحثنى فى كثير من أمور رحلتى .

ثم سافرت من تونس فى البحر ، فوصلنا الى جزيرة سردانية من جزر الروم ، ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به . وله مدخل كأنه باب لا يفتح الا باذن منهم . وفيها حصون دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة .

ونذرت لله تعالى ، ان خلصنا الله منها ، صوم شهرين متتابعين ، لأننا عرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسرونا .

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر الى مدينة تنس ثم الى مازونة ثم الى مستغانم ثم الى تلمسان .

ثم سافرنا منها ، فبينما نحن بقرب أزغنغان ، اذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان ، وكان معى الحاج ابن قريعات الطنجى ، وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك فى البحر . فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما . ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله .

ووصلت الى مدينة تازا ، وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوباء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازا ، فوصلت يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس ، فمثلت بين يدى مولانا الأعظم ، الامام الأكرم ، أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ، أبى عنان ، وصل الله علوه ، وكبت عدوه . فأنستنى هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحلمه حلم

(1) نسبة الى سطة ، مدينة ساحلية بالمغرب الاقصى... عن كتاب « المغرب فى تاريخ افريقيا والمغرب » .

ملك الروم ، ودينه دين ملك تركستان ، وعلمه علم ملك الجاوة .

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة ، والمآثر الكثيرة ، أبو زيان بن ودرار . فسألني عن الديار المصرية ، اذ كان قد وصل اليها ، فأجبته عما سأل . وغمرني من احسان مولانا أيده الله تعالى ما أعجزني شكره ، والله ولي مكافأته .

وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة ، بعد أن تحققت بفضل الانصاف أنها أحسن البلدان : لأن الفواكه بها متيسرة ، والمياه والأقوات غير متعذرة . وقل اقليم يجمع ذلك . ولقد أحسن من قال :

الغرب أحسن أرض
ولي دليل عليه
البدر يرقب منه
والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيرة ، وفوائدها كثيرة . واذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ، ظهر لك الحق في ذلك ، ولاح فضل بلاد المغرب ...

فأقول : ان لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثماني عشرة أوقية بدرهم نقرة ، والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب . وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ، ثماني عشرة أوقية بدرهمين ، وهما ثلث النقرة .

وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات . والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ، ولأن أكثر ذلك العدس والحمص ، يطبخونه في قدور راسيات [1] ، ويجعلون عليه الشيرج [2] والبسلا [3] ، وهو صنف من الجلبان ، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت .

والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن . والبقلة الحمقاء [4] يطبخونها كذلك . وأعلى أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن . والقلقاس يطبخونه . وهذا كله متيسر بالمغرب ، لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك .

وأما الخضر فهي أقل الأشياء ببلاد مصر . وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام . وأما العنب فاذا كان رخيصا يبع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة . ورطلهم ثنتا عشرة أوقية . وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة ، الا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنا ، فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة . ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية . واذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة . وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس ، وهي درهم من دراهم المغرب . وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير . وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة ...

فاذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلادالمغرب أرخص البلاد أسعارا ، وأكثرها خيرات ، وأعظمها مرافق وفوائد . ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا على شرفها ، وفضلا على فضلها ،

(١) قدور راسية : لا تبرح مكانها لعظمها ... «ياقوت» .
(٢) في شرح القاموس : الشيرج ، على وزن صيقل ، بمعنى السليط وهو دهن السمسم ، معرب .
(٣) البسلا : كالترمس أو أقل منه لغة مصرية ... قاله في شرح القاموس .
(٤) هي الرجلة ، ويقال لها ايضا بقلة الحمقاء .

بإمامة مولانا أمير المؤمنين ، الذى مد ظلال الأمن فى أقطارها ، وأطلع شمس العدل فى أرجائها ، وأفاض سحاب الاحسان فى باديتها وحاضرتها ، وطهرها من المفسدين ، وأقام بها رسوم الدنيا والدين .

وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم وتفقهه ، وصدقته الجارية ، ورفع المظالم .

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهر من أن يسطر فى كتاب . فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته ، وتخصيصه يوم الجمعة بالمساكين منهم ، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة الى العصر . ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين ، يكلمها دون وساطة . فان كانت متظلمة عجل انصافها ، أو طالبة احسان وقع اسعافها .

ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال ، وفعل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء ، والقضاة ، فيرد اليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية . وهذا شيء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام ، ويظهر فيه مثل هذا العدل : فان ملك الهند عين بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس ، وتلخيصها ورفعها اليه ، دون حضور أربابها بين يديه .

وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب : فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه ، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم الا من وثق بربه ، وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى « والعافين عن الناس » .

***

قال ابن جزى : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله ، أنى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين الى هذا العهد ، وهو أوائل عام سبعة وخمسين ، لم أشاهد أحدا أمر بقتله الا من قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى ، قصاصا أو حربا ... الخ . هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف . ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الأعصار ، ولا فيما تباعد من الأقطار .

***

وأما شجاعته فقد علم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات والاقدام ، مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم . ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان . وذكر ذلك عند سلطانهم فقال : هكذا والا فلا .

***

قال ابن جزى : لم يزل الملوك الأقدمون يتفاخرون بقتل الآساد وهزائم الأعادى ، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد . فانه لما خرج الأسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحوز سلا [1] ، وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفرسان والرجال ، برز اليه مولانا أيده الله ، غير محتفل به ، ولا متهيب له ، فطعنه بالرمح بين عينيه طعنة خر بها صريعا لليدين وللفم .

***

وأما هزائم الأعادى فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم ، واقدام فرسانهم ، فيكون

(1) سلا : مدينة بأقصى المغرب ، وحوزها ما يجاورها .

حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال .
وأما مولانا أيده الله فانه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الأعداء ، وانهزموا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين .

وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح . ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم . فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفروع مذهب مالك رضى الله عنه ، وكتب المتصوفة . وفى كل علم منها له القدح المعلى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نكته الرائقة من حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين ، والخلفاء الراشدين .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم هذه النهاية : فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعى خاصة . وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتى العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله للصلوات كلها فى الجماعة ، ولقيام رمضان . والله يختص برحمته من يشاء .

***

قال ابن جزى : لو أن عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا ، لم يكن يصل الى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم ، مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملكه مالم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين . ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان ، الا جلا مشكلها ، أو باحث فى دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من معلقاتها .

ثم سما أيده الله الى العلم الشريف التصوفى ، ففهم اشارات القوم [1] وتخلق بأخلاقهم ، وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته ، وشفقته على رعيته ، ورفقه فى أمره كله . وأعطى الآداب حظا جزيلا من نفسه ، فاستعمل أحسنها منزعا ، وأعظمها موقعا . وصارت [2] عنه الرسالة الكريمة والقصيدة ، اللتان بعثهما الى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة ، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا . وذلك شىء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان انشاءه ، ولا رام ادراكه .

ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى ، وأحاط علما بمحصولها ، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها ، وجمع له بين الطبيعى والمكتسب منها .

***

وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده ، لاطعام الطعام الوارد والصادر ، فذلك مالم يفعله أحد من الملوك ،

(١) يقصد الصوفيين .
(٢) يظهر انه محرف من صدرت .

غير السلطان أتابك أحمد . وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم ، والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت .

***

قال ابن جزى : اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورا لم تخطر فى الأوهام ، ولا اهتدت اليها السلاطين .

فمنها اجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام .

ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا .

ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به .

ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده .

ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء فى عيد الأضحى .

ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان ، اكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه .

ومنها اطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم ، واجتماعهم لاقامة رسمه . ومنها صدقته على الزمنى [1] والضعفاء يتيمون بها أودهم .

ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس [2] الوثيرة والقطائف [3] الجياد . وتلك مكرمة لايعلم لها نظير .

(1) جمع زمين ، وهو ذو العاهة .
(2) جمع طنفسة ، وهى البساط .
(3) القطائف جمع قطيفة وهى المخمل .

ومنها بناء المارستانات فى كل بلد من بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى ، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف فى طبهم .

الى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر ، كافأ الله أياديه وشكر نعمه .

وأما رفعه للمظالم عن الرعية ، فمنها الرتب [1] التى كانت تؤخذ بالطرقات : أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مجبى عظيم ، فلم يلتفت اليه ، وما عند الله خير وأبقى .

وأما كفه أيدى الظلام فأمر مشهور . وقد سمعته أيده الله يقول لعماله : لا تظلموا الرعية . ويؤكد عليهم فى تلك الوصية .

***

قال ابن جزى : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته الا رفعه التضييف [2] ، الذى كان عمال الزكاة وولاة البلاد يأخذونه من الرعايا ، لكفى ذلك أثرا فى العدل ظاهرا ، ونورا فى الرفق باهرا . فكيف وقد رفع من المظالم ، وبسط من المرافق ، ما لا يحيط به الحصر .

وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم من الرفق بالمسجونين ، ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ، ما هو اللائق باحسانه ، والمعهود من رأفته . وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار .

وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين .

(1) يريد المكوس ، والتسمية غير عربية .
(2) مصدر ضيفه اى انزله عليه ضيفا . والمراد بالتضييف هنا ما يأخذه العامل لنفسه زيادة على ما يأخذه للحكومة ، تسمية اصطلاحية .

وما فعله فى معاونة أهل الأندلس على الجهاد ، ومحافظته على امداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح ، وفته فى عضد العدو ، باعداد العدد واظهار القوة ، فذلك أمر شهير لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق ، ولا سبق اليه أحد من الملوك .

***

قال ابن جزى : حسب المتشوف الى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد [1] القطر للمسلمين ، ودفاع القوم الكافرين ، ما فعله فى فداء مدينة طرابلس افريقية : فانها لما استولى العدو عليها ، ومد يد العدوان اليها ، ورأى أيده الله أن بعث الجيوش لنصرتها لا يتأتى لبعد الأقطار ، كتب الى خدامه ببلاد افريقية أن يفدوها بالمال ، ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين .

فلما بلغه خبر ذلك قال : الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النزر اليسير . وأمر للحين ببعث ذلك العدد الى افريقية ، وعادت المدينة الى الاسلام على يده . ولم يخطر فى الأوهام أن أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا ، حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة ، ومأثرة فائقة ، قل فى الملوك أمثالها ، وعز عليهم مثالها .

***

ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد انشاؤه الأجفان بجميع السواحل ، واستكثاره من عدد البحر . وهذا فى زمان الصلح والمهادنة ، اعدادا لأيام الغزاة ، وأخذا بالحزم فى قطع أطماع الكفار .

(1) السداد ، بكسر السين ، اعداد العدة لحماية البلاد من الاعداء .

وأكد ذلك بتوجيهه أيده الله بنفسه الى جبال جاناته فى العام الفارط ، ليباشر قطع الخشب للانشاء ، ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ، ويتولى بذاته أعمال الجهاد ، مترجيا ثواب الله تعالى ، وموقنا بحسن الجزاء .

ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء ، دار ملكه العلى . وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء ، واشراق النور وبديع الترتيب ، وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر ، مما يجاور قصبة فاس . ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا وابداعا وكثرة ماء وحسن وضع . ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها .

وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء ، فلا مثل لها أيضا فى عجيب وضعها ، وبديع صنعها . وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية « سرياقوس » التى بناها الملك الناصر . وهذه أبدع منها وأشد احكاما واتقانا .

والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ، ويكافىء فضائله المنيفة ، ويديم للاسلام والمسلمين أيامه ، وينصر ألويته المظفرة وأعلامه .

*

ولنعد الى ذكر الرحلة فنقول : ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم ، وعمنى فضل احسانه العميم ، قصدت زيارة قبر الوالدة ، فوصلت الى بلدة طنجة وزرتها ، وتوجهت الى مدينة سبتة ، فأقمت بها أشهرا .

وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله .

فأردت أن يسكون لي حظ من الجهاد والرباط . فركبت البحر من سبتة ، فوصلت الى بلاد الأندلس ، حرسها الله تعالى ، حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مذخور للمقيم والظاعن .

وكان ذلك اثر موت طاغية الروم الفونس ، وحصاره الجبل عشرة شهور ، وظنه أنه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين . فأخذه الله من حيث لم يحتسب ، بالوباء الذي كان أشد الناس خوفا منه .

وأول بلد شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح . فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندي ، وقاضيه عيسى البربري ، وعنده نزلت . وتطوفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بني به مولانا أبو الحسن رضي الله عنه ، وأعد فيه من العدد ، وما زاد على ذلك مولانا أيده الله . ووددت لو كنت ممن رابط به الى نهاية العمر .

***

قال ابن جزي : جبل الفتح هو معقل الاسلام ، المعترض شجا في حلوق عبدة الأصنام ، حسنة مولانا أبي الحسن رضي الله عنه المنسوبة اليه ، وقربته التي قدمها نورا بين يديه ، محل عدد الجهاد ، ومقر آساد الأجناد ، والثغر الذي افتر عن نصر الايمان ، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان .

ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر . وبه نزل طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه ، فنسب اليه ، فيقال له : جبل طارق ، وجبل الفتح ، لأن مبدأه كان منه .

وبقايا السور الذي بناه ومن معه باقية الى الآن ، تسمى بسور العرب . شاهدتها أيام اقامتي به عند حصار الجزيرة ، أعادها الله .

ثم فتحه مولانا أبو الحسن ، رضوان الله عليه ، واسترجعه من أيدي الروم ، بعد تملكهم له عشرين ونيفا . وبعث الى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك ، وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارة . وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر . وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

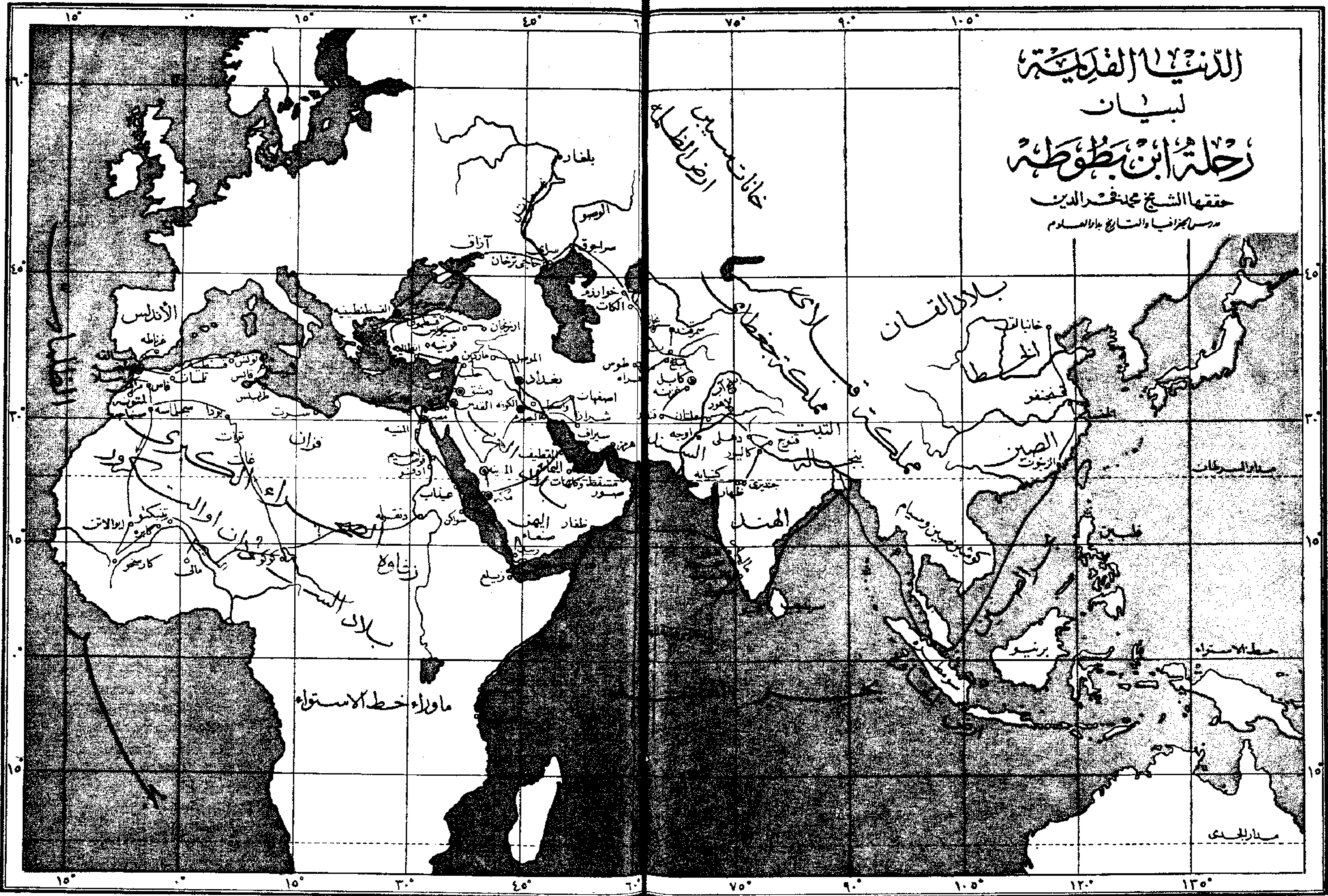
ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه . فبني به مولانا أبو الحسن رحمة الله تعالى عليه المأثرة العظمى بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا ، تهدم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه . وبنى به دار الصناعة ، ولم يكن به دار صنعة . وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء ، الآخذ من دار الصنعة الى القرمدة [1] .

ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه ، وزاد بها بناء السور بطرف الفتح . وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا . وبعث اليه العدد الوافرة ، والأقوات والمرافق العامة . وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص .

ولما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين ، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله ، وثمرة توكله في أموره على الله ، وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية .

---

(١) المراد بالقرمدة : مصنع القراميد .



الدنيا القديمة
لبيان
رحلة ابن بطوطة
مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
الأندلس
غرناطة
تونس
تلمسان
فاس
طرابلس
سجلماسة
فزان
القسطنطينية
دمشق
بغداد
اصفهان
شيراز
طوس
خوارزم
سمرقند
كابل
بلغار
آزاق
لاهور
دهلي
قنوج
التبت
الهند
الصين
بلاد القان
اليمن
صنعاء
ظفار
زيلع
عيذاب
سواكن
مالي
برنيو
مدار السرطان
خط الاستواء
ماوراء خط الاستواء
مدار الجدي

وذلك أن عامل الجبل الخائن ، الذى ختم له بالشقاء ، عيسى بن الحسن بن أبى منديل ، نزع يده المغلولة عن الطاعة ، وفارق عصمة الجماعة ، وأظهر النفاق ، وجمع فى الغدر والشقاق ، وتعاطى ما ليس من رجاله ، وعمى عن مبدأ حاله السيء ومآله .

وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تنفق على اطفائها كرائم الأموال ، ويستعد لاتقائها بالفرسان والرجال . فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم ، وقضى صدق يقينه بانخراق العادة فى هذه الفتنة . فلم تكن الا أيام يسيرة حتى راجع أهل الجبل بصائرهم ، وثاروا على الثائر ، وخالفوا الشقى المخالف ، وقاموا بالواجب من الطاعة ، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق ، وأتى بهما مصفدين الى الحضرة العلية ، فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين ، وأراح الله من شرهما .

ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن فى حساب أهلها ، وبعث الى جبل الفتح ولده الأسعد ، المبارك الأرشد ، أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد ، أسعده الله تعالى . وبعث معه أنجاد الفرسان ، ووجوه القبائل وكفاة الرجال ، وأدر عليهم الأرزاق ، ووسع لهم الاقطاع ، وحرر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الاحسان .

وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكله ، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ، ودارصنعته ومساجده ، ومخازن عدده وأهراء[1] زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ...

فصنع ذلك فكان شكلا عجيبا ، أتقنه الصناع اتقانا ، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال . وما ذلك الا لتشوقه أيده الله الى استطلاع أحواله ، وتهممه بتحصينه واعداده . والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه ، ويحقق ما يؤمله فى الفتح .

***

قال ابن جزى : ولنعد الى كلام الشيخ أبى عبد الله ، قال : ثم خرجت من جبل الفتح الى مدينة رندة ، وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا . وكان قائدها اذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرى ، وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ولقيت بها الفقيه القاضى الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى ، وأضافنى بمنزله . ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا اسحاق ابراهيم المعروف بالشندرخ ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب . ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفار وسواه . وأقمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت الى مدينة مربلة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة . ومربلة بليدة حسنة خصبة . ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين الى مالقة ، فأردت التوجه فى صحبتهم . ثم ان الله تعالى عصمنى بفضله ،

(1) جمع هرى ، وهو البيت العظيم تجمع فيه غلات السلطان .م

فتوجهوا قبلي فأسروا في الطريق ، كما سنذكره .

وخرجت في اثرهم ، فلما جاوزت حوزمربلة ودخلت في حوز سهيل ، مررت بفرس ميت في بعض الخنادق . ثم مررت بقفة سمك مطروحة بالأرض ، فرابني ذلك وكان أمامي برج الناظور [1] .

فقلت في نفسي : لو ظهر ها هنا عدو لأنذر به صاحب البرج .

ثم تقدمت الى دار هنالك فوجدت عليها فرسا مقتولا . فبينما أنا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفي ، وكنت قد تقدمت أصحابي، فعدت اليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل ، فأعلمني أن أربعة « أجفان » للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها الى البر . ولم يكن « الناظور » بالبرج ، فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة ، وكانوا اثني عشر ، فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد وأسر العشرة ، وقتل معهم رجل حوات ، وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض .

وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ، ليوصلني منه الى مالقة . فبت عنده بحصن الرابطة ، والأجفان المذكورة مرساة عليه . وركب معي بالغد فوصلنا الى مدينة مالقة ، احدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير . ورمانها الياقوتي لا نظير له في الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب .

***

قال ابن جزى : والى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي في قوله ، وهو من مليح التجنيس :

مالقة حييت ياتينها
فالفلك من أجلك ياتينها

نهى طبيبي عنك في علة
ما لطبيبي عن حياتي نهى

***

وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها الى أقاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له في الحسن ، فيه أشجار النارنج البعيدة [1] .

ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولي الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي ، قاعدا بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجمعون مالا برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم . فقلت له : الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم . وأخبرته بما اتفق لي بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث الي بالضيافة ، رحمه الله .

ثم سافرت منها الى مدينة بلش ، وبينهما أربعة وعشرون ميلا . وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب ، وفيها الأعناب والفواكه والتين ، كمثل ما بمالقة .

(1) الناظور هو حافظ الكرم والنخل ، وكذا الناطور . ولكن المراد هنا من يشرف من مكان عال لينظر عن بعد ، وهو بهذا المعنى غير عربي .

(1) العالية .

ثم سافرنا منها الى الحمة [1] وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء ، وبها العين الحارة على ضفة واد بها . وبينها وبين البلد ميل أو نحوه . وهنالك بيت لاستحمام الرجال ، وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافرت منها الى مدينة غرناطة ، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها . وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقه نهر شنيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة . والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة

ومن عجيب مواضعها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، لا مثل لها بسواها .

***

قال ابن جزى : لولا خشيتي أن أنسب الى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه . ولله در شيخنا أبي بكر محمد ابن أحمد بن شيرين السبتي نزيل غرناطة ، حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبوأ
يسر حزينا أو يجير طريدا

تبرم منها صاحبي عندما رأى
مسارحها بالثلج عدن جليدا

هي الثغر صان الله من أهلت به [2]
وما خير ثغر لا يكون برودا

ذكر سلطانها

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي اليها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن السلطان أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر . ولم ألقه بسبب مرض كان به . وبعثت الي والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقت بها .

ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها ، منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي ، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البياني ، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب . ومنهم قاضي الجماعة ،نادرة العصر وطرفة الدهر ، أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي البلعبعي ، قدم عليها من المرية في تلك الأيام ، فلقيته في بستان الفقيه أبي القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم . وأقمنا هنالك يومين وليلة .

***

قال ابن جزى : كنت معهم في ذلك البستان ، ومتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة .

وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة ، منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن ، أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي .

وهذا الفتى أمره عجيب ، فانه نشأ بالبادية، ولم يطلب العلم . ثم انه نبغ في الشعر الجيد ،

(1) الحمة العين الحارة يستسقى بها الاعلاء والمرضى... « ياقوت » . وقد سميت بها البلد ، للعين الحارة التي بها .
(2) أهلت به : قالت له اهلا »

الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة ، مثل قوله :

يا من اختار فـؤادى منزلا
بابه العـين التى ترمقـه
فتح الباب سهادى بعدكم
فابعثوا طيفـكمو يغلقـه

***

ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصـوفين بها ، الفقيه أبا على عمر ابن الشيخ الصالح الولى ، أبى عبـد الله محمـد بن المحروق . وأقمت أياما بزاويته التى بخـارج غرناطة ، وأكرمنى أشد الاكرام . وتوجهت معـه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة ، المعروفة برابطة العقاب . والعقاب جبـل مطـل على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمانية أميال .

وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم .

ثم رحلت من غرناطة الى الحمـة ، ثم الى بلش ، ثم الى مالقة ، ثم الى حصن ذكوان ، وهو حصـن حسن كثير الميـاه والأشـجار والفواكه .

ثم سافرت منه الى رندة ، ثم الى قرية بنى رياح ، فأنزلنى شيخنا أبو الحسن عـلى بن سليمان الرياحى ، وهو أحد كرماء الرجـال وفضلاء الأعيـان ، يطعم الصـادر والوارد ، وأضافنى ضيافة حسنة .

ثم سافرت الى جبل الفتح . وركبت البحر فى الجفن الذى جزت فيه أولا . فوصلت الى سبتة . ثم سافرت منها الى أصيلا ، وأقمت بها شهورا . ثم سافرت منها الى مدينة سلا .

ثم سافرت من سـلا فوصلت الى مـدينة مراكش ، وهى من أجمـل المدن ، فسـيحة الأرجاء ، متسعة الأقطار ، كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة ، كمسـجدها الأعظـم المعروف بمسجد الـكتبيين . وبه الصومعـة الهائلة العجيبة ، صعدتها وظهر لى جميع البلد منها . وقد استولى عليه الخراب ، فما شبهته الا ببغداد ، الا أن أسواق بغداد أحسن .

وبمراكش المدرسـة العجيبة ، التى تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة . وهى من بنـاء الامام مـولانا أمير المسـلمين أبى الحسن ، رضوان الله عليه .

***

قال ابن جزى : فى مراكش يقـول قاضيها التاريخى ، أبو عبد الله محمد بن عبـد الملك الأوسى :

لله مـراكش الغراء من بلـد
وحبذا أهلها السـادات من سكن
ان حلها نازح الأوطان مغترب
أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها
ينشا التحاسد بين العين والأذن

ثم سـافرنا من مراكش فى صحبة الركاب العلى ، ركاب مولانا أيده الله ، فوصـلنا الى مدينة سلا ، ثم الى مدينة مكناسة العجيبـة الخضرة النضرة ، ذات البساتين والجنـات ، المحيطة بها من جميع نواحيها . ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى ، فودعت بهـا مولانا أيده الله .

وتوجهت للسـفر الى بـلاد السـودان ، فوصلت الى مدينة سجلماسة ، وهى من أحسن المدن ، وبها التمر الكثير الطيب . وتشبههـا مدينـة البصرة فى كثرة التمـر ، لـكن تمر سجلماسة أطيب .

ونزلت منها عند الفقيه أبى محمد اليشرىّ ، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين ، فأكرمنى غاية الاكرام . واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر .

ثم سافرت فى غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين ، فى رفقة مقدمها أبى محمد يندكان المسوفى رحمه الله . وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم . فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما الى تغازا ، وهى قرية لا خير فيها .

ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجمال . ولا شجر بها ، وانما هى رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه فى الأرض ، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة ، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين .

ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح . ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ، ومن لحوم الجمال .

ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح . وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة . يقطعونه قطعا ويتبايعون به .

وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . وأقمنا بها عشرة أيام فى جهد . لأن ماءها زعاق [1] ، وهى أكثر المواضع ذبابا . ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها ، وهى مسيرة عشر لا ماء فيها الا فى النادر . ووجدنا نحن بها ماء كثيرا فى غدران أبقاها المطر . ولقد وجدنا فى

(1) ملح .

بعض الأيام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب ، فروينا منه وغسلنا ثيابنا .

وكنا فى تلك الأيام نتقدم أمام القافلة ، فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعى رعينا الدواب به . ولقد لقينا قافلة فى طريقنا ، فأخبرونا أن بعض الرجال انقطوا عنهم ، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه وفى يده سوط . وكان الماء على نحو ميل منه .

ثم وصلنا الى تاسرهلا ، وهى أحساء [1] ماء تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ، ويصلحون أسقيتهم ويملئونها بالماء ، ويخيطون عليها التلاليس [2] خوف الريح . ومن هنالك يبعث التكشيف .

ذكر « التكشيف »

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم الى « ايوالاتن » بكتب الناس الى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع . ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن ، كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها ، فيشاركه فى ذلك .

وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة ، فيهلك أهلها أو الكثير منهم .

وتلك الصحراء كثيرة الشياطين ، فان كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته ، حتى يضل عن قصده فيهلك [3] ، اذ لا طريق يظهر بها ولا أثر ، وانما هى رمال تسفيها الريح ،

(1) جمع حسى ، وهو سهل من الارض يستنقع فيه الماء .

(2) جمع تليسة ، وهو وعاء يسوى من الخوص .

(3) هكذا اعتقادهم . ويظهر انه نشأ عندهم من كثر ما فى هذه الصحراء من المخاوف .

فترى جبالا من الرمل فى مكان ، ثم تراها قد انتقلت الى سواه .

والدليل هنالك من كثر تردده ، وكان له قلب ذكى . ورأيت من العجائب أن الدليل الذى كان لنا أعور العين الواحدة ، مريض الثانية . وهو أعرف الناس بالطريق .

واكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب ، وهو من مسوفة وفى ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا ، فاستبشرنا بذلك .

وهذه الصحراء منيرة مشرقة ، ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس . وهى آمنة من السراق . والبقر الوحشية بها كثيرة ، يأتى القطيع منها حتى يقرب من الناس ، فيصطادونه بالكلاب والنشاب . لكن لحمها يولد أكله العطش ، فيتحاماه كثير من الناس لذلك .

ومن العجائب أن هذه البقر اذا قتلت وجد فى كروشها الماء . ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ، ويشربون الماء الذى فيه .

والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة .

ولما وصل الينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا . ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عهدنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونسرى الليل كله ، وننزل عند الصباح . وتأتى الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهما بأحمال الماء للبيع .

ثم وصلنا الى مدينة « ايوالاتن » فى غرة شهر ربيع الأول ، بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة . وهى أول عمالة السودان ، ونائب السلطان بها فربا حسين (وفربا معناه النائب) .

ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رحبة ، وتكفل السودان بحفظها . وتوجهوا الى الفربا ، وهو جالس على بساط فى سقيف ، وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسى ، وكبراء مسوفة من ورائه . ووقف التجار بين يديه ، وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم . فعند ذلك ندمت على قدومى بلادهم ، لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض .

وقصدت دار ابن بداء ، وهو رجل فاضل من أهل سلا ، كنت كتبت له أن يكترى لى دارا ففعل ذلك .

ثم ان مشرف ايوالاتن ، ويسمى منشاجو ، استدعى من جاء فى القافلة الى ضيافته ، فأبيت حضور ذلك . فعزم الأصحاب على أشد العزم ، فتوجهت فيمن توجه . ثم أتى بالضيافة ، وهى جريش مخلوط بيسير عسل ولبن ، قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الجفنة . فشرب الحاضرون وانصرفوا .

فقلت لهم : ألهذا دعانا الأسود ؟

قالوا : نعم ، وهو الضيافة الكبيرة عندهم !

فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم ، وأردت أن أسافر مع حجاج ايوالاتن ، ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم . وكانت اقامتى بايوالاتن نحو خمسين يوما ، وأكرمنى أهلها وأضافونى .

وبلدة ايوالاتن شديدة الحر . وفيها يسير نخيلات يزدرعون فى ظلالها البطيخ . وماؤهم من أحساء بها . ولحم الضأن كثير بها . وثياب أهلها حسان مصرية . وأكثر السكان بها من مسوفة . ولنسائها الجمال الفائق . وهن أعظم شأنا من الرجال .

ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن

وشأن هؤلاء عجيب ، وأمرهم غريب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم . ولا ينسب أحدهم الى أبيه ، بل ينتسب لخاله . ولا يرث الرجل الا أبناء أخته دون بنيه . وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا ، الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات ، وتعلم الفقه وحفظ القرآن .

وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن ، مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج . ولو أرادت احداهن ذلك لمنعها أهلها .

ولما عزمت على السفر الى « مالى » وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمجد ، اكتريت دليلا من مسوفة ، وخرجت فى ثلاثة من أصحابى .

وتلك الطريق كثيرة الأشجار . وأشجارها عادية ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجرة منها . وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ، ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان .

وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها ، واستنقع فيه ماء المطر ، فكأنها بئر . ويشرب الناس من الماء الذى فيها . ويكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها .

ولقد مررت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا وهو ينسج ، فعجبت منه !

وفى أشجار هذه الغابة التى بين ايوالاتن ومالى ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش ، وليست بها . وفيها أشجار تثمر شبه الفقوص [1] فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق ، فيطبخونه ويأكلونه ، ويباع بالأسواق .

ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها . وطعمها كطعم الحمص المقلو . وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه « بالغرتى » ، وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة .

ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع : فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ، ويقلون به هذا الاسفنج ، ويدهنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير .

وهو عندهم كثير متيسر ، ويحمل من بلد الى بلد فى قرع كبار ، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا .

والقرع ببلاد السودان يعظم . ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين ، فيصنعون منها جفنتين ، وينقشونها نقشا حسنا . واذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه ، يحملون فرشه وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها . وهى من القرع .

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما ، وانما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج ، وبعض السلع العطرية ، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكا . فاذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق اللوبيا ، فيشترى منهن ما أحب من ذلك .

---

(1) الفقوصة : البطيخة قبل النضج ، معربة ... « القاموس » . والذى يظهر انه نوع غير البطيخ .

وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغرى ، وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ، ويسكن معهم جماعة من البيض .

ثم سرنا من زاغرى ، فوصلنا الى النهر الأعظم وهو النيل ، وعليه بلدة كارسخو . والنيل ينحدر منها الى كابرة ، ثم الى زاغة . ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى . وأهل زاغة قدماء فى الاسلام ، ولهم ديانة وطلب للعلم .

ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ، ثم الى كوكو ، وسنذكرهما ، ثم الى بلدة مولى من بلاد الليميين ، وهى آخر عمالة مالى ، ثم الى يوف ، وهى من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ، ولا يدخلها الأبيض من الناس ، لأنهم يقتلونه قبل الوصول اليها .

ثم ينحدر الى بلاد النوبة ، وهم على دين النصرانية . ثم الى دنقلة وهى أكبر بلادهم ، وسلطانها يدعى بابن كنز الدين ، أسلم على أيام الملك الناصر .

ثم ينحدر الى جنادل ، وهى آخر عمالة السودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر .

ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير . ولقد نزلت يوما الى النيل لقضاء حاجة ، فاذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بينى وبين النهر ، فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه ، وذكرت ذلك لبعض الناس . فقال : انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح ، فحال بينك وبينه .

ثم سرنا من كارسخو ، فوصلنا الى نهر صنصرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالى . وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها الا بالاذن . وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض ليكتروا لى دارا .

فلما وصلت الى هذا النهر جزت فى « المعدية » ولم يمنعنى أحد ، فوصلت الى مدينة مالى حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها . ووصلت الى محلة البيض ، وقصدت محمد بن الفقيه الجزولى . فوجدته قد اكترى لى دارا ازاء داره ، فتوجهت اليها ، وجاء صهره الفقيه المقرىء عبد الواحد بشمعة وطعام ، ثم جاء ابن الفقيه الى من الغد .

ولقيت القاضى بمالى عبد الرحمن ، جاءنى، وهو من السودان ، حاج فاضل له مكارم أخلاق ، بعث الى بقرة فى ضيافته ، ولقيت الترجمان دوغا ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم ، وبعث الى بثور . وبعث الى الفقيه عبد الواحد غرارتين من « الفونى » وقرعة من « الغرتى » . وبعث الى ابن الفقيه الأرز والفونى . وقاموا بحقى أتم قيام . شكر الله حسن أفعالهم .

وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان ، فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره . وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس ، يسمى القافى — وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام — فأصبحنا جميعا مرضى ، وكنا ستة ، فمات أحدنا . وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشى على فيها .

وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا ، فأتى بشيء يسمى « بيدرا » ، وهو عروق

نبات ، وخلطه بالأنيسون والسكر ، ولته بالماء ، فشربته وتقيأت ما أكلته ، مع صفراء كثيرة . وعافاني الله من الهلاك ، ولكنى مرضت شهرين .

ذكر سلطان مالي

وهو السلطان منسا سليمان ، ومنسا معناه السلطان ، وسليمان اسمه . وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء . واتفق أنى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي . ثم صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبى الحسن رضى الله عنه ، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب . وحضرت معهم . فأتوا بالربعات [1] ، وختم القرآن . ودعوا لمولانا أبى الحسن رحمه الله ، ودعوا لمنسا سليمان .

ولما فرغ من ذلك ، تقدمت فسلمت على منسا سليمان ، وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم ، فقالوا لى : يقول لك السلطان : اشكر الله .

فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعث الى الضيافة ، فوجهت الى دار القاضي ، وبعث القاضي بها مع رجاله الى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافى القدمين ، فدخل على وقال : قم ، قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقمت ، وظننت أنها الخلع والأموال ، فاذا هى ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحم بقرى

(1) الربعة أجزاء المصحف الشريف مجموعة فى وعاء أو صندوق ، وهى تسمية عرفية . واصل الربعة جؤنة العطار ، وهى سلة صغيرة مغشاة بالجلد يوضع فيها العطر .

مقلوة بالغرتى ، وقرعة فيها لبن رائب . فعندما رأيتها ضحكت ، وطال تعجبى من ضعف عقولهم ، وتعظيمهم للشىء الحقير .

ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك واحسانه الى

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل الى فيهما شىء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان . وكنت فى خلال ذلك أتردد الى « المشور » ، وأسلم عليه ، وأقعد مع القاضي والخطيب . فتكلمت مع دوغا الترجمان ، فقال : تكلم عنده ، وأنا أعبر عنك بما يجب . فجلس فى أوائل رمضان ، وقمت بين يديه ، وقلت له : انى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ، ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئا . فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟

فقال : انى لم أرك ولا علمت بك . فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا : انه قد سلم عليك ، وبعثت اليه الطعام . فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة تجرى على . ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالا ، ليلة سبع وعشرين من رمضان ، يسمونه الزكاة . وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا ، وأحسن الى عند سفرى بمائة مثقال ذهبا .

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة « المشور » طيقان ثلاثة من الخشب ، مغشاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ، أو هى فضة مذهبة ، وعليها ستور « ملف » .

فاذا كان يوم جلوسه بالقبة ، رفعت الستور فعلم أنه يجلس . فاذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان « شرابة » حرير ، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم .

فاذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق .

ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد ، فى أيدى بعضهم القسى ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة . ويجلس أصحاب القسى كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان ، يذكرون أنهما ينفعان من العين !

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قنجا موسى . وتأتى « الفرارية » ، وهم الأمراء . ويأتى الخطيب والفقهاء ، فيقعدون أمام « السلحدارية » يمنة ويسرة فى « المشور » .

ويقف دوغا الترجمان على باب « المشور » وعليه الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه عمامة ذات حواش ، لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفا غمده من الذهب ، وفى رجله الخف والمهاميز . ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره . ويكون فى يده رمحان صغيران ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة ، وسناهما من الحديد .

ويجلس الأجناد والولاة والفتيان وغيرهم فى خارج « المشور » ، فى شارع هنالك متسع فيه أشجار . وكل « فرارى » بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والأطبال والأبواق (وأبواقهم من أنياب الفيلة) ، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، ولها صوت عجيب . وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة وركبان .

ويكون بداخل « المشور » تحت الطيقان رجل واقف : فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ، ويكلم دوغا ذلك الواقف ، ويكلم الواقف السلطان .

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضا فى بعض الأيام « بالمشور » . وهنالك مصطبة تحت شجرة ، لها ثلاث درجات يسمونها « البنبى » ، تفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ، ويرفع « الشطر » وهو شبه قبة من الحرير ، وعليه طائر من ذهب على قدر البازى .

ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر ، وقوسه بيده ، وكنانته بين كتفيه . وعلى رأسه « شاشية » ذهب ، مشدودة بعصابة ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاق ، طولها أزيد من شبر . وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة [1] من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس .

ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر [2] الذهب والفضة . وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح .

ويمشى مشيا رويدا ، ويكثر التأنى . وربما وقف ينظر الى الناس . ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر .

وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار . ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين ،

---

(١) ذات وبر .

(٢) المراد من قنابر الذهب هنا غير ظاهر ، ويحتمل أن يكون المراد صورا من الذهب على شكل هذا الطائر المعروف وهو القبرة ، ويسمى ايضا القنبراء ، والجمع قنابر .

فيدعون النائب « والفرارية » ، فيدخلون ويجلسون . ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما . ويقف دوغا على الباب ، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار .

ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له
وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم ، وأشدهم تذللا له ، ويحلفون باسمه . فاذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها ، نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا أخلاقا ، ونزع عمامته وجعل « شاشية » وسخة ، ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه ، وتقدم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض بمرفقيه ضربا شديدا ، ووقف كالراكع يسمع كلامه .

واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ، ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم .

واذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام .

وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ، ويقول : فعلت كذا يوم كذا ، وقتلت كذا يوم كذا ، فيصدقه من علم ذلك . وتصديقهم أن ينزع [1] أحدهم فى قوسه ، ثم يرسلها كما يفعل اذا رمى . فاذا قال له السلطان : صدقت ، أو شكره ، نزع ثيابه وترب . وذلك عندهم من الأدب .

***

قال ابن جزى : وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزه الله ، أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسا سليمان الى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه ، كان اذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب ، فيترب اذا قال له مولانا كلاما حسنا ، كما يفعل ببلاده !

ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه

وحضرت بمالى عيدى الأضحى والفطر ، فخرج الناس الى المصلى ، وهو قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان . وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان الا فى العيد ، ما عدا القاضى والخطيب والفقهاء ، فانهم يلبسونه فى سائر الأيام .

وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان ، وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير . ونصب عند المصلى خباء ، فدخله السلطان وأصلح من شأنه . ثم خرج الى المصلى ، فقضيت الصلاة والخطبة . ثم نزل الخطيب ، وقعد بين يدى السلطان ، وتكلم بكلام كثير . وهنالك رجل بيده رمح ، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب ، وذلك وعظ وتذكير ، وثناء على السلطان ، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه .

ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على « البنبى » ، وتأتى « السلحدارية » بالسلاح العجيب ، من تراكش الذهب والفضة ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وأغمادها منه ، ورماح الذهب والفضة ، ودبابيس البلور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب ، وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج .

(1) نزع فى قوسه مدها استعدادا للرمى .

ويجلس « القَرارية » والقـاضى والخَطيب على العـادة . ويأتى دوغا الترجمان بنسـائه الأربع وجـواريه وهن نحـو مائة ، وعليهن الملابس الحسـان ، وعلى رؤوسهم عصـائب الذهب والفضة ، وفيها تفافيح ذهب وفضة .

وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه ، ويضرب آلة من قصب وتحتها قريعات . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله ، وتغنى النسـاء والجـوارى معـه ، ويلعبن بالقسى ، ويكـون معهـن نحـو ثلاثين من غلمانه ، عليهم جباب « الملف » الحمر ، وفى رؤوسهم « الشواشى » البيض . وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه .

ثم يأتى أصـحابه من الصـبيان فيلعبـون ويتقلبون فى الهـواء . ولهم فى ذلك رشـاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب . ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا . وعنـد ذلك يأمر السلطان له بالاحسان ، فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر . ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس .

ويقوم « الفرارية » فينزعون فى قسـيهم شكرا للسلطان . وبالغد يعطى كل واحد منهم دوغا عطاء على قدره . وفى كل يوم جمعة بعد العصر ، يفعل دوغا مثل هذا الذى ذكرناه .

ذكر الأضحوكة فى انشاد الشعراء للسلطان

واذا كان يوم العيد وقد أتم دوغا لعبـه ، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه الشقشاق[1] ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشقشـاق . ويقفـون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضـحكة فينشـدون أشعارهم .

وذكر لى أن شـعرهم نوع من الـوعظ يقولون فيه للسلطان : ان هـذا « البنبى » الذى تجلس عليـه ، جلس فـوقه من الملوك فلان ، وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا . فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك .

ثم يصعد كبير الشعراء على درج «البنبى» ، ويضع رأسه فى حجر السلطان ، ثم يصعد الى أعلى « البنبى » ، فيضع رأسـه عـلى كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهـو يتكلم بلسانهم . ثم ينزل .

وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام ، فاستمروا عليه .

حـكاية

وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم ، وكان قدم من بلاد بعيدة ، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا ، فقام القاضى فصدقه ، ثم صدقهما السلطان . فوضـع كل واحد منهما عمامته عن رأسه ، وترب بين يديه .

وكان الى جانبى رجل من البيض فقال لى : أتعرف ما قالوه ؟

فقلت : لا أعرف .

فقـال : ان الفقيه أخبر أن الجـراد وقـع ببلادهم ، فخرج أحد صلحائهم الى موضـع الجراد ، فهاله أمره فقال : هذا جراد كثير . فأجابته جرادة منها وقالت : ان البـلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها .

(1) لم نجد الشقشاق فيما بين أيدينا من المراجع . ولعله يريد الشقراق ، طائر مرقط بحمرة وخضرة وبياض .

فصدقه القاضي والسلطان ، وقال عند ذلك للأمراء : انى برىء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمني به ، فذنوب ذلك الظالم فى عنقه ، والله حسيبه وسائله .

ولما قال هذا الكلام ، وضع « الفرارية » عمائمهم عن رؤوسهم ، وتبرءوا من الظلم .

حكاية

وحضرت الجمعة يوما ، فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ، ويسمى بأبى حفص ، فقال : يا أهل المسجد ، أشهدكم أن منسا سليمان فى دعوتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

فلما قال ذلك ، خرج اليه جماعة رجال من مقصورة السلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئا ؟ فقال : منشاجو ايوالاتن ، يعنى مشرفها ، أخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطينى فى مقابلته مائة مثقال .

فبعث السلطان اليه للحين ، فحضر بعد أيام ، وصرفهما للقاضى ، فثبت للتاجر حقه فأخذه . وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله .

حكاية

واتفق فى أيام اقامتى بمالى أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ، ومعنى قاسا عندهم الملكة . وهى شريكته فى الملك ، على عادة السودان ، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر ، وسجنها عند بعض « الفرارية » ، وولى فى مكانها زوجته الأخرى بنجو ، ولم تكن من بنات الملوك . فأكثر الناس الكلام فى ذلك ، وأنكروا فعله . ودخلت بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة ، فجعلن الرماد على أذرعهن ، ولم يترين رؤوسهن .

ثم ان السلطان سرح قاسا . فدخلت عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح ، وترين على العادة . فشكت بنجو الى السلطان . فغضب على بنات عمه ، فخفن منه واستجرن بالجامع . فعفا عنهن واستدعاهن ورضى عنهن ، وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام . وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان .

وصارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب ، وتقف عند « المشور » متنقبة لا يرى وجهها . وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها . فجمعهم السلطان فى « المشور » ، وقال لهم دوغا على لسانه : انكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا ، وانها أذنبت ذنبا كبيرا . ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة ، فقيل لها : تكلمى بما عندك . فأخبرت أن قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان ، الهارب عنه الى كنبرنى ، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه ، وقالت له : أنا وجميع العساكر طوع أمرك .

فلما سمع الأمراء ذلك قالوا : ان هذا ذنب كبير وهى تستحق القتل عليه .

فخافت قاسا ذلك ، واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد . وان لم يمكن فبدار الخطيب .

وكان السودان يكرهون منسا سليمان لبخله . وكان قبله منسا مغا ، وقبل منسا مغا منسا موسى ، وكان كريما فاضلا يحب البيض ويحسن اليهم . وهو الذى أعطى أبا اسحاق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال .

(1) يريد أن يحتكم معه الى النبى عليه السلام .

وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى مدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد .

حكاية

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن ، كان قد أحسن الى السلطان منسا موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث مثقال ، وهو يومئذ صبي . ثم اتفق أن جاء اليه في خصومة وهو سلطان ، فعرفه وأدناه منه ، حتى جلس معه على « البنبى » ، ثم قرره على فعله معه ، وقال للأمراء : ما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟

فقالوا له : الحسنة بعشرة أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالا .

فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما ، وأمره ألا ينقطع عنه .

وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن ، وهو من الطلبة ، يعلم القرآن بمالي .

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان
وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه .

ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا .

ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقنطرة ، وانما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه .

ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد ، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام .

ومن عادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته ، فيبسطها له بموضع يستحقه ، حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له .

ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم . وهم يجعلون لأولادهم القيود ، اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضي يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت له : ألا تسرحهم ؟

فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن .

ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عني الشاب وضحك . وقيل لي : انما قيد حتى يحفظ القرآن .

ومن مساوىء أفعالهم أن الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا ، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فان عادة « الفرارية » أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه ، وهن عرايا .

ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا .

ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في انشاد الشعراء .

ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير .

ذكر سفرى عن مالى

وكان دخولى اياها فى الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ، وخروجى عنها فى الثانى والعشرين للمحرم سنة أربع وخمسين . ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب ، وقصدنا طريق ميمة . وكان لى جمل أركبه ، لأن الخيل غالية الأثمان ، يساوى أحدها مائة مثقال . فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل ، لا يجاز الا فى المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض ، فلا يمر أحد به الا بالليل ، ووصلنا الخليج ثلث الليل . والليل مقمر .

ذكر الخيل التى تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فعجبت منها وظننتها فيلة ، لكثرتها هنالك . ثم انى رأيتها دخلت فى النهر ، فقلت لأبى بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب ؟

فقال : هى خيل البحر ، خرجت ترعى فى البر .

وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ، ورؤوسها كرؤوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو الى كوكو ، وهى تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ . وخافها أهل المركب ، فقربوا من البر لئلا تغرقهم .

وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة ، عليها حاكم من السودان ، حاج فاضل يسمى فربا مغا . وهو ممن حج مع السلطان منسا موسى لما حج .

ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج ، فوصلنا الى بلدة قرى منسا . ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه ، فأخبرنى راعيه بذلك فخرجت لأنظر اليه ، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجيف . فبعثت غلامين كنت استأجرتهما لخدمتى ، ليشتريا لى جملا بزاغرى ، وهى على مسيرة يومين .

وقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب ، وتوجه هو لينتظرنا بميمة ، فأقمت سبعة أيام ، أضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة ، حتى وصل الغلامان بالجمل .

ثم سافرنا الى مدينة تنبكتو . وبينها وبين النيل أربعة أميال . وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام .

وحاكمها يسمى فربا موسى ، حضرت عنده يوما وقد قدم أحد أهل مسوفة أميرا على جماعة ، فجعل عليه ثوبا وعمامة وسراويل كلها مصبوغة ، وأجلسه على درقة [1] ، ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم .

وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبى اسحاق الساحلى الغرناطى . وبها قبر سراج الدين بن الكويك ، أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية .

ومن تنبكتو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكنا ننزل كل ليلة بالقرى ، فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن ، بالملح وبالعطريات وبحلى الزجاج .

ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه ، له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان ، مشهور بالشجاعة والشدة ، لا يتعاطى أحد النزع فى

(1) الدرقة الترس .

قوسه [1] . ولم أر فى السودان أطول منه ولا أضخم جسما .

واحتجت بهذه البلدة الى شىء من الذرة فجئت اليه ، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى .

وكان معه فقيه يكتب له ، فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه : يا فقيه ، قل لهذا الأمير انا نحتاج الى شىء من الذرة للزاد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ، ويكلم الأمير فى ذلك بلسانه . فقرأه جهرا ، وفهمه الأمير ، فأخذ بيدى وأدخلنى الى « مشوره » ، وبه سلاح كثير من الدرق والقسى والرماح . ووجدت عنده كتاب « المدهش لابن الجوزى » ، فجعلت أقرأ فيه .

ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو ، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوطا بيسير عسل أو لبن . وهم يشربونه عوض الماء . لأنهم ان شربوا الماء خالصا أضر بهم . وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن . ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه . ودخل غلام ، فدعاه وقال لى : هذا ضيافتك ، فاحفظه لئلا يفر .

فأخذته وأردت الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتى الطعام . وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية ، فكلمتنى بالعربى . فبينما نحن فى ذلك ، اذ سمعنا صراخا بداره ، فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك . فعادت اليه ، فأعلمته أن بنتا له قد توفيت ، فقال : انى لا أحب البكاء ، فتعال نمش الى البحر (يعنى النيل) وله على

(1) ماهر فى الرماية ، فائق فيها .

ساحله ديار . فأتى بالفرس فقال لى : اركب ، فقلت : لا أركبه وأنت ماش .

فمشينا جميعا ، ووصلنا الى دياره على النيل ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وودعته وانصرفت .

ولم أر فى السودان أكرم منه ولا أفضل . والغلام الذى أعطانيه باق عندى الى الآن .

ثم سرت الى مدينة كوكو ، وهى مدينة كبيرة على النيل ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها ، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك . وبها الفقوص العنانى الذى لا نظير له . وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مالى .

وأقمت بها نحو شهر . وأضافنى بها محمد ابن عمر من أهل مكناسة . وكان ظريفا مزاحا فاضلا ، وتوفى بها بعد خروجى عنه . وأضافنى بها الحاج محمد الوجدى التازى ، وهو ممن دخل اليمن .

ثم سافرت منها الى تكدا فى البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين [1] ودليلهم ومقدمهم الحاج وجين ، ومعناه الذئب بلسان السودان .

وكان لى جمل لركوبى وناقة لحمل الزاد .

فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة ، فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه ، فتوزعوا حمله . وكان فى الرفقة مغربى من أهل تادلا ، فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره . وعطش غلامى يوما ، فطلبت منه الماء فلم يسمح به .

ثم وصلنا الى بلاد بردامة ، وهى قبيلة من البربر ، ولا تسير القوافل الا فى خفارتهم .

(1) غدامس بلدة بالمغرب ضاربة فى بلاد السودان ... « القاموس » .

والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل . وهم رحالة لا يقيمون . وبيوتهم غريبة الشكل ، يقيمون أعوادا من الخشب ويضعون عليها الحصر ، وفوق ذلك أعواد مشتبكة ، وفوقها الجلود أو ثياب القطن .

ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صورا ، مع البياض الناصع ، ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السمن . وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة ، يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ ، عند المساء والصباح .

وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء . واجتهدنا فى السير الى أن وصلنا الى مدينة تكدا . ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى . وأضافنى قاضيها أبو ابراهيم اسحق الجاناتى ، وهو من الأفاضل . وأضافنى جعفر بن محمد المسوفى .

وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر . وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها الا يسيرا من القمح يأكله التجار والغرباء . ويباع بحساب عشرين مدا [1] من أمدادهم بمثقال ذهب . ومدهم ثلث المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب .

وهى كثيرة العقارب ، وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ ، وأما الرجال فقلما تقتلهم . ولقد لدغت يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد بن على عند الصبح ، فمات لحينه وحضرت جنازته .

ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة ، يسافرون كل عام الى مصر ، ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولأهلها رفاهية وسعة حال .

ويتفاخرون بكثرة العبيد والخادمات ، وكذلك أهل مالى وايوالاتن . ولا يبيعون المعلمات منهن الا نادرا وبالثمن الكثير .

حكاية

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها . ثم بعث الى القاضى أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا . ثم ان صاحبها ندم ورغب فى الاقالة ، فقلت له : ان دللتنى على سواها أقلتك . فدلنى على خادم لعلى أغيول ، وهو المغربى التادلى ، الذى أبى أن يرفع شيئا من أسبابى [1] حين وقعت ناقتى ، وأبى أن يسقى غلامى الماء حين عطش . فاشتريتها منه وكانت خيرا من الأولى . وأقلت صاحبى الأول .

ثم ندم هذا المغربى على بيع الخادم ، ورغب فى الاقالة وألح فى ذلك ، فأبيت الا أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يجن أو يهلك أسفا . ثم أقلته بعد .

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عنه الأرض ، ويأتون به الى البلد ، فيسبكونه فى دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فاذا سبكوه نحاسا أحمر ، صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة

(1) المد مكيال ، وهو ملء كف الانسان المعتدل ... « القاموس » .

(1) متاعى .

قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال . وهي صرفهم . يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح .

ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر ، من بلاد الكفار ، والى زغاى ، والى بلاد برنو ، وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدا . وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس ، لا يظهر للناس ، ولا يكلمهم الا من وراء حجاب .

ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان ، وبالثياب المجسدة [1] .

ذكر سلطان تكدا

وفى أيام اقامتى بها توجه القاضى أبو ابراهيم ، والخطيب محمد ، والمدرس أبو حفص ، والشيخ سعيد بن على ، الى سلطان تكدا ، وهو بربرى يسمى ازار . وكان على مسيرة يوم منها . ووقعت بينه وبين التكركرى ، وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة ، فذهبوا للاصلاح بينهما .

فأردت أن ألقاه ، فاكتريت دليلا وتوجهت اليه . وأعلمه هؤلاء بقدومى ، فجاء الى راكبا فرسا دون سرج ، وتلك عادتهم . وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة . وعليه ملحفة وسراويل وعمامة ، كلها زرق . ومعه أولاد أخته ، وهم الذين يرثون ملكه ، فقمنا اليه وصافحناه . وسأل عن حالى ومقدمى ، فأعلم بذلك .

وانزلنى ببيت من بيوت اليناطيين ، وهم كالوصفان [1] عندنا ، وبعث برأس شاة مشوى فى السفود ، وقعب [2] من حليب البقر .

وكان فى جوارنا بيت أمه وأخته ، فجاءتا الينا وسلمتا علينا . وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة ، وهو وقت حلبهم . ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو . وأما الطعام [3] فلا يأكلونه ولا يعرفونه .

وأقمت عندهم ستة أيام . وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء . وأحسن الى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب . وانصرفت عنه ، وعدت الى تكدا .

ذكر وصول الأمر الكريم الى

ولما عدت الى تكدا ، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسى ، بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، آمرا لى بالوصول الى حضرته العلية ، فقبلته وامتثلته على الفور ، واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث ، وقصدت السفر الى توات ، ورفعت زاد سبعين ليلة ، اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات . وانما يوجد اللحم واللبن والسمن ، يشترى بالأثواب .

وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان ، سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة ، فيهم جعفر التواتى ، وهو من الفضلاء ، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تكدا . وفى الرفقة نحو ستمائة خادم . فوصلنا الى كاهر ،

(1) مصبوغة بالجسد ، وهو الزعفران .

(1) جمع وصيف ، وهو الخادم ، ولكن الجمع المعول عليه وصفاء .
(2) القعب : القدح الضخم الجافئ .
(3) المقصود بالطعام هنا القمح .

من بلاد السلطان التكركرى . وهى أرض كثيرة الأعشاب ، يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ، ويحمله أهل توات الى بلادهم .

ودخلنا منها فى برية لا عمارة بها ولا ماء ، وهى مسيرة ثلاثة أيام . ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها ، الا أن بها الماء . ووصلنا الى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر ، وطريق توات . وهنالك أحساء ماء يجرى على الحديد ، فاذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه .

وسرنا من هنالك عشرة أيام ، ووصلنا الى بلاد هكار ، وهم طائفة من البربر ملثمون ، لا خير عندهم . ولقينا أحد كبرائهم ، فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها . وكان وصولنا الى بلادهم فى شهر رمضان ، وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل . واذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان ، لم يعرضوا له ... وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر .

وسرنا فى بلاد هكار شهرا ، وهى قليلة النبات ، كثيرة الحجارة ، طريقها وعر . ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء ، فأخبرونا بأخبار بلادنا ، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا ، وسكنوا تسابيت ، من توات . فخاف أهل القافلة ذلك .

ثم وصلنا الى بودا وهى من أكبر قرى توات ، وأرضها رمال وسباخ [1] ، وتمرها كثير ليس بطيب ، لكن أهلها يفضلونه على تمر سلجماسة . ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت . وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد ، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ، ويقتاتون به ، ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس ، فانه لا يطير اذ ذاك لأجل البرد .

وأقمنا ببودا أياما . ثم سافرنا فى قافلة ، ووصلنا فى أوسط ذى القعدة الى مدينة سجلماسة ، وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة ، وذلك أوان البرد الشديد . ونزل بالطريق ثلج كثير . ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك ، فلم أر أصعب من طريق أم جنينة .

ووصلنا ليلة عيد الأضحى الى دار الطمع ، فأقمت هنالك يوم الأضحى . ثم خرجت فوصلت الى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله . فقبلت يده الكريمة ، وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك . وأقمت فى كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل احسانه ، وسابغ امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمتع المسلمين بطول بقائه .

وهاهنا انتهت الرحلة المسماة « تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » . وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة ، عام ستة وخمسين وسبعمائة . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

***

قال ابن جزى : انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه

(1) جمع سبخة ، وهى ارض ذات نز وملح .

الله . ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ، ومن قال رحال هذه الملة ، لم يبعد . ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا ، بعد طول جولانه ، الا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا ، وأعمهم فضائل ، وأكثرهم احسانا ، وأشدهم بالواردين عليه عناية ، وأتمهم لمن ينتمى الى طلب العلم حماية .

فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى ، لأن وفقه فى أول حله وترحاله ، لاستيطان هذه الحضرة ، التى اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاما . انها لنعمة لا يقدر قدرها ، ولا يوفى شكرها . والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقى علينا ظل حرمته ورحمته ، ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين .

اللهم كما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمد لملكه أسباب التأييد والتمكين ، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين ، واجعل الملك فى عقبه الى يوم الدين ، وأره قرة العين فى نفسه وبنيه وملكه ورعيته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وامام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر ، عام سبعة وخمسين وسبعمائة [1] .

(1) الموافق فبراير عام ١٣٥٦ للميلاد .

تم بحمد الله وتوفيقه طبع هذه السلسلة من كتاب التحرير : « رحلة ابن بطوطة » المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، وذلك بشركة الاعلانات الشرقية ، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر .

والى أن نلتقى معكم فى السلسلة الجديدة من الكتاب — فى الأسبوع المقبل باذن الله — نرجو لكم أطيب المنى .

« كتاب التحرير »

فهرس رحلة ابن بطوطة

شركة الاعـلانات الشرقيـة
٢٤ شارع زكريا أحمد — القاهرة

